محمد خليفة

وسقط الطغيان



تقديم

دكتور مراد وهبه

(الطبعة الثانية)

وشـل الطغيـان

وشـــل الطغيـــان

محمد خليفة

تقديم د. مراد وهبه

الطبعة الثانية
(٢٠٠٣)

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب

الكتـــــاب: وَشَــل الطغيان

المؤلــــــف: محمد خليفة

رقــم الإيـداع: ٢٠٢٨٩ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى: ISBN

977 – 303 – 454 – 2

تـاريخ النشــر : ٢٠٠٣



الناشـــــــر: دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

☏٦٣٦٢٥٦٢ — فاكس/ ٢٤٠١٧٤٤

المكتبـــــة :

١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)

☏ ٥٩١٧٥٣٢ / ✉ ١٢٢ (الفجالة)

المطـــابــــع :

مدينة العاشر من رمضان - المنطقة الصناعية (C1)

☏ ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الفهرس

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الثالث : الطغيان في الحكومات الإسلامية

الباب الرابع : أوروبا بين محاكم التفتيش والإصلاح الديني

الباب الخامس : الأنظمة الأيديولوجية والطغيان

تقديم

بقلم: دكتور مراد وهبه

هذا الكتاب « وَشَل الطغيان » من أحدث مؤلفات المفكر الإماراتى محمد خليفة. وأظن أن هذا العنوان غامض بسبب ندرة تداول لفظ "وَشَل". ولهذا فالقارئ مضطر، قبل المضى فى قراءة الكتاب، إلى الاستعانة بمعجم لغوى، وليكن "المعجم الوسيط" الصادر عن مجمع اللغة العربية. ففى جزئه الثانى ورد معنى اللفظ على النحو الآتى:

"يقال وَشَل الماء، أى قلّ، ووشل فلان، أى ضعف وافتقر واحتاج". واستناداً إلى هذا التحديد اللغوى يكون عنوان الكتاب، إن شئنا وشاء معنا المؤلف "ضعف الطغيان"، ومن ثم يبين التناقض الذى ينطوى عليه عنوان الكتاب.

والتناقض على ضربين:

تناقض يقال عنه إنه صورى كشف عنه أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)، وهو يعنى نفى أحد الطرفين المتناقضين. وتناقض آخر يقال عنه إنه تناقض ديالكتيكى كشف عنه هيجل (١٧٧٠-١٨٣١)، وهو يعنى أن أحد طرفىْ التناقض يولّد نقيضه، ومن ثم تكون المهمة بعد ذلك رفع التناقض وذلك بالتأليف بين الطرفين فى تصور جديد.

والتناقض الكامن فى عنوان الكتاب هو من قبيل التناقض الديالكتيكى، إذ هو يعنى أن الطغيان، ضعيف رغم جبروته ، ومن ثم يحمل فى طياته بذور فنائه. وهذا هو ما يريد المؤلف بثه فى ثنايا الكتاب، بل هذا هو ما يميز فكر المؤلف عن

غيره ممن سبقوه والذين اكتفوا بتحليل ظاهرة الطغيان فركزوا على "جبروت" الطغيان وليس على ضعفه. فأفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) يرى أن الطاغية لديه سلطة مطلقة. وأرسطو يذهب إلى أن الشعوب الآسيوية والبربرية عبيد، بحكم طبيعتهم، ومن ثم يمكنهم تدعيم الطغيان. ومونتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) يرى أن الطاغية يستولى على جميع السلطات بحيث تصبح سلطته مطلقة من أجل المحافظة على الاستقرار الاجتماعى، ومن ثم يخلص مونتسكيو إلى أن الاستقرار هو الغاية من الطغيان.

أما محمد خليفة فكل ما يعنيه فى الطغيان هو تفكيكه، وشرط التفكيك، عنده، أن يكون الإنسان على وعى بضعف الطغيان وليس بجبروته.

والسؤال إذن:

أين يكمن ضعف الطغيان؟

يستعين محمد خليفة فى الجواب عن هذا السؤال بقراءة تاريخ الحضارة الإنسانية. وأنا هنا أنتقى حالتين من الحالات العديدة الواردة فى الكتاب وهما حالة اليونان وحالة العالم الإسلامى.

فى حالة اليونان كان ضعف الطاغية كامناً فى اعتقاده أنه يملك الحقيقة المطلقة، وبالتالى كان الطاغية يرهب بها مَنْ يقف ضد هذا الاعتقاد من أمثال السوفسطائيين وسقراط. إلا أن تفكيك الطغيان جاء من التعددية الدينية على غرار التعددية السياسية. فكان ثمة إله للعدالة وإله للحرب وإله للحب وإله للأمطار، وهكذا. ومن شأن هذه الكثرة من الآلهة أن تمنع الطاغية من الزعم

بأنه مالك للحقيقة المطلقة.

وفى حالة العالم الإسلامى كان ضعف الطغيان كامناً فى عوامل ثلاثة على النحو الآتى:

١- عدم الفصل بين ما هو دينى وما هو مدنى.

٢- الخلافة أو الإمامة.

٣- اتهام الآخر بالزندقة.

وفى رأى محمد خليفة أن رفع الطغيان ليس ممكناً من غير إصلاح العقول. وهذا الإصلاح لم يكن وارداً وذلك بسبب التركيز على إصلاح الإدارة وليس على إصلاح العقول على نحو ما قام به محمد على فى مصر.

وتأسيساً على كل ذلك يمكن القول بأن إعادة طبع هذا الكتاب بعد أحداث ١١ سبتمبر له دلالة حضارية تضاف إلى دلالات حضارية أخرى كفيلة برفع الطغيان أياً كانت سمته.

توطئة

لم يكد يخلو زمان من الأزمنة من وجود طغاة تجبّروا في الأرض، وأكثروا فيها الفساد، حتى يمكن القول إن التاريخ البشري تاريخ عنف ودماء، وقمع وتسلّط، فلا يوجد شعب الآن - تقريبا - لم يعان من التعسف والاضطهاد، والواقع أن الطغيان ظاهرة عالمية تمتد جذورها في أعماق التاريخ وربما إلى الوقت الذي كان فيه الإنسان ما زال يعيش مرحلة الصيد، وكثيرا ما كان الحوار بين الإنسان وأخيه الإنسان حوارا بالسيف والرمح وآلات الحرب الأخرى.

فمنذ أن استقر الإنسان في مستعمراته الزراعية الأولى ظهر الاستعباد وأصبح الحاكم في تلك المستعمرات ينظر إليه على أنه إله أو من نسل الآلهة، ومع أن تلك المستعمرات الزراعية البسيطة تطورت إلى أن أصبحت دولا تمدُّ سلطانها على مساحات شاسعة، كالإمبراطوريات التي ظهرت في بلاد بابل ومصر القديمة. إلا أن فكرة الحاكم الإله بقيت مسيطرة على العقول والنفوس، فكان الحاكم في بابل أو في مصر يعامل على أنه إله أو من نسل ا لآلهة، ولذلك كان يقدّس ويعبد.

ومع ذلك فالحكم بالطغيان على أنظمة الحضارات القديمة ليس على إطلاقه؛ فقد نشأ مثلا في بلاد اليونان - وخاصة في أثينا - شعب اهتدى، ومنذ القديم، إلى مساوئ الطغاة والحكم الطغياني، فأحب الحرية، وأجبر طغاته على النزول من مقام الانفراد، فظهرت هناك أول تجربة ديمقراطية في التاريخ، وقد مهّد ذلك السبيل

لظهور فكر سياسي عند بعض الفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو عرّى الطغيان. وقد تناولنا كل تلك التجارب في الباب الأول ضمن "جذور الطغيان"

ولما كانت مظاهر القمع المنظم، والقتل والتشريد قد تحلت بأبشع صورها في مرحلة انتشار المسيحية، واعتناق بعض الناس في روما وفارس للدين المسيحي، لذلك تحدثنا في الباب الثاني عن الطغيان الذي مارسه أباطرة الروم وأباطرة الفرس ضد المسيحيين.

ووقفنا في الباب الثالث عند مظاهر الطغيان التي اقترفها أباطرة المسلمين في العصرين الأموي والعباسي، وما أدت إليه من سوء أحوال المسلمين في تلك العصور.

وعلى اعتبار أن النهضة الحديثة قد ظهرت في أوروبا فقد تحدثنا في الباب الرابع عن الطغيان الذي مارسته الكنيسة ضد الناس في أوروبا باسم الدين، وما أدى إليه ذلك التعسف من ظهور لحركات الإصلاح الديني، وما تبعها من حروب دينية، وختمنا الباب الرابع بالحديث عن الثورة الفرنسية التي كانت بحق قطيعة مع العصور الوسطى وثورة عليها، لما أتت به من مفاهيم وإصلاحات لم يشهد العالم لها مثيلا من قبل، ولم يفتنا ما رافق تلك الثورة من طغيان مورس باسم الديمقراطية والحرية.

وحيث إن أوروبا في القرن التاسع عشر قد بدأت تعيش عصورا حديثة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، فقد تطورت العلوم فيها كثيرا، وظهرت النظريات العلمية والفلسفية التي تفسر الكون والطبيعة، وتطور التفكير البشري فقامت الأيديولوجيات الثورية، التي ترى في الثورة وسيلة إلى التغيير، ويأتي في مقدمة هذه الأيديولوجيات،

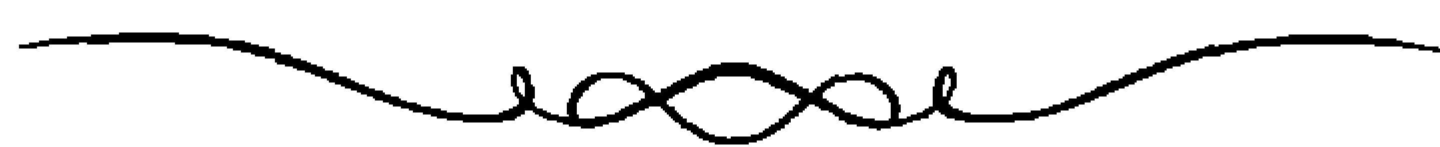
الأيديولوجية الماركسية نسبة إلى مؤسسها كارل ماركس، لذلك عرجنا في الباب الخامس على النظام الشيوعي الذي ظهر في روسيا، معتمدا الفلسفة الماركسية في الحكم، كما تحدثنا عن النظام النازي في ألمانيا الذي كانت أيديولوجيته تقوم على مبدأ العنصرية وتفوق الجنس الآري، وعن النظام الفاشي في إيطاليا، وقد كانت أيديولوجيته تقوم على فكرة إيحاء مجد الإمبراطورية الرومانية الغابر، وعن الجرائم التي مارستها تلك الأنظمة بحق شعوبها وبحق الإنسانية جمعاء.

ونحن إذ بحثنا في الطغيان بجميع أشكاله فإننا نراه - بحق- آفة المجتمعات الإنسانية، ونعتبر استمراره دليلا على عدم بلوغ البشرية نضجها وتطورها اللازمين، حيث تسود العدالة والحرية في جميع المجتمعات الإنسانية، ويحل الحب والسلام، وهو ما نرجوه آملين في قدرات الإنسان، وراجين من الله العلي القدير أن يسدد خطاه لبلوغ ذلك.

محمد خليفة

الباب الأول

جذور الطغيان



الفصـــل الأول

من المشاعة إلى الطغيان

منذ أن دبّت الحياة على هذه الأرض والإنسان يصارع الطبيعة من أجل الحياة، ولم تكن السبل ممهدة أمامه، بل كان عليه اكتشاف كل شيء في هذه الطبيعة، وقد عاش حياته الأولى على الصيد، فكان يصطاد ما يقدر عليه من الحيوانات ليقتات بها، وبدأت إنسانيته حين تطورت حياته من مرحلة الصيد التي يسودها القلق إلى مرحلة أكثر اطمئنانا، وأوثق اتصالا واطرادا، وهي حياة الرعي التي اقتضت ميزات عظيمة الخطر، إذ اقتضت استئناس الحيوان وتربية الماشية واستعمال اللبن.

وأخيرا تعلم عن الطبيعة فنّ التحوط للمستقبل، وفضيلة التبصر في العواقب، فأدرك فكرة اختزان الطعام للمستقبل، وهكذا تبيّن على مرّ الأيام أن الزراعة يمكن أن تكون موردا لقوت أجود نوعا، وأثبت اطّرادا من الصيد. ولما تحقق الإنسان من ذلك، خطا إلى الأمام إحدى الخطوات الثلاث التي نقلته من الحيوانية إلى المدنية، وتلك الخطوات هي الكلام والزراعة والكتابة[١]، ولم ينتقل إلى ذلك بوثبة واحدة، بل تم هذا التحول بخطوات متدرجة، وعلى آماد طويلة. ويعتقد بعض علماء الآثار أن أول المجتمعات الزراعية في العالم قامت في بلاد الرافدين على أطراف سلسلة جبال زاغروس[٢].

وكان الإنسان في تلك المجتمعات الزراعية الصغيرة يزرع الأرض بالتعاون مع أقرانه، ولكنه لم يتخلّ عن مهنته الأساسية، وهي الصيد، كما أن فكرة مِلْكية

(١) ول ديورانت. قصة الحضارة مجلد ١ - ٢ (ص ١٧).

(٢) باقر ياسين - تاريخ العنف الدموي في عبقرية المكان - ج٢ (ص ٢٣).

الأرض لم توجد لديه في تلك الفترة، فكل جماعة بشرية تقطن في أرض تملكها على الشيوع، تعمل بها وتأكل من إنتاجها، والفرد جزء من تلك الجماعة البشرية، لا أكثر من غيره من الطعام، وتتوقف حياته على انتمائه إلى الجماعة ذات الأصل الواحد التي وضعت يدها على الأرض أصلا والمالكة لها حاليا. وكان هذا الانتماء يتجسد من خلال الطوطم أو الإله (الأب المشترك) لأفراد الجماعة. أما رؤساء هذه الجماعات الطوطمية فيُختارون إما لسنّهم أو لعلمهم السحري الخاص[٣]. ولأن الملكية جماعية، والإنتاج الزراعي قليل لا يترك فائضا من الثروة، فإن التمايز الطبقي لم يظهر في تلك المرحلة المتقدمة من تاريخ البشرية، وبالتالي فليس لرؤساء تلك الجماعات الطوطمية أية أهمية.

بيد أن الاستقرار في العمل الزراعي لفترة طويلة هيّأ لظهور وضع جديد، فقد أوكلت إلى رؤساء الجماعات مهام حماية الأرض واستصلاحها، وتوفير المياه، وإقامة قرى أخرى وحمايتها، لذلك اتسعت المستعمرات الزراعية، وزادت الحاجة إلى أرض جديدة، فشبّ النزاع حول ملكية الأرض.وقد تمثلت نتائج هذا النزاع في زرع بذور الشقاق في ذاك المجتمع المتعاون، فأدى الوضع الجديد إلى ظهور طبقة مستغِلة كانت قادرة على حسم النزاع لمصلحتها، وأخرى مستغَلّة ليس لها من خيار إلا التسليم بالواقع الجديد. وعندئذ بدأ التمايز الطبقي، وأخذت تلك القيادات المستغِلة تتحول إلى نوع من الأرستقراطية البدائية التي تستولي على فائض العمل، وتتمتع بامتيازات كبيرة، أي أنها تحولت إلى طبقة حاكمة ومستغلة في آن معا[٤].

أما الطبقة المستغلة فتحددت وظيفتها في العمل - وبدون أجر - لمصلحة تلك الطبقة الحاكمة ؛ الأمر الذي هيّأ لنشوء المجتمع العبودي، الذي يستولي فيه الحاكم على أدوات الإنتاج والإنتاج معا، فأصبح الحاكم رمزا تتجسّد فيه الجماعة كلّها،

---

(٣) جما ل حمدان - شخصية مصر - دراسة عبقرية المكان - ج٢ (٥٥٠).

(٤) جما ل حمدان - شخصية مصر - دراسة عبقرية المكان - ج٢ (٥٥١).

وبالتالي أضحى الإله المحلّي لتلك الجماعة، فسعى إلى توسيع مستعمرته بضمّ غيرها إليها، مما هيّأ لنشوء الدولة ككيان يضمّ مجموعة من المستعمرات الزراعية.

وقد تعددت الدول التي نشأت هكذا، وكان التوسع الذي تقوم به إحدى تلك الدول البدائية على حساب الأخرى يؤدي دائما إلى حدوث صراع ينتهي عادة بتدمير إحداهما وإبادتها ومن ثم ابتلاعها ؛ لذلك فالميزة الأولى البارزة في علاقات الدول البدائية بعضها ببعض ليست العلاقة التوافقية التجارية، أو الثقافية، أو العمرانية، أو الفنية، إنها صدام بين تلك الدول[٥]؛ هدفه السيطرة والإبادة والابتلاع.

ولا نعلم بالضبط ما سبب جنوح الإنسان منذ فجر التاريخ نحو الطغيان، ولماذا كان التاريخ البشري مثقلا بالقتل والتدمير.والواقع أنه لقرون خلت والفلاسفة وعلماء النفس يبحثون عن إجابة عن السؤال المحيّر حول السبب الذي يجعل الإنسان - بكلمات جان بول سارتر - "أكثر الحيوانات فحشا وضراوة وجبنا"[٦]. وعلى الرغم من هذا البحث المغرق في قدمه عن مفتاح حقيقة: "وحشية الإنسان تجاه أخيه الإنسان"، فهناك كمية من الأعذار - أياً كانت - فمن المؤكد أن تنازع البقاء هو السبب الأول في نشوب ذلك الصراع الذي ظل محتدما منذ فجر التاريخ حتى الآن.

وقد اتخذ ذلك الصراع أشكالا متعددة، فكان من أجل الطعام أولا، ومن ثم أصبح الدين عاملا أساسيا فيه، والآن أضحت جرائم الطغاة تقترف باسم الوطن والصالح العام، ولكن الغاية واحدة وهي إثبات الوجود عن طريق نفي الآخر.

(٥) باقر ياسين - تاريخ العنف الدموي في العراق - (ص ٢٢).

(٦) بيرنهاردت ج - هروود - تاريخه التعذيب (ص ٥١).

الفصـل الثاني

التسلط في العالم القديم

في بلاد الرافدين: استوطن الإنسان منطقة بلاد الرافدين منذ أقدم العصور، فشهدت أولى المستعمرات الزراعية التي كانت نواة الدولة، وتعاقبت عليها ثلاث حضارات، هي سومر وبابل وأشور، وكان الرابط بين هذه الحضارات الثلاث هو الطغيان الذي مارسه ملوكها ؛ فالملك من نسل الآلهة دائما، وهو صاحب سلطان مطلق لا يحدّه حد، ويورث عرشه لمن يختاره من أبنائه بلا تفريق بينهم، ومن ثم فكل واحد من أولئك الأبناء يعدّ نفسه وليا للعهد، ويجمع حوله عصبة تناصره، وكثيرا ما يشنّ الحرب على إخوته إذا لم تتحقق آماله[٧]. وكان وريث العرش يقسم يمين الولاء والخضوع والاحترام لأبيه، ويدخل "المختار" إلى بيت الوراثة، حيث يدرب على مهام منصبه المقبل، ويوم ارتقائه العرش تُجرى احتفالات دينية يمنح أثناءها الابن المختار اسمه الملكي، ويقلد الشعارات التي ترمز للسلطة الإلهية[٨].

ولم يكن الملك من الوجهة القانونية إلا وكيلا لإله المدينة، ومن أجل ذلك تفرض الضرائب باسم الإله، ولا يُعدّ الملك ملكا في أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية، وجاب شوارع المدينة في موكب مهيب ممسكا صورة الإله (مردوك)، ولابسا زيّ الكاهن، وغلبت هذه الصفة على كل ملوك بابل، فحتى حمورابي العظيم نفسه تلقى قوانينه من الإله[٩]، وهو ما يرمز إلى اتحاد الدين والدولة، أو لعله أيضا يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتي. وكانت تحيط بعرش الملك

---

(٧) وول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١-٢ (ص ٢٠٧).

(٨) إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية (ص ٣٣).

(٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١-٢ (ص ٢١١).

جميع مظاهر خوارق الطبيعة، ومن شأن كل ذلك أن يجعل الخروج عليه من أعظم الكفر، الذي لا يُجزى من يجرؤ عليه بضياع رقبته فحسب، بل وبخسران روحه أيضا.

ولقد ظلت بلاد بابل في واقع الأمر دولة دينية، "خاضعة لأمر الكهنة" على الدوام من أيام الملوك السومريين في الألف الثالث قبل الميلاد، إلى يوم تتويج نبوخذ نصر في الألف الأول قبل الميلاد. فالملك يستمد شرعيته، ويلعب أدواره انطلاقا من أنه يمثل الآلهة على الأرض، أو ينوب عنها، أو لأنها منحته السلطة لكي يتصرف نيابة عنها، وهي تتوقع منه أن يعامل الناس بالعدل وبلا محاباة، بحيث يدافع عن الضعيف أمام القوي، وأن يكون نصيرا لليتامى والأرامل، ويوجه الاعتبارات الأخلاقية لما تجلبه من رضا الآلهة وبركاتها وما يمنع لعناتها[١٠].

وكانت العادة في تلك البلاد جارية على أنه إذا مات الملك يجب أن يموت معه كل الأشخاص المحيطين به من رجال ونساء، فخلال التنقيبات التي أجريت في آثار مدينة أور، عثر على أعداد كبيرة من الجثث المدفونة بجانب قبر كل ملك من ملوكها مع أدوات للزينة تدلّ على الثراء. فقد وجد في أحد القبور ثمانون من الأتباع مدفونين مع سيدهم ويمسك كل واحد منهم كأسا. . . وعلى مدخل قبر الملك بوآبي عثر على خمس عشرة جثة، وفي غرفة ملحقة بالقبر تسع وخمسون جثة. وقد استدل علماء الآثار من ذلك على أن هذه القبور لا بدّ أن تكون عائدة إلى الرجال والنساء المحيطين بالملك من حاشية وموظفين وإداريين ومساعدين وأنه تم قتلهم أو إجبارهم على الانتحار عمدا، ليقوموا بخدمة الملك في الحياة الآخرة[١١]. وتعطي هذه الاكتشافات معلومات دقيقة عن شدة طغيان الملوك في أرض بابل، لأنه من غير المعقول أن يتطوع كل المحيطين بالملك للموت معه، ولا بدّ أن يكون ثمة إرهاب مورس عليهم حتى أقدموا على الانتحار أو أنهم قتلوا.

---

(١٠) إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية (ص ٢٤).

(١١) باقر ياسين - تاريخ العنف الدموي في العراق - (ص ٣٣)

وكان أهل بلاد الرافدين يعتقدون أن سلامة الملك تقوم عليها سلامة الجماعة، ولهذا اتخذت إجراءات صارمة لضمان ذلك[١٢]. وطبيعي أن مجتمعا يعتقد أن الملك إله أو من نسل الآلهة لا تدور في خلده فكرة الديمقراطية، بل كانت الطاعة العمياء هي المقياس في الولاء للملك.

في مصر القديمة: كما استوطن الإنسان وادي الرافدين، فقد استوطن كذلك وادي النيل منذ آلاف السنين، وباشر سكان ذلك الوادي الأعمال الزراعية منذ عهود سحيقة فجففوا المستنقعات، وقطعوا الأدغال، وتغلبوا على تماسيح النهر وأفراسه، ووضعوا أسس الحضارة على مهل، وقبل أن يحل عام ٤٠٠٠ ق. م كان هؤلاء الأقوام الذين يقيمون على ضفاف النيل قد أنشأوا لهم حكومة من نوع ما، ويعتبر الملك "مينا" أول من أقام أولى الأسر المالكة التاريخية، وشاد عاصمة لملكه، وهي "منف"[١٣]. ولم يكن الملوك في بلد من البلاد بالكثرة التي كانوا بها في مصر القديمة، ويضمهم التاريخ جميعا في أسر تشمل كل أسرة ملوكا من بيت واحد[١٤]. وكان ملك مصر يسمى فرعونا، ويُعتبر إلها في مصر وهو على الدوام ابن أمون ـ رع، كما أنه لا يحكم مصر بحقه الإلهي فحسب، بل يحكمها أيضا بحق مولده الإلهي. فهو إله رضي أن تكون الأرض موطنا له إلى حين، وكان يرسم على رأسه الصقر رمز الإله حورس، وتعلو جبهته الأفعى رمز الحكمة والحياة، وواهبة القوى السحرية للتاج. والملك هو الرئيس الديني الأعلى الذي يرأس المواكب والحفلات العظيمة التي تمجد أعياد الآلهة. وبفضل هذه الدعاوى - دعاوى قدسية المولد وقدسية السلطان - استطاع الملوك أن يحكموا حكمهم الطويل غير مستندين فيه إلا إلى قوات ضئيلة[١٥].

---

(١٢) إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية (ص ٣٥).

(١٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١-٢ (ص ٦٦).

(١٤) المرجع السابق (ص ٧٣)

(١٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١-٢ (ص ١٦١).

وكانت أدوات الإنتاج في مصر القديمة إنما هي الأرض والماء، وقد ألغيت الملكية الفردية للأرض منذ اللحظة الأولى التي اعتبرت فيها كل أرض البلاد ملكا قانونيا للدولة ممثلة في الحاكم (فرعون). وفي بعض مراحل التاريخ كان فرعون وحده يملك ثلث أراضي مصر، وفي التوراة أن ضريبة الأرض التي يجمعها من الفلاحين بلغت خمس المحصول[(١٦)].

وتربط الحكمة في مصر القديمة - عن وعي- بين الطاعة في المنزلة وطاعة الدولة ؛ فالابن المطيع هو الذي ستكون له مكانة طيبة في قلب الدولة. وكان على الناس عندما يعتلي فرعون العرش أن يفرحوا ويبتهجوا، لأن أحد الأرباب أقيم رئيسا على كل البلاد، إذ سوف ترتفع المياه في النيل، ولا يهبط منسوبها، ويرافق اسم الملك شارات ترمز إلى الحياة والصحة والقوة، وحتى بعد الوفاة يبقى فرعون يحدب على مصر ويعطف عليها، ولهذا حقّ له أكثر من أي إنسان آخر أن يخلّد ذكره، ويبقى حيا إلى الأبد[(١٧)].

وتحكي لنا الأسطورة الفرعونية أن إله الصحراء (ست) قتل الإله (أوزيريس)، وفرّق جسده إلى ثلاث عشرة قطعة، دفنها في أماكن متفرقة من وادي النيل، ولكن الإلهة (إيزيس) أرملة القتيل استطاعت أن تجمع القطع المدفونة، وأن تبعث فيها الحياة مرة أخرى لتلد من زوجها المبعوث إلها جديدا هو (حورس). وفي ظل سيادة تلك الأسطورة يتوج الكهنة في مصر القديمة كل ملك جديد طبقا لطقوس سحرية معقدة، ترمز إلى قصة الزوجين إيزيس وأوزيريس، ومولد ابنهما حورس، ليكون ذلك إشهادا كهنوتيا بأن الفرعون الجديد هو أيضا من نسل الآلهة.

وهكذا كان الملك في مصر القديمة معتبرا إلها بين الناس، تفصل بينه وبين رعاياه مسافة لا متناهية، يضيع فيها العقل، وتنقطع خلالها كل علاقة معقولة بين

---

(١٦) الكتاب المقدس - سفر التكوين - الإصحاح السابع والأربعون - آية ٢٤.

(١٧) إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية (ص ٣٠).

الحاكم والمحكوم[١٨]، لأن له سحرة يعينونه ويرشدونه، والاعتقاد السائد أنه هو نفسه يمتلك قوة سحرية، ينزل بها المطر، أو يرفع بها الماء في النهر[١٩]. ولم يكن لسلطاته حدود تقف عندها؛ فهو المشرع الذي يصدر القوانين والأوامر، وكذلك المنفّذ عن طريق أدواته (أعضائه) من الكتبة، كل ذلك إضافة إلى أنه القاضي الذي يفصل في الخصومات[٢٠].

وينظر فرعون إلى المصريين نظرة رعوية كأبنائه القصّر، ولم تخل تلك النظرة من مفهوم التملك لهم، وكانت سلطته قائمة على الإرهاب والترويع والتنكيل والتمثيل بالنسبة للجميع. وفي نصٍّ قديم يقول الملك خيتي لابنه مريكاع: "إذا وجدت في المدينة رجلا خطرا، يتكلم أكثر من اللازم، ومثيرا للاضطراب فاقبض عليه، واقتله، وامسح اسمه، وأزل جنسه وأنصاره الذين يحبونه، فإن رجلا يتكلم أكثر من اللازم لهو كارثة على المدينة"[٢١].

ويتألف من أكبر رجال البلاط سنا مجلس شيوخ يسمى "سارو" أي مجلس العظماء، مهمته أن يكون مجلسا استشاريا للملك، على أن هذه الاستشارة ليست ضرورية في الواقع، لأن الملك - ومن ورائه الكهنة - يدعي أنه من سلالة الآلهة، وأنها نفسها قد وهبته السلطة والحكمة، ويمثل اتصاله بالآلهة على هذا النحو مصدر نفوذه وهيبته. ومن أجل ذلك تخلع عليه - إذا خوطب - صفات من الإجلال يدهش لها الإنسان أحيانا، مثل ما جاء في قصة سنوحي، إذ يحييه مواطن صالح بقوله: "أيها الملك الطويل العمر، أرجو أن تهب الواحدة الذهبية - أي الآلهة حتحور- الحياة لأنفك". وكان يقف على خدمة الملك ـ كما يليق بشخص هذه عظمته

(١٨) عصمت سيف الدولة - الاستبداد الديمقراطي - (ص ٣١).

(١٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١-٢ (ص ١٦٦).

(٢٠) عصمت سيف الدولة - الاستبداد الديمقراطي - (ص ٣٢).

(٢١) جمال حمدان - شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان - ج ٢ (ص ٥٥٤).

- عدد كبير من مختلف الأعوان، منهم القوّاد وغاسلو الملابس وقصّارها وحرّاس خزائنها، وغيرهم من ذوي المراتب الرفيعة، "وكان عشرون من الموظفين يشتركون في تزيينه، منهم حلاّقون لا يسمح لهم إلا بقصّ شعره وحلق لحيته، وآخرون لإلباسه قلنسوته وتاج رأسه، ومدرمون يقصّون أظافره ويدرمونها، ومعطرون يعطرون جسمه ويكحلون جفون عينيه، ويحمّرون خدّيه وشفتيه بالصبغة الحمراء. و يلجأ الملك في بعض الأحيان إلى الترويح عن نفسه، وإزالة ما يعتريه من ملل وسآمة بحشد طائفة من الفتيات في قاربه الملكي، وليس عليهن من الثياب إلا نوع من الشباك ذات الثقوب الواسعة"[٢٢]. وهو ما يدل على فرط التنعم، وشدة الانغماس في الملذات، وطبيعي أن يحدث ذلك في غياب الرقابة، ولكن من يراقب الفرعون وهو الإله ؟. لقد كان المصريون عبيد النيل، ثم أصبح عبيد النيل عبيد الدولة أو "عبيد فرعون" بالتبعية وفي النهاية، وتلك هي "العبودية المعممة"، وفي هذا كله كانت جرثومة الطغيان الفرعوني[٢٣].

في بلاد اليونان: إن بلاد اليونان تشبه اليد التي تمتد أصابعها الملتوية إلى داخل البحر الأبيض المتوسط، وفيها تضاريس لا تعدّ من السواحل، ومرتفعات من الأراضي، حيث الخلجان والبحر في كل مكان، وتنقلب الأراضي إلى جبال وهضاب ولقد فصلت هذه الحواجز الطبيعية من الأرض والبحار بلاد اليونان وقسمتها إلى أجزاء منعزلة، حيث كان السفر والمواصلات في تلك الأيام أكثر خطورة منه في أيامنا هذه. لذلك فقد تطور كل واد في تلك البلاد إلى اكتفاء اقتصادي ذاتي، وكانت له حكومته المستقلة، ونظمه وأسلوبه ودينه وحضارته، وفي كل حالة تقوم مدينة أو مدينتان، تمتد حولهما سفوح الجبال والأراضي الزراعية، وعلى هذا النمط تكونت "دويلات المدن" اليونانية، ومن أشهرها إسبارطة وأثينا[٢٤].

---

(٢٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١-٢ (ص ٩٥).

(٢٣) جمال حمدان - شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان - ج ٢ (ص ٥٥٣).

(٢٤) ول ديورانت - قصة الفلسفة (ص ٦).

وكانت تحيط ببلاد اليونان حضارات قديمة كالحضارة المصرية، وحضارة كريت وبلاد الرافدين، وإمبراطوريات كبلاد فارس شرقا، وقرطاجنة غربا، وقلما تُعنى هذه الأمم المحيطة بتلك البلاد بما كان يعدّه اليونانيون جوهر الحياة، وأغلى ما فيها، ألا وهو الحرية، حرية الحياة والفكر، والقول والعمل، فكل شعب من تلك الشعوب - عدا الفينيقيين - كان يرزح تحت حكم الطغاة المستبدين، ويسلّم أرواح بنيه إلى الخرافات والأوهام، ولا يعرف إلا القليل من بواعث الحرية أو الحياة العقلية، وهذا هو السبب الذي حدا باليونانيين إلى أن يطلقوا عليهم – دون تمييز – اسم "برابرة"، فالبربار Barbaros في اعتقادهم هو الذي يرضى بالاعتقاد دون تفكير، والذي يعيش مسلوب الحرية(٢٥).

وقد اختلف الباحثون في كيفية تنبُّه الشعب اليوناني لمساوئ الحكم الفردي، الذي كان يقيم في كل مكان من الأرض، ولكن المعروف أن حكماء اليونان رأوا أن السياسة والدين يمشيان متكاتفين، فاعتبروا أن إصلاح الدين أسهل منالا، وأقوى وأقرب طريقا إلى الإصلاح السياسي. لذلك فقد احتالوا على ملوكهم المستبدين في حملهم على قبول الاشتراك في السياسة، بإحياء عقيدة الاشتراك في الألوهية، التي أخذوها عن الآشوريين، ومزجوها بأساطير المصريين، بصورة تخصيص العدالة بإله، والحرب بإله، والأمطار بإله، والحب بإله، إلى غير ذلك من التوزيع، وجعلوا لإله الآلهة زيوس حقّ النظارة عليهم، وحق الترجيح عند وقوع الاختلاف بينهم. وبعد تمكن هذه العقيدة في الأذهان بما ألبست من سحر البيان، سهل على أولئك الحكماء دفعهم الناس إلى مطالبة جبابرتهم بالنزول من مقام الانفراد، وبأن تكون إدارة الأرض كإدارة السماء، فانصاع ملوكهم لذلك مكرهين.

وهذه هي الوسيلة العظمى التي مكنت شعب اليونان أخيرا من إقامة جمهوريات مثل أثينا وإسبارطة، وهذا الأصل لم يزل المثال القديم لأصول توزيع

(٢٥) ول ديورانت – قصة الحضارة – ج ٥-٦ (ص ١٢٤).

الإدارة في الحكومات الملكية والجمهوريات على أنواعها إلى هذا العهد[٢٦]. والتاريخ يبين لنا أن أغلبية المدن اليونانية قامت بالتتابع بتجربة كل أشكال الحكم، من الملكية إلى الأرستقراطية، ثم إلى الأوليغارشية (حكم الأقلية)، ومن ثم إلى الطغيان، وأخيرا إلى الديمقراطية. وذلك كما لو أن مبدأ منطقيا للتطور كان يقودها في اتجاه محدد ومتشابه[٢٧]. وقد قدمت هذه الظاهرة مادة غزيرة للفكر النقدي، أفاد منها بعد ذلك مفكرو السياسة اليونان، ولاسيما أفلاطون وأرسطوطاليس، كما جلب كذلك حافزا منشطا ذا مدى عملي استثنائي للفكر اليوناني من أجل تأسيس المستعمرات ؛ فلقد تشكلت بين عامي ٧٥٠ و ٥٥٠ ق. م سلسلة حقيقية من المستعمرات حول البحر المتوسط والبحر الأسود، إلا أن المستعمرة سواء كان ارتباطها المعنوي بإحدى المدن الأم، أو بعدّة مدن، أو كانت تتمتع باستقلال تام، فإن وضعها القانوني كان كوضع أية مدينة ـ دولة حقيقية، فهي تكفي ذاتها بذاتها، فقد تحتاج فور تأسيسها تحت قيادة رئيس مقبول لدستور ولمجموعة قوانين مدنية وجنائية، ولم يكن رئيسها مؤهلا دائما لوضع تلك القوانين، لذلك يجري طلب مساعدة خبير من المدن[٢٨] ليساعد في وضع القوانين، وقد عرفت مدن اليونان نظام الحكماء السبعة الذين كانوا يشرفون على شؤون المدن، ويضعون القوانين لها. ولكن كيف تطورت المدينة اليونانية والحياة السياسية بها إلى درجة جعلت منها نبراس الأمم قاطبة في مجال الحرية والديمقراطية ؟. هذا ما سنعرفه فيما يلي:

١- المدينة اليونانية:

إن السياسة إنما هي بالمعنى الدقيق للكلمة شؤون الـ Polis ، وهذه الكلمة اليونانية تدل على المدينة بالتعارض مع الريف، وكذلك على الحضارة بالتعارض مع

(٢٦) عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد (ص ١٦).

(٢٧) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٦).

(٢٨) المرجع السابق (ص ١٧)

الطبيعة المتوحشة أو البربرية، وهي تدل أخيرا وبوجه خاص على الدولة المدينية La cite وهي كيان جماعي مستقل يعي الانتماء إليه عشرات الألوف من السكان (الأثينيون والإسبارطيون والكورنثيون مثلاً) الذين يتعرفون فيها إلى شيء يشبه وطنا لهم[٢٩].

وللدولة المدينية إقليمها، ولها نظامها وقوانينها الخاصة بها، وكل من هذه الدول المدينية ينبثق من قبائل متنوعة، لكنها متحدة بها وتحت ظل مؤسسات سياسية ودينية مشتركة. وقد جرى هضم الخصوصيات القبلية إلى حدّ أن شعور الجميع بالانتماء لدولتهم المدينية كان أساسيا بالنسبة لهم في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان يتغلّب حتى على التأصل في الانتماء الهيليني (اليوناني)، وقد تصور المفكرون اليونان يومئذ المدينة باعتبارها تجمعا للعيش المشترك، وفق قواعد الخير ومن أجله، لذلك تسعى المدينة إلى هدف أخلاقي وتبيّن طريق الوصول إليه، دون أن تصطدم بأية منافسة من قبل كنيسة، أو تجمع ديني مزوّد بأجهزة خاصة به، بل تعتبر المدينة كنيسة ودولة في آن واحد، ومن غير أن تصطدم كذلك بأية مقاومة من طرف أعضائها، باعتبارهم أفرادا مهتمين بتحديد مجال عملها بدقة[٣٠]، فلقد كان المواطنون متضامنين في سعيهم لتحقيق الهدف الأخلاقي، الذي يمثله عيشهم المشترك في يسر وأمان.

٢ـ العالم الهوميروسي [*]:

كان العالم الهوميروسي قبل عصر السياسية في اليونان، ولم تكن المدينة بالمعنى السياسي للكلمة موجودة، و في هذا العصر حكمت الأسرة الناس في السلم،

(٢٩) أرسطو والسياسة - فرانسيس وولف (ص ٩).

(٣٠) تاريخ الفكر السياسي / ص ١٩/

(*) النسبة إلى هوميروس شاعر اليونان الأكبر الذي تعتبر أشعاره من ملحمتي "الألياذه" و"الأوديسة" هي مرجعنا عن حياة اليونان ونظرتهم الباكرة قبل ظهور لبناتهم السياسية المدينية في العصور التاريخية.

وفي الأزمات حكمتهم العشيرة، وهي جماعة من الناس ينتسبون إلى أصل واحد، ويدينون بالطاعة إلى رئيس واحد، حصنه هو منشأ المدينة ومركزها. حتى إذا ما أصبح سلطانه سنّة متبعة وشريعة معترفا بها، تجمعت حول الحصن عشيرة بعد عشيرة، حتى يتكون من مجموعها مجتمع سياسي من ذوي القربى، وإذا طلب الرئيس عملا إجماعيا من عشيرته أو مدينته دعا أحرارها الذكور إلى اجتماع عام، وعرض عليهم اقتراحا، قد يقبلونه وقد يرفضونه، وأعظم الأعضاء شأنا الذين يستطيعون أن يقترحوا تغييره. وكانت هذه الجمعية القروية العنصر الديمقراطي الوحيد في هذا المجتمع الأرستقراطي الإقطاعي[٣١]؛ فللملك سلطان عظيم ولكنه ضيق الحدود، ضيق في الرقعة التي يظلها لأن مملكته صغيرة، وضيق في زمانه لأن الملك معرّض لخلع المجلس، أو للخلع استنادا إلى حق، سرعان ما اعترف به الشعب، وهو حق من عساه أن يكون أقوى من الملك سلطانا[٣٢].

ولا شك أن التطور الأخلاقي في بلاد اليونان قد سار بأن انتقل الإنسان من الانفعالات التي لا ضابط لها، إلى الحكمة والجرأة، أي انتقل من الأخلاق الفردية التي يسودها الهوى، إلى الاعتراف بقانون كلي، وهذا القانون الكلي يجب أن تسير على هديه الحياة الإنسانية، فبروتاجوراس يقول: إن الإنسانية قد انتقلت من دور البربرية والوحشية إلى دور الحضارة والمدنية عن طريق القوانين، والنزعة الفردية تجد ما يكبح جماحها في القانون[٣٣]. لقد كان هوميروس، بالرغم من إيمانه بضرورة أن يقود شخص واحد، يشير إلى أن هذه القيادة متعلقة بالجيش والحرب فقط، ففي نظره تختلف فالملكية بشكل جذري عن مثيلتها في الشرق، التي كانت مطلقة ومستبدة، بينما ملكية هوميروس محدودة من قبل مجلس الكبار[٣٤].

(٣١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٥-٦ /ص ١٠٢/.

(٣٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٥-٦ (ص ١٠٣).

(٣٣) د. عبد الرحمن بدوي - ربيع الفكر اليوناني - (١٧٤).

(٣٤) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٢١).

٣- أثينا: مدرسة اليونان:

كانت أثينا تتابع مع صولون - ومن بعده كليستين وإفيالتز وبركليز - الطريق الذي جعل منها نموذج المدينة الديمقراطية، ومدرسة اليونان، وفي هذا يقول شللي: "إن الفترة الواقعة بين مولد بركليز وموت أرسطو تعدّ بلا شك أهم فترة في تاريخ العالم كله، سواء نظرنا إليها من حيث هي ذاتها، أو من حيث أثرها في مصائر الإنسان المتحضر من بعدها"[٢٥]، فأثينا هي المسيطرة على هذه الفترة، و قد تصورصولون المدينة - الدولة محايدة ووسيطة، فلم يدع للديمقراطية الصرفة، لأنه كان يعتزم تخصيص نصيب عادل للأقلية، وقد أعلن بنفسه افتخاره لأنه عرف كيف يستدير إلى كل الجوانب مثل ذئب وسط جمع من الكلاب[٣٦]، ولم تكن السياسة - أي ممارسة الأعمال العامة - نشاطا بين نشاطات أخرى ممكنة في ذلك الزمن وحسب، بل هي النشاط النبيل بامتياز، والذي يستحق التضحية بالحياة.

إن قدر شاب أثيني لامع لا يمكن أن يكون غير مهنة السياسة التي لا شيء فيها له علاقة بالمهنة[٣٧]. والديمقراطية القائمة تحت سلطان دكتاتورية بركليز، هي ديمقراطية حقة، لأنه يحد منها أولا أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هي تستطيع القراءة، ويحد منها من الوجهة الطبيعية صعوبة الوصول إلى العاصمة أثينا من المدن القاصية في إقليم أتِكا، هذا إلى أن حق الانتخاب كان مقصورا على من ولد من أبوين أثينيين حرين، وبلغ الحادية والعشرين من العمر، فهؤلاء وأسرهم - دون غيرهم - هم الذين يستمتعون بالحقوق المدينة، أو يتحملون مباشرة أعباء الدولة الحربية والمالية.

---

(٣٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٧-٨ (ص ٦).

(٣٦) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٢١).

(٣٧) فرانسيس وولف - أرسطو والسياسة - (ص ١١).

فالسلطة السياسية في عهد بركليز موزعة من الناحية الشكلية توزيعا متكافئا، فكل مواطن يستمتع - ويصرعلى أن يستمتع - بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفي الجمعية الوطنية، ولم يكن المواطن في نظر الأثيني هو الذي يقترع فحسب، بل أيضا الذي يشغل بالقرعة - إذا جاء دوره على مر الأيام - منصب الحاكم أو القاضي، ويجب أن يكون حرا مستعدا لخدمة الدولة حين تناديه، وقادرا على خدمتها. و يجتمع المواطنون الذين يتمتعون بالحقوق السياسية، في أحزاب سياسية، بل كانوا يقسمون تقسيما غير دقيق إلى أنصار الأوليغارشية، أو أنصار الديمقراطية، على أساس ميلهم إلى توسيع الحقوق السياسية، أو تضييقها، ونظرتهم إلى سيطرة الجمعية، وإعانة الحكومة للفقراء من أموال الأغنياء، وأنشط الأعضاء في كلتا الجماعتين ينتظمون في نواد تسمى مجتمعات الرفقاء، وأقوى تلك النوادي كانت النوادي الأوليغارشية التي يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضا في الشؤون السياسية القانونية، كما تربطهم بعضهم ببعض رابطة العداوة المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا، التي نالت حقوقها السياسية. وفي وجه هذا الحزب الأوليغارشي يقف الحزب الديمقراطي وهو إلى حد ما حزب صغار رجال الأعمال، والمواطنين الذين أصبحوا أجراء، وأولئك الرجال الذي يعملون على ظهور السفن التجارية والأسطول الأثيني[٢٨]، وكان هؤلاء كلهم يبغضون ترف الأغنياء وامتيازاتهم. وقد أفلح بركليز على مدى جيل كامل في إبعاد هذا الحزب عن الحكم، بسياسته التي كانت مزيجا من الديمقراطية والأرستقراطية، فلما مات ورث الحزب الحكم واستمتع بمستلزماته، وظل النزاع المرير قائما بين الأوليغارشيين والديمقراطيين من أيام صولون إلى أيام الفتح الروماني عن طريق الخطابة والاقتراع والنفي والاغتيال والحرب الأهلية الداخلية.

---

(٢٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٧-٨ (ص ٢٢).

٤- الدستور الأثيني:

يعد الدستور الذي وضعه صولون لمدينة أثينا، نقطة البداية في مراحل التطور الديمقراطي، وقد وصف بركليز الدستور الأثيني في عهده بقوله إن دستورنا ليس لديه شيء يشتهيه من القوانين التي تحكم جيراننا، فنحن عوضا عن تقليد الآخرين، نعطي المثال الذي ينبغي اتباعه. وهذا النظام الدستوري الذي يعمل لفائدة الأكثرية وليس لفائدة الأقلية، يحمل اسم الديمقراطية، إنه يرتكز على المساواة وعلى الحرية، المساواة بين الجميع أمام القانون، والمساواة في المشاركة بالشؤون العامة، وفي حال تساوي المؤهلات، فإن القيمة الشخصية هي التي تُعد، فلا أحد يمنع بسبب فقره أو وضعه من خدمة المدينة، إن كان لديه الكفاءة لذلك. أما الحرية فإنها تتجلى في العلاقات الخاصة، بغياب الإكراه والشك والتعصب "إننا لا نسخط على جارنا إذا تصرف على هواه". أما سياسيا فإنها تعني القبول بمشاركة كل مواطن في حكم المدينة، "إننا بأنفسنا نتخذ القرارات، ونقدم عنها حسابا دقيقا لأنفسنا، إن الكلام بالنسبة لنا ليس مضرا بالعمل، إن الضار هو عدم الاستخبار بواسطة الكلام قبل الانطلاق في العمل". إن الحرية ذات طابع خاص فهي تُمارس ضمن حدود الاحترام الواجب للحكام والقوانين، لاسيما تلك التي تؤمّن الدفاع عن المضطهدين، والتي "بالرغم من تدوينها، تلحق بالذي يخرقها احتقارا كليا".

أما الحرية السياسية فإنها ليست مجرد قدرة على الفعل، إن ممارستها الفعلية إلزامية، أخلاقيا على الأقل، فالأثينيون هم الوحيدون الذين يعتبرون من لا يهتم بشؤون المدينة ليس مجرد شخص كسول وعديم الطموح، وإنما شخص "غير نافع" وغير جدير بلقب مواطن صالح. وقد أشار بركليز بمنهجية لكل ما يوجد في أثينا الديمقراطية من أمور يمكن أن تتناقض مع إسبارطة الأوليغارشية[٣٩]، فإسبارطة تُخضع رعاياها إلى تدريب مضن منذ نعومة أظفارهم، وذلك لكي تجعل

---

(٣٩) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٢٤).

منهم رجالا شجعانا، وهي تحضر للحرب بعناية، مستخدمة في ذلك مختلف الحيل وأساليب الدهاء، إنها تتربص للجواسيس في كل مكان، وتتخذ كل أنواع الاحتياطات، أما أثينا المفتوحة للجميع، فتعتمد على التلقائية وعلى القيمة الطبيعية لرعاياها. إن هؤلاء يعرفون في لحظة العمل وساعة الخطر، كيف يقفون في وجه أعدائهم الذين استعدوا منذ أمد طويل لمثل هذا العناء الكبير.

إن إسبارطة المتجهمة، إسبارطة الحزينة، تحرم نفسها من أوقات الفراغ واللهو التي تفخر بها أثينا، وإسبارطة السكوتة تحتقر الكلام الذي تعرف أثينا ثمنه تماما. وبالرغم من أن بركليز لا يصف الحكم الأوليغارشي بالحكم الطغياني إلا أنه لا يتردد في وصف إسبارطة بأنها مظلمة وحزينة وسكوته، وما يقصده بركليز في قوله هو أن إسبارطة تفتقد الحرية التي تتمتع بها أثينا، لأن حكومة إسبارطة الأوليغارشية تعتقل حرية الناس وتمنعهم من التعبير عن آرائهم، ولذلك فهذه الحكومة في نظر بركليز ظالمة لرعاياها. أما أثينا ذات المزايا الكثيرة فقد كان شعبها يحبها، لذلك فقد كانوا يستبسلون في الدفاع عنها لأنهم كانوا يرفضون أن يدعوا أنفسهم ينسلخون عنها. فمن أجل مدينة كهذه يجب بشكل طبيعي على كل واحد من بين أولئك الذين بقوا أن يقبل بأن يعاني من أجلها[٤٠].

لقد كانت الديمقراطية في دم كل أثيني، لذلك فقد دافع مواطنو أثينا عنها لأنهم اختاروها عن سابق تصميم، فكانوا يقومون دائما بتقوية حزب الشعب، وإضعاف الحزب الأوليغارشي، لكي تبقى السلطة للشعب يحكم نفسه بنفسه.

(٤٠) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٢٥).

الفصـل الثالث

أفلاطون والحاكم الفيلسوف

ولد أفلاطون سنة ٤٢٧ ق.م، وقد اختلف الرواة في مسقط رأسه؛ فقيل مدينة أثينا وقيل جزيرة أجينا، وهو من محتد كريم، فأبوه من نسل قدروس الملك الأخير من ملوك أثينا فيما تذهب المأثورات، وأمه من نسل صولون الحكيم. وقد قيل إن النحل كانت تأتيه وهو طفل وتطعمه عسلها، وقد حمله ميله الطبيعي - كالعديد من شبان محيطه - للمشاركة في الشؤون العامة، لكن نظام حكم الطغاة الثلاثين الذين آل إليهم الحكم في عام ٤٠٤ ق.م، على أثر هزيمة أثينا على يد أسبرطة قد حطم سريعا بمبالغاته الأوهام التي بناها أفلاطون الشاب حوله، إلا أن عودة الديمقراطية وسط جومن الهدوء بعد بضعة أشهر أعادت إليه الأمل[٤١]. غير أن الديمقراطية التي توسم فيها الخير قد حكمت على أستاذه سقراط بالموت بتهمة الهرطقة، فشكل هذا الحدث ضربة قاسية للشاب ابن التاسعة والعشرين من العمر، لأنه كان يرى في سقراط أكثر الرجال صوابا في زمنه.

وقد بعث هذا الحدث في نفسه هاجس البحث عن أفضل نظام للحكم، فالديمقراطية ليست النظام المفضل لأن الحكم فيها بيد الدهماء، وهي التي رفض أستاذه سقراط رحمتها لأنه كان يحتقرها، وقد امتلأت نفس أفلاطون باحتقار الديمقراطية، ومقت العامة على منوال أستاذه، وقاده تأمله إلى وجوب القضاء عليها، وإحلال حكم الأحكم الأفضل محلها، وأضحى أكبر همه في الحياة أن يبتدع طريقة يستطيع أن يكشف بها عن أحكم الناس وأفضلهم، ثم يقنعهم أن يتقلدوا زمام الحكم. وفي هذا يقول: "أخيرا فهمت أن كل المدن الحالية تحكم بطريقة سيئة، لأنه لا أمل

(٤١) المرجع السابق (ص ٣٧).

تقريبا في شفاء تشريعاتها بدون تحضيرات نشيطة تتضافر مع ظروف مواتية، لذلك كنت مدفوعا بشكل لا يقاوم لمدح الفلسفة الحقيقية، ولإعلان أن على هديها فقط يمكن أن نتعرف على أين تكمن العدالة في الحياة العامة وفي الحياة الخاصة، إن المصائب لن تتوقف إذن بالنسبة للناس قبل أن يصل للسلطة عرق من الفلاسفة الأنقياء والحقيقيين، أو أن يأخذ رؤساء المدن بفضل نعمة إلهية بالتفلسف حقيقة"[٤٢].

فلا يمكن زوال تعاسة الدول وشقاء النوع الإنساني ما لم يملك الفلاسفة أو يتفلسف الملوك والحكام، فلسفة صحيحة تامة، أي ما لم تتحد القوتان السياسية والفلسفية في شخص واحد، وما لم ينسحب من حلقة الحكم الأشخاص الذين يقتصرون على إحدى هاتين القوتين فلن تبرز الجمهورية إلى حيز الوجود، ولن ترى نور الشمس، والذي حملني على التردد في إبداء الرأي هو شعوري أنه يضاد الرأي العام كل المضادة[٤٣]. وقد بحث في كتاب السياسي من جمهوريته مختلف أشكال الحكم ومن ثم ركز على الاستبداد الذي رأى فيه شر أدواء المدينة.

أولاً: النظام التيموقراطي: Timocracy وهو نظام الحكم الذي يسوده طابع الطموح من محبي الشرف أو الطامحين إلى المجد، ويتعقب أفلاطون خلق التيموقراطي وأصله بقوله: إنه ابن رجل فاضل، ولا يبعد أنه سكن مدينة ساء نظامها، فتجنب الرفعة والمرافعات وأمثال ذلك مما يلابس الروح المتمردة، مؤثرا الخسارة على المشاغبة، إلا أن زوجة هذا الرجل الفاضل تبدأ بالشكاية لولدها من تنكب أبيه عن مناصب الحكومة، فصيرها بذلك وضيعة بين زميلاتها، ومن أنها لم تره يعبأ بالمال، ولم يزاحم أحدا. وكانت تلوح عليه ظاهرات التفكر، ولم يوجه نحوها اعتبارا كبيرا مع أنه لا يحتقرها. وهي إذ تمتلئ حنقا على هذا كله تقول

---

(٤٢) المرجع السابق (ص ٣٧) نقلاً عن الأعمال الكاملة لأفلاطون المجلد ١٣، الجزء الأول (ص ٢٩).

(٤٣) أفلاطون - الجمهورية - الترجمة العربية - (ص ٢٤٤).

لولدها: إن أباه ليس رجلا، وإنه كثير الإهمال والتراخي، وعندما يبلغ هذا الولد سن الرشد فإنه ينتقم لوالده، فيكون أشد رجولة من أبيه[٤٤].

ثانياً: النظام الأوليغارشي: وقد عني به أفلاطون قدر الرجال بثروتهم فيحتكر الأغنياء الحكم، وليس للفقير فيه حظ ما[٤٥]. ويرى أن هذا النظام لا يقوم على الجدارة مطلقا، ويعطي مثالا عن ذلك فيما لو تم اختيار ربابنة السفن باعتبار ثروتهم، دون جدارتهم الفنية، وتم رفض ذي الجدارة لفقره، ولا شك أنه سوف تكون حالة محزنة في أسفار البحار، وكذلك فإن المدينة في هذا النظام تخسر وحدتها وتصير اثنتين: واحدة مؤلفة من الفقراء، والأخرى من الأغنياء، والفريقان ساكنان معا، يكيدان أحدهما للآخر[٤٦]؛ مما يؤدي إلى تدمير هذا النظام عن طريق الثورة عليه من قبل الطبقات المظلومة والمسحوقة.

ثالثا: النظام الديمقراطي: تنشأ الديمقراطية بفوز الفقراء، فيقتلون بعض خصومهم، وينفون غيرهم، ويتفقون مع الباقين على اقتسام الحقوق والمناصب المدنية بالتساوي، ويغلب في دولة كهذه أن تكون المناصب بالاقتراع، وقد يكون هذا النظام أجمل النظم، لأنه مزخرف بكل أنواع السجايا، فيلوح جميلا كالثوب المزركش بكل أنواع النقوش، وقد يعجب الكثيرون بهذه الجمهورية، لأنها جمهورية مستحبة، فوضوية ملونة، تعامل جميع الأفراد بالمساواة سواء كانوا متساوين أم لا[٤٧].

رابعا: الديمقراطية تلد الاستبداد: إن الديمقراطية كالأوليغارشية تقتلها الرغبة فيما تعتبره خيرها الأعظم، وهي لا شك ترى أن الحرية أثمن شيء فيها، ولكن حتى الديمقراطية تدمر نفسها، بالإفراط في الديمقراطية. إن مبدأ

---

(٤٤) أفلاطون - الجمهورية (ص ٣٤٣).

(٤٥) المرجع السابق (ص ٣٤٤).

(٤٦) المرجع السابق (ص ٣٤٦).

(٤٧) المرجع السابق (ص ٣٥٥).

الديمقراطية الأساسي هو مساواة الجميع في حق الحصول على المنصب وتقرير السياسة العامة، وهذا الترتيب يبدو سارا لدى النظرة الأولى، ولكنه يتحول إلى كارثة ونكبة، لأن الشعب ينقصه الإعداد الكافي في التعليم لاختيار أفضل الحكام وأفضل الخطط، إنه لا يفهم ويعيد ما يخبره به زعماؤه من عبارات يحب سماعها، فحكم الجماهير أو الغوغاء بحر هائج يتعذر على سفينة الدولة ركوبه والسير فيه، وتكون نتيجة مثل هذه الديمقراطية حكم الطغيان. إن الجماهير تحب المداهنة والمداجنة، وهي جائعة جدا وتواقة للعسل، ولهذا ينهض إلى الحكم أخيرا أكبر مداهن ومداجٍ ويدعو نفسه حامي الشعب، ومن ثم يستولي على السلطة العليا المطلقة في البلاد[٤٨]. فلا يمكن أن تفضي الحرية الزائدة إلا إلى العبودية الزائدة، سواء في هذا الحكم الدول والأفراد، فالأرجحية الكبرى قاضية بأن تكون الديمقراطية، والديمقراطية وحدها واضعة أسس الاستبداد، أي أن أشد حرية وأعظمها تضع أسس أشد استبداد وأثقله[٤٩].

صفات الطاغية المستبد

للطاغية المستبد صفات ذكرها أفلاطون وتتلخص فيما يلي:

١. **الطاغية بطل العامة:** إن العامة في عوز دائم لبطل خاص يولونه قضيتهم، ويحتفظون به ويعظمونه، ومكمن الاستبداد هو هذه البطولة، ويتحول البطل إلى مستبد عندما يتحول إلى ذئب، لأن هذا البطل عندما يرى من العامة هذا الرضوخ إلى حد أنه لا حاجة فيه إلى إراقة دم القريب، فإنه يضطهدهم بدعاوى مختلفة، ويريق دماءهم، ويزهق الأرواح البشرية، فيمتص دماءهم بشفتين نجستين، ويلحسها بلسان غير طاهر، فينفي ويقتل، ويصدر أوامر بإلغاء الديون وإعادة توزيع

(٤٨) ول ديورانت - قصة الفلسفة - (ص ٢٩).

(٤٩) أفلاطون - الجمهورية (ص ٣٦٢).

الأراضي. وهكذا يصل إلى مرحلة أنه إما أن يغتاله أعداؤه، أو أن يزداد استبدادا فيتحول ذئبا[٥٠].

٢. الطاغية ابن الموت: إن بطل العامة هذا عندما يصل إلى السلطة يبدو وديعا قريبا من جمهوره، يعطي الوعود في السر والعلن ويطلق المساجين من السجون، ويتظاهر بالوداعة والحنان على الجميع[٥١]. إلا أن هذا الحمل الوادع ما إن يريح نفسه من أعدائه، وذلك إما عن طريق نفي البعض أو التصالح مع البعض الآخر، حتى يشرع في شن الغارات ليظل الشعب في حاجة إلى قائد، ومن ثم يبدأ خطته في تجويع شعبه وإفقاره عن طريق إثقاله بالضرائب ليصبح هذا الشعب محتاجا إلى القوت اليومي. ولهذا السبب يصبح هذا الشعب أقل استعدادا للتآمر عليه، ومن المعلوم أن الطاغية لا يقبل النقد من أعوانه أو أشياعه، فإذا عاب عليه أحد الأشياع إدارته فإنه ينحيه على طريقته، لذلك فهو لا يُبقي على ذي جدارة من أعدائه ولا من أصدقائه، إنه يرقبهم مدققا، ليرى كل رجل فيهم، وكل كريم نفس، وكل نبيه، أو غني، ولحسن حظه - أو سوئه - فالضرورة قاضية عليه أن يكون عدوا للجميع، أراد ذلك أو لم يرده، وأن يكيد لهم حتى "يطهر" المدينة منهم. فالطاغية عكس الأطباء الذين يخرجون من الجسم المواد الفاسدة ويبقون الجيدة، أما هو فيخرج من المدينة الجيد ويُبقي الفاسد[٥٢]. إنه مقيد بأقصى ضرورة، إما أن يعيش بين أشخاص منحطين أكثرهم عديم النفع، ويكون مكروها منهم، أو أنه لا يعيش،

(٥٠) ما أكثر صور هذا الطاغية الذئب في عالمنا المعاصر، ممن يرتشفون دماء رعاياهم دون وخزة من ضمير، وذلك بأساليب يضيق عنها الحصر.

(٥١) هذا ما يفعله الطغاة في كل عصر، فهم إن وصلوا إلى السلطة بالطرق المشبوهة يعطون الوعود، ويتظاهرون بالحنان. ولكن ما إن يتمكنوا من السلطة حتى تغلق أبواب القلعة، ويتمترس الحرّاس بالأبواب إعلاناً ببدء الطغيان.

(٥٢) أفلاطون - الجمهورية (ص ٣٦٧).

وبقياس ازدياد بغضهم له لسوء سلوكه، يرى أنه في حاجة إلى حرس أوفر عددا وأصفى إخلاصا له[٥٣].

٣. **الطاغية يغتال والده:** هذا البطل الذي أوصلته العامة إلى سدة الحكم ما إن يتمكن من الأمر حتى يبدأ في تجييش الجيوش، وهذه الجيوش تحتاج إلى المال، ولا يرى هذا البطل أمامه سوى الأملاك العامة، فيمد يده إليها ويسرقها، وعند نفادها يمد يديه إلى أرزاق والديه، والمقصود بالوالدين هنا، العامة الذين ولدوا هذا الطاغية، فهم إن امتنعوا عن إعطائه حاجته فإنه لا يتورع عن مد يده إليهم وضربهم عندما يتأكد أنهم بلا سلاح ولا ظهير، فالطاغية ـ كما يقول أفلاطون ـ عقوق لأنه يغتال والده[٥٤]، وهو عندما يغتاله تصبح حكومته مستبدة جهرا ويغدو ذئبا خالصا.

خامسا: الأرستقراطية الديمقراطية هي الحل: يرى أفلاطون أن الطريقة التي يصل فيها الحكام إلى السلطة يجب ألا تكون هي التصويت، لأنه من المحتمل أن يترشح لمنصب القيادة من ليس كفؤا له، فيجر على الدولة الويلات والمصائب، بل يجب أن تكون الطريقة هي الكفاءة التي يبديها الشخص حيث تكون الفرص متساوية أمام الجميع، خصوصا في التعليم، وسيكون لكل شخص فرصة متساوية ليعدّ نفسه للمهمات الحكومية المعقدة.

ولكن أولئك الذين أثبتوا أفضليتهم وصلابة معدنهم، ونجحوا في جميع الامتحانات بأوسمة البراعة يحق لهم أن يحكموا البلاد، بحيث يتم اختيار موظفي الدولة الكبار لا على أساس التصويت والانتخابات، ولكن باختيارهم على أسس مقدرتهم وعلمهم[٥٥]. فبدلا من أن ينتخب الشعب من المرشحين الذين تقدمهم

---

(٥٣) المرجع السابق (ص ٣٦٨).

(٥٤) المرجع السابق (ص ٣٧٠).

(٥٥) ول ديورانت - قصة الفلسفة (ص ٤٤).

الأحزاب السياسية بطريقة التعيين أو الترشيح، يكون كل واحد من الشعب مرشحا في أرستقراطية، ويتلقى فرصة متساوية في التعليم، وهو تعليم يؤهله بطريق الانتخاب الطبيعي إلى المركز أو المنصب[٥٦]، وهكذا يصل إلى الحكم المثقفون الذين يثبتون جدارتهم. وينبغي الإشارة إلى أن أفلاطون حظر على هذا الحاكم أو الحكام الزواج وتكوين الأسرة، وإن تزوج الحاكم بامرأة ورزق بمولود فيجب أن يربى بعيدا عن أبيه لئلا تدب الأنانية في نفس الحاكم فيورثه الحكم، أو يستفيد هذا المولود من موقع والده فيعيث فسادا في الدولة. كما حظر على هذا الحاكم أو الحكام أن يمتلكوا البيوت والعقارات حتى لا يتحولوا إلى مديري منازل ومزارعين، بدل أن يكونوا حراسا للدولة وحكاما لها، ويصبحون أعداء وطغاة، لاحلفاء مع بقية المواطنين، مما يجعلهم كارهين ومكروهين، متآمرين ومعرضين للتآمر عليهم، فيصابون في حياتهم برعب وإرهاب أعدائهم في الداخل أكثر من أعدائهم في الخارج، وتكون ساعة الدمار لهم وللدولة أقرب إليهم من أيديهم[٥٧].

إن بصيرة أفلاطون قادته إلى هذا النموذج من الحكام، الذين هم فلاسفة بالدرجة الأولى، ومن ثم فهم بعيدون عن المؤثرات العاطفية التي تؤثر على نفسية الحاكم، فتجعله متقلب المواقف والآراء، ولكن هل بالمستطاع الوصول إلى هذا النموذج من الحكام ؟..

إن أفلاطون لا يرى الأمر صعبا طالما كانت هناك إرادة لذلك في الدولة، ولكن ما نراه في واقع الحال أن هذا الحاكم الفيلسوف ربما أعدّ لدولة لم تولد بعد، ومع أننا نريد وبشكل دائم أن يحكمنا الأفضل، إلا أن هذا الأفضل إن وجد فلا يُفسح له المجال كي يصل إلى المكان الذي خُلق لأجله، بل توضع دونه العراقيل، وغالبا ما لا يفكر به أحد، بل يعيش ويموت مغمورا.

---

(٥٦) ول ديورانت - قصة الفلسفة (ص ٤٥).

(٥٧) المرجع السابق (ص ٤٧).

الفصـــل الرابــع

أرسطو وسياسة الاعتدال

فضل أرسطو ابن الطبيب المولود في اسطاغيرا بمقدونيا عام ٣٨٤ ق. م، أن يضع - في خدمة الفلسفة بمعناها الواسع بدلا من الطب - ملكاته غير العادية في التحليل والمنهجة[٥٨]. كان والده صديقا وطبيبا للملك مينتاس ملك مقدونيا وجد الاسكندر الأكبر، ويبدو أن أرسطو أصبح عضوا في جمعية إخوة أسكيبياس الطبية، فشب في شذا الطب كما شب الكثيرون من الفلاسفة المتأخرين في شذا الطهارة والقداسة، وتوفرت أمامه كل فرصة وتشجيع للنمو بعقلية علمية، وأعد منذ البداية ليكون مؤسس العلم[٥٩]. وقد أتى إلى أثينا عام ٣٦٧ ق. م وعمره سبع عشرة سنة، فأصبح شخصية لامعة في أكاديمية أفلاطون التي علّم فيها.

وقد قام ببحوث عديدة وبارعة، وجمع الكثير من الوثائق، وأدّى به تطوره الفكري الذي أتاحت مراحله الدقيقة الفرصة لظهور التخمينات الأكثر براعة، والتي لم تفز أي منها، مع ذلك بالإقناع للتخلص من تأثير المعلم الذي أعجب به جدا وأحبه كثيرا. وبعد عشرين سنة غادر أثينا إلى أسوس بطروادة، ثم إلى ميتيلين بليسبوس، حيث أدار مدرسة، وعمّق البحوث في العلوم الطبيعية. وفي عام ٣٤٣ ق م استدعاه فيليب المقدوني لعاصمته بيللا ليسند إليه مهمة تربية ابنه الاسكندر البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، وعندما خلف هذا أباه في عام ٣٣٥ ق.م عاد أرسطو إلى أثينا حيث أسس المدرسة التي نافست بشكل رصين الأكاديمية التي كان يديرها حينذاك أكزينوفون.

---

(٥٨) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٧٥).

(٥٩) ول ديورانت - قصة الفلسفة (ص ٦٧).

لكن الاسكندر، الذي أصبح يلقب بالكبير وفاتح آسيا، مات عام ٣٢٣ ق. م فوجد أرسطو الأجنبي نفسه في خطر داخل أثينا الثائرة ضد الحكم الأجنبي، مما جعله يهرب - بعد ثلاث عشرة سنة تميزت بانطلاقة المدرسة، وإثمار تعاليم مؤسسها - إلى خلقيس بجزيرة أيونيا حيث توفي عام ٣٢٢ [٦٠]، وكان عمره اثنتين وستين عاما[٦١].

وقد بلغ عدد الكتب التي وضعها أرسطو المئات، ويذكر بعض الكتاب القدامى أن عددها بلغ أربعمائة كتاب، ولكن لم يبق منها سوى الجزء اليسير، ومع ذلك فما بقي يشكل مكتبة في حد ذاتها ؛ تحتوي على كتابات منطقية، وأعمال علمية، وأخرى في الفن والذوق والبلاغة وعلم العروض، وأعمال فلسفية في الأخلاق والسياسة والميتافيزيقيا والعلم الإلهي[٦٢]. ويعتبر مؤلّف السياسة من أهم مؤلفاته، وقد امتدّت كتابته على مرحلة طويلة من النشاط الفلسفي لأرسطو، منذ الإقامة في أسوس وحتى نهاية تعلميه في المدرسة، وفيه انكب أرسطو على دراسة المدينة التي كانت أمراضها قد ازدادت خطورة بشكل خاص بعد الجمهورية، ولقد برّر هذه المدينة وقوّاها من خلال جعل نظريته في الجماعة السياسية، منذ ذلك الحين، مرتكزا لها، كما وضع عددا من المثل العليا المتصلة بالوجود المدني، والتي ينبغي حتما السعي إليها، باعتبارها تشكّل الأسس السياسية والأخلاقية للمدينة - الدولة[٦٣].

١- أرسطو والدولة المدينية

يرى أرسطو أن علم السياسة هو علم السعادة الجماعية كما أن علم الأخلاق هو علم السعادة الفردية، وأن وظيفة الدولة هي أن تقيم مجتمعا يحقق أعظم

(٦٠) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٧٥).

(٦١) المرجع السابق (ص ٧٦).

(٦٢) ول ديورانت - قصة الفلسفة (ص ٧٦).

(٦٣) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٧٧).

سعادة لأكبر عدد من الأفراد، والدولة هي مجموعة من المواطنين ذات عدد كاف لتحقيق جميع أغراض الحياة، وهي نتاج طبيعي "لأن الإنسان بطبيعته حيوان سياسي"، أي أن غرائزه تؤدي به إلى الاجتماع مع غيره "والدولة سابقة بطبيعتها على الأسرة وعلى الفرد". ذلك أن الإنسان كما نعرفه يولد في مجتمع منظم من قبل يشكله في صورته[٦٤]. وبعد أن درس أرسطو مع طلابه ١٥٨ دستورا يونانيا، قسم هذه الدساتير إلى ثلاثة أنواع مختلفة: ملكية وأرستقراطية، وتمقراطية، أي حكم أصحاب السلطان، وأصحاب المولد الشريف، والنبهاء، وكل نوع من هذه الأنواع قد يكون صالحا حسب زمانه ومكانه وظروفه.

وتقول إحدى الجمل "إن نوعا من أنواع الحكم قد يكون أحسن من غيره من الأنواع، ولكن ليس ثمة ما يمنع أن يكون نوع آخر خيرا منه في ظروف خاصة"[٦٥]. وكل حكم حسن إذا كانت السلطة الحاكمة تعمل لمصلحة الناس جميعا لا لمصلحتها الخاصة، فإذا لم تفعل هذا فكل حكم سيئ[٦٦]. ويميز أرسطو بين ثلاثة أجزاء في الدستور، ويعلن أنه عندما تكون الأجزاء في حالة جيدة، فإن الدستور نفسه يكون بالضرورة في حالة جيدة.

فالجزء الأول يشرّع في القضايا المشتركة، والثاني يتصل بالحكّام، والثالث يُقيم العدالة[٦٧]. وهذا التقسيم ما يزال قائما في دساتير الدول فيما يعرف بنظام الفصل بين السلطات، التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وقد رأى أرسطو أن الدولة المدينية تتكون من أجزاء صغرى هي العائلات أو بالأحرى المنازل (جماعات عائلية)، التي تتشكل هي ذاتها من ثلاث علاقات أولية

---

(٦٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٧-٨ (ص ٥٠٩).

(٦٥) المرجع السابق (ص ٥١٠).

(٦٦) المرجع السابق (ص ٥١٠).

(٦٧) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ٨٩).

صغرى. ونجد في المرتبة الأولى منها الزوجين، وتقوم بينهما علاقة جماعية أولية وأولى، فمن "الضروري أولا أن تتحد الكائنات التي لا يمكن أن يوجد أحدها من دون الآخر، كما هي حال المرأة والرجل بهدف التناسل، والأمر لا يتعلق بخيار واع، بل كما الحال بالنسبة للحيوانات الأخرى والنباتات يتعلق الأمر باتجاه طبيعي لدى الكائن لأن يترك بعده آخر شبيها به" [٦٨].

ويبدو الحب بين الزوج وامرأته موافقا للطبيعة، لأن الإنسان كائن ميّال بصورة طبيعية لتكوين زوجين أكثر حتى مما لتكوين مجتمع سياسي، بمقدار ما العائلة هي شيء سابق للدولة المدينية، وأكثر ضرورة منها. وبمقدار ما يكون إنجاب الأولاد هو شيء أكثر شيوعا لدى الكائنات الحية، أيا كان نوعها، فإن الجماعة لدى الحيوانات لا تذهب أبعد من التناسل، بينما على صعيد النوع البشري لا يكون التناسل هو موضوع تساكن الرجل والمرأة الوحيد، بل يمتد هذا التساكن ليشمل حاجات الحياة. هكذا يقدمان الواحد للآخر مساعدة متبادلة، واضعين قدراتهما الخاصة في خدمة العمل المشترك[٦٩]. وفضلا عن العلاقة الزوجية (زوج/امرأة) ثمة في كل جماعة منزلية علاقة ثانية تشكل جماعة صغرى ثانية، هي علاقة السيد والعبيد المنزليين، أي العلاقة بين ذلك الذي يأمر وذلك الذي يؤمر، وهذا بفعل الطبيعة في سبيل حمايتهما المشتركة[٧٠].

ويحاول أرسطو هنا أن يبرهن أننا إزاء جماعة كائنات ناقصة، وبالتالي لا غنى لأحدها عن الآخر، بحيث لا يستطيع أن يكون أي منهما ذاته بالكامل من دون الآخر، وبحيث أن هذه الجماعة وحدها هي التي تسمح بتحقيق عمل مشترك، ومتميز من أي عمل آخر، ولكن هنالك نقصا آخر في السيد كما في العبد، فهما ليسا

---

(٦٨) فرانسيس وولف - أرسطو والسياسة — (ص ٥٣).

(٦٩) أرسطو - الخلاق إلى نيقوماخوس - الكتاب الثامن (ص ٢٩٩).

(٧٠) فرانسيس وولف - أرسطو والسياسة - (ص ٦٢).

ناقصين فقط لأنهما يحتاجان الواحد للآخر، بل كذلك لأن وجودهما بالذات لا يكفي ذاته بذاته لتأبيد نفسه، ليس فقط ينقصهما الآخر، بل هما معا كائن نقصان، كلاهما يحتاج للآخر في سبيل إرضاء حاجاتهما اليومية المباشرة، تلك التي تؤمنها الأسرة(٧١).

٢- قيمة الحياة السياسية

يرى أرسطو أنه لكي يصل الكائن إلى طبيعته الخاصة به فإنه يحتاج إلى قوة خارجية تسمح لميله الداخلي بأن يتحقق، فهو سياسي بصورة طبيعية، وطبيعته هي السبب في وجود الدولة المدينية، لكن كان هنالك مؤسسون للدول المدينية وهم السبب بالنسبة إليها، لأنه مثلما الإنسان المكتمل هو أفضل الحيوانات، فهو يكون الأسوأ بين الجميع حين يقطع علاقته بالقانون والعدل.

إن إنسانا في الدولة المدينية، أي منضما إلى آخرين تحت سقف قوانين مشتركة ومجبرا على الالتزام بالقواعد التي تضعها الجماعة، هو إنسان مكتمل، ناجز، وهو بالتالي في المكان الخاص به ضمن تراتب الكائنات، لا هو إله ولا هو بهيمة، لكنه أفضل الحيوانات لكونه قادراً على العدل. إن إنساناً خارج الدولة المدينية هو أسوأ من أسوأ البهائم لأنه مجهز بطبيعته باستعدادات عقلية تعوّض من نقاط ضعفه على صعيد وسائل الدفاع الذاتي البدنية، التي تكون الحيوانات الأخرى مجهّزة لها بطبيعتها، ولأن هذه الاستعدادات تشكّل الأسلحة الأكثر إثارة للرهبة، حين لا تتلازم مع التربية على العدل التي تؤمّنها قوانين الدولة المدينية.

إن الإنسان بوصفه حيوانا سياسيا، هو أفضل الحيوانات، والإنسان اللاسياسي هو أسوأ البهائم، إن فضيلة العدل سياسية، لأن العدل يُدخل نظاما إلى الجماعة السياسية والعدل يفصل بين العادل وغير العادل(٧٢).

(٧١) فرانسيس وولف - أرسطو والسياسة - (ص ٦٤)

(٧٢) المرجع السابق (ص ٦٨).

٣- جوهر الأنظمة السياسية المختلفة وخصائصها

يرى أرسطو أن كل الأنظمة التي تهدف إلى المنفعة المشتركة تكون أشكالا مستقيمة وفقا للعادل بالمعنى المنطقي، بينما تكون تلك التي لا تهدف،على العكس، إلا لتأمين مصلحة الحكام على وجه الحصر، أنظمة رديئة[٧٣]، وهذا المقياس يسمح برسم خط فاصل بين الأنظمة الحقيقية، أي السياسية حقا، تلك التي تتناسب مع جوهر السلطة السياسية وتحقق جوهر الدولة المدينية، والأنظمة السياسية الزائفة، تلك التي ليست سياسية بل استبدادية لأن السلطة تهدف فيها قبل كل شيء إلى تحقيق مصلحة أولئك الذين يمارسونها.

إن المقياس الوحيد للعدل الذي يستخلص من هذه التحليلات المتعلقة بجوهر السياسي هو مقياس المصلحة العامة، وحسبما يمارس السلطة شخص واحد، أو عدة أشخاص أو الجميع، وحسبما تستهدف هذه السلطة مصلحة ذلك بالذات الذي يمارسها أو المصلحة العامة، يكون لدينا ستة أنظمة ممكنة، ثلاثة منها "طبيعية" وهي:

الملكية: وهي النظام الذي يمارس فيه السلطة شخص واحد ولأجل الجميع.

الأرستقراطية: وهي النظام الذي يمارس فيه السلطة عدة أشخاص ولمصلحة الجميع.

الحكومة الدستورية: وهي النظام الذي يمارس فيه السلطة جمهور المواطنين بهدف تلبية المصلحة العامة.

وثلاثة "شاذة" لأنها استبدادية وليست غير إفساد الأنظمة السابقة، فمقابل الملكية "الطغيان" وهو: "حكم شخص واحد لصالحه الشخصي"، ومقابل الأرستقراطية هنالك "الأوليغارشية" وهي: "حكم عدة أشخاص بغية مصلحتهم الخاصة"، ومقابل الحكومة الدستورية نجد "الديمقراطية" وهي: "سلطة الجمهور

(٧٣) فرانسيس وولف - أرسطو والسياسة - (ص ١١٠).

الشعبي التي تمارس من دون اعتبار أي شيء غير مصلحة هذا الجمهور"[٧٤]، والحال أنه مثلما لا يمكن أن يكون عدد الحكام مقياسا لقيمة الأنظمة، فهو لا يمكن أن يكون مقياسا لجوهر مختلف الأنظمة. ويرى أرسطو أن الطغيان يجمع كل عيوب الديمقراطية وعيوب الأوليغارشية، بحيث أن الاحتقار والكراهية، المصحوبة غالبا بالغضب، تتضافر لدفع الرعايا الحانقين للتمرد ضد الطاغية.

وهكذا يبدو أن لا شيء أكثر استحسانا أخلاقيا وسياسيا، من انهيار هذه النظم المضرة والمشؤومة، لكن هذه النظم موجودة ولهذا يعتبر أرسطو أن من واجبه كمراقب ومحلل أن يأخذ بالحسبان كل ما هو موجود، وإن لم يكن إلا من أجل تحسينه بمعالجة ملائمة، ولذلك فهو يقترح من أجل الحفاظ على الطغيان، علاجين متعارضين تماما، الأول تقليدي، ويمثل الطريقة القوية، ويستخدم عندما يصل الطغيان لذروة فساده وقمعه. والثاني بالعكس، يقود الطاغية ليكون طاغية أقل ما يمكن وبعيدا أقل ما يمكن عن المدير الحقيقي للشيء العام، أي عن الملك الحقيقي، وليس هناك من شك في أن أرسطو يعطي الأفضلية لهذا العلاج الثاني[٧٥].

٤- أهداف الحكم الطغياني

ثمة مجموعة كبيرة من الوسائل المعدّة منهجيا والتي تستجيب لأهداف النظام الطغياني الثلاثة وهي: إذلال نفوس الرعايا، وبذر الريبة فيما بينهم من أجل تجنب المؤامرات التي تفترض وجود ثقة متبادلة بين المتآمرين "وفي نفس الاتجاه شن الحرب على الناس الشرفاء لأنهم الأكثر خطورة"، وأخيرا إبقاؤهم في حالة عجز عن التصرف، لأن أي شخص لا يحاول المستحيل، وقلب النظام الطغياني مستحيل عندما لا يكون لأي شخص القدرة على التصرف، إن الطاغية الذي يتبنى هذا الخط السلوكي يحرص إذن على أن يعادل بين أفراد النخبة، ويقضي على

---

(٧٤) المرجع السابق (ص ١١٣).

(٧٥) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٠٨).

النفوس العالية ويطلق العنان لمطاردة الثقافة الرفيعة، ويمنع المواطنين إلى أقصى حد ممكن من التعرّف على بعضهم البعض، ويجبر الأعيان والكبار على العيش تحت إشرافه[٧٦]، وتمضية أوقاتهم عند أبواب قصره ويستعمل عدداً من الجواسيس والجاسوسات والمراقبين والمستمعين، ويُفقر الرعايا الذين لن يكون لديهم الوقت للتآمر، نظرا لاستغراقهم في العمل اليومي، ويثير أخيرا الحروب وهي طريقة أخرى لشغل الرعايا[٧٧]، ولجعلهم في نفس الوقت يشعرون وباستمرار بالحاجة لرئيس، وثمة مسألة لا يمكن للطاغية أن يتساهل فيها، حتى ولو كان أو تظاهر بأنه طاغية أقل ما يمكن، وهذه المسألة هي المتعلقة بالسلطة، فيجب عليه أن يبقى قادرا على فرضها على رعاياه سواء برضاهم أم بدون رضاهم، لأن التنازل في هذه المسألة يعني التخلي بنفس الوقت عن وضعه كطاغية، ويعمد الطاغية إلى اختيار الفاسدين من البشر في نظام حكمه ليكونوا له أصدقاء، فهم عبيد النفاق والتملق، والطاغية تسره المداهنة، وينتشي من النفاق ويريد من يتملقه، ولن تجد إنسانا حرا شريفا يقدم على مثل هذا العمل. فالرجل الخيّر يمكن أن يكون صديقا، لكنه لا يمكن تحت أي ظرف أن يكون مداهنا أو متملقا، أما الرجل السيئ فليس لديه الاستعداد للقيام بهذا الدور وحسب، وإنما نراه يسعى إليه[٧٨].

٥- الحــل عنــد أرسطــو

إن أرسطو بعد أن حلل مضمون أنظمة الحكم وركّز على الفاسد منها وهو نظام الطغيان نراه يبحث عن علاج يمكن بواسطته أن يكون الحكم خيرا للناس وليس شرا عليهم، ولذلك فهو يدعو إلى الاعتدال وإلى القياس العادل، فعلى المشرّع والسياسي الجدير بهذا الاسم أن يعرف ما هي - من بين المؤسسات ذات الطابع

(٧٦) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٠٩).

(٧٧) لقد رأينا أن أفلاطون أشار إلى نفس الموضوع خلال حديثه عن الطاغية.

(٧٨) إمام عبد الفتاح إمام - الطاغية (ص ١٤٧).

الشعبي - تلك التي تحفظ الديمقراطية، وتلك التي تهدمها، ومن بين المؤسسات ذات الطابع الأوليغارشي تلك التي تحفظ الأوليغارشية وتلك التي تهدمها. إن من الخطأ الفاحش دفع الإفراط بشكل أعمى في اتجاه هذه الطبقة أو تلك، ويجب أن تساير الديمقراطية الأغنياء.

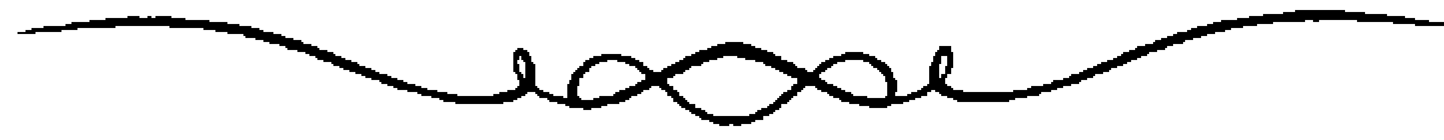
والأوليغارشية يجب أن تبدو وكأنها تفضل مصالح الشعب، وألا تكون مناصب الحكم أو الوظائف العامة مطلقا مصدرا للأرباح، لأنه لا شيء يثير سخط الجماهير مثل التفكير بأن الخزينة العامة أصبحت نهبا للحكام(٧٩). ويجب أن يسود القانون ذلك أن "حكم القانون خير من حكم الفرد. " ومن يعهد بالسلطة العليا لإنسان أيا كان إنما يعهد بها إلى وحش من الوحوش، لأن شهواته تجعله في بعض الأحيان وحشا، وللعواطف أثر كبير فيمن يتولون السلطة، ولو كانوا هم خير من يتولاها، أما القانون فهو العقل مجردا عن الشهوة والدولة المقامة على هذا النظام تتولى تنظيم الملكية، والصناعة، والزواج، والأسرة، والتعليم، والأخلاق، والموسيقى، والأدب، والفن، "وأحق من هذا كله بالعناية ألا يتجاوز عدد المواطنين حدا معينا"، لأن إهمال هذا الواجب يؤدي إلى إفقار المواطنين، وإذا كان الذكاء أعظم الفضائل، فإن أهم ما يجب على الدولة ليس هو إعداد المواطنين للتفوق الحربي، بل هو تعليمهم كيف يستفيدون من السلم الاستفادة الصحيحة(٨٠).

(٧٩) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٠٧).

(٨٠) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٧-٨ (ص ٥١٤).

الباب الثاني

انتشار المسيحية والطغيان



- تمهيد
- الفصل الأول : المسيحية في روما
- الفصل الثاني : المسيحية في بلاد الأندلس

تمهيد

كانت بيت لحم مهد يسوع، وسائر فلسطين وسوريا خاضعة لحكم الإمبراطورية الرومانية، عندما ذاع صيت يسوع في بلاد السامرة كمصلح يهودي، ولم يكن الوعظ والإصلاح جريمة تعاقب عليها القوانين الرومانية ؛ إذ كان الأمراء الرومان لا يلقون بالا إلى ألف من الديانات التي عاشت في سلام في ظل حكمهم الوداع[(٨١)] .

إلا أن السنهدرين[(٨٢)] اليهودي رأى في حركة يسوع خطرا يهدد الوجود اليهودي، وخاصة عندما أتى إلى أورشليم في عيد الفصح اليهودي ولاقته الجموع الثائرة بالاستقبال الحماسي، فخاف أعضاء السنهدرين من أن تدفع العواطف الثائرة هذه الجموع إلى الثورة على السلطة الرومانية، والتي ستكون نتيجتها وخيمة، لأنه لم يحن موعدها بعد، فتكون عاقبتها القضاء على كل ما تستمتع به اليهودية من حكم ذاتي وحرية دينية.

ومن أجل هذا دعا الحاخام الأكبر السنهدرين إلى الاجتماع وقال له: "إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب ولا تهلك الأمة كلها"، ووافقته أغلبية الحاضرين على رأيه وأمر المجلس بإلقاء القبض على المسيح[(٨٣)] .

---

(٨١) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٠٨).

(٨٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٤٠٨).

(٨٣) السنهدرين: صيغة عبرية للكلمة اليونانية "سندريون" ومعناها المجلس، وتدل الكلمة على المحكمة العليا. وكان السنهدرين هو الذي جمع الحقائق وقدمها للحاكم الروماني بغية صلب المسيح. وقد اختفى السنهدرين من التقاليد اليهودية منذ القرن الرابع الميلادي، رغم أن أحد كتب التلمود يدعى "السنهدرين". وقد أطلق على الاجتماع الذي نظمه اليهود عام ١٨٠٧ بناء على طلب نابليون، والذي شارك فيه ٧١ عضواً اسم السنهدرين الأعظم.

وقد وصل نبأ هذا القرار إلى مسمع يسوع، وفي اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبري - وهو اليوم الثالث من شهر أبريل- من العام الثلاثين في أرجح الأقوال (لأن ثمة جدلا حول السنة التي مات فيها)، أكل عيسى ورسله عشاء عيد الفصح في دار صديق له في أورشليم، وكانوا ينتظرون أن ينجي المعلم نفسه بما له من معجزات، لكنه لم يفعل شيئًا من هذا. وفي هذا العشاء الأخير اتهم المسيح علنا يهوذا الإسخريوطي، وهو أحد تلاميذه الاثني عشر بأنه يأتمر به ليسلمه إلى أعدائه[٨٤]. وقيل إن الجماعة الصغيرة اختبأت تلك الليلة في حديقة جشيماني في خارج أورشليم، وفيها عثرت عليهم سرية من شرطة الهيكل وقبضت على يسوع، وسيق أولا إلى بيت أونياس أحد كبار الكهنة السابقين ومن ثم إلى بيت قيافا.

ويقول مرقس إن المجلس ـ لجنة من أعضاء السنهدرين ـ اجتمعت في ذلك المكان، وشهد عليه شهود كثيرون، وذكروا بنوع خاص تهديده بتخريب الهيكل. ولما سأله الكاهن قيافا هل هو "المسيح ابن الله ؟" أجابه ـ كما تقول الرواية ـ "أنا هو". واجتمع السنهدرين في صباح اليوم التالي وأثبت عليه جريمة التجديف، وكان عقابها الإعدام في تلك الأيام، وقرر أن يسوقه أمام الحاكم الروماني. وجيء به إلى بيلاطس البنطي فسأله هذا أنت ملك اليهود؟ فأجاب يسوع وفق رواية متّى بقوله، نعم. ولم يكن أمام القانون بعد اعتراف المسيح إلا أن يدينه، وبناء على هذا أصدر بيلاطس وهو كاره حكمه بالإعدام. وكان الصلب من طرق العقاب الرومانية اليهودية. وسواء كان يسوع من دعاة الثورة أو من غير دعاتها فليس ثمة ريب في أن روما قد حكمت عليه بوصفه من هؤلاء الدعاة[٨٥]. وهكذا فقد تم صلب المسيح

(٨٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٣٥).

(٨٥) المرجع السابق (ص ٢٣٧).

فأسلم روحه وهو على خشبة الصليب بعد أن قال، إلهي لماذا تركتني ؟. وهذا نداء اليأس الذي يعزوه مرقس ومتّى إلى المسيح وهو يحتضر[٨٦]. واستطاع اثنان من اليهود الرحماء ذوي النفوذ أن يحصلا على إذن من بيلاطس بإنزال جثة المسيح عن الصليب فأنزلاها وحفظاها بالند والمرّ ووارياها التراب[٨٧].

وبعد يومين من هذا الحادث زارت مريم المجدلية قبر المسيح مع مريم أم يعقوب وسالومة فوجدنه فارغا، فامتلأت قلوبهن خوفا وسرورا معا، وجرين لينقلن ذلك النبأ إلى تلامذته، والتقين في الطريق برجل حسبنه يسوعا، فانحنين احتراما له، وأمسكن بقدميه[٨٨]، وملأ ذلك النبأ قلوب أهل الجليل بنشوة جعلتهم على استعداد لأن يصدقوا أية معجزة وأي وحي. ولما بلغ هذا النبأ إلى مسامع الكاهن اليهودي قيافا قال، الآن بدأت المسيحية وبات من الصعب على أي كان القضاء عليها.

---

(٨٦) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٣٨).

(٨٧) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٣٩).

(٨٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٣٩).

الفصل الأول

المسيحية في روما

المسيحيون والدولة الرومانية: حقا لقد بدأت المسيحية وانتشر الحواريون والرسل في الأصقاع يكرزون بهذا الدين الجديد، وكانت روما عاصمة الدولة الرومانية مدينة مزدهرة وقد قصدها بهدف التبشير أعظم تلامذة المسيح ألا وهو بطرس الحواري، وكذلك بولس الرسول، وكانت الحكومة الرومانية ـ كما أشرنا ـ متسامحة مع الأديان المعارضة للدين الوثني الذي هو الدين الرسمي للإمبراطورية. ولم تكن تطلب من أتباع العقائد الجديدة إلا حركة يأتونها من حين إلى حين يمجدون بها الآلهة ورئيس الدولة[٨٩].

ولهذا آلم الأباطرة أن يجدوا أن المسيحيين واليهود - دون سائر أتباع الأديان الخارجة على دين الدولة - هم الذين يأبون أن يعظموا عبقرياتهم ذلك إن إحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور كان قد أصبح دليل الولاء للإمبراطورية وتوكيداً لهذا الولاء، فهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بيمين الولاء التي تطلب إلى من ينالون حق المواطنة في هذه الأيام.

لكن الكنيسة كانت ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة، وترى في عبادة الإمبراطور نوعا من الشرك وعبادة الأصنام، ولذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما لحق بهم من الأذى بسبب هذا الرفض، واستدلت الحكومة الرومانية من هذا على أن المسيحية حركة متطرفة، بل لعلها حركة شيوعية ـ تعمل في الخفاء من أجل قلب نظام الحكم القائم[٩٠].

---

(٨٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٠).

(٩٠) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٠).

وقد كان الوئام الديني في العالم يعززه في الأساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة كل منها نحو تقاليد الأخرى وطقوسها، ومن ثم كان من المتوقع أن تتحد كلها، بلا حرج ولا غضب، ضد أية طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشري، ويحتقر بالضرورة - بحكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الإلهية - أي لون من العبادة باعتباره ضلالا ووثنية، اللهم إلا عبادته هو فحسب. وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بنفس القدر، وكانت هذه الحقوق تضيع عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة [٩١].

ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتا عن دفع هذه الجزية، فإن الباعث الذي حدا بالحكام الرومان إلى المعاملة التي لقيها منهم اليهود قد يوضح إلى أي مدى تبرر الحقائق هذه التأملات، وتؤدي إلى الكشف عن الأسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية. وقد كان المسيحيون باعتناقهم رسالة الإنجيل جلبوا على أنفسهم وزر جريمة غير طبيعية لا تغتفر: إنهم حلوا روابط العرف والتعاليم المقدسة، وانتهكوا حرمة النظم الدينية في بلدهم، و احتقروا في جرأة ووقاحة كل ما آمن به آباؤهم على أنه حق أو بجّلوه على أنه مقدس.

ورفض جمهور المسيحيين عامة أي ارتباط بآلهة روما أو الإمبراطورية، بل بمعبودات الجنس البشري بأسره [٩٢]. وقد استطاعت القوتان قبل عهد نيرون أن تعيشا معاً من غير أن يشجر بينهما النزاع، وكان القانون يعفي اليهود من أن يعبدوا الإمبراطور ونال المسيحيون في أول أمرهم هذه الميزة لأنه لم يكن يستطاع التمييز بينهم وبين اليهود، ولكن مقتل بطرس وبولس، وحرق المسيحيين في عهد نيرون، بدّلا هذا التسامح المتبادل المشوب بالاحتقار من الجانبين عداء دائماً، وحرباً تندلع نارها بين الفينة والأخرى.

---

(٩١) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٠٩).

(٩٢) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤١٢).

فلا غرابة أن وجّه المسيحيون بعد هذا الإيذاء أسلحتهم كلها إلى صدر روما، فنددوا بما فيها من فساد وعبادة للأصنام، وسخروا بآلهتها، وأظهروا الشماتة فيها حين حلت بها الكوارث، وتنبأوا بسقوطها بعد زمن قليل، وأعلنوا أن كل من أتيحت لهم الفرصة لاعتناق المسيحية ثم لم يعتنقوها سيعذبون عذابا أبديا. ورد الوثنيون على هذا بأن سموا المسيحيين "حثالة الناس" و "البرابرة الوقحين"، واتهموهم بأنهم أعداء الجنس البشري، وقالوا إن الكوارث التي حلت بالإمبراطورية ليست إلا نتيجة غضب الآلهة الوثنية، والسماح لمن يسبونها من المسيحيين بأن يبقوا أحياء، وأخذ كل فريق يفتري على الآخر آلاف الافتراءات، فاتهم المسيحيون بأنهم سحرة متصلون بالشياطين، وأنهم يقترفون الخطايا سرا، ويشربون دماء الآدميين في عيد الفصح، ويعبدون الحمار[(٩٣)].

موقف الحكومة الرومانية من المسيحيين: كانت المسيحية تنتشر بين الناس بسرعة مذهلة؛ بحيث لم يكد ينتهي القرن الأول إلا وكانت كل ولاية رومانية من الولايات المطلة على البحر الأبيض المتوسط تضم بين جوانبها جالية مسيحية، بل إن المسيحيين كونوا جالية ملحوظة في روما نفسها منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة٦٤ [(٩٤)].

وقد جاءت معارضة الدين الجديد من قبل الشعب أكثر مما جاءت من قبل الدولة، ذلك أن الحكام كانوا في كثير من الأحيان رجالا مثقفين متسامحين، ولكن جمهور السكان الوثنيين قد ساءهم عزلة المسيحيين، وتعاليهم، وثقتهم بأنفسهم، وأهابوا بحكامهم أن يعاقبوا أولئك الملاحدة الذين يهينون الآلهة[(٩٥)]، وقد رفض جمهور الوثنيين الذين رأوا الاحتفاظ بمزايا الحياة الدنيا وحدها، رفضوا نعمة

---

(٩٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧١).

(٩٤) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى (ص ٤٨).

(٩٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٢).

الحياة والخلود، تلك النعمة التي تفوق حق التقدير والتي وعد بها يسوع الناصري جميع البشر[٩٦].

وقد كانت السياسة الرومانية تنظر بأشد القلق والريبة إلى أية رابطة تقوم وسط رعاياها، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة في أضيق الحدود، وفي تقتير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف نبيلة بعيدة عن الأذى والضرر. ولكن الجمعيات المسيحية التي انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة، فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ، وربما باتت خطيرة من حيث العواقب[٩٧]، ويلوح أن القانون الروماني منذ أيام نيرون كان يعد الجهر بالمسيحية جريمة يعاقب عليها بالإعدام[٩٨]. ومنعت الدولة الرومانية اجتماعات المسيحيين وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم[٩٩]، ولم يقم بهذه الموجة الاضطهادية ضد المسيحيين بعض الحكام المتعسفين المعروفين بجبروتهم مثل نيرون الذي قدم مسيحيي روما طعاما للنار العظيمة التي أشعلها سنة /٦٤/ فحسب، بل شارك فيها أيضا فئة من خيرة الأباطرة المصلحين المعروفين بحرصهم على تنفيذ القانون مثل تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أورليوس[١٠٠].

نيــرون الطاغيـــة

إن تاريخ الكنيسة قد سجل أول مظاهر الاضطهاد الدامي في عام /٦٤م/ في عهد الطاغية نيرون[١٠١] Neron، وكان نيرون هذا في ركوب الفواحش وإتيان القبيح

---

(٩٦) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤١٤).

(٩٧) المرجع السابق (ص ٤١٥).

(٩٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٢).

(٩٩) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى (ص ٥١).

(١٠٠) المرجع السابق (ص ٥١).

(١٠١) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ٤٨).

والشر على مثل سيرة جدّة، كاليغولا[١٠٢] Caligula، بل قد زاد عليه وأربى على فعله، وكان قد جمع من صنوف المنكر والشر ما استكمل به كل غاية عهاراً أو فسقاً وجرماً ورغبة وشحا ولؤما وكفرا. وبلغ من الرغبة إلى أن أغار على جميع محاريب الأوثان واستلبها كساها وحليّها، وبلغ من المجاوزة في العهار إلى إتيان أمه وأخواته وجميع أهله، وبلغ من الإعلان بالفساد إلى أن تزوج غلاماً زوج نفسه من آخر، فأقام نفسه بعلا للواحد وزوجا للآخر، وأعرس في يوم واحد لهما[١٠٣]. وبلغ من البذخ إلى أن عملت له شباك من ذهب وحبالها من الحرير، وبها كان يتصيد له في البحر، وكان يغتسل بأنواع أدهان الطيب الثمينة باردة وحارة. وكان لا يخرج إلى أقرب الأسفار حتى يكون معه ألف عربة. وخرج مرة فأمر بإشعال المدينة نارا ليكون ذلك له ملهى ونزهة، فأحرقت النار فيها سبعة أيام وسبع ليال، والتهى بالنظر إليها. وكان في المدينة أهراء مبنية من الصخر المربع وفي جزائر النهر بنايات قديمة لم تكن النار تصل إليها ولا تعلق بها، فأمر بإبراز الآلات التي كان استقدمها الملوك لخراب الأسوار والبنايات من المدائن التي كانوا يحاربونها، واستعمل ذلك فيما عسر عليه حرقه من مباني المدينة، وهو في خلال ذلك كله مُلْتهٍ فَرِح بما يعانيه من ذلك، وبلغ من الرغبة إلى أن منع الناس بعد إحراقه بيوتهم عن أخذ شيء من متاعهم، وضم إلى نفسه كل ما خلص من النار، وبلغ في الكفر إلى أن قتل أكثر الأشراف حتى كاد يفنيهم، وقتل أمه وامرأته وجميع أختانه بعد عبثه بهم، وجماعة من أقاربه بلا ذنب قتلهم[١٠٤]، ثم مضى في الجرم على الناس إلى أن جاوز الجرأة

---

(١٠٢) جايس قيصر بن أكتيبان، كان إمبراطوراً من سنة ٣٧ إلى ٤١ بعد الميلاد. وهو ابن جرمانيقوس وأمه أجريبنا الكبرى، ولد سنة ١٢ ميلادية، نشيء بين الفيالق في ألمانيا، وينبذ بلقب كاليغولا/ حذاء الجندي/ لأنه في طفولته كان يلبس حذاء عسكرياً صغيراً، وسار سيرة غاية في التناقض والإسراف مما ضجّ له الرومان، فقتله جايس كاسيوس كيريا وآخرون في يوم ٢٤ يناير سنة ٤١م.

(١٠٣) أورسيوس - تاريخ العالم (ص ٤٢٧).

(١٠٤) المرجع السابق (ص ٤٢٧).

على الله، فكان أول من قتل نصارى الرومانيين وحمل عليهم أنواع العذاب، وأمر بتطلبهم وقتلهم وتعذيبهم في جميع الكور والبلدان، وأراد بجميع جهده أن يقطع اسم المسيحية من جميع الدنيا. وفي السنة الثالثة من دولته، قتلت اليهود مرقس الإنجيلي بالإسكندرية رمياً بالحجارة، وأحرقت بعد ذلك جسده بالنار.

وقد صلب نيرون قيصر بطرس الحواري Petrus، وضرب عنق بولس الحواري Paulus، وذلك في السنة الرابعة عشرة من دولته[١٠٥]، وأنتج حريق روما في بضع سنين قلائل مدينة جديدة، أدق نظاما وأوفر جمالا من سابقتها. ولكن كل الفطنة والروح الإنسانية اللتين تظاهر بهما نيرون لم تنقذه من شكوك الشعب، فإن أية جريمة يمكن أن تلصق بقاتل زوجته وأمه، واتهمت الإشاعات الإمبراطور بإحراق عاصمته عمدا. وقد ذكرت القصص أن نيرون الطروب للكارثة التي أحدثها، تسلّى على قيثارته بأنشودة تدمير طروادة القديمة[١٠٦]. وصمم الإمبراطور على إلصاق التهمة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التي عجزت قوة الاستبداد عن القضاء عليها، وعلى هذا الأساس، أنزل نيرون أشد ألوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا ـ تحت اسم المسيحية القبيح في رأي نيرون ـ قد وصموا فعلا بأشنع العار، فقد اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذي لقي حتفه في عهد تيبيريوس قيصر، على يد نائب الحاكم بلاطس البنطي Pontius Pilateus، وأخمدت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة، ولكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت، لا في أرض الميعاد وحدها، وهي الموطن الأول لهذه الطائفة الشريرة، بل كذلك وصلت إلى روما، وهي الملاذ العام الذي يتلقى ويحمي كل ما هو ملوّث مهما كان تلوثه، وكل شيء فظيع مهما بلغت فظاعته، وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركاء كثيرين لهم، وأدينوا جميعا بتهمة كراهيتهم للجنس البشري، أكثر منه بتهمة

(١٠٥) أورسيوس - تاريخ العالم (ص ٤٢٧).

(١٠٦) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٢٤).

إشعال النار في روما، وعذبوا حتى ماتوا[١٠٧]، وزاد السباب والسخرية من مرارة التعذيب، ودق بعضهم بالمسامير على الصلبان، وخيط آخرون في جلود الحيوانات المتوحشة، وتركوا لنهم الكلاب، وصب على بعضهم مواد محرقة، وأوقدت فيهم النار، واستخدموا كمشاعل تضيء حلكة الليل، وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذي صحبه سباق للخيل، والذي شرف بحضور الإمبراطور الذي اختلط بالشعب في زيّ وهيئة قائد عجلة حربية، واستحقت جريرة المسيحيين أقسى عقاب يكون فيه عبرة لغيرهم، ولكن المقت العام تحول إلى إشفاق، استنادا إلى أن التضحية بهؤلاء الأشقياء التعساء لم تكن من أجل المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود[١٠٨].

قمع الكنيسة بعد نيرون

لم يتوقف القمع بموت نيرون، بل سار بين مد وجزر ؛ ففي زمن الإمبراطور تراجان Trajanus، عهد هذا الإمبراطور إلى بليني بحكم بيثينيا وبنطس، وسرعان ما وقع بليني في حيرة من أمره أي قاعدة من قواعد العدل أو القانون يتخذها أساسا لسلوكه في ممارسة مهام وظيفة هي أبغض ما تكون إلى روحه الإنسانية. ولم يكن بليني قد اشترك قط في إجراءات قضائية ضد المسيحيين الذين يبدو أنه لم يعرف عنهم إلا اسمهم، ولم يصل إلى علمه شيء عن طبيعة جريمتهم، وأسلوب اتهامهم، ودرجة عقوبتهم، وتكشف رسالته التي بعث بها إلى تراجان عن مدى جهله بتلك الخرافة الجديدة (المسيحية)، فهو يطلب منه فيها أن يتفضل فيبدد شكوكه أو يجبر جهله[١٠٩]، "إن الطريقة التي اتبعتها مع من اتهموا أمامي بأنهم مسيحيون هي هذه: لقد سألتهم هل هم مسيحيون ؟. فإذا اعترفوا بأنهم كذلك،

---

(١٠٧) المرجع السابق - جا (ص ٤٢٥).

(١٠٨) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - جا (ص ٤٢٥).

(١٠٩) المرجع السابق - جا (ص ٤٣٢).

أعدت السؤال عليهم مرة أخرى، وأنذرتهم في الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم، فإذا أصروا عليه أمرت بقتلهم"[١١٠].

ويكشف جواب تراجان عن احترام كبير للعدالة والإنسانية، مما يمكن الملاءمة بينه وبين أفكاره الخاطئة عن السياسة الدينية، وبدلا من الكشف عن الغيرة الشديدة التي لا تنثني من "محقق" متلهف على استيضاح أدق تفاصيل الهرطقة، نرى الإمبراطور يعبر عن رغبة وقلق من أجل حماية أمن الأبرياء أشد كثيرا منه للحيلولة دون إفلات المجرمين، وإنه ليعترف بالصعوبة في تحديد خطة عامة، ولكنه يضع قاعدتين مفيدتين غالبا ما كان فيها غوث وتدعيم للمسيحيين المنكوبين[١١١].

"إن الخطة التي سرت عليها يا عزيزي بليني في بحث حالات من اتهموا أمامك بأنهم مسيحيون خطة حكيمة، يجب ألا تجد في البحث عن هؤلاء الناس، ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم، فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحي وأيّد ذلك بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه، فإذا بلّغت عن أحدهم ولم يذكر في البلاغ اسم المتهم فلا تتخذ بيّنة على أحد[١١٢].

ورغم سماحة هذا الإمبراطور إلا أننا نسمع عن شهيدين بارزين في أيام زعامته، أحدهما سمعان رئيس كنيسة أورشليم، وثانيهما أغناثيوس أسقف إنطاكية، وأمر الإمبراطور هدريان Hadrianus المتشكك الذي يتسع عقله لقبول كل الآراء، موظفيه بأن يفسروا كل شك في مصلحة المسيحيين، أما أنطونينس Antonius الذي كان أكثر استمساكا منه بدينه، فقد أباح الاضطهاد أكثر من هدريان، وتجدد الاضطهاد في عهد ماركوس أورليوس Marcus Aurelius الورع، ذلك أنه لما حلت بالبلد الكوارث من فيضان، ووباء، وحرب، في حكمه الذي كان في

(١١٠) قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٣).

(١١١) اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٣٣).

(١١٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - محلد ١١-١٢ (ص ٣٤٧).

أول أمره حكما موفقا سعيدا، ساد الاعتقاد بأن سبب هذه الكوارث هو إهمال آلهة الرومان أو إنكارها، وشارك أورليوس الجماهير في ذعرها أو لعلّه خضع لها، فأصدر في عام ١٧٧ مرسوما يقضي بعقاب الشيع الدينية التي تنشر الاضطراب "باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة" بتلقينها عقائد جديدة(١١٣).

وثارت الجماهير الوثنية في تلك السنة نفسها ثورة عنيفة ضد المسيحيين في فيينا وليون ورجموهم بالحجارة، وأمر المرسوم الإمبراطوري بالقبض على زعماء المسيحيين في ليون، ومات الأسقف بوثينس، وهو شيخ في سن التسعين في السجن من آثار التعذيب وأرسل رسول إلى روما ليسأل الإمبراطور عما يشير به في معاملة سائر المسجونين.

فأشار ماركوس بأن يطلق سراح من ينكر الدين المسيحي، وأن يقتل من يعتنقه كما يقضي بذلك القانون(١١٤). وكان أهل ليون يحتفلون وقتئذ بعيد الأوغسطاليا وذلك كعادتهم كل عام، وأقبلت الوفود من جميع بلاد الغال حتى ازدحمت بهم عاصمة الولاية، وبينما كانت الألعاب قائمة على قدم وساق جيء بالمسيحيين المتهمين إلى المدرج ووجهت إليهم الأسئلة، فأما من أنكروا فقد أخرجوا من المدرج، وأصرّ سبعة وأربعون على الاستمساك بدينهم فقتلوا بعد أن ذاقوا من ألوان العذاب ما لا مثيل له إلا في أيام محاكم التفتيش، من ذلك أن أتلس الذي يلي بوثينس في المراتب الكهنوتية قد أرغم على الجلوس على كرسي من الحديد المحمى الذي شوى جسمه وأزهق روحه.

وخفت حدة الاضطهاد في عهد كمودس ثم عاد إلى ما كان عليه في عهد سبتميوس سفيرس، وبلغ من شدته أن كان التعميد نفسه يُعد جريمة تستحق العقاب(١١٥). وفي عام ٢٠٣ استشهد كثيرون من المسيحيين في قرطاجنة، وتجدد

(١١٣) المرجع السابق - مجلد ١١- ١٢ (ص ٣٧٥).

(١١٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٥).

(١١٥) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٦).

الاضطهاد في عهد ديكيوس عام ٢٤٩ فألقي مئات من المسيحيين الرومان في غيابة الجب، وقطعت رؤوس بعضهم، ومات الكثيرون منهم على قوائم الإحراق، وألقي عدد قليل منهم إلى الوحوش في حفلات الأعياد. وخفت حدّة الاضطهاد بعد ذلك بعام، ولم يحل عيد الفصح في عام ٢٥١ حتى انتهى أمرها أو كاد. وبعد ست سنين من ذلك الوقت أمر فليريان في خلال أزمة أخرى من أزمات الغزو والرعب، أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية، وحرم كل الاجتماعات المسيحية، وعصى البابا سكتس، هذا الأمر فأعدم هو وأربعة من شمامسته، وكذلك قطع رأس سبريان أسقف قرطاجنة، وحرق أسقف طراقونة حيا.

وفي عام ٢٦١ نشر جالينوس Galenos ، الذي جلس على العرش بعد أن أزال عنه ألفرس فليريان، أول مرسوم يقضي بالتسامح الديني اعترف فيه بأن المسيحية من الأديان المسموح بها وأمر بأن يرد إلى المسيحيين ما صودر من أملاكهم، وحدثت اضطهادات خفيفة في السنين الأربعين التالية، ولكن هذه السنين كانت في معظمها سني هدوء ونماء سريع للمسيحية لم تر لها مثيلا من قبل، فقد كان الناس في خلال الفوضى والرعب السائدين في القرن الثالث يفرّون من الدولة الواهية المزعزعة الأركان إلى الذين يجدون فيهم سلواهم، وقد وجدوا هذه السلوى في المسيحية أكثر من غيرها من الأديان المنافسة لها(١١٦). واعتنق المسيحية وقتئذ عدد من الأغنياء، فشادوا كنائس فخمة، وأجازوا لأبنائهم أن يستمتعوا بطيبات العالم وخبت نار الأحقاد الدينية بين الأهلين(١١٧).

عصر الشهداء

يبدو أن الاضطهاد والقمع ضد المسيحية قد أتى بنتيجة عكسية، لأن روح الشجاعة والصبر والإيمان التي واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع

(١١٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٨).

(١١٧) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٨).

إعجاب الكثيرين فأقبلوا على اعتناق الديانة الجديدة، وهكذا لم يكد يحل القرن الثالث إلا وكانت المسيحية قد أصبحت قوة خطيرة نتيجة لازدياد عدد أتباعها ازديادا مطردا، مما دفع الإمبراطور دقلديانوس إلى التطرف في قمعها في أوائل القرن الرابع[١١٨]. وقد كان جاليريوس يرى أن المسيحية هي آخر العقبات القائمة في سبيل السلطة المطلقة، فأخذ يحرّض رئيسه على أن يجعل العودة إلى العهود الرومانية السابقة عودة كاملة، وذلك بإرجاع الآلهة الرومانية إلى منزلتها القديمة.

وتردد دقلديانوس Diocletianus في الأخذ بمشورته لأنه كان عازفا عن ركوب أخطار لا موجب لها[١١٩]، ورغم أن مزاجه لم يكن سريع التأثر بالغيرة والحماس، إلا أنه درج على إظهار الاحترام للمعبودات القديمة في الإمبراطورية وكثيرا ما خص دقلديانوس وزملاؤه، بأهم المناصب، أولئك الأشخاص الذين أعلنوا بغضهم للآلهة، ممن تكشفت فيهم القدرات والمواهب اللازمة لخدمة الدولة، وكان لكل من الأساقفة منزلة كبيرة في ولايته، وكانوا يلقون معاملة ملؤها التقدير والإجلال، لا من الشعب وحده، بل من الحكام أنفسهم[١٢٠]، وتبين في كل مدينة تقريباً أن الكنائس القديمة لا تتسع للعدد المتزايد من الداخلين في الدين، فشيد مكانها أبنية أفخم وأرحب تصلح لإقامة الصلوات العامة للمؤمنين: "وقد يعتبر سوء السلوك وفساد المبادئ اللذين نعى عليها يوسوبوس/أحد مؤرخي الكنيسة ٢٦٠ - ٣٤٠م / لا مجرد نتيجة، بل برهانا على الحرية التي تمتع بها المسيحيون وأساؤوا استغلالها في عصر دقلديانوس"[١٢١]. فقد تفشّى الحقد والضغينة في كل المحافل المسيحية، وتطلع بعض رجال الدين إلى منصب الأسقفية الذي بات يوماً بعد يوم هدفاً أجدر بالطمع فيه. أما الأساقفة الذين كانوا يزاحمون بعضهم بعضاً على

---

(١١٨) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى (ص ٥٢).

(١١٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٨).

(١٢٠) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٦١).

(١٢١) المرجع السابق - ج١ (ص ٤٦٢).

التفوق في مجال الكنيسة، فقد بدا من تصرفاتهم أنهم يزعمون لأنفسهم سلطة دنيوية استبدادية في الكنيسة. "وربما تبين للمراقب اليقظ على الرغم من هذه الطمأنينة الظاهرة، بعض أعراض أنذرت الكنيسة باضطهاد أعنف من أي اضطهاد عانته من قبل[١٢٢]. ولم يترك جليريوس فرصة إلا انتهزها للقول بأن الوحدة الدينية ضرورية لتدعيم الملكية الجديدة، وما زال يلح على دقلديانوس حتى خضع له في آخر الأمر. وأمر الحكام الأربعة في عام ٣٠٢ أن تهدم كل الكنائس المسيحية، وأن تحرق الكتب المسيحية وتحلّ المجتمعات المسيحية وتصادر أملاكها، ويحرم المسيحيون من جميع المناصب العامة، ويعاقب بالإعدام من يضبط منهم في أي *اجتماع ديني.*

وبدأت كتيبة من الجند هذا الاضطهاد بإحراق كنيسة نيقوميديا وتدميرها عن آخرها[١٢٣]. وأضرم بعضهم النار مرتين في قصر دقلديانوس في نيقوميديا، واتهم جليريوس المسيحيين بجريمة الحرق عمدا، واتهموه هم بنفس التهمة، وقبض على مئات من المسيحيين وعذبوا ولكن الجريمة لم تثبت على أحد. وأصدر دقلديانوس في شهر سبتمبر أمراً بأن يطلق سراح المسجونين من المسيحيين الذين يعبدون الآلهة الرومانية، أما من يرفض ذلك منهم فلتسلّط عليه جميع أنواع وسائل العذاب التي تعرفها روما[١٢٤]، وتجاوز حنق دقلديانوس ومخاوفه، في آخر الأمر، حدود الاعتدال الذي تذرع به فأعلن في سلسلة من المراسيم الصارمة عن عزمه على محو اسم المسيحية، وسرعان ما امتلأت السجون المخصصة لكبار المجرمين بجموع الأساقفة والمشايخ والشمامسة والقراء، بل حتى وطاردي الأرواح الشريرة، وأمر الحكام بمقتضى المرسوم الثاني باللجوء إلى كل وسائل العنف التي يمكن أن تبعد أولئك عن خرافتهم الخبيثة، وتضطرهم إلى الرجوع إلى عبادة

(١٢٢) المرجع السابق - جـ١ (ص ٤٦٢).

(١٢٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٩).

(١٢٤) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٩).

الآلهة القائمة. وامتد هذا الأمر الرهيب، بناء على مرسوم تالٍ إلى جماعة المسيحيين كافة، ومن ثم تعرضوا لاضطهاد عنيف شامل، وأصبح من واجب الموظفين الإمبراطوريين، بل ومن مصلحتهم كذلك بدلاً من تلك القيود السليمة التي كانت تتطلب من المدعي إقامة بينة صريحة جدية، أن يكتشفوا ويتعقبوا ويعذبوا أبغض الأشخاص بين المؤمنين(١٢٥).

ولقد كان الناس يجلدون حتى تنفصل لحومهم عن عظامهم أو أن لحمهم كان يقشر عن عظامهم بالأصداف وكان الملح أو الخل يصبّ في جروحهم، ويقطع لحمهم قطعة قطعة ويرمى للحيوانات الواقفة في انتظارها أو يشدّون إلى الصلبان فتنهش لحومهم الوحوش الجياع جزءجزء. ودقت عصى حادة الأطراف في أصابع بعض الضحايا تحت أظافرهم وسملت أعين بعضهم وعلق بعضهم من يده أو قدمه وصبّ الرصاص المصهور في حلوق البعض الآخر، وقطعت رؤوس بعضهم أو صلبوا أو ضربوا بالعصى الغليظة حتى فارقوا الحياة، ومزقت أشلاء البعض بأن شدت أجسامهم إلى غصون أشجار ثنيت ثنيا مؤقتا، و دام الاضطهاد ثمانية أعوام، وهلك بسببه نحو ألف وخمسمائة من المسيحيين، بعضهم من أتباع الدين القويم، وبعضهم من الملاحدة، وقاسى عدد آخر يخطئه الحصر ألوانا مختلفة من العذاب، وارتد آلاف من المسيحيين عن دينهم، وتقول الروايات إن مرسلينس، أسقف روما نفسه أرغم بضروب من الإرهاب والتعذيب على أن يرتد عن دينه(١٢٦).

وكان اضطهاد دقلديانوس أشد ما ابتليت به الكنيسة المسيحية، حتى لقد سمي عصره "عصر الشهداء"، ولقد كان هذا الاضطهاد في الوقت نفسه أعظم انتصار نالته على أعدائها. وما كاد دقلديانوس يصدر مراسيمه ضد المسيحيين حتى جرد نفسه من صولجان الملك، وكأنه بذلك أراد أن يلقي بمهمة الاضطهاد إلى أيد

(١٢٥) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٧٣).

(١٢٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٨٠).

غير يديه، بيد أن أخلاق زملائه وخلفائه ومواقفهم دفعتهم تارة إلى إعمال هذه القوانين الجائرة ونزعت تارة أخرى إلى وقف العمل بها[١٢٧]. ولقد أضعف الاضطهاد المسيحية بعد أن خرج منها بعض من انضموا إليها أو نشأوا في أحضانها خلال خمسين عاماً من أعوام الرخاء لم يتعرض لهم فيها أحد بسوء، ولكن سرعان ما أخذ المرتدون يتوبون عن ذنبهم ويطلبون العودة إلى حظيرتها، ذلك أن أخبار وفاء الشهداء الذين قضوا نحبهم أو عذبوا في سبيل دينهم. أخذت تنتشر من مكان إلى مكان، ونسجت حول أعمال الاستشهاد هذه قصص خيالية، كان لها شأن في إحياء العقيدة المسيحية، وتثبيت دعائمها، وليس في تاريخ البشرية قصة أعظم روعة من قصة فئة قليلة من المسيحيين توالت عليها ضروب الظلم والازدراء على يد سلسلة طويلة من الأباطرة، ولكنها صبرت على هذه المحن واستمسكت بدينها، وتضاعف عددها وهي هادئة ساكنة، تقيم النظام وقت أن كان أعداؤها ينشرون الفوضى، تصدّ القوة بالقوة، والوحشة بالأمل، ثم تهزم آخر الأمر أقوى دولة عرفها التاريخ. لقد التقى قيصر والمسيح في المجتلد، فانتصر المسيح على قيصر[١٢٨].

مرسوم ميلان للتسامح الديني

لقد انجلى الاضطهاد ضد المسيحيين فعلياً في عام ٣١١ عندما أصدر جلريوس مرسوماً بالتسامح مع المسيحيين واعترف فيه بالمسيحية ديناً مشروعا وطلب من المسيحيين أن يدعوا له في صلاتهم نظير "رحمتنا التي وصلت إلى أقصى حدود الرقة"[١٢٩] والذي دفع جلريوس Galerius إلى اتخاذ هذا الإجراء هو أن خيبته المتكررة في تحقيق أطماعه وتجربة سنوات ست من الاضطهاد، أقنعته بأن أعنف أعمال الاستبداد والطغيان لا تكفي لإبادة شعب بأسره أو للقضاء على

(١٢٧) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٧٤).

(١٢٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٨١).

(١٢٩) المرجع السابق - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٨١).

معتقداتهم الدينية[١٣٠]. وقد تأكد هذا التسامح عندما تقابل الإمبراطور قسطنطين وليسنيوس في ميلان في أوائل عام ٣١٣ بعد أن فتح قسطنطين إيطاليا، وذلك لينسقا حكمهما: وأراد قسطنطين أن يجعل تأييده للمسيحيين عاماً يشمل الولايات جميعها. فأصدر هو وليسنيوس "مرسوم ميلان" يؤكدان فيه التسامح الديني الذي أعلنه جلريوس ووسّعا نطاقه حتى شمل الأديان كلها، ويأمران بأن يعاد إلى المسيحيين ما انتزع من أملاكهم في أثناء الاضطهاد الأخير. وقد كان لهذه الخطوة التي قام بها قسطنطين أعظم الأثر في انتشار المسيحية السريع وازدياد نفوذ رجالها حتى أصبحت الكنيسة أقوى العوامل التي كيّفت تاريخ أوروبا الوسطى. وقد اتبع قسطنطين اعترافه بالمسيحية بنقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى القسطنطينية وقد هجر روما الخالدة إلى عاصمته الجديدة بالشرق، مما يشير إلى أن ثمة تغييرا أساسيا أخذ يعتري وجه العالم القديم، وأن العالم أصبح على أبواب عصور وسطى جديدة لم تعد روما فيها مركز الإمبراطورية من جهة، وأصبحت الكنيسة ورجالها بمثابة القوة الفعالة في المجتمع الأوروبي من جهة أخرى[١٣١].

ومهما يكن من أمر، فإن مرسوم ميلان جعل من المسيحية ديانة مرخصة، كما ساوى بينها وبين غيرها من الديانات الأخرى داخل الإمبراطورية الرومانية وتعهد بحماية أرواح المسيحيين وممتلكاتهم أسوة ببقية رعايا الإمبراطورية.

ومن هذا يبدو أن سياسة قسطنطين الدينية تمثل حلقة انتقال، كما أنها تعبر عن تطور فكري أكثر منها عن تحول روحي، ذلك أنه تسامح مع المسيحيين في الوقت الذي لم يضطهد الوثنيين، فحقق بذلك نوعا من التوازن بين المسيحية والوثنية[١٣٢].

---

(١٣٠) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج١ (ص ٤٧٨).

(١٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى (ص ٥٢).

(١٣٢) المرجع السابق (ص ٥٥).

المسيحية فـــي بلاد فارس

كمـا اتجـه بعـض رسـل المسـيح نحـو رومـا، فـإن آخـرين اتجهـوا صـوب الإمبراطورية الفارسية التي كانت تنازع الإمبراطورية الرومانية في السيادة على المنطقة، وكانت تسود الديانة الزرادشتية بلاد فارس، حيث أعاد الملوك الساسانيون إلى الدين الزرداشتي ما كان له من سلطان ورونق فوهبت الأرض والعشور إلى الكهنة. وأسس نظام الحكم على أساس الدين كما كانت الحال في أوروبا، وعين كاهن أكبر ذو سلطان لا يفوقه سلطان الملك نفسه رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثية، التي كانت تشرف على جميع نواحي الحياة الذهنية في فارس إلا القليل منها، وكانت تنذر كل من تحدثه نفسه بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم في الجحيم، وظلت تسيطر على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون، وكان في كل بلدة كبيرة معبد للنار تشتعل فيه نار مقدسة يقولون إنها لا تنطفئ أبدا وترمز إلى إله النور، ويعلمون الناس أن الحياة الفاضلة الطاهرة وحدها هي التي تنجي الروح من أهرمان (الشيطان) [١٣٢].

وهناك أديان أخرى أقل منزلة من هذا الدين الرسمي تجد لها مكانا حوله، أما اليهودية والمسيحية بوجه عام فكانتا تلقيان من الملوك والكهنة الساسانيين كثيرا من التسامح؛ وفي هذا الإطار ثبتت المسيحية دعائمها في الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية حين جلس الساسانيون على العرش، وظلت لا تلقى معارضة منهم حتى أضحت الدين الرسمي لعدوي الفرس القديمين وهما بلاد اليونان وروما.

(١٣٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٨٠).

فلما أن اشترك قساوستها اشتراكا فعليا في الدفاع عن الأقاليم البزنطية ضد شابور الثاني، كما حدث عند نصيبين عام ٣٣٨ شرع الملوك الفرس يضطهدونها، وأمر شابور عام ٣٤١ بذبح جميع المسيحيين الساكنين في الإمبراطورية[١٣٤]، وكان المسيحيون الإيرانيون يسكنون المدن وينتمون إلى شريحة التجار - الحرفيين، وكان بينهم أفراد اشتهروا بثرائهم الكبير. وقد أدت السياسة الخارجية النشطة والحيوية التي قادها شابور الثاني إلى وقوع الدولة الإيرانية في عجز مالي، مما جعله يأمر بجباية الضرائب من المسيحيين بما يعادل ضعف المواطنين الآخرين. وقد طبّق هذا القانون الشاهنشاهي في السنة الحادية والثلاثين من حكم شابور الثاني، أي في عام ٣٤٠.

وقد قدّم المرسوم الملكي القاضي بتكليف الرعايا المسيحيين بدفع إتاوة مضاعفة إلى أسقف سلوقية - قطيسفون، شمعون برصباعي، الذي كان يعني شمعون ابن الصباغين، و هو لقب جاء من أبويه اللذين كانا يعملان بصباغة الحرير باللون الأرجواني ليرتديه الملوك في ذلك الحين. وحسب لقبه الكنسي فقد كان مارشمعون برصباعي رئيس الطائفة المسيحية في غيران، وقد أعدم الجاثليق برصباعي في السنة السادسة والثلاثين من حكم شابور الثاني، الموافقة لسنة ٣٤٤م.

ومن هذا التاريخ بدأ حساب الاضطهاد الذي امتد أربعين عاما، فعرف باسم الاضطهاد الأربعيني، وترافق هذا الاضطهاد الذي أودى بحياة آلاف المسيحيين بنهب أموالهم ومصادرة ممتلكاتهم إضافة إلى تدمير كنائسهم وإزالتها من الوجود[١٣٥]. ولما رأى شابور الثاني أن قرى بأكملها من القرى المسيحية قد أقفرت من أهلها أمر بأن يقتصر على قتل القسيسين والرهبان، والراهبات[١٣٦] ولكن

(١٣٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٨١).

(١٣٥) نينا بيغوليفسكايا - ثقافة السريان في القرون الوسطى (ص ٢٧٧).

(١٣٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٨١).

١٦,٠٠٠ مسيحي قد هلكوا نتيجة لهذا الاضطهاد الذي دام حتى موت شابور عام / ٣٧٩/، ويسمي مؤرخو الكنيسة مركزين رئيسين جرت فيهما أبشع الإعدامات والمذابح بحق المسيحيين، أساقفة وكهنة ومؤمنين، ولهذا خلّد هذان المركزان تعظيما وإجلالا لأولئك الشهداء الذين ذهبوا ضحية الاضطهاد الأكبر في عهد شابور الثاني، أحدهما كان في العاصمة، وفي قصر الملك وبقربه في مدينة كرخ دي ليدان، من أعمال الأهواز. والثان- ي ف- ي مقاطعة أديابين[١٣٧]، والقصة الجهادية الأكثر جاذبية وعبرة فهي تلك المتعلقة بتاريخ شقيقة مارشمعون برصباعي المدعوّة طربو، وتذكر الرواية أن الاتهام الموجّه ضد طربو كان بإيحاء من اليهود، أقنعوا به زوجة الملك الساساني التي أصيبت بداء خطير نجم عن "نقمة المسيحيين وسحرهم" وبخاصة الفتاة طربو، والتوجه اليهودي عند الملكة الفارسية جعلها تصادق على التهمة اليهودية الموجّهة ضد طربو بأنها تشتغل بالسحر المكرّس ضد الملكة، بزعم الانتقام لمقتل أخيها شمعون، وأثناء المحاكمة التي جرت لطربو، قررت هيئة المحكمة تجريمها مع فتاتين أخريين بتهمة ممارسة السحر، لكن الملك الفارسي (شاهنشاه) وعد بعدم قتلهن إذا ما سجدن للشمس، وقدّم الاقتراح نفسه رئيس هيئة المحكمة، لكنه قوبل كذلك بالرفض من طربو، حيث أوضحت أن السجود للشمس يعني الشرك وأن المسيحية تحظر عبادة الكواكب، كما رفضت عرض الزواج، قائلة إنها "مخطوبة للمسيح". وقرر الكهنة الزرادشتيون - أعضاء المحكمة- قتل الفتيات الثلاث[١٣٨].

واستمرت ملاحقة المسيحيين واضطهادهم لمدة طويلة في عهد شابور الثاني وكان من ضحايا ذلك الاضطهاد المروع أسقف سلوقية شاه دوست، الذي أعدم في بيت لافاط، ثم أعقب ذلك إعدام ابن أخت شمعون برصباعي، بارباشمين، أما في عام ٣٤٨ فقد استشهد وقضى قتلا ١٢٠ من رجال الدين المسيحي، بين قس وراهب

(١٣٧) نينا بيغوليفسكايا - ثقافة السريان في القرون الوسطى (ص ٢٧٧).

(١٣٨) المرجع السابق (ص ٢٨٠).

وبعض المسيحيين العاديين، وبدء من عام ٣٤٧ بدأت ملاحقة المسيحيين في مناطق بيت كرماي وأديابين، وقتل في هذه الملاحقة الدموية الأسقف شهرجيرد نرساي[(١٣٩)]، ومن بين قصص الاستشهاد هناك قصة إعدام عناني في عربايي والكاهن الأسبق أثيالاها في أربيل، وذلك في سنة ٣٥٨ وقد تحدث عنهم المؤرخ الكنسي المعروف سوزومين، الذي تحدث أيضا عن مقتل ميلس أسقف السوس، وإلى جانب أولئك الشهداء المعروفين كان هناك عشرات الشهداء المسيحيين المجهولين[(١٤٠)].

وتوقف الاضطهاد بموت شابور الثاني عام /٣٧٩/ فلما جلس يزدجرد الأول على العرش (٣٩٩ - ٤٢٠) رد للمسيحيين حريتهم الدينية، وساعدهم على بناء كنائسهم، حتى إذا كان عام ٤٢٢ قرر مجلس من أساقفة الفرس استقلال الكنيسة المسيحية الفارسية عن الكنيستين المسيحيتين الرومانية واليونانية[(١٤١)]، وعلى مدى القرون الرابع والخامس وحتى السادس كانت تتفجر بين فترة وأخرى حمى الملاحقة والاضطهاد ضد المسيحيين، ومن أجل ذلك الأمر كان ملوك الفرس يجدون باستمرار الحجج والمسوغات الملائمة، وكان أحد العوامل الهامة في تلك الإجراءات التعسفية سعي الحكام الفرس في تلك الآونة لملء خزينة الدولة بالأموال على حساب الحرفيين والتجار الأثرياء، وذلك من خلال مضاعفة الضرائب أو حتى المصادرة التامة للممتلكات، وسبب آخر لتلك الملاحقة، يعود حسب رأي الباحثين إلى غيرة وحقد زعماء الزرادشتية بسبب أن هذا الدين (المسيحي) الجديد والغريب عن الفرس انتشر بهذه السرعة، وأصبح يشغل مكانة كبيرة في البلاد بعامة وفي البلاط الحكومي الرسمي بصفة خاصة، وقد أثرت هذه الملاحقة تأثيرا بالغا على مسيحيي إيران، فبقيت نتائجه على مدى قرون[(١٤٢)].

---

(١٣٩) المرجع السابق (ص ٢٨٢).

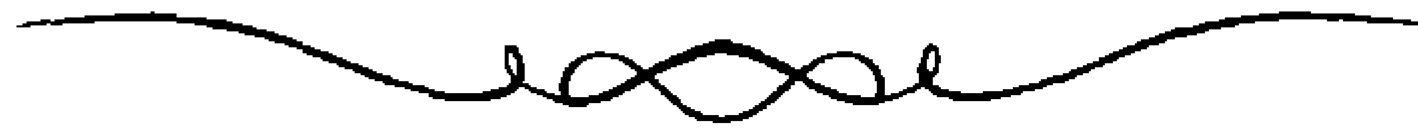
(١٤٠) نينا بيفوليفسكايا - ثقافة السريان في القرون الوسطى (ص ٢٨٢).

(١٤١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٢٨١).

(١٤٢) نينا بيفوليفسكايا - ثقافة السريان في القرون الوسطى (ص ٢٨٢).

الباب الثالث

الطغيان في الحكومات الإسلامية



الفصـل الأول

العـــرب والإســـلام

الجزيرة العربية مهد الإسلام:

تعتبر جزيرة العرب بحدودها الطبيعية مهد العرب منذ آلاف السنين، ففي هذه البلاد المجدبة عاشت قبائل العرب عيشة البداوة في معظمها، وجزيرة العرب من أكبر أشباه الجزائر في العالم. يبلغ أكبر أطوالها ١٤٠٠ ميلا وأكبر عروضها ١٢٥٠ ميلا. وهي من الوجهة الجيولوجية امتداد للصحراء الكبرى. وبلاد العرب هضبة واسعة ترتفع على مسافة ثلاثين ميلا من البحر الأحمر ارتفاعا فجائيا إلى ١٢,٠٠٠ قدم، ثم تنحدر نحو الشرق انحدارا سهلا في أرض جبلية جدباء حتى تصل إلى الخليج الفارسي (العربي). وفي وسط الجزيرة عدد من الواحات الكلئة، والقرى ذات النخيل[١٤٣]، ويمكن أن نتصور شبه الجزيرة العربية على شكل مثلث ذي أبعاد ضخمة، و لكنها غير منتظمة، وفيها صحارى مقفرة لا يوجد بها إلا جبال عارية، يتقاطع بعضها مع بعض فوق مساحات لا حدّ لها من الرمال، بينما تلفح الشمس الاستوائية بأشعتها العمودية الحارقة وجه الصحراء، دون ما ظل أو مأوى[١٤٤].

وتتكوّن أطراف الجزيرة من (التهائم) وهي الوديان التي يسقط عليها المطر، وبسبب إحاطة البحر بها من ثلاث نواح ما عدا الشمال، سميت بلاد العرب "بالجزيرة"[١٤٥]. ومنذ القدم وجزيرة العرب تشمل النوعين من السكان: البدو والحضر، فالبدوي رأى في الحضري فريسة شرعية في سبيل الحياة، والحضري أنزل

---

(١٤٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٣-١٤ (ص ٨).

(١٤٤) إدوارد جيبون - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ج٣ (ص ٤٥).

(١٤٥) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة الإسلامية - ج١ (ص ٤٥).

البدوي منزل الوحش غير المقدور عليه، والمفترس من الحيوان. ولذا كان جيران الجزيرة العربية من الشعوب المتقدمة - كاليونان والرومان - يعتبرون سكان الصحارى عموما "برابرة" أي متوحشين[١٤٦].

ولا نعلم بالتحديد سبب سكنى العرب هذه القفار الموحشة، ولكن ما يميل إليه أهل النظر هو أن العالم القديم آنذاك كان محكوما من إمبراطوريتين هما الإمبراطورية الفارسية في الشرق، والإمبراطورية البيزنطية في الغرب، وكانت هاتان الإمبراطوريتان تمارسان أبشع ألوان الظلم والاستعباد بحق الشعوب الداخلة تحت حكمهما.

فالإمبراطورية الفارسية كانت تفرض المذهب المجوسي، ومن يحيد عنه يقتل أو ينفى من البلاد، وكذلك فإن الإمبراطورية البيزنطية كانت ترعى المذهب المسيحي وتفرضه على رعاياها بالقوة. ولذلك وهربا من الطغيان فقد عاش العرب أعزاء في الصحراء، ذلك المكان الذي لا يمكن السيطرة عليه، وكم فكّر أباطرة الروم في اقتحام الصحراء، إلا أنهم كانوا يتراجعون، ولم يحدث أن تعرّضت أرض العرب إلى غزو سوى من الحبشة التي اعتنقت الدين المسيحي. ففي خضمّ التنافس بين فارس وبيزنطة للاستيلاء على الشرق، حرّض الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) الأحباش على غزو اليمن، ولعل جستنيان اتخذ هذه الخطوة نتيجة لأطماع الفرس التي ازدادت في الجزيرة العربية[١٤٧]، وقد انتشرت المسيحية في أرجاء مختلفة من اليمن، وكان في اليمن ملك يدعى "يوسف ذو نواس" الذي اعتنق اليهودية مخالفا بذلك ديانة الدولتين: فارس وبيزنطة، وكإعلان عن هوية مستقلة.

وأخذ هذا الملك يلزم رعاياه باعتناق اليهودية، إلا أن ملك الحبشة - وكان يدعى النجاشي - اتخذ من عمل ذي نواس ذريعة لغزو اليمن بحجة إنقاذ من فيها من المسيحيين، وبالفعل فقد أرسل ارياط ومعه أبرهة بحملة كبيرة ليستولي على

(١٤٦) المرجع السابق (ص٤٧).

(١٤٧) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - ج١ (ص ٧٤).

اليمن، فسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، ولما التقيا انهزم ذو نواس ودخل بفرسه في البحر وغرق، ودخل أرياط اليمن وهدم حصونها ونقل العاصمة إلى صنعاء فأقام أرياط في أرض اليمن سنين في سلطانه ذلك ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشي(١٤٨) وكان من جنده حتى تفرّقت الحبشة عليهما، فدعا أبرهة أرياط إلى المبارزة فقتله، ولكن أرياط شرم حاجب أبرهة وأنفه وشفته بضربة منه، ولذلك صار يُعرف أبرهة (الأشرم).

وقد حاول أبرهة أن يغزو الحجاز، فصالحه أهل الطائف ولم يستطع أن يستولي على مكة بسبب المتاعب الكثيرة التي لاقاها من القبائل اليمنية والحجازية، وتفشي المرض بين جيشه، فرجع دون أن يحقق هدفه في هدم الكعبة. وقد دخلت هذه الغزوة في تقويم عرب الحجاز قبل الإسلام، وعرفت عندهم بعام "الفيل"(١٤٩) ذلك لأن جيش أبرهة الحبشي كان فيه عدد من الفيلة وكان هو راكبا على واحد منها. وحاول الأحباش تثبيت أقدامهم في اليمن، فعملوا على إنعاش اقتصادياتها، بإصلاح ما فسد من سد مأرب، كما أرادوا أن يجعلوا من صنعاء مركزا لعرب الجزيرة بدلا من مكة، إلا أن هزيمتهم في الحجاز واختلال قيادتهم كانت سببا في أن تشجع أهل اليمن بزعامة سيف بن ذي يزن الحميري على الثورة بعد أن ساعدهم الفرس - أعداء بيزنطة - بقيادة وهرز وحلفائهم من عرب بادية العراق، مما مكّن اليمنيين من التخلص من الاستعمار الحبشي. وبدلا من أن تعود دولة الحميريين حرة مستقلة، فإن الفرس طمعوا في اليمن لأهميتها التجارية، وليمنعوا بيزنطة من الاستيلاء عليها فدبروا قتل سيف بن ذي يزن، واحتلوا اليمن، وإن تركز وجودهم في صنعاء، حيث كان لهم وجود سياسي هناك عند ظهور الإسلام،ويعتبر

---

(١٤٨) ابن هشام - السيرة النبوية - ج١ (ص ٤٢).

(١٤٩) هو العام الذي ولد فيه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وردت قصة الجيش في القرآن الكريم في سورة الفيل.

باذان آخر حكام الفرس في اليمن[١٥٠]. وباستثناء اليمن فقد كانت أرجاء جزيرة العرب حرة من أي احتلال خارجي، سوى بعض الوجود الفارسي في أرض البحرين.

وقد كان العربي يخضع في بيئته لقبيلته التي كانت تقوم على أساس صلة الدم، ولكن صلة الدم التي كانت وسيلة الاتحاد والالتحام بين سكان الصحارى لم تنتج نظاما سياسيا حقيقيا، فكل فرد في الجماعة له نفس الحقوق، وعليه نفس الواجبات ذلك لأن الحياة في الصحراء تخلق المساواة ، فإن كانت الشعوب تفخر بقوميتها فإن سكان الصحارى من البدو يحق لهم أن يفخروا بحريتهم الشخصية[١٥١]، لذلك كان العربي لا يحتمل الضيم ويرفض الطغيان ويفخر بحريته، لكنه سيتحول فيما بعد إلى عبد لدى الحكام المتغطرسين الذين يدعون حقا إلهيا في الملك.

ولادة الرسول وظهور الإسلام

في تلك البيئة الصحراوية وفي بيت من بيوتات مكة، ولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كانت ولادتهَ بعد شهرين من هزيمة أبرهة في مكة عام ٥٧٠م، وتوفي أبوه عبد الله بن عبد المطلب قبل مولده، كما توفيت أمه وهو في السادسة من عمره، وكفله أولا جده عبد المطلب، ثم عمه أبو طالب ولقي منهما كثيرا من الحب والرعاية. واسمه محمد مشتق من الحمد، أي أنه حُمِدَ فأصبح محمداً لكثرة الحمد. ولم يعن أحد بتعليمه القراءة و الكتابة، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة عشر يقرؤون ويكتبون، وكان أبو طالب وهو أعلى أعمامه مقاما رائد شبابه وحاميه في الداخل والخارج في السلم والحرب.

وعندما بلغ محمد الخامسة والعشرين عمل لخديجة، وكانت أرملة غنية من أسرة شريفة تقطن في مكة، وقد كافأت أمانته بعد وقت قصير بأن وهبته يدها

(١٥٠) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية (ص ٧٧).

(١٥١) المرجع السابق (ص ٤٨).

ومالها، ويردد أبو طالب الحب المتبادل بين محمد وخديجة. وكان هو ولي أمره، ويصفه بأنه من أفضل الشبان في قبيلة قريش، ويحدد عقد الزواج صداقا قدره اثنتا عشرة أوقية من الذهب وعشرون جملا. وقد دفع عمه الكريم هذا الصداق وبهذا الزواج تعززت مكانة محمد بن عبد الله في مجتمعه.

وقنعت هذه السيدة الراجحة العقل بفضائله الشخصية حتى نزلت عليه في الأربعين من عمره الرسالة، وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يتميز بجمال الخلقة، بحيث تبهر أصحابه هيبته وجلال منظره وعيناه النافذتان وابتسامته العذبة ولحيته المرسلة، ومحياه الذي عبّر عن كل خلجة من خلجات نفسه، وحركاته التي أكدت كل لفظ جرى على لسانه. وفي أمور الدنيا العادية اعتصم محمد بآداب قومه بما فيها من رزانة وجلال، وكان أدبه الجمّ يرجع إلى صفات شخصية أو حب عام للخير، وتحلى بشجاعة التفكير والعمل معا، وتربى في أحضان أشرف قوم، ودرب على استخدام أنقى لهجة في العرب، وعلى الرغم من تسنّمه ذروة البلاغة فقد عاش أميا بعيدا عن مراكز الحضارة. ومع ذلك فقد كانت الطبيعة وأخلاق الناس كتابا مفتوحا أمام ناظريه[١٥٢].

وقد بدأ محمد الدعوة للإسلام في أهل بيته وبين أقاربه، وأنه رسول الله إليهم الذي ينزل عليه الوحي، فكانت زوجته خديجة أول من آمن به وصدق دعوته. ثم تبعها نفر من قريش، وقد عارض معظم المكيين دعوته، لأن الرسول كان يحط من عبادة الأصنام، وكانوا يرون أن التطاول عليها معناه التطاول على عبادة الأجداد، التي تعودوا عليها منذ أن جاءت قريش إلى مكة، فهي معارضة الكبرياء، ثم إن ذكر محمد للوحي والبعث والحساب، اعتبروه بدعا لا يقبلها إيمانهم أو عقلهم[١٥٣].

ومما لا شك فيه أن من العرب من كان يؤمن بدين الحنيفية، وهي ملة

---

(١٥٢) المرجع السابق - ج٣(ص ٣٤).

(١٥٣) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - ج١ (ص ١٠٣).

إبراهيم عليه السلام، و سمي هؤلاء بالحمس، وكانوا يعبدون الله ولا يركعون لصنم أو وثن، وبالإضافة إلى الحنفية وعبادة الأصنام فقد كان لليهودية والنصرانية بعض الوجود، والغالب أن حياة البداوة أثرت على عقائد العرب ووسمتها بالبدائية، فمعظم العرب كانوا يعيشون عيشة البداوة متنقلين في الصحراء بحثا عن الماء والكلأ، لذلك كانت حياتهم خشنة، الأمر الذي وجه - بشكل سلبي - حياتهم العقلية والدينية، إلا أن ظهور الإسلام ببعث الرسول محمد نفخ في العرب روحا عظيمة بدلت أوضاعهم ونقلتهم من حياة البداوة والتفرق إلى بناء مجتمع واحد ودولة واحدة، استطاعت في فترة قصيرة أن تقهر أعظم إمبراطوريتين آنذاك، وهما الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية.

محمد في المدينة

كانت دعوة محمد أهله إلى دين الإسلام سببا في استنفار قريش عليه، فحمله إيذاؤهم المستمر على الهجرة من مكة إلى المدينة، حيث وجد هناك الأنصار للدعوة الجديدة، وكان أول عمل قام به لترسيخ دعائم دولته أن آخى بين المسلمين الذين هاجروا معه من مكة مع إخوانهم مسلمي المدينة من الأوس والخزرج، فجعل من المسلمين أمة تسودها الوحدة، وتنمحي فيها العصبية القبلية، ولكي يحتفظ لهذه الأمة بكيانها نجده ينظم شؤونها الحربية، وكذلك نظم العلاقة بين المسلمين واليهود في يثرب (المدينة).

وفوق ذلك كانت الهجرة إلى المدينة سببا في تحول هام في الدعوة الإسلامية ذاتها؛ ففي مكة لم يكن دور النبي غير دور ديني، فسور القرآن لا تتناول إلا أمور الدين خالصة، أما في المدينة فقد أصبحت للنبي الزعامة السياسية على الأمة الإسلامية، وجاءت سور القرآن في المدينة ـ بالإضافة إلى استكمالها فروض الدين ـ تبين تفاصيل هذا المجتمع السياسي ـ الديني، بحيث شمل القرآن أسس قانون دستوري لهذه الأمة، مما ميز هذا الدور النبوي بعد الهجرة[١٥٤].

(١٥٤) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - ج١ (ص ١١١).

فالنبي أُخرج من مكة بالقوة، وترك بيته وماله فيها، فكان يرى أن من حقه أن يستعيد حقوقه من مواطنيه الذين لم يصدقوا دعوته، وآذوه لمجرد أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله، ثم إنه وهو يستعد للهجرة من مكة إلى المدينة نزلت عليه آية الإذن بالقتال، كما جاء في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾(١٥٥). لذلك وبعد أن قوي الإسلام في المدينة بدخول الكثير من قبائل العرب فيه، توجه الرسول نحو مكة وفتحها عام/٦٣٠م/مزيلا آخر عقبة في سبيل توحيد الجزيرة العربية، ولم يتوف الرسول إلا والجزيرة كلها تؤمن بالدعوة الإسلامية.

هل يستلزم كون محمد رسولا أن يكون ملكا ؟

تعتبر هذه المسألة من المسائل التي لم يوفها علماء الإسلام من قبل حق البحث، وقد يبدو الأمر خطيراً لاتصاله بمقام النبوة، وارتباطه بمركز الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه مع ذلك لا يمس في الحقيقة شيئاً من جوهر الدين، ولا أركان الإسلام(١٥٦)، فمما لا شك فيه أن مقام النبوة يختلف عن مقام الملك، فليس بينهما تلازمٍ ما؛ فكم من رسول ليس بملك وكم من ملك ليس برسول، فعيسى بن مريم كان رسولاً ومع ذلك فقد دعا إلى الإذعان لقيصر في قولته الشهيرة أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله(١٥٧)، ولا نعرف في تاريخ الرسل من جمع الله له بين الرسالة والملك إلا قليلا. فسليمان مثلاً جمع بين الملك والنبوة، والنبي محمد كان رسولاً وكان في الوقت عينه رئيساً على العرب. فقد غزا الرسول لينشر الإسلام بين قومه العرب. وقد امتد بصره لنشر الدعوة إلى ما وراء جزيرة العرب، واستعد للأنسياب بجيشه في أ قطار الأرض، وبدأ فعلاً يصارع الرومان في الغرب، فقد كان أول اشتباك له

---

(١٥٥) الحج: ٣٩

(١٥٦) علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم (ص ١١٢).

(١٥٧) إنجيل متى - الإصحاح الثاني والعشرون - آية ٢١.

معهم في غزوة مؤتة، كما أنه جهّز بعثاً بقيادة أسامة بن زيد ليرسله لقتال الروم في الشام، إلا أن المنية وافته قبل إنفاذ البعث، وقد أرسل رسائل إلى كل من هرقل عظيم الروم وإلى كسرى الفرس يدعوهما فيها إلى الإسلام، كما أرسل رسالة إلى النجاشي وأخرى إلى المقوقس ملك مصر(١٥٨) . فالله هو الذي أرسل محمداً وهو الذي سيفرض الدين الذي أتى به لأنه سبحانه وتعالى تكفل له بالنصر والحفظ والنجاح. ودعوة الدين دعوة إلى الله تعالى، وما فعله الرسول من مجاهدة المشركين كان بهدف تبليغ الرسالة، وما اقتضاه ذلك من إقامة الدولة الإسلامية التي تنظم أمور الدعوة.

فالرسول صلى الله عليه وسلم، وإن جمع بين مهمة تبليغ الرسالة الدينية والزعامة السياسية لدولة الإسلام، فقد كان في ممارسته وبين صحابته الكرام يقيم الفرق بين ما هو ديني وأمر سماوي، لا مجال للرأي والمشورة فيه، وبين ما هو دنيوي وسياسي يتم فيه التشاور، ويؤخذ فيه برأي أي من الصحابة، وكانت عبارة الصحابة الشهيرة "يا رسول الله أهو الوحي أم الرأي"، التي ترددت في مواطن عديدة من كتب السيرة، تدل على التفريق بين ما هو ديني وما هو دنيوي، وبالتالي فقد نفى سلوك الرسول وممارسته للزعامة السياسية أي صبغة لنظرية الحق الإلهي عن الدولة التي أسسها في المدينة(١٥٩) .

ولم يتوف الرسول صلى الله عليه وسلّم إلا وكانت دعائم الدولة قد أرسيت وفق تعاليم ومبادئ عامة، تعطي مجالا واسعا لاستعمال العقل وفق مصالح المسلمين وظروفهم ؛ الأمر الذي هيأ فيما بعد لأن تتحول إلى إمبراطورية واسعة الأرجاء.

الديني والدنيوي في إمارة أبي بكر

توفي الرسول صلى الله عليه وسلم عام /٦٣٢/ فخلفه في حكم المسلمين أبوبكر، وقد تمت له البيعة في سقيفة بني ساعدة فكان بذلك أول خليفة (حاكم) في

(١٥٨) علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم (ص ١١٦).

(١٥٩) د. محمد عمارة. الإسلام والسلطة الدينية (٩٦ وما بعدها).

الإسلام لأنه من غير الممكن أن يخلف الرسول في موضوع الرسالة[١٦٠]، ولم تتم البيعة على أسس دينية، بل إن جميع المفاوضات التي تمت في سقيفة بني ساعدة تبرز خلفيات غير دينية؛ فالأنصار كانوا يحتجون بأنهم آووا الرسول وناصروه، والمهاجرون تذرعوا بأنهم أقدم إسلاما وأوسط نسبا في العرب، وحين اقترح الأنصار أن تكون الخلافة دولة بينهم وبين قريش، رد أبو بكر بقوله: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نفتات دونكم بمشورة، ولا تنقضي دونكم الأمور[١٦١]، فبايعوه جميعا ما عدا سعد بن عبادة الذي رفض البيعة، وقاطع الجماعة فغدا لا يصلي بصلاتهم، ويحج ولا يفيض معهم بإفاضتهم، ومات أبو بكر ولم يبايعه، كما لم يبايع عمر بعده، وتروي كتب التاريخ حوارا جرى بينه وبين عمر أعلن فيه مقته له، ومن غير أن يقتله عمر، وخارج سقيفة بني ساعدة فإن بني هاشم لم تبايع أبا بكر إلا بعد أشهر (ثلاثة أو ستة) لأنها كانت ترى عليا أحق بالخلافة، وقد جرى حوار دال في هذا السياق بين علي من جهة وعمر وأبي بكر وأبي عبيدة بن الجراح من جهة ثانية؛ فقد قال عمر لعلي "إنك لست متروكا حتى تبايع"، لكن أبا بكر بادر إلى القول "إن لم تبايع فلا أكرهك"، وخاطبه أبو عبيدة قائلا "يابن عم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك، ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور. فإنك إن تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق في فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك"، ورد عليهم علي بقوله "يا معشر المهاجرين لنحن أحق الناس به لأنا أهل البيت، ونحن أحق بهذا الأمر منكم ما كان فينا القارئ لكتاب الله، الفقيه في دين الله العالم بسنن رسول الله، المتطلع لأمر الرعية، الدافع عنهم الأمور السيئة، القاسم بينهم بالسوية"[١٦٢]. فالنقاش كان يضع الجانب الديني معيارا ضمن معايير أخرى، وكان علي وحده من أثار هذا المعيار وتشبث به لمدة

(١٦٠) علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم (ص ١٨٣).

(١٦١) د. محمد عمارة. الإسلام وفلسفة الحكم (ص ٧٦).

(١٦٢) المرجع السابق (ص ٧٦ - ٧٧).

أشهر لم يبايع فيها أبا بكر؛ الأمر الذي يعني حرص صحابة الرسول عن نفي السلطة الدينية ونظرية الحق الإلهي عن الدولة الإسلامية في بداية عهدها، وقد قال أبو بكر في خطبته الأولى بعد البيعة نافيا عن نفسه أي صبغة دينية "أما والله ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامي هذا كارها، ولوددت أن فيكم من يكفيني. . أفتظنون اني أعمل فيكم بسنة رسول الله؟ إذن لا أقوم بها، إن رسول الله كان يعصم بالوحي، وكان معه ملك، وإن لي شيطانا يعتريني ألا فراعوني، فإن استقمت فأعينوني، وإن زغت فقوموني"[١٦٣]. فأبو بكر كان يعي أنه بشر من المسلمين يسوس الأمور من الأرض بعد أن انقطع وحي السماء، وأنه معرض للخطإ والصواب لانتفاء العصمة عنه.

وقد ابتدأ أبو بكر الحكم بمحاربة المرتدين عن الإسلام لأنه عندما قبض الرسول ارتدّت بعض القبائل عن الإسلام، وامتنعت قبائل أخرى عن دفع الزكاة للخليفة الجديد مع تمسكها بالإسلام. وتمثل قصة مالك بن نويرة هذا الجانب من حروب الردة، فلقد امتنع مالك بن نويرة عن دفع الزكاة لأبي بكر مع بقائه على الإسلام. وهنا نشأ لقب المرتدين، نشأ لقباً حقيقياً لمرتدين حقيقيين، ثم بقي لقباً لكل من حاربهم أبو بكر من العرب بعد ذلك، سواء كانوا خصوماً دينيين ومرتدين حقيقة، أم كانوا خصوماً سياسيين غير مرتدين، ومن أجل ذلك انطبعت حروب أبي بكر في جملتها بطابع الدين، ودخلت تحت اسم الإسلام وشعاره، وكان الانضمام إلى أبي بكر دخولاً تحت لواء الإسلام، والخروج عليه ردّة وفسوقاً[١٦٤].

وربما كان إطلاق الطابع الديني على هذه الحروب لاحقا على خلافة أبي بكر، فالثابت أن مقتل مالك بن نويرة ظل نقطة خلاف بين الصحابة حتى دفع عمر ديته من بيت مال المسلمين بعد توليه السلطة، وعزل خالد بن الوليد، وفي بعض

(١٦٣) الإسلام والسلطة الدينية (ص ١٦).

(١٦٤) علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم (ص ١٩٨).

الروايات أن أبا بكر كان يرفع يديه إلى السماء ويقول اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد، مشيرا إلى مقتل مالك بن نويرة.

ولئن كانت مكانة أبي بكر السامية عند الرسول بوصفه أول من آمن من الرجال بدعوته، ورفيقه في هجرته، إلى غير ذلك من المواقف المشهودة، لئن كانت هذه المكانة جعلت بعض المسلمين ينظرون إلى خلافته من منظار ديني، باعتبار طاعته واجبة لأنها في نهاية الأمر طاعة لله ولرسول الله، مما أدى إلى اختلاط الديني بالسياسي عند البعض في موضوع الخلافة فإن اختياره عمر الذي لا تأخذه في الله لومة لائم رغم إلحاح طلحة بن عبد الله الذي كان عضوا في هيئة الشورى، وأقرب نسبا إلى أبي بكر، فهو تيمي كأبي بكر، وعمر من عدي، كما لم يكن عمر على وفاق تام معْ أعيان بني تيم، خاصة خالد بن الوليد وطلحة بن عبد الله، إن اختيار عمر يدل على أن أبا بكر ينأى بأمر المسلمين عن نظرية الحق الإلهي.

تحول الدولة العربية الإسلامية الناشئة إلي إمبراطورية

بعد أن تمكن أبو بكر من القضاء على أهل الردّة أصبحت الجزيرة العربية وحدة سياسية واحدة، واسترجع المسلمون مشروع الدولة الذي أسسه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تحول جميع العرب إلى اتباع زعيم واحد يسيرون خلفه، وهذه القوة العربية التي أوجدها ووحدها تصميم أبي بكر سرعان ما انتشرت في الأرض، واستطاعت في سرعة البرق الخاطف الإطباق على البيزنطيين والفرس، وهما أكبر دول العالم آنئذ وهي سرعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً من قبل. وأصبح لقب خليفة يفوق لقب إمبراطور(١٦٥) فقد سارع أبو بكر في أول خلافته إلى إنفاذ بعث أسامة بن زيد إلى الشام تنفيذاً لأمر الرسول قبل وفاته، ومن ثم أتبع هذا البعث بإرسال جيوش أخرى لفتح الشام، فبعث عمرا بن العاص إلى فلسطين، فأخذ طريق المعرِّقة على أيلة، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح

(١٦٥) التاريخ السياسي للدولة العربية - ج١ (١٦١).

وشرحبيل بن حسنة، وأمرهم أن يسلكوا التبوكيّة على البلقاء من علياء الشام، وقد وجّه أبو بكر الجنود في أوائل سنة /١٣هـ) وعلم الروم بقدوم العرب فكتبوا إلى هرقل، وخرج هرقل حتى نزل بحمص فأعد لهم الجنود وعبّى لهم العساكر، حيث أرسل إلى عمرو أخاه تذارق لأبيه وأمه في تسعين ألفا، وبعث من يسوقهم حتى نزل صاحب الساقة ثنية جِلِقَ بأعلى فلسطين وأرسل جَرَجَة بن توذرا نحو يزيد بن أبي سفيان فعسكر بإزائه، وبعث الدُّراقص فاستقبل شرحبيل بن حسنة، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة، فهابهم المسلمون وجميع فرق المسلمين واحد وعشرون ألفاً سوى عكرمة في ستة آلاف، فأرسلوا الرسل والكتب إلى عمرو يسألونه عن رأيه، فكاتبهم وقال لهم إن الرأي الاجتماع، لأن مثلنا إذا اجتمع لم يُغلب، وإذا نحن تفرقنا لم يبقَ الرجل منا في عدد يُقرن فيه لأحد ممن استقبلنا، ووافقوه على رأيه وقرروا الاجتماع في اليرموك(١٦٦)، وبلغ ذلك هرقل فكتب إلى بطارقته أن اجتمعوا لهم وأنزلوا بالروم منزلاً واسعا، وليكن تذارق على الناس، وليكن جرجة على المقدمة وعلى الجانبين باهان والدُّراقص وعلى الحرب الفيقار، وابشروا فإن باهان في الأثر مدد لكم، ففعلوا فنزلوا في الواقوصة وهي موقع على ضفة نهر اليرموك، وصار الوادي خندقاً وأراد قائد الروم باهان أن تستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين، وترجع إليهم أفئدتهم من خوفها، وانتقل المسلمون عن عسكرهم الذي اجتمعوا به، فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم، وليس للروم طريق إلا عليهم فقال عمرو: أيها الناس أبشروا حُصِرَت والله الروم وقلَّ ما جاء محصور بخير، ومن ثم طلب المسلمون المدد من أبي بكر فأرسل الخليفة إلى خالد بن الوليد ليخرج من العراق وأن يخلف هناك المثنى الشيباني. فطلع عليهم خالد وطلع باهان على الروم، وقد قدّم الشمامسة والقسس والرهبان يغرونهم ويحضونهم على القتال. ووافق قدوم خالد قدوم باهان(١٦٧) وكان الروم مئتين وأربعين ألفا، بينما

---

(١٦٦) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٢ (ص ١٩٦).

(١٦٧) المرجع السابق مجلد ٢ (ص ١٩٧).

كان المسلمون ستة وثلاثين ألفا، ونشب القتال وتكشف الموقف عن هزيمة كبرى للروم، تمّ بعدها فتح بلاد الشام كلها.

وتوفي أبو بكر وخلفه عمر بن الخطاب فأكمل الخليفة الجديد مهمة الفتوحات، وفي تلك الأثناء وصله كتاب من المثنى بن حارثة الشيباني يقول له فيه، إن فارس اجتمعت على يزدجرد، وكان المثنى الشيباني يقاتل في العراق من أيام خلافة أبي بكر، فدعا عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص، وأمره على حرب العراق، وخرج سعد من المدينة قاصداً العراق ومعه أربعة آلاف(١٦٨)، وأمدّ عمر سعداً بعد خروجه بألفي يمانيّ وألفي نجدي من غطفان وسائر قيس، وأمر عمر وانتخب من بني تميم والرباب أربعة آلاف، ثلاثة آلاف تميمي وألف ربابيّ. وانتخب من بني أسد ثلاثة آلاف وكان المثنى في ثمانية آلاف من ربيعة، وقد كان المثنى التحم مع الفرس قبل ذلك في موقعة الجسر وكبّد المسلمون الفرس فيها خسائر فادحة وأصيب المثنى بجراح أدّت إلى موته.

وقد بلغ جيش سعد بن أبي وقّاص نحو ثلاثين ألفا، وقد ردّ يزدجرد على حشود المسلمين بأن أرسل جيشاً قوامه مئة وعشرون ألفاً من الفرس وأمَّر عليه رستم، فعبر رستم بالجيش الفرات، وعسكر عند القادسية حيث دارت معركة من أعظم المعارك الحاسمة في التاريخ دامت أربعة أيام. وهبّت في اليوم الرابع عاصفة رملية في وجوه الفرس، واغتنم العرب هذه الفرصة وحملوا على أعدائهم الذين أعمتهم الرمال حملة صادقة، قتل فيها رستم ومزق جيشه شرّ ممزق وذلك سنة / ١٥ هـ/ /٦٣٦م/، وزحف سعد بجنوده دون مقاومة حتى وصل إلى نهر دجلة، واجتازوه ودخل المدائن عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وذهل العرب الأشداء حين وقعت أعينهم على القصر الملكي، وأدهشتهم عقوده الضخمة وبهوه الرخامي العظيم وطنافسه الكبيرة وعرشه المطعّم بالجواهر وقضوا أربعة أيام يحاولون فيها جمع

(١٦٨) المرجع السابق - ج٢ (ص ٢٤٢).

الغنائم[169]، ولم تيأس الفرس من صدّ العرب، فجمع يزدجرد في منطقة (جلولاء) جموعاً هائلة بعد أن أمر بحفر الخنادق حولها، ولكن العرب بقيادة سعد بن أبي وقّاص حاصروا المدينة، وحملوا عليها حملة واحدة، وتمكنوا من دخولها، وأجبروا الفرس فيها على الهرب، وكان ذلك سنة /١٦هـ/ /٦٣٧م/. وقد مهّد هذا النصر الجديد للعرب عبور جبال زغروس الهائلة إلى هضبة إيران[170]، وبفضل إمدادات البصرة والكوفة ذهب المسلمون لمقابلة جيوش ا لفرس الكثيرة، التي تجمعت من جديد بقيادة الفيروذان في مدينة (نهاوند) القديمة وقد عمد عمر إلى عزل سعد بن أبي وقّاص وعيّن مكانه النعمان بن مقرن المزني، الذي قتل عند التقاء الجيشين، وإن كان العرب نالوا النصر بعد قتال شديد على يد حذيفة بن اليمان. وقد سميت هذه الموقعة بفتح الفتوح وقد دارت رحاها عام /١٩هـ/ /٦٤٠م/، وقد قصمت هذه المعركة ظهر المقاومة الفارسية وهرب يزدجرد بعدها بفلوله نحو خراسان.

وهكذا فقد قصمت فارس واستكانت برمتها لهيبة العرب، ومن ثم توالت الفتوحات نحو مصر والمغرب العربي، وكذلك نحو شمال سوريا إذ وصلت الفتوحات حتى أرمينيا، وبذلك كوّن العرب خلال مدة قصيرة إمبراطورية مترامية الأطراف.

الفتنة ونتائجها

قضى عمر بن الخطاب بحادث اغتيال سنة /٢٣هـ/ /٦٤٣م/ وخلفه في أمر المسلمين عثمان بن عفان الذي حدثت في عهده فتنة أدت إلى قتله، ذلك أن ثمرة الفتوحات التي حدثت في عهد أبي بكر وعمر لم تظهر إلا في عهده، فراحت تتدفق إلى المدينة أموال البلاد المفتوحة، وكان نتيجة هذا الثراء أن ظهر الترف واللهو في المجتمع العربي؛ فدخل أهل الحجاز إلى حياة الحواضر القديمة فنعموا بسماع قصائد الحب كما جلبوا القيان الفارسيات والروميات، وقد كان نتيجة هذا الثراء

---

(١٦٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٠٦).

(١٧٠) التاريخ السياسي للدولة العربية - ج١ (ص ٢٠٣).

واللهو حدوث ردّ فعل كبير بين كثير من عقلاء المسلمين وأتقيائهم[١٧١].

ثم إن عثمان لم يكن بنفس صرامة الخليفة السابق تجاه أقاربه من بني أمية ومن سادات قريش الذين كانوا يطمحون إلى الاستئثار بالمناصب وولوج الأصقاع الجديدة بغية الثراء، وظل عمر يأخذهم بالشدة، حتى إنه منعهم من خروج الحجاز إلا بإذنه، وكان يقول لمن يستأذنه للخروج بغية الجهاد "كفاك جهادا مع رسول الله"، ومن أصل إحدى عشرة ولاية تركها لم يكن لقريش منها سوى ثلاث ولايات، فيها واحدة لبني أمية هي ولاية معاوية بن أبي سفيان، وليس فيها ولاية واحدة لعدي فرع عمر، لذلك فما أن انتهت سنة أوصى عمر بأن لا يغير فيها شئ من أمر الولاة حتى بدأ عثمان عزل الولاة الذين عينهم سلفه عمر باستثناء ابن عمه معاوية، واستبدلهم بأقاربه من بني أمية ومن قريش، وقد كان أفراد العائلة الذين ارتقوا في عهد عثمان جميعهم من "الطلقاء"، أي من الذين أسلموا من قريش بعد فتح مكة، فالكلمة إشارة إلى خطبة الرسول يوم فتح مكة حين قال لقريش: "ما ذا تظنون أني فاعل بكم"، قالوا: "خيرا أخ كريم وابن أخ كريم"، فقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"، ونتيجة لهذا العفو والسماحة دخلوا في الإسلام[١٧٢]، إلا أن أبناء عمهم من السابقين في الإسلام ظلوا في مواطن الغضب والتفاخر يذكرونهم بهذه الصفة (الطلقاء).

ونتيجة لسياسة عثمان ولينه مع الأقارب، ولسياسة الولاة الذين عينهم فقد عم التذمر في المدينة وخارجها، وتحتفظ المصادر بوصف ذلك التذمر وأسبابه، وبأن صحيفة نقلت من المدينة إلى الأمصار حرضت على الثورة، وجاء فيها . . . من المهاجرين الأولين وبقية الشورى إلى من بمصر من الصحابة والتابعين، وبعد فإن كتاب الله قد بدل، وسنة رسول الله قد غيرت، وأحكام الخليفة قد بدلت، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية أصحاب رسول الله والتابعين بإحسان إلا أقبل علينا

---

(١٧١) التاريخ السياسي للدولة العربية – ج١ (ص ٢٥٥).

(١٧٢) أسعد قاسم – أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة (ص ١١٦).

وأخذ الحق لنا وأعطاناه فاقبلوا إلينا. . .[١٧٣].

وقد لقيت هذه الصحيفة استجابة في الأمصار المتذمرة من سياسة الولاة، وفي سنة /٣٥هـ/ /٦٥٥م/ تواجد بالمدينة مائتا رجل من الكوفة بقيادة مالك بن الحارث النخعي ومائة رجل من البصرة يتقدمهم حكيم بن جلبة العبدي، ووستمائة رجل من مصر على رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، واحتلوا المدينة بعد مفاوضات، وحاصروا عثمان في بيته أربعين يوما، ومنعوا القوت عنه[١٧٤]، وطالبوه بخلع نفسه عن الخلافة إلا أن عثمان استشار بهذا الأمر عبد الله بن عمر، الذي أشار عليه بالبقاء في الحكم قائلا: أرى أن لا تسن هذه السنة في الإسلام كلما سخط قوم على أميرهم خلعوه[١٧٥]، لذلك فقد قال عثمان لأهل الأمصار الذين أتوا من البصرة والكوفة والفسطاط، "لا أخلع ثوباً ألبسنيه الله"، ثم انتهى الأمر بقتله[١٧٦].

ومن الواضح أن عثمان فكر بخلع نفسه، عندما طلب المشورة من عبد الله بن عمر، ولكن هذا الأخير اقترح اقتراحاً لم يكن صائباً عندما أشار عليه بالبقاء في منصبه بحجة أن لا يصبح هذا الأمر سنّة في أمة الإسلام. وليتها أضحت سنّة، وليت المسلمين كان باستطاعتهم خلع حكامهم فيما إذا أحسوا منهم الطغيان، إذن لكانت أمة الإسلام من أرقى أمم الأرض ديمقراطيا، ولسادت العدالة جميع أصقاعها، وكذلك نلمح في ردّ عثمان منطق الحق الإلهي في الملك عندما قال، لا أخلع ثوباً - يعني الخلافة - ألبسنيه الله، ونسي عثمان أن بقية هيئة الشورى هي التي عينته في منصبه ذاك، وألبسته ثوب الخلافة، ولو كان الأمر إلهيا لما احتيج إلى تلك الاجتماعات، ولما وقعت الثورة. والحق أن عثمان كان أجدر به لو خلع نفسه من أن يدعي الحق الإلهي

---

(١٧٣) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة ج١ (ص ٣٥)، وكذلك الطبري - تاريخ الأمم والملوك ج٢ (ص٣١٢).

(١٧٤) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية (ص ٢٥٩).

(١٧٥) أسعد قاسم - أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة (ص ١٢١).

(١٧٦) د. محمد عابد الجابري. العقل السياسي العربي: محدوداته وتجلياته (ص ١٨٧).

ويمهد الطريق لمن يأتي بعده من الجبابرة الذين ادعوا نفس الادعاء.

لقد هيّأ عثمان لنشوء نظرية الحق الإلهي، فمعظم الخلفاء الذين توالوا على الدولتين الأموية والعباسية مع أنهم لم يكونوا يستندون إلى شرعية ما، إلا أنهم تمسكوا بمفهوم الخلافة الديني، وربطوه بهم بحيث كانت طاعتهم واجبة لأنهم حماة الدين مع العلم أن بعضهم ساهم في تشويه الدين، وقد روج لهم من أسموا بعض "العلماء" بدوافع غير علمية، حتى لقد اعتبر بعضهم أن إمامة مغتصب السلطة صحيحة، فإذا استولى شخص بالغلبة على الملك وكان جامعاً للشروط المعتبرة في الإمامة فإن خلافته صحيحة وطاعته واجبة[(١٧٧)]، وكم يفرح بهذا الحكم من استعبد الناس بالقهر، وكم فيه من مخالفة لأحكام القرآن الذي قال ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾[(١٧٨)]. وقد كان من مصلحة السلاطين أن يروجوا بين الناس أن الخلافة مقام ديني، حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم، وتذود الخارجين عليهم وما زالوا يعملون على ذلك من طرق شتى حتى أفهموا الناس أن طاعة الأئمة من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله، ثم لم يكتفوا بذلك، بل جعلوا السلطان خليفة الله في أرضه وظله الممدود على عباده[(١٧٩)] مع أنه لا شيء يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم، ويسهل عليه العدوان والبغي أكثر من مقام الخليفة أو الإمامة، لأنه إذا اجتمع الحب البالغ والغيرة الشديدة وأمدتهما القوة الغالبة، فلا شيء إلا العسف، ولا حكم إلا السيف[(١٨٠)].

عام الجماعة:

ما كانت لتهدأ الأمور بعد مقتل عثمان؛ ذلك أن الذين قتلوه بايعوا عليا،

---

(١٧٧) الشربيني - مغني المحتاج - ج٤ (ص ١٣١ - ١٣٢).

(١٧٨) الشورى آية ٣٨.

(١٧٩) علي عبد الرازق - الإسلام وأصول الحكم (ص ٢٠٠).

(١٨٠) المرجع السابق (ص ٧٥).

وضغطوا على بقية أعضاء هيئة الشورى[181] في المدينة - طلحة والزبير - فبايعا مكرهين، لذلك تولى علي بن أبي طالب الخلافة في جو مضطرب، ازدادت الثورات والفتن فيه، فقام عليه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ومعهما عائشة، فقاتلهم في موقعة الجمل وانتصر عليهم، ومن ثم قاتل معاوية الذي رفض إعطاءه البيعة وبقي في الشام. وكانت بينهما موقعة صفين التي لم تسفر عن نتيجة، فتراجع الطرفان ليذعنا للتحكيم ولكن علياً قُتل على يد أحد الخوارج عام /٤٠هـ/. وقد أوصى علي قبل موته بالخلافة لابنه الحسن وبايعه الناس على ذلك، وعند وصول خبر موت علي تحرك معاوية بجيش قوامه ستون ألفاً نحو العراق ليضمه إلى ملكه، ويجبر الإمام الحسن على الاستسلام[182]، ونظراً لانهيار معنويات جيش الإمام والاضطرابات التي سادت البصرة والكوفة بالإضافة إلى تهيئ الروم بجيش عظيم لحرب المسلمين، فقد جنح الحسن بن علي إلى السلم.

وتمت معاهدة بينه وبين معاوية، كانت أهم بنودها تسليم الخلافة على بلاد المسلمين كلها إلى معاوية، وأن يكون الأمر بعده إلى الحسن وإن توفي قبل ذلك يكون للحسين[183]، وصار العام الذي تنازل فيه الحسن عن حقه في الخلافة يُعرف بعام الجماعة. وبهذا الصلح انتقلت الخلافة إلى طور جديد نتناوله في الفصل الموالي.

---

(١٨١) بعد أن تم حسم الخلاف بين الأنصار والمهاجرين حول الخليفة تكونت هيئة من عشرة من كبار الصحابة هم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن نفيل، وأبو عبيدة بن الجراح، وظلت سلطة الخلافة في هذه الهيئة حتى انتقل الأمر إلى معاوية. انظر إلى الإسلام وفلسفة الحكم (ص ٦٠).

(١٨٢) المرجع السابق (ص ١٤٣).

(١٨٣) أسعد قاسم - أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة (ص ١٤٣).

الملك العضوض

أخذ معاوية الخلافة بالسيف من غير مشاورة، وأدارها بالعقل والدهاء، معترفا منذ البداية بأسوبه في الاستيلاء على الخلافة، ومعلنا عدم التزامه بما جرى عليه الخلفاء الراشدون، وقد سجلت كتب التاريخ ذلك له، حيث جاء في "العقد الفريد" أنه لما قدم معاوية المدينة عام الجماعة تلقاه رجال قريش فقالوا: "الحمد لله الذي أعز نصرك وأعلى كعبك" فوالله مارد عليهم بشيئ حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جلدتكم بسيفي هذا مجالدة. ولقد رضيت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة (أبو بكر) وأردتها على عمل عمر فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها مثل سنيات عثمان فأبت علي، فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة: مواكلة حسنة ومشاربة جميلة. فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت له دبر أذني وتحت قدمي. وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه فإن السيل إذا زاد عنى، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة [(١٨٤)]. وقد التزم معاوية هذا المبدأ مدفوعا بحنكة سياسية وحلم رفيع جعلاه يسيطر سيطرة تامة على الأوضاع المضطربة داخليا، ويبدأ في استئناف تجهيز الجيوش للفتح إلى الخارج، وكان يستقبل خصومه السياسيين كالعلويين وغيرهم ويستمع إلى نقدهم الذي كان يكتسي أحيانا طابع الهجوم المقصود. ومع ذلك كان يصرفهم بهدوء بل ويجزل لهم

---

(١٨٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد. العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، ج ٣ (ص ١٤٧).

العطاء[185]، ويروى في هذا السياق أن رجلا أغلظ له في المجلس فحلم عنه "فقيل له أتحلم عن هذا ؟ إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا"[186]، بل إن "شعرة معوية" أضحت مضرب المثل في الحلم والدهاء والمرونة، فقد قال يوما: "لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني. ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها خليتها، وإذا خلوها مددتها"[187].

وبهذا الأسلوب حكم معاوية، وهيأ لإقامة بنية النظام الأموي، فبنى في دمشق قصراً أسماه قصر "الخضراء"؛ اتخذ فيه السرير للجلوس، وأحاط نفسه بالحجاب، وأوجد الشرطة لحراسته[188]، ووطّد حكمه بأن جعل على الأمصار عدة رجال دهاة مثله، وقد أمدهم بالمال الكثير، وأوجد في أيديهم سلطة رهيبة هي الشرطة التي كانت تنفذ أوامرهم وتقوم على حمايتهم. لذلك تفانوا في الإخلاص له، وملأوا السجون من أعداء البيت الأموي، وقد اعتمد معاوية كذلك على بني أمية ووجد في تأييدهم ما يوطّد حكمه، ففتح لهم خزائن المال، ومنحهم الجوائز السنية والصلات السخية، كما استعملهم في الأعمال[189]. وقد جعل المغيرة بن شعبة عاملاً على الكوفة، وعلى البصرة زياد بن أبيه، وكان زياد هذا عامل علي والحسن على بلاد فارس، ويبدو أن معاوية كان يعرف قدره فأراد أن يتقوّى به لاشتهاره بالرأي والدهاء، لذلك استقدمه إلى الشام عام /٤٢هـ/ ٦٦١م/ فجعله أخاً له، وأمر أن ينادى زياد بن أبي سفيان، وكان يدعى قبل ذلك زياد بن أبيه، أو زياد بن سميّة نسبة إلى أمه سميّة، وقد ولاه معاوية على الكوفة وأبقاه على ولاية فارس، فبقي

(١٨٥) محمد عابد الجابري - العقل السياسي العربي (ص ٢٣٧).

(١٨٦) ابن قتيبة - عيون الأخبار ج١ (ص ٩).

(١٨٧) نفس المرجع.

(١٨٨) عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - ج١ (ص ٢٢).

(١٨٩) المرجع السابق (ص ٢٦).

أميراً على العراق كله، وما يتبعه من إقليمي خراسان وسجستان، وجمع له الهند والبحرين وعمان، وظل واليا حتى وفاته سنة /٥٣هـ/ /٦٧٢م/[١٩٠]. ولما قدم زياد البصرة سنة /٤٥هـ/ خطب خطبته البتراء الشهيرة،حيث أقسم فيها أن يأخذ الولي بالولي، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح من المسلمين بالسقيم، وقال: "أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا"[١٩١].

وراح يأخذ الناس على الشبهة والظنّة، وفرض منع التجول في الليل فمن كان يُرى خارجاً في الليل يُقتل، وكان زياد أول من شدّ أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة وتقدّم في العقوبة وجرّد السيف، وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً[١٩٢]، وقد كانت البصرة والكوفة مركز المعارضة من الشيعة والخوارج فقضى على المعارضة في المصرين، وكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثل ذلك[١٩٣].

لم يدخر معاوية جهداً في سبيل تثبيت ملكه، فقد قمع خصومه وأخذ البيعة لنفسه منهم بحدّ السيف، وتسمّى بأمير المؤمنين، كي تكون طاعته واجبة والخروج عليه ردة وفسوقا، وفي الحقيقة ما كان معاوية إلا مغتصباً لحق المسلمين في الحكم، وقد شهد بذلك على نفسه في خطبته الأولى حين قال: " فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة[١٩٤]، وكان يحس كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة، وتشبّه في هذا بأباطرة الدولة البيزنطية، الذين تشبهوا هم

---

(١٩٠) المرجع السابق (ص ٢٨).

(١٩١) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٣ (ص ١١٢).

(١٩٢) المرجع السابق (ص ١١٣).

(١٩٣) التاريخ السياسي للدولة العربية - ج٢ (ص ٢٩).

(١٩٤) ابن عبد ربه. العقد الفريد، مجلد ٤ (ص ١٧٠).

أنفسهم بملوك الفرس[(١٩٥)].

وكان يرى نفسه أنه أعلم الناس، يقول "أيها الناس اعقلوا قولي، فلن تجدوا أعلم بأمور الدنيا والدين مني"[(١٩٦)] وطبعاً كان معاوية يعي ما يقول، لأن شعوره بكونه إمبراطوراً على دولة مترامية الأطراف، وبيده خزائن الأرض، يعطي ويحرم ويعزّ ويذلّ من يشاء كان يدفعه إلى ذلك. فهو حاكم مطلق لا ينازعه في ملكه أحد، وكثيرون من يشرون أنفسهم من أجل المال، وكانت سياسة الإرهاب التي اتبعها كفيلة بلجم المعارضين وقطع دابرهم.

البيعة ليزيد

وبعد أن تنعّم بالملك سنوات طوالا أراد أخذ البيعة من المسلمين لابنه يزيد، فكتب سنة خمس وخمسين إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه، فوفد عليه من كل مصر قوم، فجلس في أصحابه، وأذن للوفود فدخلوا عليه، وقد تقدّم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد، فتكلم جماعة منهم، ثم قام يزيد بن المقفع فقال: أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية، فإذا مات فهذا، وأشار إلى يزيد، ومن يأبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: اجلس فأنت سيد الخطباء[(١٩٧)].

وهكذا كانت البيعة بحدّ السيف لا بيعة منعقدة على رضا الناس، لقد هيأ معاوية الملك لابنه يزيد المعروف بسوء أخلاقه وفجوره؛ إذ أجمع المؤرخون على أنه كان ماجناً مدمناً على الخمر واللعب مع الكلاب والقردة، وأنه عديم الخبرة ولا يعرف من الدين شيئاً[(١٩٨)]. ولم يكن يوجد شيء أثقل على معاوية من أمر الحسن

---

(١٩٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٣-١٤ (ص ٨٢).

(١٩٦) ابن عبد ربه - العقد الفريد، مجلد ٤(ص ١٧١).

(١٩٧) المرجع السابق - ج٢ (٣٠٧).

(١٩٨) أسعد قاسم - أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة (ص ١٥٣).

بن علي وسعد بن أبي وقّاص، فدسّ إليهما السمّ فماتا[١٩٩]، وسمع أن أهل الشام راضون بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد فشقّ ذلك عليه وأسره في نفسه، ومرة ألمّ بعبد الرحمن مرض، فأرسل إليه طبيبه الخاص، وكان يهودياً، وقيل هو ابن آثال النصراني، وسقاه بأمر من الخليفة سقية قتله بها[٢٠٠].

وهكذا لم يتورع معاوية عن قتل أي مسلم أحس أن بإمكانه منافسة ابنه في السلطة، فسالت دماء بريئة دون وجه حق، واستعبد الناس ومرغت أنوفهم بالذل، ليبقى العرش والسلطان في بني أمية، ولتتركز نظرية الحق الإلهي.

موت معاوية

مات معاوية /٦٠/٦٧٩ م / وكما أراد فقد خلفه ابنه يزيد الذي لم يدم ملكه سوى ثلاث سنوات، إلا أنها كانت حافلة بالمآسي والعنف من أجل إخضاع الأمة لإمارته؛ حيث ميزتها ثلاثة أحداث بارزة: هي قتله الحسين في كربلاء، واستباحة دماء أهل المدينة وأعراضهم، وقذفه الكعبة بالمنجنيق وإحراقها[٢٠١]. وكان معاوية قبل موته قد دعا ابنه يزيد فقال له: يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والرجال، ووطأت لك الأشياء وذللت لك الأعزاء، وأخضعت لك أعناق العرب، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي أسسته إلا أربعة نفر، الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر. فأما ابن عمر فهو رجل ثقة قد قيدته العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك. وأما الحسين فإن أهل العراق خلفه لا يدعونه حتى يخرجوه عليك، فإن خرج فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً، وأما ابن أبي بكر فهو رجل ليست له همة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب، وإذا أمكنته فرصة وثب،

---

(١٩٩) أبو الفرج الأصفهاني - مقتل الطالبيين (ص ٤٣).

(٢٠٠) ابن عبد البر - الاستيعاب - ج ٢ (ص ٣٩٦).

(٢٠١) أسعد قاسم - أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة (ص ١٥٧).

فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك وقدرت عليه فقطعه إربا إربا[٢٠٢].

ولم يحترم يزيد وصية والده في الحسين بن علي، كما انتهك أقدس بقعة عند المسلمين ألا وهي الكعبة فرماها بالمنجنيق وحرق أستارها، وكان على استعداد أن يقتل أمة الإسلام في سبيل الملك. وعندما علم أهل المدينة بموت معاوية، أرسل الوليد بن عقبة والي المدينة يومئذ إلى الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير، ودعاهما إلى البيعة ليزيد، فقالا: بالغد إن شاء الله على رؤوس الأشهاد، وخرجا من عنده، فدعا الحسين برواحله فركبها وتوجه نحو مكة، وركب ابن الزبير برذوناً - أي فرساً - وأخذ طريق مكة[٢٠٣].

ولما أتى الحسين مكة جاءته وفود أهل الكوفة قائلين إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ولسنا نحضر الجمعة مع الوالي فأقدم علينا، فبعث الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وقال له سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلي فإن كان حقاً خرجنا إليهم، فخرج مسلم حتى أتى المدينة فأخذ منها دليلين فمرا في البرية فأصابهم عطش فمات أحد الدليلين، وكتب مسلم إلى الحسين يستعفيه فكتب الحسين إليه أن امض إلى الكوفة، فخرج حتى قدمها ونزل على رجل من أهلها يقال له ابن عوسجة، ولما تحدث أهل الكوفة بمقدمه، دبوا إليه، فبايعه منهم اثنا عشر ألفاً[٢٠٤].

وكان على الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري وبلغه مقدم مسلم بن عقيل إلى الكوفة إلا أنه لم يتحرك لقتله، فبلغ ذلك يزيد فقال: يا أهل الشام، أشيروا علي من استعمل على الكوفة؟ فقالوا: عبيد الله بن زياد فاستعمله على الكوفة، فقدمها قبل مقدم الحسين إليها[٢٠٥].

---

(٢٠٢) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧ - ٨ (ص ٩٣).

(٢٠٣) ابن عبد ربه - العقد الفريد، مجلد ٥(ص ١٢٥).

(٢٠٤) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٥-٦ (ص ١٧٦).

(٢٠٥) ابن عبد ربه - العقد الفريد، مجلد ٥ (ص ١٢٦).

خرج الحسين ثائرا

ما كان الحسين ليرضى أن يبايع يزيد نظا لاتفاق عام الجماعة المذكور، ولعلمه بفسق يزيد وفجوره، وما كان يزيد ليتركه حتى يبايعه، لذلك فلم يجد الحسين بدا من الثورة والخروج ولو كلفه ذلك حياته نفسها. فالحياة ليست إلا موقف حق أو هكذا هي على الأقل عند الحكماء، لذلك خرج الحسين ثائرا، يريد الكوفة، التي شهدت قتل أبيه في السابق. إنه يعلم أنه غير متروك، فقد قال في حجته الأخيرة، لو كنت في حجر هامة من الهوام لاستخرجوني حتى يقضوا في حاجتهم والله ليُعتدنَّ علي كما اعتدتِ اليهود في السبت[٢٠٦].

وجاءه من ينصحه بعدم الخروج كعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي الذي أتاه وهو بمكة، وقال له أريد أن أنصحك نصيحة، فقال الحسين، وما هي، قال عمر: قد بلغني أنك تريد المسير إلى العراق وإني مشفق عليك من مسيرك إلى بلد فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت المال، وإنما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه. فقال الحسين: جزاك الله خيراً يا ابن عم ؛ فقد والله علمت أنك مشيت بنصح، وتكلمت بعقل، ومهما يقض من أمر يكن أخذت برأيك أو تركته، فأنت عندي أحمد مشير وأنصح ناصح.

وكذلك جاءه عبد الله بن عباس ناصحاً وقال له: هل تسير إلى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوّهم، فإن كانوا قد فعلوا ذلك فسر إليهم، وإن كانوا إنما دعوك إليهم وأميرهم عليهم قاهر لهم، وعماله تجبي بلادهم فإنهم إنما دعوك إلى الحرب والقتال، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك، وأن يستغروا عليك فيكونوا أشدّ الناس عليك. فقال له الحسين: وإني أستخير الله

(٢٠٦) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٥-٦ (ص ١٩٥).

وأنظر ما يكون[٢٠٧]. ويبدو أن الحسين استخار وولى وجهه شطر العراق.

عبيد الله بن زياد

عندما جاء مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة وبايعه نفر كبير من أهلها، كان يزيد قد ولى عبيد الله بن زياد بن أبيه على الكوفة فجاءها متلثماً بعمامة سوداء، فما كان يمر بملأ من الناس إلا قال، سلام عليكم فيقولون، وعليكم السلام مرحباً بابن رسول الله - يظنون أنه الحسين وقد كانوا ينتظرون قدومه - وتكاثر الناس عليه، ودخلها في سبعة عشر راكبا، فقال لهم مسلم بن عمر من جهة يزيد، تأخّروا، هذا الأمير عبيد الله بن زياد، فلما علموا ذلك علتهم كآبة وحزن شديد، فتحقق عبيد الله الخبر، ونزل قصر الإمارة من الكوفة. فلما استقر أرسل أحد رجاله ليتجسس على مسلم بن عقيل وأرسل معه ثلاثة آلاف درهم في صورة قاصد من بلاد حمص، وأنه إنما جاء بهذه البيعة[٢٠٨]. فذهب ذلك الجاسوس فلم يزل يتلطف ويستدل على الدار التي يبايع فيها مسلم بن عقيل حتى دخلها، وهي دار هانئ بن عروة المرادي، فبايع وأدخلوه على مسلم بن عقيل، فلزمهم أياماً حتى اطلع على جلية أمرهم، فدفع المال إلى أبي ثمامة العامري بأمر مسلم بن عقيل وكان هذا من فرسان العرب، فرجع ذلك الجاسوس إلى ابن زياد وأعلمه بالدار وصاحبها[٢٠٩]. وكان مسلم قد تحول - حين قدم عبيد الله بن زياد - من الدار التي كان فيها إلى منزل هانئ بن عروة المرادي، كما كتب إلى الحسين بن علي يخبره ببيعة أثني عشر ألفاً من أهل الكوفة ويأمره بالقدوم.

وقال عبيد الله لوجوه أهل الكوفة، ما لي أرى هانئ بن عروة لم يأتني، فبعث إليه محمد بن الأشعث في ناس من قومه وهو على باب داره، فقالوا: إن الأمير قد

---

(٢٠٧) المرجع السابق مجلد ٥-٦ (ص ١٩٢).

(٢٠٨) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧-٨ (ص ١٢٣).

(٢٠٩) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧-٨ (ص ١٢٣).

ذكرك واستبطأك فانطلق إليه، فلم يزالوا به حتى ركب معهم وسار حتى دخل على عبيد الله، فلما سلم عليه قال: يا هانئ أين مسلم ؟. . قال، لا أدري. فأمر عبيد الله ذلك الجاسوس صاحب الدراهم فخرج إليه فلما رآه سقط في يده، فقال: أصلح الله الأمير والله ما دعوته إلى منزلي ولكنه جاء فطرح نفسه علي. قال، ائتني به، قال، والله لو كان تحت قدميّ ما رفعتهما عنه، قال: أدنوه إلي، فأدني فضربه على حاجبه فشجّه، وأهوى هانئ إلى سيف شرطي ليسلّه فدُفع عن ذلك وقال: قد أحل الله دمك فأمر به فحبس في جانب القصر(٢١٠).

ولما وصل الخبر إلى المذحجيين تجمعوا حول القصر، فأمر عبيد الله بن زياد القاضي شريح بأن يخرج إليهم ويقول لهم، إن الأمير احتبسه ليسأله، فخرج شريح وقال لهم ما قال له ابن زياد، فتفرقوا، ولما بلغ النبأ إلى مسلم بن عقيل نادى بشعاره فاجتمع إليه أربعة آلاف من أهل الكوفة، فقدم مقدمته وعبّى ميمنته وميسرته، وسار في القلب إلى عبيد الله. وبعث عبيد الله إلى وجوه أهل الكوفة فجمعهم عنده في القصر، فلما سار إليه مسلم فانتهى إلى باب القصر أشرفوا على عشائرهم فجعلوا يكلمونهم ويردونهم، فجعل أصحاب مسلم يتسللون، فلم يأتِ الليل إلا وقد وجد نفسه وحيداً يتردد في الطرق، فأتى باباً فنزل عليه فخرجت إليه امرأة فقال لها: اسقني فسقته، ثم دخلت فمكث ما شاء الله ثم خرجت فإذا هو على الباب، قالت: يا عبد الله إن مجلسك مجلس ريبة فقم، قال: أنا مسلم بن عقيل فهل عندك مأوى ؟. . قالت: نعم ادخل، وكان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث، فلما علم به الغلام انطلق إلى محمد فأخبره، فانطلق محمد إلى عبيد الله فأخبره، فبعث عبيد الله عمر بن حريث المخزومي وكان صاحب الشرطة إليه ومعه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فلم يعلم مسلم حتى أحيط بالدار، فلما رأى مسلم ذلك خرج إليهم بسيفه فقاتلهم فأعطاه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الأمان.

(٢١٠) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٥-٦ (ص ١٧٧).

قال مسلم، آمن أنا. قال: نعم. قال مسلم: أما لو لم تؤمنوني ما وضعت يدي في أيديكم، وأوتي ببغلة فحمل عليها وانتزعوا سيفه من عنقه، فكأنه عند ذلك آيس من نفسه فدمعت عيناه ثم قال: هذا أول الغدر، فقال له أحد رجال ابن زياد، إن من يطلب مثل الذي تطلب إذا نزل به مثل الذي نزل بك لم يبك. قال مسلم: إنيٍ والله ما لنفسي أبكي ولا لها من القتل أرثي، وإن كنت لم أحب لها طرفة عين تلفا ولكن أبكي لأهلي المقبلين إلي، أبكي لحسين وآل حسين، ثم أقبل على محمد بن الأشعث فقال: يا عبد الله إنيٍ أراك والله ستعجز عن أماني فهل عندك خير تستطيع أن تبعث من عندك رجلاً على لساني يبلّغ حسينا، فإني لا أراه إلا قد خرج إليكم اليوم مقبلا، وهو خارج غداً هو وأهل بيته(٢١١). فقل له، إن ابن عقيل بعثني إليك وهو في أيدي القوم أسير ويقول لك، ارجع بأهل بيتك ولا يغرّك أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيك الذي كان يتمنى فراقهم بالموت أو القتل. إن أهل الكوفة قد كذبوك وكذبوني وليس لمكذوب رأي. فبعث ابن الأشعث إلى الحسين من يخبره بذلك، فقال الحسين: كلّ ما حم نازل وعند الله نحتسب أنفسنا وفساد أمتنا.

حديث مسلم مع ابن زيـاد

كان ابن زياد قد طمّع أهل الكوفة بالنعمة الزائلة إن هم انفضوا عن مسلم ونكثوا بيعته، وفعلاً فقد أفلح في مسعاه، وها هو مسلم يقف أمامه بعدما جيء به إليه على وجه السرعة وهو مثخن بالجراح، لكن مسلماً لم يسلّم عليه فقال له الحرسي: ألا تسلّم على الأمير(٢١٢)، فقال له: إن كان يريد قتلي فما سلامي عليه، وإن كان لا يريد قتلي أسلم عليه، فقال له ابن زياد، لعمري لتُقتَلن. قال: كذلك، قال: نعم. قال: فدعني أوص إلى بعض قومي، فنظر إلى جلسائه، وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، قال: يا عمر إن بيني وبينك قرابة ولي إليك حاجة وقد يجب

---

(٢١١) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٥-٦ (ص ١٨٩).

(٢١٢) المرجع نفسه (ص ١٩٠).

لي عليك نُجح حاجتي وهو سر، فأبى عمر أن يستمع إليه خوفاً من ابن زياد، ولكن الأخير سمح له، فقام مع مسلم، فقال له مسلم: إن علي بالكوفة ديناً استدنته منذ قدمتها: سبعمائة درهم فاقضها عني وانظر جثتي فاستوهبها من ابن زياد فوارها، وابعث إلى حسين من يردّه فإني قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلا. ولكن ابن سعد أبلغ ابن زياد بالسر. فقال ابن زياد، فأما مالك فهو لك ولسنا نمنعك أن تصنع به ما شئت، وأما جثته فما نصنع بها بعد قتله، وأما حسين، فإنه إن لم يردنا لم نرده وإن أرادنا لم نكف عنه. ثم قال ابن زياد مخاطبا مسلم بن عقيل، إيه يا ابن عقيل أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتتهم وتفرق كلمتهم وتحمل بعضهم على بعض. قال: كلا، لم آت بل أهل الكوفة زعموا أن أباك قتل خيارهم، وسفك دماءهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو إلى حكم الكتاب. قال ابن زياد: وما أنت وذاك يا فاسق أولم نكن نعمل بذاك فيهم إذ أنت بالمدينة تشرب الخمر، قال مسلم: أنا أشرب الخمر والله إن الله ليعلم إنك غير صادق، وإنك قلت بغير علم، وإني لست كما ذكرت وإن أحق بشرب الخمر مني وأولى بها من يَلَغ في دماء المسلمين ولغاً فيقتل النفس التي حرم الله قتلها، ويقتل النفس بغير النفس، ويسفك الدم الحرام ويقتل على الغضب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً. فقال له ابن زياد: يا فاسق إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه ولم يرك أ هله. قال مسلم: فمن أهله يا ابن زياد. قال أمير المؤمنين يزيد. فقال مسلم: الحمد لله على كل حال رضينا بالله حكماً بيننا وبينكم، قال ابن زياد: كأنك تظن أن لكم في الأمر شيئا. قال مسلم: والله ما هو بالظن ولكنه اليقين[٢١٣]. قال ابن زياد: قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقتَلها أحد في الإسلام. قال مسلم: أما إنك أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه، أما إنك لا تدع سوء القتلة وقبح المثلة، وخبث السيرة ولؤم الغلبة، ولا أحد من

(٢١٣) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك (ص ١٩١).

الناس أحق بها منك، وأقبل ابن زياد يشتمه ويشتم حسيناً وعلياً وعقيلاً ومسلم ساكت لا يكلمه. وقال لأعوانه: اصعدوا به فوق القصر فاضربوا عنقه ثم اتبعوا جسده رأسه، وأصعدوه وهو يكبر ويهلل ويستغفر. فلما أدنوه ليقتلوه قال: اللهم أحكم بيننا وبين قوم كذبونا وغرونا وخذلونا وقتلونا.

مظاهر أخرى من أعمال ابن زياد

وقام محمد بن الأشعث إلى ابن زياد فكلمه في هانئ بن عروة كي يفرج عنه، إلا أنه أمر أعوانه بقتل هانئ في السوق، فأخذوه إلى مكان من السوق كان يباع فيه الغنم وهو مكتوف، فجعل يقول، وامَذْحِجَاه ولا مذحج لي اليوم وامذحجاه !. . وأين مني مذحج. فلما رأى أن أحداً لا ينصره جذب يده فنزعها من الكتاف ثم قال، أما من عصا أو سكين أو حجر أو عظم يقاوم به الرجل عن نفسه. لكن أعوان ابن زياد وثبوا إليه وشدّوا وثاقه ثم قيل له، امدد عنقك، فقال: ما أنا بمعينكم على نفسي، إلا أن عبداً تركياً لابن زياد ضربه بالسيف فلم يصنع سيفه شيئاً، فقال هانئ إلى الله المعاد، اللهم إلى رحمتك ورضوانك ثم ضربه ضربة أخرى فقتله. ثم إن عبيد الله بن زياد دعا بعبد الأعلى الكلبي وقال لأعوانه، انطلقوا بهذا إلى جبانة السبيع فاضربوا عنقه بها، فأخذوه وقتلوه، وكذلك دعا بعمارة بن صلخب الأزدي، وقال لأعوانه انطلقوا به إلى قومه فضربت عنقه فيهم[٢١٤]، وهكذا بدأت ولاية ابن زياد ليزيد في الكوفة.

يوم عاشوراء

علم الحسين بما جرى لمسلم إلا أنه عزم على الخروج إلى العراق مهما كانت التضحيات، لقد عقد النية على الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، فالحق لا يقوم إلا بالتضحيات، لم تحدثه نفسه بالتراجع فقد قال: كلُّ ما حُمَّ نازل. لقد كان

(٢١٤) محمد بن جرير الطبري - تاريخ الأمم والملوك - مجلد ٥-٦ (ص ١٩٢).

واسع الأفق عميق التفكير رفض الذل، وتحدّى جبروت يزيد حين كانت البيعة تؤخذ من أشجع الرجال، فخرج ثائراً للحق كي لا يموت تحت ركام الباطل، هكذا كانت ثورة الحسين، ثورة من أجل الحق، لا ثورة من أجل الباطل، فما كان يبغي الفساد في الأرض ولا العلوّ فيها، إنما أن يعلِّم هذه الأمة أن الثورة على الظالمين واجب مقدّس. ووصل الحسين في مسيره إلى أرض، فسأل عنها فقيل له كربلاء، فقال: كرب وبلاء.

وكان ابن زياد قد بعث إليه جيشاً من أربعة آلاف مقاتل بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقّاص، وجملة من كان مع الحسين سبعين رجلا، فأحاط جيش عمر بن سعد بحسين وأصحابه. فقال الحسين لعمر، دعني أرجع من حيث أتيت، أو دعني أذهب في أرض الله العريضة. إلا أن عمر رفض طلبه لأن ابن زياد بعث شمر بن ذي الجوشن فقال: اذهب فإن جاء الحسين وأصحابه على حكمي وإلا فمر عمر بن سعد أن يقاتلهم، فإن تباطأ فاضرب عنقه ثم أنت الأمير على الناس، وكتب إلى عمر بن سعد يتهدده في توانيه عن قتل الحسين، وأمره إن لم يجيء الحسين إليه أن يقاتله ومن معه، فإنهم مشاقون.

ولما صلى عمر بن سعد الصبح بأصحابه يوم الجمعة، العاشر من محرم انتصب للقتال، وصلى الحسين أيضاً بأصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، ثم جعل على ميمنته زهير بن القين، وعلى الميسرة حبين بن المطهر، وأعطى رايته العباس بن علي أخاه، وجعلوا البيوت بما فيها من الحرم وراء ظهورهم، وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى المسيرة شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي، وعلى الرجالة شبث بن ربعي، وأعطى الراية لوردان مولاه، وتواقف الناس في ذلك الموضع، وشرع الحسين يذكر للناس فضله وعظمة نسبه وعلو قدره وشرفه، ويقول: راجعوا أنفسكم وحاسبوها، هل يصلح لكم قتال مثلي، وأنا ابن بنت نبيكم، وليس على وجه الأرض ابن بنت نبي غيري، وعلي أبي، وجعفر ذو الجناحين عمي، وحمزة سيد الشهداء عم أبي. فإن

صدقتموني بما أقول فهو الحق، فوالله ما تعمّدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت عليّ الكذب، وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله عن ذلك، جابر بن عبد الله، وأبا سعيد، وسهل بن سعد، وزيد بن أرقم وانس بن مالك، يخبرونكم بذلك، ويحكم !. . أما تتقون الله ؟. . أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟. . ثم قال:أيها الناس ذروني أرجع إلى مأمني من الأرض، فقالوا: وما يمنعك أن تنزل على حكم ابن عمك ؟. . فقال الحسين: معاذ الله أن أعطيهم بيدي إعطاء الذليل وأقرّ إقرار العبيد، ثم قال لهم: أخبروني أتطلبوني بقتيل لكم قتلته، أو مال لكم أكلته، أو بقصاصة من جراحة، لكنهم لم يردّوا عليه، ومن ثم نادى الحسين، يا شبث بن ربعي، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن أشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أنه قد أينعت الثمار واخضرّ الجناب، فأقدم علينا، إنما تقدم على جند مجندة. فقالوا له: لم نفعل، فقال: سبحان الله، والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس إذ قد كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم، فقال له قيس بن الأشعث: ألا تنزل على حكم بني عمك فإنهم لن يؤذوك، ولا ترى منهم إلا ما تحب. فقال الحسين: والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لهم إقرار العبيد.

معركة أم مذبحة ؟..

شاء القدر أن تكون "كربلاء" نبعاً للألم العظيم والحزن الشديد على كرّ الدهور والأعصار، فقد شهدت أرضها خاتمة الجهاد الشريف في نظر البعض، ذلك الجهاد الذي بدأه أبو عبد الله الحسين منذ أرادوا إجباره على الاعتراف بشرعية الحكم الفاسد، فأبى ورفض وهجر موطنه فراراً بدينه وخلقه ومبادئه، وشدّ الرحال إلى الكوفة حيث القوم وعدوه بالنصرة ولكنهم غدروا به[٢١٥]، فوجد نفسه يقف وحيدا، شامخاً في مواجهة دولة بكل ما يعني تعبير الدولة من معنى، إنها مواجهة غير متكافئة العدة والعدد، ولا متجانسة الغايات والأهداف؛ لذلك هزّت مشاعر

---

(٢١٥) جمال بدوي - الطغاة والبغاة (ص ٣٠).

البشر على اختلاف أديانهم وأجناسهم وانتماءاتهم[٢١٦].

لقد حال جيش الدولة بين الحسين وبين الماء كي يموت من العطش هو وأهله وأصحابه، ولم يتركوه يذهب في أرض الله الواسعة وقد طلب منهم ذلك، لأنهم يريدون إذلاله وهو لا يقبل الذلّ مهما كلّف الثمن، فاضطر إلى أن يواجه ذلك الجيش الكبير بصدره العاري، وقد كان موقفه هذا مدعاة لبعض الأبطال من جيش الطاغية لينحازوا إليه، ومنهم الحرّ بن يزيد، وهو من أشجع الفرسان وأمير مقدمة جيش ابن زياد، وقد أقبل بين يدي الحسين وخاطب عمر بن سعد فقال: ويحكم ألا تقبلون من ابن بنت رسول الله ما يعرض عليكم، فقال عمر بن سعد: لو كان ذلك إليّ قبلت، فقال الحر: اصلحك الله، أمقاتل أنت هذا الرجل؟. . فقال عمر: أي والله قتالاً أيسره أن تسقط الرؤوس وتطيح الأيدي. ثم قال الحرّ مخاطباً أهل الكوفة: أدعوتم الحسين إليكم حتى إذا أتاكم أسلمتموه، وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة الواسعة، وحلتم بينه وبين الماء الفرات الجاري الذي يشرب منه الكلب والخنزير، وقد صدعهم العطش بئس ما خلفتم محمداً في ذريته. إلا أن كل هذا الكلام وكل هذا التوبيخ لم يمنع الطغاة من أن ينفذوا ما عقدوا العزم عليه، فشمّر عمر بن سعد ورمى وقال: اشهدوا أني أول من رمى القوم، وكأنه أراد بذلك أن يشهد الجميع على إقدامه خوفا من جواسيس ابن زياد.

وبعد ذلك ترامى الناس بالنبال[٢١٧]، ثم إن الحسين أعيا فقعد على باب فسطاطه وأتى بصبي صغير من أولاده اسمه عبد الله، فأجلسه في حجره، فرماه رجل من بني أسد بسهم فذبح ذلك الغلام فتلقى الحسين دمه في يده وألقاه نحو السماء وقال: رب إن تك قد حبست النصر عنا من السماء فاجعله لما هو خير،

---

(٢١٦) المرجع السابق (ص ٣٠).

(٢١٧) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧-٨ (ص ١٤٥).

وانتقم لنا من الظالمين، ورمى عبد الله بن عقبة الغنوي أبا بكر بن الحسين بسهم فقتله أيضا، ثم قتل عبد الله والعباس وعثمان وجعفر ومحمد بنو علي بن أبي طالب[٢١٨]، وقد اشتدّ عطش الحسين فحاول أن يصل إلى أن يشرب من ماء الفرات فما قدر، بل مانعوه عنه، فخلص إلى شربة منه، فرماه رجل من تميم بسهم في حنكه فأثبته، فانتزعه الحسين من حنكه وفار الدم فتلقاه بيديه ثم رفعهما إلى السماء وهما مملوءتان دما، ورمى به إلى السماء وقال: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا. ومن ثم أقبل شمر بن ذي الجوشن في نحو عشرة من رجال الكوفة حتى أحاطوا بالحسين وحملوا عليه من كل جانب وهو يجول فيهم بالسيف يميناً وشمالا، ثم نادى شمر بن ذي الجوشن: ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟. . فاقتلوه ثكلتكم أمهاتكم، فحملت الرجال من كل جانب على الحسين وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه اليسرى، وضرب على عاتقه، ثم انصرفوا عنه وهو ينوء ويكبو، ثم جاء إليه سنان بن أبي عمرو بن أنس النخعي فطعنه بالرمح فوقع، ثم نزل فذبحه وحزّ رأسه، ثم دفع رأسه إلى خولي بن يزيد.

وظل الحسين رابط الجأش رغم قتل أولاده وأصحابه حتى سقط شهيدا، وفي جسمه ثلاث وثلاثون طعنة، وأربع وثلاثون ضربة، ومن ثم أمر عمر بن سعد أن يوطأ الحسين بالخيل، حتى سوّى جسده بالأرض. وعندما وصل رأس الحسين إلى ابن زياد، أمر فنودي الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم الملك ويفرق الكلمة عليهم، ولما جيء برأس الحسين إلى يزيد، جعل ينكت بقضيب كان في يده في ثغره، وهو فرح بما فتح الله عليه.

وقعة الحرّة وإحراق الكعبة

لم يكتف يزيد بما أحدث في قتل الحسين فراح يلغ في دماء المسلمين ولغاً وكان شغوفاً بالدماء فثارت عليه الأمصار، وكانت مدينة الرسول أشدّ سخطاً عليه،

(٢١٨) المرجع السابق - مجلد ٧-٨ (ص ١٤٩-١٥٠-١٥١-١٥٢-١٥٤).

فخلعته سنة /٦٣/ وولى أهلها عبد الله بن مطيع على قريش، وعبد الله بن حنظلة على الأنصار. وكذلك ثار عبد الله بن الزبير في مكة فجهز يزيد جيشاً كبيراً وأمر عليه مسلم بن عقبة، وقال له: ادع القوم ثلاثاً فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبل منهم وكف عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا أظهرت عليهم فأبح المدينة ثلاثاً ثم أكفف عن الناس(٢١٩).

وحين قدم الجيش المدينة خرج إليه أهلها في عدة وهيئة وجموع كثيرة لم يُرَ مثلها، فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم، وأمر مسلم بن عقبة منادياً ينادي، قاتلوا عن أميركم أو دعوه، فجدّ الناس في القتال(٢٢٠)، ثم انهزم أهل المدينة إليها، وقتل من الطرفين خلق من السادات والأعيان، وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام، فقتل خلقاً من أشرافها وقرائها، وانتهب أموالاً كثيرة منها، ووقعوا على النساء.

وبعد فراغه من حرب أهل المدينة سار مسلم إلى مكة قاصداً قتال ابن الزبير، إلا أنه مات فخلفه في القيادة حصين بن نمير وسار بالجيش نحو مكة، فنزل ظاهرها، وخرج إليه ابن الزبير في أهل مكة ومن التف معه فاقتتلوا عند ذلك قتالاً شديدا، ومن ثم نصبوا المجانيق على الكعبة ورموها بالحجارة والنار، فاحترق جدار البيت، إلا أن حدث موت يزيد جعل الجيش ينهزم، ويعود إلى دمشق.

معاوية الثاني سيد الأحرار

امتثالاً للسنة التي سنّها معاوية فقد وُلي الملك معاوية الثاني ابن يزيد، إلا أن هذا الرجل كان قد تهذب على يد رجل قدري - يقول بالقدر - يُقال له عمرو المقصوص، وكان معاوية الثاني قد استشار معلمه عمرا في أمر الملك، فقال له عمرو المقصوص: إما أن تعدل وإما أن تعتزل. فنظر معاوية الثاني في أمره كيف يختار، وكيف يمكن أن يكون عادلاً إذا اختار البقاء في منصب الخلافة، فوجد أنه سيكون

(٢١٩) البداية والنهاية - مجلد ٧-٨ (ص ١٧٥).

(٢٢٠) ابن عبد ربه - العقد الفريد، مجلد ٥ (ص ١٢٨).

عاجزاً عن تحقيق العدل، وفقاً لمشورة أستاذه عمرو. لذلك قرر التنازل عن الخلافة، وأعلن قراره في خطبة خطب بها أهل دمشق قائلا: "إنا قد بُلينا بكم وابتليتم بنا، وإن جدي معاوية نازع الأمر من كان أولى منه وأحق - يقصد علياً بن أبي طالب - فركب منه - أي من أمر الخلافة - ما تعلمون حتى صار مرتهناً بعمله، ثم تقلّده أبي - يزيد - ولقد كان غير خليق به، فركب ردعه، واستحسن خطأه ولا أحبّ أن ألقى الله بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم - أي أترك لكم أمر الخلافة فتصرفوا فيه كما ترون - ولوه من شئتم، فوالله لئن كانت الخلافة مغنماً لقد أصبنا منها حظا، وإن كانت شرا، فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها[٢٢١]. واعتزل الناس فدس له بنو أمية السم ومات بعد أربعين يوما، وجاء بنو أمية بعمرو المقصوص وقالوا له: أنت أفسدته، فدفنوه حيا.

ولعمري لم يفسده وإنما قال له الحق فما أجملها من كلمة، إما أن تعدل وإما أن تعتزل، لذلك آثر الآخرة على حبّ الدنيا وشهواتها، فاعتزل الملك عن قناعة وراحة ضمير، وما أعظم عمرا المقصوص من معلّم وقد تحمل ظلم الطغاة عندما دفنوه حياً في سبيل إعلاء كلمة الحق الذي أماتوه بظلمهم وجهلهم، وما أشرفها من موتة تلك التي أعطته شرف الشهادة دفاعاً عن الحق، وما أذلّ تلك النفوس التي ترضى بالباطل طمعاً في نعمة زائلة.

استئناف مسيرة الطغيان الأموي

كانت الفترة التي تلت موت معاوية بن أبي سفيان أكثر عنفاً ودموية في التاريخ الإسلامي، بسبب كثرة الطامحين في السلطة؛ فقد بدأت الفتن بمقتل الحسين في كربلاء، ومن ثم جاءت وقعة الحرة ورمي الكعبة بالمجانيق وإحراقها، وكانت بعد ذلك معركة "مرج راهط" بين الكلبية المتحالفة مع مروان بن الحكم، الذي وصل إلى الحكم بعد موت معاوية الثاني، وبين القيسية المتحالفة مع عبد الله

(٢٢١) حسين مروة - النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية - ج١ (ص ٥٧٢).

بن الزبير، الذي أعلن نفسه خليفة بعد موت يزيد بن أبي سفيان، متخذا من مكة عاصمة لملكه. وكانت نتيجة هذه المعركة انتصار مروان بن الحكم عام ٦٤هـ/٦٨٤م/ ومقتل الآلاف، ومنهم الضحاك بن قيس زعيم القيسية.

كما نهضت حركة التوابين في الكوفة بزعامة سليمان بن صُرد مطالبة بالثأر لدم الحسين وقد اشتبكت مع الأمويين في معركة "عين الوردة" عام ٦٥/٦٨٤ وكان النصر فيها حليف الأمويين، وقتل بها خلق كثير، من ضمنه زعيم الحركة سليمان بن صُرد. وقد تفتقت عن حركة التوابين هذه ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي استطاع أن يستميل أهل الكوفة بالدعوة لثأر الحسين، ونجح في الاقتصاص من قتلة الحسين ؛ حيث قتل عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وشمر بن ذي الجوشن الضبابي، وخلقاً كثيراً ممن اشترك في الجيش الذي قتل الحسين.

وقد تمكن عبد الله بن الزبير من قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي عام/٦٧ /٦٨٦ وإخضاع العراق لحكمه، وبذلك قوي نفوذ ابن الزبير بينما كان عبد الملك بن مروان الذي خلف أباه عام ٦٥/٦٨٤ في أول حكمه، ومع ذلك فقد جهز عبد الملك جيشاً كثيفاً لقتال ابن الزبير، واستطاع الجيش الشامي القضاء على الجيش الزبيري الذي كان بقيادة مصعب بن الزبير في معركة "دير الجاثليق" عام ٧١/٦٩٠ فدان العراق لسلطة عبد الملك، إلا أن عبد الله بن الزبير بقي متحصناً في مكة. وأرسل عبد الملك عدة جيوش لقتاله، إلا أنها كانت تبوء بالفشل، وعندما اشتد النضال بين الطرفين، ورأى عبد الملك أن خصمه عبد الله بن الزبير قابع في مكة، وأنه يأخذ البيعة من أهل الشام الذين كانوا يحجون إلى بيت الله الحرام، أراد عبد الملك أن يصرف أهل الشام عن الذهاب إلى مكة، وعندما ضج الناس وقالوا: "تمنعنا من حج بيت الله وهو فرض من الله علينا ؟. ." قام عبد الملك حينذاك ببناء قبة الصخرة في بيت المقدس، و روج حديثاً عن رسول الله على لسان ابن شهاب الزهري مفاده: "لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام،

ومسجدي ومسجد بيت المقدس، وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام وهذه الصخرة - التي يروى أن رسول الله وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء - تقوم لكم مقام الكعبة[٢٢٢]. ولم ييأس عبد الملك من القضاء على خصمه ابن الزبير، فأرسل له جيشاً كثيفاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فأحاط بمكة ونصبوا المجانيق على جبل أبي قبيس وراحوا يمطرون مكة بوابل من الحجارة الضخمة، وتهدمت الكعبة وقتل ابن الزبير بين أستارها عام ٧٣/ ٦٩٢.

وبموت ابن الزبير وخضوع الحجاز لعبد الملك بن مروان توحد العالم الإسلامي من جديد وأصبح عبد الملك الخليفة الوحيد للمسلمين، ولهذا السبب فقد أطلق على هذا العام (٧٣/ ٦٩٢) "عام الجماعة"[٢٢٣]، وحين استقام الأمر لعبد الملك بن مروان أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على العراق، وأمره أن يجمعهم لقتال الخوارج، فجاء الحجاج الكوفة وصعد المنبر وهو متلثم ومن ثم نحى العمامة عن رأسه وقال: "أيها الناس، إن أمير المؤمنين عبد الملك أمير استخلفه الله عز وجل في بلاده، وارتضاه إماماً على عباده، و قد ولاّني مصركم، وقسمة فيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإمضاء الحكم على ظالمكم، وصرف الثواب إلى المحسن البريء والعقاب إلى العاصي المسيء، وأنا متبع فيكم أمره، و أرجو بذلك من الله المجازاة، ومن خليفته المكافأة، وأخبركم أنه قلّدني بسيفين حين توليته إياي عليكم، سيف رحمة، وسيف عذاب ونقمة، فأما سيف الرحمة فسقط مني في الطريق وأما سيف النقمة فهو هذا، فحصبه الناس، فلما أكثروا عليه خلع عمامته فوضعها على ركبته فجعلت السيوف تبري الرقاب، فلما سمع الخارجون الكائنون على الأبواب وقيعة الداخلين، ورأوا تسارع الناس إلى الخروج تلقوهم بالسيوف فردعوا الناس إلى جوف المسجد ولم يتركوا خارجاً يخرج، فقتل منهم بضعة

(٢٢٢) عبد الأمير دكسن - الخلافة الأموية (ص ٣٩).

(٢٢٣) المصدر السابق (ص ٢١٤)، وسبق أن أشرنا إلى إطلاق هذه التسمية على العام الذي بويع فيه معاوية ابن أبي سفيان.

وسبعين ألفا، حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك[٢٢٤]".

ووصل إلى علم عبد الملك إسراف الحجاج في سفك الدماء، فكتب إليه: "أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين سرفكك في الدماء وتبذيرك في الأموال ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء في الخطأ الدية وفي العمد القصاص بالمثل، وفي الأموال ردها إلى مواضعها ثم العمل فيها برأيه". فإنما أمير المؤمنين أمين الله وسيّان عنده منع حق وإعطاء باطل[٢٢٥]، فأجابه الحجاج بما يلي: "أما بعد، فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية ما هم أهله، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه، والله ما علي من عقل ولا قَوَد - أي قصاص - ما أصبت القوم فأدفع ديتهم، ولا ظلمتهم فأقاد بهم - أي يقتص مني - ولا أعطيتهم إلا لك، ولا قتلتهم إلا فيك". ولما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتي ولن أعود لشيء يكرهه[٢٢٦]. فلم يطلبه إليه ليقتص منه، بل ثبته في مكانه وأعلى مرتبته وذلك أن الحجاج لم يعط أحداً إلا لأنه من الموالين لعبد الملك أو في سبيل تدعيم ملكه. ولم يقتل أحداً إلا لأنه من المعارضين، وبالتالي فلا وجه لغضب عبد الملك، لأن الحجاج نفذ سياسته في القمع والإرهاب بكل دقة، وكان له مخلصا أشد الإخلاص.

وبعد قتل ابن الزبير عام /٧٥/ ٦٩٤ حج عبد الملك بن مروان، فخطب في الناس وقال: "أما بعد، فلست بالخليفة المستضعف - يعني عثمان - ولا الخليفة المداهن - يعني معاوية - ولا الخليفة المأفون ـ يعني يزيد - ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وإني لا أدواي أدواء هذه الأمة

(٢٢٤) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة (ص ٢٠٤).

(٢٢٥) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ (ص ١٥٥).

(٢٢٦) نفس المرجع.

إلا بالسيف حتى تستقيم لي قناتكم. . . والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه(٢٢٧). وقد شجع عبد الملك مذهب الجبر كوسيلة لإسكات الخصوم والمعارضين، فالسلطة يتم تحديدها من الله وليس للناس فيها مشورة ولا رأي، والإنسان مجبور على كل ما يفعله خيرا كان أو شرا، والخليفة هو خليفة الله(٢٢٨). وأوعز إلى الفقهاء أن يتحدثوا بذلك فكثرت الأحاديث المنسوبة زوراً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، حول الجبر وتبارى الشعراء في تأييد هذا المذهب، وجاء معبد الجهني وعطاء بن يسار إلى الحسن البصري، وكان من الشخصيات الإسلامية التي رفضت مذهب الجبر، فقالا له: يا أبا سعيد، هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون أموالهم ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى، فقال لهما الحسن البصري، كذب أعداء الله - يقصد بني أمية-(٢٢٩)، فسمع عبد الملك أن معبد الجهني يتحدث بالقدر ويرفض مذهب الجبر فطلبه إليه وصلبه(٢٣٠).

وكان عبد الملك أول من بخل في الإسلام وكان يسمى "رشح الحجارة" لبخله، وهو كذلك أول من غدر في الإسلام، عندما قتل عمرا بن سعيد بن العاص، الذي عينه مروان بن الحكم خليفة بعد عبد الملك. وهو أول من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأول من نهى عن الأمر بالمعروف(٢٣١). وأصبحت أعماله سنة لمن جاء بعده من الخلفاء، وعمر ما شاء الله له من السنين، وأراد أخذ البيعة من الناس قبل موته لابنيه الوليد وسليمان، فكتب بذلك إلى الأمصار فبايع الحجاج لهما بالعراق، فلم يختلف عليه أحد، وبويع لهما بالشام ومصر واليمن، وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل وهو عامله على المدينة أن يأخذ بيعة أهل المدينة، فأبى سعيد بن

---

(٢٢٧) السيوطي - تاريخ الخلفاء (ص ١٧٥).

(٢٢٨) إمام عبد الفتاح إمام — الطاغية (ص ٢٠٠).

(٢٢٩) حسين مروة - النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية - ج١ (ص ٥٧٠).

(٢٣٠) عبد الأمير دكسن - الخلافة الأموية (ص ٢٢١).

(٢٣١) السيوطي - تاريخ الخلفاء (ص ١٧٤).

المسيّب أن يبايع اثنين متذرعاً بحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنه إذا كانت بيعتان في الإسلام فاقتلوا الأحدث منهما". إلا أن حديث الرسول لم يكن ليشفع لسعيد عند عبد الملك الذي أمر عامله بجلد سعيد مئة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وأن يلبسه ثياباً من الشعر إن هو لم يبايع، وعندما أصر سعيد على موقفه، نفّذ فيه عامل عبد الملك الحكم فألبسه ثياباً من الشعر وضربه مئة سوط وحلق رأسه ولحيته وأوقفه في السوق[٢٣٢].

ويكفي عبد الملك وتوليته الحجاج على المسلمين فقد أهانهم وأذلهم قتلاً وضرباً وشتماً وحبساً، فقتل من الصحابة وأكابر التابعين ما لا يحصى، فضلاً عن غيرهم، وختم في عنق أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد، يريد بذلك ذلّهم[٢٣٣]. وهو عندما حضرت عبد الملك الوفاة قال لابنه الوليد: يا وليد انظر الحجاج فأكرمه فإنه هو الذي وطّأكم المنابر، وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك، فلا تسمعن فيه قول أحد، وأنت إليه أحوج منه إليك. وعمل ابنه بوصيته فأكرم الحجاج وأعلى مرتبته وكان يقول، ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول، الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي، وأنا أقول، إنه جلدة وجهي كله[٢٣٤].

ولم يشذ أحد من حكام بني أمية عن سبيل الطغيان سوى عمر بن عبد العزيز الذي تولى الحكم بعد سليمان بن عبد الملك عام ٧١٨/٩٩ وكان - كما يروي المؤرخون - حاكماً زاهداً ويروي أحمد بن يحيي المرتضى أن غيلان الدمشقي وهو أحد الشخصيات التي رفضت مذهب الجبر الذي روج له عبد الملك بن مروان، وصار سنة عند الأمويين كتب إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يدعوه إلى مذهبه القائل بحرية الإرادة، وقد وصف غيلان لعمر بن عبد العزيز في كتابه ذاك حال الإسلام

---

(٢٣٢) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة (ص ٢٢٤).

(٢٣٣) السيوطي - تاريخ الخلفاء (ص ١٧٦).

(٢٣٤) ابن عبد ربه - العقد الفريد، مجلد ٥ (ص ٣١٤).

والمسلمين في عهد الدولة الأموية، وما أدى إليه هذا الحال من سوء حتى أخيف العالم فلا يتكلم ولا يُعطى الجاهل فيسأل. وقد طلب عمر بن عبد العزيز غيلان وطلب منه أن يعينه على إصلاح شؤون المسلمين فاستجاب غيلان لهذا الطلب مشترطاً أن يتولى بيع خزائن الأمويين وردّ حقوق الناس إلى أهلها، فقبل الخليفة الصالح ذلك، فلما تولى غيلان هذا الأمر نادى أهل دمشق بقوله: "تعالوا إلى متاع الخونة - يقصد حكام بني أمية السابقين لعمر بن عبد العزيز - تعالوا إلى متاع الظلمة، تعالوا إلى متاع من خلف الرسول في أمته بغير سنته وسيرته". ثم أخذ يبيع أمتعة بني أمية وهو يقول للناس المجتمعين حوله: "من يعذرني ممن يزعم أن هؤلاء كانوا أئمة هدى، وهذا متاعهم والناس يموتون من الجوع"[٢٢٥].

وتقول الرواية إن هشام بن عبد الملك مر حينذاك وغيلان يرفع صوته بذلك القول، فقال هشام، أرى أن هذا يصيبني ويصيب آبائي، والله إن ظفرت به لأقطعنّ يديه ورجليه. ثم تقول الرواية، إنه حين تولى هشام عرش الأمويين هرب غيلان إلى أرمينيا، وهو ينشر عيوب هشام، وأخبار ظلمه وظلم بني أمية الذين زعموا أنهم يحكمون بقضاء الله وقدره، وأنه لا مهرب من القضاء والقدر، فأمر هشام بإحضار غيلان وصاحبه صالح، فلما أحضرا أمر بقطع أيديهما وأرجلهما بعد أن حبسهما أياما، ومات صالح قبل غيلان، فتوجه غيلان إلى الناس قائلا: "قاتلهم الله ـ يقصد بني أمية - كم من حق أماتوه، وكم من باطل قد أحيوه، وكم من ذليل في دين الله أعزوه، وكم من عزيز في دين الله أذلوه". فغضب الأمويون الذين سمعوا هذا الكلام من غيلان، فذهبوا إلى هشام يقولون له، قطعت يدي غيلان ورجليه وأطلقت لسانه، إنه أبكى الناس ونبههم إلى ما كانوا عنه غافلين، فأرسل إليه من يقطع لسانه، وقد فعل هشام ذلك ومات غيلان شهيد دفاعه عن حقوق المظلومين[٢٢٦].

---

(٢٢٥) حسين مروة - النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية - ج١ (ص ٥٧٣).

(٢٢٦) حسين مروة - النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية - ج١ (ص ٥٧٣).

وبقي الظلم قابعاً يشحن النفوس بالأسى والحقد، فلما قامت ثورة بني العباس وجد الناس فيها متنفساً من ظلم الأمويين، فساندوها بكل ما يستطيعون علهم يقالون من الظلم والاستعباد، ولكن الأمويين ذهبوا وجاء من هم أشد منهم ظلما، وكأن قدر هذه الأمة المغلوبة أن تبقى تحت سياط القهر، وأن يبقى الظالمون أرباباً عليها.

لقد كانت فظائع الأمويين وطغيانهم من أهم الأسباب في كره الناس لهم والانقلاب على دولتهم، لذلك حين نشأت الدعوة العباسية بقيادة إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، كان الجو مهيأ لنجاحها وقد سئل بعض شيوخ بني أمية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس ما كان سبب زوال ملككم؟. فقال: "إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقّد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا، فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنّا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلّة أنصارنا"[٢٣٧].

وكما يتضح فهذا الرجل يعترف بظلم بني أمية للناس وهضمهم لحقوقهم مما سبب ضياع ملكهم إلى بني العباس، وقام بنو العباس بالأمر؛ فكان أولهم عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وقد لقب بأبي العباس السفاح، الذي تولى الإمارة سنة ١٣٢/٧٥١ في الكوفة، وقد بعث عمه عبد الله بن علي إلى دمشق فدخلها، وقتل خلقاً كثيراً فيها، وأتى على نهر أبي فطرس في الرملة بفلسطين، فقتل من بني أمية هناك بضعاً وثمانين رجلا، وفرّ مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية إلى مصر، فأتبعه بنو العباس وقتل في بوصير من أرض مصر، وحُمِل رأسه إلى أبي

(٢٣٧) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ (ص ٢٧٥).

العباس، فلما وضع بين يديه سجد فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله الذي لم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك، والحمد لله الذي أظفرني بك وأظهرني عليك، ثم قال، ما أبالي متى طرقني الموت، وقد قتلت بالحسين وبني أبيه من أمية مائتين وأحرقت شلو هشام بابن عمي زيد بن علي، وقتلت مروان بأخي إبراهيم(٢٣٨). ويروي المؤرخون أن أبا العباس كان سريعاً إلى سفك الدماء، فأتبعه في ذلك عماله بالمشرق والمغرب(٢٣٩).

من غدر أبي العباس السفاح

بعد أن توطد الملك لأبي العباس وجد أنه من الضروري الاقتصاص من كل الذين ساهموا في الدعوة العباسية ومن ثبتوا أركانها، فكان أول المطلوبين بتهمة الخيانة أبي سلمة الخلّال، وكان هذا داعية للإمام إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس في الكوفة، فلما وصل إلى مروان بن محمد أمر إبراهيم ودعوته أمر بإحضاره فأحضر إليه موثقا، و دخل على مروان فأنّبه وشتمه، فاشتدّ لسان إبراهيم عليه، فأودعه مروان في السجن ومن ثم أرسل مروان إلى السجن عشرين رجلاً فقتلوه(٢٤٠). فلما قتل إبراهيم أراد أبو سلمة الخلّال أن يصرف هذا الأمر إلى ولد علي بن أبي طالب، وكان ينهى أبا العباس عن الخروج، ويقول له إن الأمر لم يتم، وإن موالي بني أمية قائمون بالحرب، والأمر أشد مما كان. وبعث أبو مسلم الخرساني داعية بني العباس في خراسان إلى الكوفة قائداً من قوّاده في ألفي رجل إلى أبي العباس يأمره بالخروج، فجاء ذلك القائد وسلّم عليه بالخلافة، فقال أبو العباس، إن أبا سلمة منعني عن الخروج حتى يولي العمال، ويعمل الخراج، فقال القائد، لعن الله أبا سلمة، والله لا أجلس حتى تخرج إلى الناس، فخرج له مع

---

(٢٣٨) المرجع السابق - ج ٣ (ص ٣١١).

(٢٣٩) السيوطي - تاريخ الخلفاء (ص ٢٠٨).

(٢٤٠) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة (ص ٢٩٠).

رجاله إلى المسجد، فلما بلغ أبا سلمة خروجه أتاه يعتذر إليه، فقبل ذلك منه، وأراه المكانة منه والخاصة به.

وقد كان علم أبو العباس الذي أراد أبو سلمة من صرف الخلافة إلى ولد علي بن أبي طالب[٢٤١]. وقد جعل أبو العباس أبا سلمة وزيره، فكان أبو سلمة أول من وقع عليه اسم الوزارة في دولة بني العباس[٢٤٢]. إلا أنه بقي في نفس أبي العباس منه شيء، ولما توثقت الأمور لأبي العباس استشار وزراءه في قتل أبي سلمة، فأدار القوم الرأي فيه وقالوا، إنك إن قتلته ارتاب أبو مسلم، ولم تأمن أن يحدث لذلك حدثا، ولكن الرأي أن تكتب إليه بالذي رابك منه، والذي يريده من فسخ ما أنت فيه، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، وكان أبو العباس وأبو جعفر لا يسميان أبا مسلم إلا عما، فلما قدم الكتاب إلى أبي مسلم كتب إلى أبي العباس إن كان رابك منه ريب فاضرب عنقه، فلما أتاه الكتاب قال له وزراؤه، إنك لا تأمن من أن يكون ذلك غدراً من أبي مسلم، وأن يكون إنما يريد أن يجد السبيل إلى ما تتخوف منه، ولكن أكتب إليه أن يبعث إليك برجل من قواده يضرب عنقه، فكتب إليه بذلك، وذكر في الكتاب إني لا أقدّم ولا أؤخر إلا برأيك، فبعث إليه برجل يُقال له: مرار الضبّي، فلما قدم على أبي العباس أمر ذلك الضبي أن يقعد له في الظلمة في داخل الإمارة بالكوفة، فإذا خرج ضربه بالسيف برأسه، فقتله ثم أمر بصلبه، فلما أصبح الناس إذا هم بأبي سلمة مصلوباً على دار الإمارة[٢٤٣]، فكان هذا جزاء الإحسان الذي اصطنعه أبو سلمة لبني العباس.

من غدر أبي جعفر المنصور

لما توفي أبو العباس سنة ١٣٦/٧٥٥ خلفه في الملك أخوه عبد الله الأصغر

---

(٢٤١) المرجع السابق (ص ٢٩٢).

(٢٤٢) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ (ص ٣٢٨).

(٢٤٣) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة (ص ٢٩٥).

الذي يلقب بأبي جعفر المنصور، وقد وضع هذا نصب عينيه اغتيال أبي مسلم الخراساني الذي قامت على أكتافه الدعوة العباسية، وكان أبو مسلم والياً على خراسان، وقد كان عبد الله بن علي قد خالف ابن أخيه المنصور، ودعا إلى نفسه من كان معه من أهل الشام وغيرهم، فبايعوه فبعث إليه بأبي مسلم، فكانت له معه حروب كثيرة ببلاد نصيبين في الموضع المعروف بدير الأعور، وانهزم عبد الله بن علي في نفر من خواصه إلى البصرة، فظفر أبو مسلم بما كان في عسكر عبد الله فبعث إليه المنصور بيقطين بن موسى لقبض الخزائن. فلما دخل يقطين على أبي مسلم قال: السلام عليك أيها الأمير، قال: لا سلام الله عليك يا ابن اللخناء، أي الخبيثة، أؤتمن على الدماء، ولا أؤتمن على الأموال؟. فقال له: ما أبدى هذا منك أيها الأمير؟. قال: أرسلك صاحبك لقبض ما في يدي من الخزائن، فقال له: امرأته طالق ثلاثا، إن كان أمير المؤمنين وجّهني إليك لغير تهنئتك بالظفر، فاعتنقه أبو مسلم وأجلسه إلى جانبه، فلما انصرف قال لأصحابه: و الله أني لأعلم أنه طلق زوجته ثلاثا، ولكنه وفي لصاحبه[٢٤٤].

وسار أبو مسلم من الجزيرة يريد خراسان، وسار المنصور من الأنبار يريد المدائن فنزل رومية المدائن التي بناها كسرى، وكتب إلى أبي مسلم ليأتيه[٢٤٥] فكتب إليه أبو مسلم أنه لم يبق لأمير المؤمنين عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنّا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت[٢٤٦]. فبعث المنصور إليه جرير بن يزيد ا لبجلي في جماعة من الأمراء، وأمره أن يكلم أبا مسلم باللين كلاماً يقدر عليه، و أن يكون في جملة ما يكلمه به أنه يريد رفع قدرك وعلو منزلتك فإن جاء بهذا فذاك، وإن أبى فقل هو بريء من العباس إن شققت العصا وذهبت على

(٢٤٤) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ (ص ٢٥٥).

(٢٤٥) المرجع السابق - ج٣ (ص ٣٥٥).

(٢٤٦) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٩-١٠ (ص ٥٣).

وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره، ولو خضت البحر لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو يموت قبل ذلك. وقد كان المنصور قد كتب في غيبة أبي مسلم عن خراسان إلى أبي داود إبراهيم بن خالد، الذي استخلفه أبو مسلم عليها وأعطاه المنصور ولاية خراسان. وقال له، إن ولاية خراسان لك ما بقيت، فقد وليتكها وعزلت أبا مسلم. وشاور أبو مسلم وزراءه في شأن المسير إلى المنصور فكلهم أشاروا إليه بعدم المسير. فبعث أبو مسلم إلى المنصور، إني سأبعث إليك أبا أسحق وهو ممن أثق به، فبعث أبا اسحق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو ردّه، فلما رجع إليه أبو اسحق قال له، ما وراءك؟. قال: رأيتهم معظمين لك يعرفون قدرك، فغرّه ذلك وعزم على المسير إلى الخليفة(٢٤٧). فلما قدم على أبي جعفر المنصور وهو يومئذ بنرومية المدائن، أمر الناس يتلقونه وأذن له فدخل على دابته، ورحّب به وعانقه، وأجلسه معه على السرير، وقال له: كدت أن تخرج ولم أفض إليك بما تريد، فقال: قد أتيت يا أمير المؤمنين فأمرني بأمرك. فقال له المنصور: اذهب إلى منزلك وضع ثيابك وأدخل الحمّام(٢٤٨) وانتظر المنصور فيه الغوائل والفرص، وأقام أبو مسلم عند المنصور أياماً وهو يظهر له الودّ والاحترام ويريه من الإكرام ما لم يره قبل ذلك، حتى ذا مضت له أياماً أقبل على التجنّي.

فسار أبو مسلم إلى عيسى بن موسى ابن عم المنصور، وكان له فيه رأي جميل، فسأله الركوب معه إلى المنصور ليعاتبه بحضرته، فقال له عيسى بن موسى، اذهب قبلي وسأتبعك بعد قليل، فتقدّم أبو مسلم إلى مضرب المنصور، فدخل وجلس تحت الرواق، وقيل له إن المنصور يتوضأ للصلاة(٢٤٩) فلو جلست، فجلس، وأبطأ عيسى بن موسى عليه، وقد هيأ له أبو جعفر عثمان بن نُهيك، وهو على حرسه في عدّة فيهم شبيب بن رياح، وأبو حنيفة حرب بن قيس، فتقدم أبو جعفر إلى عثمان

(٢٤٧) المرجع السابق - مجلد ٩-١٠ (ص ٥٤).

(٢٤٨) ابن قتيبة - الإمامة والسياسة (ص ٣٠٩).

(٢٤٩) المسعودي - مروج الذهب - ج٣ (ص ٣٥٦).

فقال له: إذا عاتبته فعلا صوتي فلا تخرجوا، وجعل عثمان وأصحابه في ستر خلف أبي مسلم في قطعة من الحجرة، وقد قال أبو جعفر لعثمان بن نهيك: إذا صفقت بيدي فدونك يا عثمان، أي أقتله، فقيل لأبي مسلم: أن قد جلس أمير المؤمنين، فقام ليدخل فقيل له انزع سيفك فقال: ما كان يُصنع بي هذا، فقيل: وما عليك ؟. . فنزع سيفه، فدخل فسلّم[(٢٥٠)]، فردّ عليه وأذن له بالجلوس، وحادثه ساعة، ثم أقبل يعاتبه ويقول: فعلت وفعلت، فقال أبو مسلم: ليس يقال لي هذا بعد بلائي وما كان مني. فقال له: يا ابن الخبيثة، إنما فعلت ذلك بجدنا وحظوظنا ولو كان مكانك أمة سوداء لأجزت وذلك استخفافاً بأبي مسلم، ومن ثم قال له: قتلني الله إن لم أقتلك، ثم صفق بإحدى يديه على الأخرى، فخرج إليه القوم، فضربوه بالسيوف والمنصور يصيح، أضربوا قطّع الله أيديكم، وكان أبو مسلم عند أول ضربة قال: استبقني لعدوك يا أمير المؤمنين، قال المنصور: لا أبقاني الله أبداً إن أبقيتك، وأي عدو أعدى لي منك[(٢٥١)]. وهكذا فقد قتل المنصور أبا مسلم غدراً منه وجرأة على الحق والأمانة، ولم يراع فيه إخلاصه لبني العباس وتفانيه في الدعوة لهم.

ملوك متجبرون

لم يختلف الأمر على المسلمين بعد زوال حكم الأمويين، ذلك أن بني محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كانوا أشدّ ظلماً وطغياناً من أسلافهم الأمويين، فقد كثر مجونهم فكان قصر الخليفة يعجّ بالقيان والمحظيات؛ حتى روي أن هارون الرشيد كان يولع بمحظية فتقول له، لا أصلح لك، إن أباك المهدي طاف بي، لكنه شغف بها، فأرسل إلى أحد الفقهاء واسمه أبو يوسف، فسأله أعندك في هذا شيء؟. فقال: يا أمير المؤمنين أو كلما ادعت أمة شيئاً ينبغي أن تصدق، اهتك حرمة أبيك

(٢٥٠) ابن قتيبة – الإمامة والسياسة (ص ٣٠٩).

(٢٥١) المسعودي – مروج الذهب – ج٣ (ص ٣٥٧).

وصيّره في رقبتي[٢٥٢].

وكان العباسيون يتتبعون ما أسموهم بالزنادقة، وقد وقعت أظهر حركات التنكيل بهم في عهد المهدي، الذي عين عبد الجبار المحتسب ووكل إليه أمرهم، وفأصبح يعرف بصاحب الزنادقة، فأمر بسجنهم وإعدام بعضهم، وحرق كتبهم[٢٥٣]. وبهذه التهمة قتل خلق كثير ومنهم - بلا شك - من قتل ظلماً وعدواناً، وكان الداعي إلى قتله أسباباً سياسية، فنفذوا أغراضهم تحت ستار الزندقة استمالة للجمهور، كما فعلوا بابن المقفع، وكما فعلوا في صالح بن عبد القدوس، الذي كان مولى من موالي الأزد، وكان واعظاً في البصرة ثم في دمشق. وكان يقول الشعر لا في مدح خليفة أو أمير، وإنما يقوله في الحكمة والموعظة. وقد روى الخطيب البغدادي أن المهدي اتهمه بالزندقة فأمر بحمله إليه، فأحضر بين يديه، فلما خاطبه أعجب بغزارة علمه وأدبه وبراعته وحسن نباهته وكثرة حكمته، فأمر بتخلية سبيله، فلما ولّى ردّه وقال، ألست القائل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى في ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذي الضنى عاد إلى نكسه
فإن من أدبته في الصبا ... كالعود يُسقى الماء في غرسه
حتى تراه مورقاً ناضراً ... بعد الذي أبصرت من يبسه[٢٥٤]

قال بلى يا أمير المؤمنين، قال: فأنت لا تترك أخلاقك ونحن نحكم فيك بحكمك في نفسك، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر.

---

(٢٥٢) السيوطي - تاريخ الخلفاء (ص ٢٣٣).

(٢٥٣) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ١٤٨).

(٢٥٤) أحمد أمين - ضحى الإسلام - ج٣ (ص ٤٤).

ولا شك أن فشو الزندقة في ذلك العصر دليل على عبودية الرأي لا على حريته، ثم هذا المأمون على أنه أكثر الخلفاء العباسيين تسامحا، وأوسعهم صدرا، وقف موقفاً غريباً إذ حمل الناس حملاً على القول بخلق القرآن، الذي كان يقول به المعتزلة، وعذّب بعضاً وقتل بعضا، واشتد في ذلك شدّة تستخرج العجب[٢٥٥]. وتبعه في ذلك المعتصم ومن ثم الواثق، فلما أفضت الخلافة للمتوكل سنة ٢٣٤ للهجرة، أمر بترك النظر والمباحثة والجدال، والتخلي عما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق، ووجه الناس إلى التسليم والتقليد، وأمر الشيوخ المحدّثين بالحديث، وإظهار السنة والجماعة[٢٥٦]، ومنع القول بخلق القرآن وهدد من أثار هذه المسألة. ومع أنه كان من أظلم الخلفاء، فقد مدحه أهل السنة واغتفروا له سوء فعاله لرفعه المحنة، ورأى له كثير من المحدثين رؤى في المنام تذكر أن الله غفر له[٢٥٧].

وكان من أثر هذا حدوث ردّ فعل عنيف، فانتصر المحدثون انتصاراً هائلا، وأخذوا ينتقمون من المعتزلة بأيديهم وعلمهم، وأخذوا يجرحون المعتزلة تجريحاً شنيعاً إلى أن اختفى اسم الاعتزال، ولم يسترد المعتزلة سلطتهم يوماً بعد المحنة التي تعرضوا لها. ومن جهة أخرى نرى خلفاء بني العباس قد أهانوا كثيراً من العلماء وعذبوهم، فأبو حنيفة ومالك يضربان ويحبسان لأنهما لا يريدان أن يتوليا القضاء أو لرأيهما في البيعة، وسفيان الثوري ينتقل في البلاد متخفياً لأنهم أرادوه على قضاء الكوفة فأبى[٢٥٨].

ويتضح مدى الظلم الاجتماعي الذي كان موجوداً آنذاك في ثورة الزنج التي قامت سنة ٢٥٥ للهجرة، وبقيت متواصلة حتى سنة ٢٧٠ للهجرة، وكان زعيم الثورة

---

(٢٥٥) أحمد أمين - ضحى الإسلام - ج٢ (ص ٤٥).

(٢٥٦) المسعودي - مروج الذهب - ج٢ (ص ٢٨٨).

(٢٥٧) أحمد أمين - ضحى الإسلام - ج٢ (ص ١٩٩).

(٢٥٨) المرجع السابق - ج٢ (ص ٤٤).

يسمى "صاحب الزنج"، وهو شخص يدعى علي بن محمد الذي تزعم الفلاحين العبيد الفقراء، وكانوا يعيشون ظروفاً حياتية سيئة للغاية. وقد انتشرت ثورتهم في البصرة والأهواز والمستنقعات جنوب العراق. وأرسل الخليفة العباسي عدة حملات عسكرية للقضاء على ثورتهم، إلا أنها في كل مرة كانت تندحر وتتكبد خسائر بشرية كبيرة. ثم أن الزنج كانوا في أغلب الأحيان يقطعون رؤوس الأسرى من جيش الخليفة حتى بلغ عدد القتلى في هذه الثورة في بعض التقديرات حوالي نصف مليون قتيل أو أكثر. وفي سنة ٢٧٠ للهجرة قتل صاحب الزنج وسقطت المختارة - القلعة التي ابتناها - وبذلك أخمدت نار ثورة عظيمة لم يعرف في تاريخ آسيا الغربية ثورة أفظع وأشد بليّة منها[٢٥٩]. وبلغت فظاعة العباسيين حداً لا يطاق، وكان لكل خليفة منهم جرائمه التي لا تنتهي.

وفي قصة الحلاج يتمثل الظلم الحقيقي، فقد اخذ هذا الرجل على الشبهة، ودون أن تعقد محكمة لمحاكمته، فقد اتهمه الوزير حامد بن العباس بالزندقة وكتب به إلى المقتدر الخليفة العباسي، وقد هدّد بعض أصحاب الحلاج ليشهدوا ضده كذباً بأنه قد ادعى الألوهية. وكان الحلاج يقول، ظهري حمى ودمي حرام، ولا يحلّ لكم أن تختلقوا الأقاويل عني، واعتقادي الإسلام ومذهبي السنة وتفضيل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجراح، ولي كتب في السنة موجودة عند الوراقين، فالله الله في دمي، فلم يلتفت إلى قوله أحد، وأمر الخليفة المقتدر بتسليم الحلاج إلى محمد بن عبد الصمد صاحب الشرطة ليضربه ألف سوط، فإن مات وإلا ضربت عنقه، ففرح الوزير بذلك وطلب صاحب الشرطة فسلّمه إليه، ومن ثم قدّم فضرب ألف سوط، ثم قطعت يداه ورجلاه، وهو في كل ذلك ساكت ما نطق بكلمة. لم يتغيّر لونه وحزّ رأسه وأحرقت

(٢٥٩) باقر ياسين – العنف الدموي في العراق (ص ١٥٤).

جثته، وألقي رمادها في دجلة، ونصب الرأس يومين ببغداد على الجسر[٢٦٠].

وكم قتل من الرجال على شاكلة الحلاج، وما كان شيئاً أسهل على الخليفة من الأمر بالإعدام وظل ظلم بني العباس مستمراً إلى أن تهيأ المغول لغزو بغداد، وذلك سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٩ م/. فدخلها القائد المغولي هولاكو، وقتل من أهلها خلقاً كثيراً حتى الخليفة المستعصم بالله. ويذكر ابن كثير أن الناس قد اختلفوا في عدد الذي قتلوا ببغداد، فقيل ثمانمائة ألف، وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف[٢٦١]. وبمقتل الخليفة المستعصم بالله العباسي تنتهي سلسلة الحكام العباسيين وتنقضي دولتهم كما انقضت دولة بني أمية.

أسباب غياب الحياة الدستورية عند العرب

للمرء أن يتساءل، لماذا لم يعرف العرب عبر تاريخهم الطويل أي شكل من أشكال الديمقراطية ؟. . فتلك التجربة البسيطة التي ظهرت في سقيفة بني ساعدة عقب انتقال الرسول (صلعم) إلى الرفيق الأعلى لم يكتب لها التطور والاستمرار، فنحن نلمس في اختيار أبي بكر للخلافة، أن هناك رأياً ورأياً معارضاً. فأحد الأنصار يقول، منا أمير ومنكم أمير، بينما أبو بكر يقول، لم تعرف العرب هذا الأمر أي الحكم إلا لقريش، ويقترح مبايعة أحد الرجلين، عمر أو أبي عبيدة بن الجراح، ولكن عمراً يحسم الموقف عندما قال، أبسط يدك يا أبا بكر، فبايعه وبايعه المهاجرون ومن ثم الأنصار[٢٦٢].

وتمت تلك البيعة بهذه الصيغة، ولكن الديمقراطية بقيت تراوح مكانها وخاصة بعدما تملك بنو أمية على الأمة، وابتزوا الناس، وأكثروا في الأرض الفساد، فتحولت الخلافة إلى ملك عضوض، وبسبب النزعة الاستبدادية التي عرفت عن

(٢٦٠) ابن كثير – البداية والنهاية – مجلد ٦ (ص ١٢١).

(٢٦١) المرجع السابق – المجلد ٧ (ص ٢٣٥).

(٢٦٢) السيوطي – تاريخ الخلفاء (ص ٥١).

حكم الخلفاء منذ عهد الأمويين أغفل علماء المسلمين القدامى الاهتمام بالبحوث الدستورية، فبقي جانب الفقه الإسلامي المتعلق بالقانون العام في حالة طفولة بسبب هذا العزوف[٢٦٣]، فالحاكم كان يحكم وفقاً لضميره الأخلاقي ودون رقابة من أحد.

ولا شك أن العرب اطلعوا ومنذ العهد الأموي على ما أنتجه الفكر اليوناني، وخاصة ما يتعلق منه في المجال السياسي، ومع ذلك لم يكتب أي مفكر إسلامي قديم في الفكر السياسي، ولم يترك لنا أسلافنا الأقدمون سوى بعض الكتب التي اهتمت بإسداء النصح للحاكم ليكون أخلاقيا، واشترطت عليه أن يكون عادلا مستقيما، عفا، وأن يراعي ضميره، وأن يتقي الله في عمله[٢٦٤]، وبقي العرب ينظرون إلى الخلافة على أنها حق إلهي للحاكم، وتكرس فهمهم هذا حتى أنهم لم يستطيعوا أن يعيشوا بدون خليفة. فعندما قضى التتار على عاصمة الخلافة بغداد وقتلوا الخليفة وكل آل بني العباس، وصل إلى مصر أحد ممن ادعى أنه من بني العباس، وذلك سنة ٦٥٩ هـ/ ١٢٦١ م/ وكان فيها السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، فبايعه السلطان الظاهر والقاضي والوزير والأمراء بالخلافة[٢٦٥].

وكان اسم هذا الخليفة المحظوظ المستنصر بالله، وأراد هذا الخليفة أن يعود إلى بغداد ليحررها من رجس المغول، ويعيد إليها منصب الخلافة المقدس، فجهزه الملك الظاهر بجيش وتوجه نحو بغداد، ولكنه فشل في تحقيق هدفه حيث قتل في أرض العراق بعدما هزم من كان معه من الجنود[٢٦٦]. ولكن المصريين عينوا رجلا آخر خليفة عوضاً عن الخليفة الذي لقي حتفه كي لا ينقطع هذا النسل المقدس، والغريب في الأمر أن منصب الخلافة انتقل من العرب إلى الأتراك العثمانيين الذين حكموا باسم الدين مع أنهم كانوا طغاة مستبدين، وعندما دبّ الضعف في جسد

---

(٢٦٣) عبد الرزاق السنهوري فقه الخلافة وتطورها (ص ٦٣-٦٤).

(٢٦٤) إمام عبد الفتاح إمام — الطاغية (ص ٢٢٩).

(٢٦٥) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧ (ص ١٩٣).

(٢٦٦) ابن كثير - البداية والنهاية - مجلد ٧ (ص ١٩٣).

الإمبراطورية العثمانية، وبدأت الأمم الأوروبية الطامحة تبسط نفوذها على ممالك المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر، بدأ علماء المسلمين فيما عُرف بعصر التنوير يتنبهون لواقع الإسلام وما أضحى عليه المسلمون بسبب الاستبداد المتواصل منذ أكثر من ألف سنة.

وكان الشيخ محمد عبده من العلماء الذين طالبوا بالإصلاح الديني. فقد رأى أن ضعف المسلمين سببه سوء حال العقيدة والجهل بأصول الدين، وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها وأن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الديني[٢٦٧]، لأنه هو المدخل للإصلاح في كل مجالات الحياة. أما الشيخ جمال الدين الأفغاني فكان يدعو الى الإصلاح عن طريق النهوض بالدول الإسلامية من ضعفها وتبصرة شعوبها بحقوقها، ورفع نير الأجنبي عنها وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها، وربط هذه الدول كلها برباط واحد مع ا لخلافة في الآستانة. ووسيلته في ذلك تنوير عقول الخاصة من أبناء كل دولة حتى يعرفوا مركزهم وإعدادهم لمهاجمة الغاصبين من الأجانب والمستبدين من الحكام. ثم هؤلاء يعملون لتكوين الرأي العام بكتابة المقالات في الجرائد والمجلات والخطب في المحافل، والأحاديث في المجالس، وكلما كانت المقالات والخطب أحرّ ناراً وأجهر بالرأي وأصرح في الدعوة إلى العمل كانت أجود وأنسب[٢٦٨]. ولعل عبد الرحمن الكواكبي أكثر من أدرك ارتباط التخلف الذي تعانيه الأمة بالاستبداد السياسي، حيث اعتبر أن كل الأمراض التي تعانيها الأمة الإسلامية ما هي إلا ثمرة من ثمار الاستبداد السياسي[٢٦٩]. وكان ثمة دعوات أخرى من مصلحين آخرين، ولكن هل أفلحت هذه الدعوات في تقويم اعوجاج الأمة وبذر بذور الإصلاح فيها ؟. .

الواقع أن سقوط البلاد العربية والإسلامية تحت نير المستعمر الأجنبي كان

(٢٦٧) أحمد أمين - زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ص ٣٠٩).

(٢٦٨) أحمد أمين - زعماء الإصلاح في العصر الحديث (ص ٢٩٢).

(٢٦٩) عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

أسرع، ولم يفسح المجال لدعوات المصلحين أن تؤتي أكلها، ولم ينه المحتل الأجنبي احتلاله لهذه البلاد حتى ترك فيها قوالب جاهزة للحكم على النمط الذي يريحه، ورغم حدوث بعض الثورات المحدودة هنا أو هناك، إلا أنها لم تستطع الانعتاق من المحيط العام، وبقي الطابع الاستبدادي هو المسيطر، لا بل إن الأنظمة الثورية أضحت أشد استبدادا من غيرها. ونحن لو تأملنا العالم العربي الآن لوجدناه يعيش في أسر أكبر حشد من القوانين لم تعرفه أي منطقة غيره، فنحن نعيش تحت سلطة القوانين التي صدرت لحماية النظم الملكية، وتلك التي جاءت لسيطرة النظم الثورية، وأخرى قننت للحفاظ على المكاسب الاشتراكية، وقوانين لحماية الأمن القومي ضد إسرائيل والغرب والشيوعية والإرهاب، والقوانين التي صدرت لضرورات حالة الحرب، والقوانين التي صدرت لمقتضيات حالة السلام. . . وكله باق بصرف النظر عن تغير الظروف وتغير العصور وتغير القرون(٢٧٠).

مفهومنا للإصلاح

إن الإصلاح - كما نرى - لا يمكن أن يتم إلا إذا تحرر الإنسان المسلم من عقدة الخوف من السلطة، فتراث أكثر من ألف سنة في العبودية ترك أثراً عميقاً في النفوس، وما زال يحول دون تحقيق نهضة حقيقية في أي بلد عربي أو إسلامي، وما يؤيد ذلك أن الإمبراطورية العثمانية البائدة، كانت قد أخذت بالنظم الغربية منذ صدور القوانين المعروفة بقوانين قصر الزهور (خط كلخانة - والكلمة تعني قصر الزهور) في ٤ تشرين ثاني ١٨٣٩ فتم تنظيم الجندية والجيش على النسق الأوروبي، واعتماد تنظيمات لجباية الضرائب، وضمان ممتلكات الرعايا بصورة كلية، بصرف النظر عن معتقداتهم، كما تم استدعاء الخبراء الفرنسيين والبروسيين لتدريب الضباط، وافتتحت مدارس لتدريب الأطباء، وعقدت برامج تدريبية في الإدارة للموظفين، وتم إنشاء وزارة للمعارف (التربية) وابتعث الأتراك إلى أوروبا، وأعلن مبدأ التعليم المجاني والإجباري، ودخلت القوانين الأوروبية للمحاكم، ولم تطبق

---

(٢٧٠) تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة - د. ع. ع. (ص ١٨٨).

نصوص الشريعة الإسلامية بشكلها التقليدي إلا في قانون الأحوال الشخصية، وتم إصدار قانون جنائي جديد يعتمد على القانون الفرنسي، وارتدى السلطان اللباس الأوروبي، لكن كل هذا لم يجعل من الدولة العثمانية دولة أوروبية ولم يثمر ثمراً كالذي أنتجته بذور زرعت في الأرض الأوروبية[٢٧١].

وكذلك فإن محمد علي سعى للنهوض بمصر منذ بداية عام ١٨٢٠ فابتعث المصريين لينهلوا من معين الثقافة الغربية، وبنى جيشاً وأسطولاً وافتتح المدارس، ومع ذلك بقيت مصر على حالها ولم تتقدم مثلها مثل أي بلد عربي أو إسلامي آخر. ولا شك أن التقليد لا يجدي نفعاً ولا جدوى منه، ولا بدّ كي ينهض العالم الإسلامي من استحياء نظم خاصة بثقافته الإسلامية، فاستيراد القوالب الجاهزة يكرس التبعية والتخلف، لأن الفرد في الشرق غير الفرد في الغرب، وتكوين مجتمع الشرق غير تكوين مجتمع الغرب، وقد فطن كثيرون لهذا الفرق لكنهم في الواقع لم يدركوا السبب في هذا، وفي رأيي أن السبب في ذلك يعود إلى تأصل العبودية في وجدان الإنسان المسلم بسبب الاستبداد الذي تعرض له عبر قرون طويلة وهذا الأمر يحول دون أن تكون الديمقراطية في الشرق لها النتائج نفسها لديمقراطية الغرب. وكذلك يحول دون أن تكون تلك التنظيمات المنقولة من الغرب إلى بلاد الشرق لها المردود نفسه للتنظيمات في الغرب.

وتأصل العبودية كذلك هو الذي غيّر المفاهيم الإسلامية التي كانت أساساً لنهضة الغرب[٢٧٢]. إن الشرق يحتاج إلى حكومة متمدينة حازمة، ولا بدّ من إصلاح العقول والنفوس قبل إصلاح الإدارة، فالبذرة وحدها غير كافية وإنما لا بدّ من التربة الصالحة أيضاً[٢٧٣].

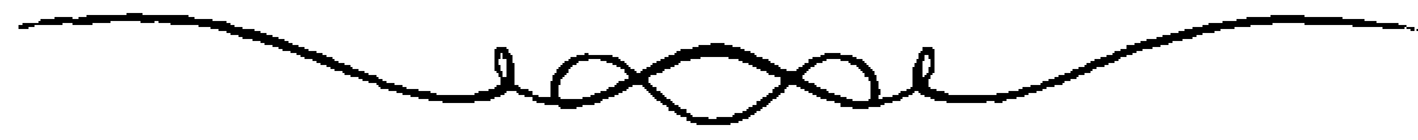
(٢٧١) تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة - د. ع. ع. (ص ٦٨).

(٢٧٢) المرجع السابق (ص ٦٩).

(٢٧٣) المرجع السابق (ص ٧٠).

البـــاب الرابع

أوروبا بين محاكم التفتيش والإصلاح الديني



- ❖ الفصـــل الأول : محـــاكم التفتـــيش في أوروبـــا
- ❖ الفصل الثاني : الكنيســـــــة والإصـــــــلاح
- ❖ الفصل الثالث : الإصـــلاح الديـــني في إنكلـــترا
- ❖ الفصل الرابع : الـــثورة الفرنســـية والطغـــيان

الفصـــل الأول

محاكم التفتيش في أوروبا

الكنيسة الرومانية وريثة الإمبراطورية:

رأينا فيما سبق كيف أن الإمبراطور قسطنطين Constantine أصدر مرسوم التسامح الديني ومن ثم هجر روما الخالدة إلى عاصمته الجديدة القسطنطينية. وبذلك فقد أصبحت الإمبراطورية الرومانية جزئين، أحدهما في الشرق وهو الإمبراطورية البيزنطية والآخر في الغرب وهو الإمبراطورية الرومانية، إلا أن إمبراطورية الغرب سقطت عام /٤٧٦/ تحت ضربات البرابرة الشماليين، و أضحى مصير روما الخالدة مرهوناً بمقدرة الكنيسة البابوية التي التفَّ حولها الإيطاليون طوال القرون التالية، ورأوا فيها الزعامة والسند الكفيلين بحمايتهم[٢٧٤]. وقد ازداد نفوذ البابوية في إيطاليا فقد تضاعفت ممتلكات الكنيسة مما أكسبها نوعاً من النفوذ المعنوي والمادي في البلاد، ذلك أن أساقفة إيطاليا استغلوا فرصة الفوضى السياسية والاجتماعية التي سادت إيطاليا في ذلك العصر وأخذوا يمتلكون الأراضي ويتخذون لأنفسهم صفة الحكام العلمانيين، فيعينون موظفي البلديات في المدن ويشرفون على الأعمال العامة ويجمعون الضرائب، والذي ساعد رجال الكنيسة على تحقيق أغراضهم ومطامعهم في الاستيلاء على الأراضي إن صغار ملاك الأراضي في إيطاليا بحثوا عن سلطة قوية يدخلون تحت حمايتها[٢٧٥]، بعد أن سقطت إمبراطوريتهم وعمّت الفوضى الناتجة عن غزو البرابرة لأراضيهم.

وقد أصبح البابا أعظم ملاّك الأراضي في إيطاليا ولم تقتصر الممتلكات

(٢٧٤) أوروبا العصور الوسطى - سعيد عبد الفتاح عاشور ج١ (ص ٩٤).

(٢٧٥) المرجع السابق - ج ١ (ص ١٦٠).

البابوية على المنطقة المحيطة بروما، وإنما انتشرت في مختلف أنحاء شبه الجزيرة الإيطالية، وازدادت عن طريق الهبات والعطايا حتى امتدت إلى صقلية فضلاً عن ممتلكات البابا خارج إيطاليا. ولقد كانت الموارد الاقتصادية الواسعة التي نعمت بها البابوية السرّ في القوة الزمنية التي تمتعت بها[٢٧٦]. وقد استطاعت الكنيسة أن تؤلّف بين أتباعها المؤمنين برسالتها، واستطاع البابا أن يحكم دولة روحية بلغت في القرن الثالث عشر ذروة مجدها[٢٧٧].

وكان يساعده في حكمها طائفة كبيرة من رجال الكنيسة وغيرهم من الموظفين يؤلفون جميعاً (الكوريا ـ CURIA) أو المحكمة التنفيذية أو القضائية، وكان له الحرية المطلقة في تفسير قانون الكنيسة، وإعادة النظر فيه وتوسيعه، وإعفاء من يرى إعفاءه من قواعده. وكان هو المحكمة العليا التي تستأنف إليها أحكام محاكم الأسقفيات، وكان هو وحده الذي يستطيع أن يغفر بعض الذنوب الخطيرة أو يصدر صكوك الغفران الكبرى أو يسلك شخصاً في زمرة القديسين، وكان على جميع القساوسة بعد عام ١٠٥٩ أن يقسموا يمين الطاعة له، وأن يقبلوا رقابة مندوبي البابا على شؤونهم.

وكانت جزائر مثل سردانية وصقلية وأمم كالإنجليز، والمجر، والأشبان، تعترف بأنه سيدها الإقطاعي وترسل إليه الجزية، وكان في وسعه أن يرقب بعينيه ويحرك بيديه كل جزء من أجزاء مملكته عن طريق الأساقفة، والقساوسة، والرهبان المنتشرين في كل مكان. فقد كان هؤلاء يكونون هيئة للمخابرات والإدارة لا نظير لها في أية دولة من الدولة. وهكذا عاد إلى روما شيئاً فشيئاً، بدهاء باباواتها، ما كان لها من سلطان على أوروبا معتمدة على ما كان لكلمة الدين من قوة عجيبة[٢٧٨].

---

(٢٧٦) المرجع السابق - ج ١ (ص ١٦١).

(٢٧٧) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٥٧).

(٢٧٨) المرجع السابق - ج ١٥-١٦ (ص ٥٧).

مملكة الفرنجة

كان الفرنجة Francs أحد الشعوب الجرمانية التي تحركت من جزيرة سكندناوه واستوطنت داخل حدود الإمبراطورية الرومانية. ويعتبر كلوفيس (٤٨٦ - ٥١١) المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة، و قد اختلفت حركة الفرنجة في طابعها عن الحركات التي قامت بها بقية الشعوب الجرمانية لأنها كانت حركة توسعية أكثر منها هجرة تتصف بطابع الغزو[٢٧٩]. ذلك أن بقية الشعوب الجرمانية كالقوط والوندال والبرجنديين تخلت عن مراكزها الأولى ومواطنها الأصلية، وأخذت تجوس خلال الأقاليم الأوروبية عدة سنوات حتى استقر كل منها أخيراً وسط جزء من المحيط اللاتيني الغربي بعيداً عن موطنها الأول.

أما الفرنجة فإنهم لم يهجروا موطنهم الأول عند الراين الأدنى، وإنما أخذوا يتوسعون دون أن يتخلوا عن مركزهم الأصلي. وقد عمل الفرنجة دائماً على احترام شعور أهالي غاليا ولم يؤذوهم في أملاكهم وأرواحهم.

وهذا المسلك من جانب الفرنجة ساهم في التقريب بينهم وبين سكان البلاد الأصليين[٢٨٠]، كذلك فإن ملك الفرنجة /كلوفيس/ اعتنق الدين المسيحي على أساس العقائد النيقية وربما كان سبب اعتناق كلوفيس الدين الجديد أنه كان يتوق للوصول إلى شواطئ البحر المتوسط، وأنه كان يرى أن مُلك فرنسا خليق بأن يعتنق من أجله هذا الدين[٢٨١]، واتخذ من قسطنطين نموذجاً له وقد اعتزم أن يحكم كنائس الله، ويدافع عنها ضد الأشرار، وقد أدى إذلال البابوية المتكرر على أيدي أباطرة الدولة الرومانية الشرقية، وما حلّ ببيزنطة من ضعف بسبب اتساع أملاك المسلمين في آسيا وأفريقيا وإسبانيا، وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط، كل هذا

---

(٢٧٩) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى ج١ (ص ٩٦).

(٢٨٠) المرجع السابق (ص ٩٧).

(٢٨١) ول ديورانت - قصة الحضارة - ج ١١-١٢ (ص ١٨٤).

اضطر البابوية إلى أن تدير ظهرها إلى الإمبراطورية الشرقية المتداعية وتطلب معونة دولة الفرنجة الآخذة في النماء والقوة. وخشي البابا ستيفن الثاني /٧٥٢ - ٧٥٧/ أن يستولي اللمبارد وهم أحد الشعوب الجرمانية على روما فيحطّ ذلك من شأن البابوية ويجعلها مجرد أسقفية محلية يسيطر عليها ملوك اللمبارد. لذلك استعان البابا بملك الفرنجة، و أسفرت هذه الحركة عن نتائج سياسية غاية في الخطر .

فقد لبّى /بيبن/ ملك الفرنجة نداء البابا، وأخضع اللمبارد ونفح البابوية بهبة بيبن التي أغنتها إذ منحتها جميع إيطاليا الوسطى، وبفضلها قامت سلطة الباباوات الزمنية، و بلغت هذه السياسة ذروتها حين وضع البابا ليو الثالث التاج على رأس شارلمان، ولم يعد يعترف لشخص ما أنه إمبراطور على الغرب إلا إذا مسحه أحد الباباوات. ولما مات شارلمان /٨١٤/ تصدعت الإمبراطورية الفرنجية، فأخضع رجال الدين في فرنسا ملوكها شيئاً فشيئاً لسلطانهم، وبينما كانت إمبراطورية شارلمان تتدهور كان نفوذ البابوية وسلطانها يتزايدان[٢٨٢] .

نزعة الكنيسة للسيطرة

سعت الكنيسة للسيطرة على شؤون الحياة وقد انطلقت في ذلك من العبارة الشهيرة التي قالها المسيح لبطرس وهي /ارع خرافي/ وقد اعتبرت الكنيسة أن كل البشر ملزمون بالخضوع بموجب هذه العبارة لسلطان الكنيسة. فالبابا هو خليفة أمير الرسل الذي شيّد الرب عليه كنيسته عندما قال له: "يا بطرس أنت صخرتي وعليك أبني كنيستي"[٢٨٣] وقد أعطاه الرب سلطة الحلّ والربط بقوله: "إن كل ما ستربطه على الأرض سيكون مربوطاً في السماء، وكل ما ستحلّه على الأرض، سيكون محلولاً في السماء"[٢٨٤]. وسلطة البابا مثل سلطة بطرس، ذات مصدر إلهي، وإن

(٢٨٢) المرجع السابق - ج ١٣-١٤ (ص ٣٥٣).

(٢٨٣) إنجيل متى - الإصحاح السادس عشر (١٨ - ١٩).

(٢٨٤) إنجيل متى - الإصحاح الثامن عشر (١٨).

من واجب البابا أن يمارس /كامتياز إلهي وحق وراثي/ سلطة الحلّ والربط التي أسندها المسيح لبطرس بكامل مداها، وعدم وفاء البابا بهذا الواجب يعني التخلي عن مسؤوليته في الخلاص الشامل[٢٨٥].

ويعتبر القديس أوغسطين [*] ٣٥٤ - ٤٣٠/ من الآباء الأولين الذين نادوا بالتمييز بين السلطة الروحية ممثلة بالكنيسة، والسلطة الزمنية، وباستقلالهما المتبادل وتعاونهما الوثيق في نفس الوقت، وبالتفوق المعنوي للسلطة الروحية[٢٨٦]. وقد أيّد هذا القديس القمع والكبح ضد الوثنيين، وذلك في كتابه /مدينة الله/ Civitas Dei الذي تحدث فيه عن الدولة وعلاقتها بالدين، وقد كان غزو القوط الغربيين Wisigoths بزعامة /آلرك/ Alaric لروما ونهبها عام /٤١٠/ ذريعة للوثنيين لتشويه المسيحية، فقد قالوا إن سبب هذا الغزو هو عدم الإيمان بالآلهة الرومانية القديمة، أو انحلال عروة الدين اليوناني من النفوس. فقامت حملة عنيفة على المسيحية باعتبارها دين إفساد، فانبرى أوغسطين يعارض هذه الحملة ويصور التاريخ تصويراً جديداً. فقد اعتبر أن المثل الأعلى للدولة إنما هو المثل المسيحي، وهذه الدولة التي يتصورها هي التي تستمد سلطتها من الله مباشرة، ومعنى ذلك أنها لن تكون دولة علمانية خالصة، بل ستكون دينية كذلك. فالدولة سيكون من مهامها الأصلية ما يتصل بالحياة الدينية، أي أنها ستعمل من أجل تحقيق السعادة على الأرض وتحقيق السعادة في الآخرة بالنسبة للمواطنين، ومن

---

(٢٨٥) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٦٨).

(*) أوغسطين: ولد بمدينة طاغشت Tagaste في شمال أفريقيا في نوفمبر سنة ٣٥٤، ودرس في مدرسة هذه المدينة أولاً، وانتقل إلى المدارس الأخرى المشهورة في نوميديا، وخاصة مدرسة قرطاجنة، ولقد كان أوغسطين مرهف الإحساس، قوي العاطفة، كثير التأثر، جامعاً إلى جانب هذا بين ورع قوي ورغبة شديدة ملحّة في انتهاب اللذات والأخذ بأكبر نصيب من الحياة. ولهذا كانت نفسه ميداناً لصراع كبير بين قطبين متنافرين، ولم يستطع إلا في النهاية أن يوفق بين القطبين بأن قضى على أحدهما.

(٢٨٦) المرجع السابق (ص ١٥٧).

هنا تُحدّد العلاقة بين الكنيسة والدولة.

فالكنيسة تشرف على الدولة من أجل توجيهها إلى الحياة الآخرة، والدولة تساعد الكنيسة على تحقيق أغراضها، ولم يفصل القديس أوغسطين بين الاثنتين، بل جعلهما مرتبطتين تمام الارتباط. وعن هذا الارتباط الوثيق يمكن أن يقوم السلام على الأرض[(٢٨٧)].

وفي نهاية القرن الخامس قال البابا/جيلاس الأول/ Gelase 1 بأن الأباطرة الوثنيين كانوا يضعون على رؤوسهم تاج القياصرة، وقبعة رؤساء الكهان، وأن يسوع منع هذا الدمج، وأراد نظراً لمعرفته الشديدة بالضعف الإنساني أن يوازن بمقتضى ترتيب حكيم بين مختلف السلطات، ولهذا الغرض ميّز بين وظائف وواجبات كل سلطة، وأسند لكل منها دورا خاصاً وكرامة خاصة، وعليه فإنه لم يعد باستطاعة أي إمبراطور بعد قدوم المسيح أن يأخذ لنفسه لقب بابا ولا لأيّ بابا أن يطالب بالتاج الملكي، لكن الأباطرة المسيحيين يجب أن يتوجهوا إلى الباباوات عندما يتعلق الأمر بالحياة الأبدية، كما يجب على الباباوات أن يتوجهوا إلى حماية الأباطرة أثناء مجرى الحياة اليومية، هكذا يكتفي كل واحد بحدود ميدانه الخاص ولا يفكر أحد بخنق الآخر[(٢٨٨)].

وقد حاول هذا البابا أن يطبق هذه الآراء الخاصة بسمو البابوية في علاقته مع الإمبراطور أسطسيوس، إلا أن الكنيسة كان عليها أن تنتظر حتى القرن الحادي عشر ليعتلي عرش البابوية رجل قوي هو البابا جريجوري السابع هلدبراند Hildebrand/1073 ـ ١٠٨٥/ الذي طبق الآراء الخاصة بسمو الكنيسة، فقد بدا لجريجوري من نظرته إلى ما ساد أوروبا من فرقة سياسية وفوضى وحروب، أن لا نجاة لها من هذا البؤس الذي خيم عليها دهراً طويلاً إلا بقيام نظام عالمي تتخلّى

---

(٢٨٧) عبد الرحمن بدوي، فلسفة العصور الوسطى (ص ٣٨).

(٢٨٨) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٦١).

فيه هذه الدول عن بعض سيادتها التي تعضُّ عليها بالنواجذ وتعترف بالبابا سيداً اجتماعياً لها، وبأنه هو الزعيم الأجل لجمهورية مسيحية أوروبية في القليل، إن لم تكن عالمية.

وكانت الخطوة الأولى في سبيل الوصول إلى هذه الغاية هي تحرر البابوية من السيطرة الألمانية، والخطوة الثانية هي إخضاع جميع الأساقفة للكرسي البابوي(٢٨٩)، واجتمع في فبراير /شباط من عام ١٠٧٥ مجمع من الأساقفة الطليان في روما برئاسة جريجوري، وأصدر قرارات تحرّم بيع المناصب الكنسية، وزواج رجال الدين، ووجّه البابا جريجوري هذا المجمع نحو اتخاذ قرار حاسم بشأن التقليد العلماني، وقد نصّ القرار على "أن أيّ فرد من الآن فصاعداً يتقلّد مهام وظيفته الدينية من أحد الحكام العلمانيين، يعتبر مطروداً من هذه الوظيفة ومحروماً من الكنيسة ومن رعاية القديس بطرس وإذا جرؤ إمبراطور أو ملك أو دوق أو كونت أو أي شخص علماني على تقليد أحد رجال الدين مهام وظيفته الدينية فإنه يحرم من الكنيسة(٢٩٠).

ومن الواضح أن تطبيق هذا القرار يعني تحرير كافة رجال الدين في الأسقفيات والكنائس والأديرة من إشراف الملوك والأمراء في مختلف البلاد، كما يعني جعل البابا في روما المشرف الوحيد على رجال الدين في العالم المسيحي الغربي(٢٩١) إلا أن الإمبراطور الألماني هنري الرابع لم يمتثل لأمر البابا في مسألة تعيين الأساقفة، لأنه وجد في تمسكه برأيه محافظة على حقه الذي ورثه عن أسلافه، وأن نجاحه في فرض رأيه أمر تتوقف عليه هيبته في إيطاليا وغيرها من بلدان الإمبراطورية، ولذلك أسرع إلى تعيين اثنين من أتباعه في أسقفيتي فرمو

---

(٢٨٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٣-١٤ (ص ٣٩٧).

(٢٩٠) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى - جـ١ (ص ٣٤٨).

(٢٩١) المصدر السابق - جـ١ (٣٤٩).

Formo واسبيلتو Spoleto، وهي بلدان قريبة كل القرب من مقر البابا، وبعث جريجوري في شهر ديسمبر من عام ١٠٧٥ برسالة احتجاج إلى هنري وأمر حامليها بأن يضيفوا إليها عبارة شفوية ينذرون فيها الملك بالحرمان إذا ظل يتجاهل قرارات مجمع روما المقدس، فلما تلقى هنري الرسالة عقد مجلساً من الأساقفة الألمان في ورمز 1076/ Worms حضره أربعة وعشرون منهم، وتخلّف عنه بعضهم وعرض الإمبراطور اقتراحاً بخلع البابا، ووقع جميع من حضر من الأساقفة هذا القرار، وأيده مجلس من أساقفة لمبارديا عقد في بياسنزا، وبعث هنري بهذا القرار إلى جريجوري مذيلاً بهذه الحاشية:(من هنري الملك بأمر الله لا بالاغتصاب إلى هلدبراند الراهب المزيّف لا البابا) [٢٩٢].

وعندما سمع البابا بهذا القرار قابله بهدوء، ثم دعا لعقد مجمع في الفاتيكان /١٠٧٦/ قرر توقيع قرار الحرمان على هنري الرابع وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من أيمان الطاعة والتبعية التي أقسموها له، و بذلك بدأت الحرب سافرة بين العاهلين[٢٩٣]. وروعت أوروبا كلها بأن يخلع البابا إمبراطوراً وروعت أكثر من هذا بان يخلع الإمبراطور بابا ويلعنه الأساقفة، وتبين أن العاطفة الدينية كانت أقوى من العاطفة القومية وسرعان ما تخلى الرأي العام عن الإمبراطور، و قامت ثورة في سكسونيا عليه وطردوا الحاميات الملكية من أراضيهم، ولما أن استدعى هنري أساقفة مملكته وأعيانها إلى مجلسين يعقدان في ورمز ومينز أغفلت دعوته، بل كان ما حدث هو نقيض هذا، فقد وجد الأشراف الألمان في هذه الظروف فرصة سانحة لهم لتقوية سلطتهم الإقطاعية ضد الملك[٢٩٤]. فاجتمعوا في تريبور Tribur ووافقوا على حرمان الإمبراطور، وأعلنوا أنه إذا لم يحصل على مغفرة من البابا قبل اليوم الثاني والعشرين من شهر فبراير من

(٢٩٢) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ١٣-١٤ (ص ٢٩٩).

(٢٩٣) سعيد عبد الفتاح عاشور – أوروبا العصور الوسطى – ج١ (ص ٢٥٤).

(٢٩٤) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ١٣-١٤ (ص ٢٩٩).

عام /١٠٧٧/ فإنهم سيرشحون خلفاً له على العرش، وتم الاتفاق بين الأعيان ومندوبي البابا في تريبور على أن يجتمع مجلس في أوجزبرج في اليوم الثاني من فبراير عام /١٠٧٧/ برئاسة البابا لتسوية شؤون الكنيسة والمملكة.

ولجأ هنري إلى أسبير مغلوباً على أمره لا يكاد يجد له معينا، وكان يعتقد أن المجلس المقترح سيؤيد خلعه من منصبه، فبعث بالرسل إلى روما يعرض على البابا أن يأتي هو بنفسه إليه ويسأله المغفرة، وردّ عليه جريجوري بأنه مزمع أن يسافر قريباً إلى أوجزبرج ولهذا فإنه لا يستطيع استقبال هنري في روما[٢٩٥]. ولم يجد هنري أمامه حلاً سوى أن يرحل الى البابا سراً في الوقت الذي كان الأخير قد بدأ رحلته فعلاً إلى ألمانيا، ولكنه أسرع بالعودة عندما علم أن خصمه هنري الرابع عبر الألب إليه، واحتمى البابا في قلعة /كانوسا/ Canossa التابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا[٢٩٦]. وفي كانوسا وقف هنري الرابع Henri IV ملك ألمانيا لمدة ثلاثة أيام أمام الأبواب الموصدة وفي برد الشتاء القارس من عام /١٠٧٧/ حافي القدمين بثياب رثة يلتمس العفو من البابا، وأخيراً عفا عنه البابا ورفع قرار الحرمان، ولكن بعد أن تلقى من التائب بعض الضمانات. وقد عارض الأمراء الألمان الملك هنري بملك مضاد هو رودولف دوسواب Rodolphe Desouabe، والتمس الخصمان التحكيم البابوي، وكان جريجوري يعتبر أن من حقه أن يقرر من منهما يجب بكل عدالة أن يحكم، وقد تردد طويلاً ثم أرسل سفراء للتحقيق في ألمانيا، بينما لجأ الملك هنري ورودولف للسلاح[٢٩٧].

وظلّ جريجوري يتذبذب طويلا، ثم أعلن تأييده لرودولف وحرم هنري مرة أخرى، وحرم على المسيحيين أن يخدموه، وعرض على كل من يتطوع تحت راية

(٢٩٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٢-١٤ (ص ٤٠٠).

(٢٩٦) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى - ج١ (ص ٣٥٦).

(٢٩٧) جان جاك شوفالييه - تاريخ الفكر السياسي (ص ١٦٧).

رودولف أن يغفر له خطاياه. وهزم هنري ولكن رودولف قتل في المعركة، وبينما كان الأعيان منقسمين على أنفسهم بشأن من يختارونه خلفاً له، دخل هنري إيطاليا وضرب الحصار على روما، فهرب جريجوري منها وقام هنري بوضع كليمنت الثالث على كرسي البابوية وتوج هنري إمبراطورا، وفي السنة التالية مات جريجوري في سالرنو منفياً ومهزوماً ولكن فكره لم يمت إذ استطاع إنوسانت الثالثInnocent III بعد مائة عام من ذلك الوقت أن يحقق جانباً كبيراً من حلم جريجوري، وهو جمع العالم تحت لواء خليفة المسيح[(٢٩٨)] ولم يظفر بهذا النصر إلا بفضل هزيمة جريجوري الذي رفع البابوية مدة عشر سنين إلى أعلى ما عرفته من المجد والقوة. ولقد انتصر بحربه على زواج القسيسين وبذلك أعدّ لخلفائه قساوسة لا يدينون بالولاء لغير الكنيسة فزادت بذلك قوتها إلى أقصى حد. وانتهت حروبه ضد بيع الرتب الكهنوتية وحلول غير رجال الدين في المناصب الدينية بنصر وإن جاء متأخراً، ولكن آراءه كانت لها الغلبة في النهاية. وبذلك أصبح أساقفة الكنيسة خدماً طائعين للبابوية، وقد أدى استخدامه للمبعوثين البابويين إلى بسط سلطان الباباوات على كل أبرشية في العالم المسيحي، وهو الذي وضع الخطة التي حررت انتخاب البابا من سيطرة الملوك. ولم تمض على موت جريجوري عشر سنين حتى اعترف ملوك العالم الغربي ونبلاؤه بأدريان الثاني زعيماً لأوروبا جميعها[(٢٩٩)].

المسيحية الملكية

المسيحية كغيرها من الأديان نشأت فيها شيع كثيرة نتيجة الاختلاف في وجهات النظر حول المسيح وأمه مريم. وكان من هذه الشيع شيعة تسمى الآريوسية نسبة لمؤسسها القديس آريوس Arius /250 ـ ٣٣٦م/ في الإسكندرية، فقد أنكر هذا القديس ألوهية المسيح وقال إن المسيح لا يساوي الآب في جوهره وطبيعته، وأنه خلق

(٢٩٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٣-١٤ (ص ٤٠٢).

(٢٩٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٣-١٤ (ص ٤٠٣).

بإرادة الآب فكان حادثاً غير قديم. وفشا هذا المذهب وكثر أتباعه، فأمر الإمبراطور قسطنطين في عام /٣٢٥/ بعقد سنودس في نيقية وهي مدينة من أعمال القسطنطينية وقد اجتمع فيه ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا. فأقاموا الدين المسيحي، وذلك بالتأكيد على وحدة الجوهر بين الآب والابن معاً(*)، وإدانة آريوس وإحراق كتبه وتحريم اقتنائها. ومن رأى من الأساقفة رأي آريوس أمر قسطنطين بخلعه ونفيه(٣٠٠).

وقد أصبحت المسيحية الملكية هي عقيدة الكنيسة البابوية وباسم هذه العقيدة حاربت هذه الكنيسة كل الخارجين على رأيها، وكان القديس نسطوريوس أحد الخارجين على عقيدة الكنيسة قد قال إن مريم ليست سوى أم الطبيعة البشرية في المسيح، وهي لم تكن أم الطبيعة الإلهية فيه. وإن خيراً من تسميتها أم الله، أن تسمى أم المسيح وكان نسطوريوس قد رفع نفسه إلى كرسي الأسقفية في القسطنطينية، وأيده في ذلك الكثير من الأساقفة فقد ألقى أسقف الإسكندرية/ سيريل/ عظة في يوم عيد القيامة من عام /٤٢٩/ أعلن فيها العقيدة التي تدين بها كثرة المسيحيين، وهي أن مريم ليست أم الله الحق، بل هي أم كلمة الله المشتملة على طبيعتي المسيح الإلهية والبشرية معا، وغضب البابا /سلستين الأول/ Celestine على أثر رسالة تلقاها من الأسقف /سيريل/Cyril يدعوه فيها إلى اعتناق هذا الرأي، فعقد مجلساً في روما عام /٤٣٠/ طالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يُعزل من منصبه. وقد رفض نسطوريوس Nestorius كلا المطلبين، إلا أن سنودساً عاماً آخر قد اجتمع في أفسوس عام /٤٣١/ لم يعزل نسطوريوس

(*) قرار مجمع نقية هو التالي: ((نحن نؤمن بإله واحد، وهو الأب القادر على كل شيء، خالق الأشياء كلها ما ظهر منها وما بطن وبسيد واحد هوالمسيح ابن الله، المولود .... غير المخلوق من نفس جوهر الأب، وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسّد وصار إنساناً، وتعذّب وقام مرة ثانية في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات...))

(٣٠٠) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ٦٤).

فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية[٣٠١]. وقد نفاه الإمبراطور/ ثيودوسيوس الثاني/ إلى واحة في صحراء ليبيا. وقد انتشرت عقائد أخرى كالبوليسية Paulicians والبجوميلية Bogomilis والألبيجنسية Albegensians، وقد تعاملت معها الكنيسة بوحشية وذلك من أجل أن تبقى المسيحية الملكية هي العقيدة الوحيدة التي يجب أن يلتفّ حولها المسيحيون.

الكنيسة والاضطهاد

منذ اللحظة التي ظفرت فيها الكنيسة بسلطة مدنية في عهد الإمبراطور قسطنطين، دخل مبدأ الكبح العام وامتنعت الكنيسة عن المناداة بالتسامح فكانت تنظر إلى الفردية في العقيدة بنفس النظرة المعادية التي تنظر بها الدولة إلى الانشقاق عنها أو الثورة عليها، وقد أيد الأباطرة الرومان - في معظمهم - موقف الكنيسة، وقد اصدر الإمبراطور /تيود وسيوس/ Theodosius عام /٣٩٥/ قانوناً يحرم المذهب المانوي ويعاقب بالإعدام معتنقيه. ومن المعلوم أن المانوية هي دين فارسي دعا إليه ماني وقد كان يقول بوجود إلهين، إله للنور وإله للظلمة وهما اللذان يتحكمان في حياة البشر.

وانتشر هذا الدين في أرجاء الإمبراطورية الفارسية، وبسبب العداء الذي كان قائماً بين الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، منع هذا الدين من الإمبراطورية الرومانية. ويعتبر قانون الإمبراطور /ثيودوسيوس/ نقطة البداية لظهور الاضطهاد في الكنيسة. فهو أول قانون نصادف فيه ذكر لفظ /مفتشي الإيمان أو رجال محكمة التفتيش/[٣٠٢]. وقد اتهم أسقف إسباني يُدعى /برسليان/ Prescillian في عام /٣٨٥/ بأنه يدعو إلى المانوية والى العزوبة العامة، وأنكر الرجل التهمة، ولكنه حوكم أمام الإمبراطور /مكسيموس/ في /تريير/ وكان اللذان اتهماه اثنين من الأساقفة،

(٣٠١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ١٠١).

(٣٠٢) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ٦٦).

وأدين الرجل وحرق مع عدد من رفاقه في عام /٣٨٥/ [٣٠٣].

وكان هذا الحادث أول إعدام تمارسه الكنيسة ضد أتباعها، وفتح الطريق أمام الاضطهاد وقد شارك رجال الاكليروس في إعدام برسليان وأتباعه لأول مرة ومع أن القديس أمبروز أسقف ميلان قد احتج على ارتكاب هذه الجريمة وشهر بها القديس مارتن في مرارة وحدّة واعتبرها جرماً فاحشاً. وقد ساعد على نمو الاضطهاد وإقرار سياسته عاملان أولهما: أن الكثير من مجالس الاكليروس قد طلب إلى السلطات المدنية معاقبة الهراطقة أو نفيهم، وكان لهذه القرارات أثرها الملحوظ إزاءهم. وثانيهما، استقرار نظام الرهبنة ونموه. وبهذا النظام ظهرت مجموعة من الرجال الأفذاذ الذين أنكروا ذواتهم واعتصموا بالشجاعة المجيدة. والتزمّت الصارم والتعصب الجازم الخالي من كل رحمة، أحبوا العزلة ونفروا من روابط الزواج وعلاقات الرحم والقربى والصداقة ورفضوا حياة الترف وزهدوا في اللذات، وكلفوا ببساطة العيش فأحبوا الفاقة والوحدة. وكاد هؤلاء أن يخمدوا في أنفسهم كل عاطفة طبيعية وأن يبرءوا من مغريات الثروة ومفاتن الجاه ويتجردوا من نزعات الطمع والرغبة في نعيم الدنيا، ولم يكن من الميسور لهؤلاء أن يتخلوا عن مبادئهم لقاء رشوة أو خوفاً من عقاب أو طمعاً في ثواب [٣٠٤]. وكانت الكنيسة قبل عهد محاكم التفتيش تعتمد على وسائل الإرهاب الروحي، فكان الحرمان الأصغر Minor Excommunication الذي يمنع بموجبه المسيحي من الاشتراك في العشاء الرباني وفي طقوس الكنيسة.

وكان من حق كل رجل من رجال الدين أن يصدر هذه العقوبة، وكان معناها عند المؤمنين العذاب الدائم في نار الجحيم إذا مات الآثم قبل العفو عنه. أما الحرمان الأكبر Maior Excommunication فلا يصدره إلا مجلس ديني أو

(٣٠٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٩٨).

(٣٠٤) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ٦٧).

مطارنة أعلى من مرتبة القساوسة، كما أنه لا يصدر إلا على أشخاص داخل دائرة هذه المجالس أو أولئك المطارنة، فإذا صدر أبعد المحروم من كل اتصال قانوني أو روحي بالمجتمع المسيحي، فلا يستطيع أن يقاضي ولا أن يرث أو يعقد عقداً صحيحاً من الوجهة القانونية. ولكن يجوز لغيره أن يقاضيه ويحرم على أيّ مسيحي أن يؤاكله أو يكلمه وإلا حقّ عليه الحرمان الأصغر. وكان كثرة ما صدر من قرارات الحرمان والتحريم سبباً في ضعف أثرهما في القرن الحادي عشر[٢٠٥].

مذبحة الألبيجنسيين

تعتبر طائفة /الكاثاري/ أي الطاهر من الطوائف المسيحية التي قدّر لها أن تنقرض على إثر حرب صليبية مدمرة دعا إليها البابا /إنو سانت الثالث/ ذلك أن هذه الشيعة التي تسمّى كذلك /الألبيجنسية/ نسبة إلى بلدة /ألبي/Albi التي كان يكثر فيها معتنقوها بشكل خاص رفضت أن تقدّم ولاءها لروما وكبرت إلى درجة أن البابا الكسندر الثالث في المجلس المسكوني الحادي عشر في عام ١١٧٩ أصدر فتوى ضد أتباعها[٢٠٦]. وكانت مدائن /منبلية/ و /نربونه/ ومرسليا/ المراكز الفرنسية لهذه الشيعة. ولعل منشأ هذا هو اتصالها بالمسلمين واليهود، ولكن /لانجويدك/ Languedoc وبرفانس، بقيتا حصنها الحصين وكانت فرنسا الجنوبية تتألف وقتئذ من /١٢٠٠/ إمارة تكاد تستقل كل منها بشؤونها لا يربطها بالولاء إلى ملك فرنسا إلا رباط واهٍ وكان نبلاء طولوز /طلوشة/ هم أعظم السادة في ذلك الإقليم، فقد كانوا يملكون من الأراضي أكثر من أملاك الملك الخاصة. وكانت عقائد (الكاثاري) وشعائرهم من ناحية عودة إلى العقائد والأساليب المسيحية الأولى، وكانت من ناحية أخرى ذكرى غامضة للإلحاد الآريوسي الذي انتشر في فرنسا الجنوبية. ومن ناحية ثالثة نتيجة للآراء المانوية وغيرها من الآراء الشرقية. وكان من بينهم رجال

(٢٠٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٤٨).

(٢٠٦) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٥٤).

دين يرتدون ثياباً سوداء، ومطارنة يسمّون /الكمّل/ Perfecti وكان هؤلاء يقسمون وقت ترقيتهم لهذه المناصب أن يتخلوا عن آبائهم وأزواجهم، وأبنائهم وأن يهبوا أنفسهم لله والإنجيل. . . وألا يقربوا امرأة قط، ولا يقتلوا حيوانا، ولا يأكلوا اللحم أو البيض أو منتجات الألبان، وألّا يطعموا إلا السمك والخضر[(٢٠٧)]. وكان أتباعهم المؤمنون يتعهدون بأن يقسموا فيما بعد الأيمان على هذا وكان يسمح لهم قبل أن يقسموها أن يأكلوا اللحم، ويتزوجوا ولكنهم كان يطلب إليهم أن يخرجوا من الكنيسة الكاثوليكية وأن يسيروا نحو الحياة (الكاملة) وأن يُحيُّوا كل واحد من الكمَّل بثلاث ركعات علامة على التعظيم.

وتقسّم فلسفة الكاثاري الدينية الكون كما يقسمه المانوية إلى الخير: الله، والروح، والسماء. والشر: الشيطان، والمادة، والعالم المادي. وتقول إن الشيطان لا الله هو الذي خلق العالم المرئي، وهي تعدُّ المادة كلها شراً بما فيها الصليب الذي مات عليه المسيح والقربان المقدس[(٢٠٨)]. وتقول إن المسيح لم يكن يتحدث إلا مجازاً حين قال عن الخبز: (هذا جسمي)، وإذا كانت الأجسام كلها من المادة فإن كل اتصال بها يدنّس المتصل، وكل الاتصال الجنسي إثم، وكان الجماع هو خطيئة آدم وحواء، و يصف أعداء الألبيجنسيين أولئك القوم بأنهم يرفضون العشاء الرباني، والقداس، وتعظيم الصور المقدسة، والتثليث، ولا يؤمنون بأن المسيح ولد من عذراء وعندهم أن المسيح من الملائكة، ولكنه ليس هو الله، ويقال عنهم إنهم ينكرون الملكية الخاصة، ويأملون أن تُقسم الطيبات بين الناس بالتساوي وقد اتخذوا (عظة الجبل) أساساً لمبادئهم الأخلاقية وكانوا يعلّمون أن يحبوا أعداءهم وأن يعنوا بالمرضى والفقراء، وألا يقسموا قط، وأن يستمسكوا على الدوام بالسلم، وكان يقال

---

(٢٠٧) إن هذه المعلومات عن طائفة الكاثاري مأخوذة من تقرير كتبه سكوني Sacchoni، أحد قضاة محكمة التفتيش ولا أحد يعرف شيئاً من عقائد الكاثاري وشعائرهم إلا منقولاً عن أعدائهم، أما ما كتبوه هم فقد ضاع أو تلف.

(٢٠٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٨٠).

لهم إن العنف يتنافى مع الأخلاق ولو كان موجهاً للكفار وإن عقوبة الإعدام من أكبر الجرائم وإن على الإنسان أن يوقن وهو مطمئن أن الله سينتصر آخر الأمر على الشرّ من غير أن يستخدم وسائل شريرة. ولمْ يكن في هذه الفلسفة الدينية نار ولا مطهر، بل إن كل نفس ستنجو بعد أن تتقلب في عدة أدوار من التناسخ تطهرها من آثامها ولا بد للإنسان أن يموت وهو طاهر لكي يصل إلى السماء، ولهذا كان عليه أن يتلقى من قسٍ مسيحي القداس الأخير الذي يتمّ به تطهير الروح من آثامها، وكان الكثاريون المؤمنون يؤجلون هذا القداس إلى مرضهم الأخير في ظنهم، وكان الذين يشفون من هذا المرض يتعرضون لخطر الدنس من جديد، وللموت دون أن يقوموا بمراسيم القداس الأخير، ولهذا كان من أكبر البلايا أن يشفى الشخص من مرضه بعد أن يقوم بمراسمه.

وكان القساوسة الألبيجنسيون يتهمون بأنهم يعملون لمنعٍ هذه الكارثة بإقناع الكثيرين من المرضى الذين يشفون بأن يميتوا أنفسهم جوعاً ليرقوا إلى السماء. ويؤكد لنا أعداؤهم أنهم كانوا يميتون المريض خنقاً برضاه حتى لا يكون ثمة مجال لاحتمال شفائه من مرضه الأخير(٣٠٩). وقد أنكرت هذه الطائفة أن الكنيسة كنيسة المسيح، وقالت إن القديس بطرس لم يأت قط إلى روما، و لم يؤسس البابوية وإن البابوات خلفاء الأباطرة لا خلفاء الرسل، وإن المسيح لم يجد له مكاناً يضع فيه رأسه. أما البابا فيسكن قصراً منيفا، وإن المسيح لم يكن له ملك ولا مال ولكن كبار رجال الدين المسيحيين من ذوي الثراء العريض، وما من شك - كما يقول الكاثاري - في أن رؤوساء الأساقفة والأساقفة ذوي الأملاك الواسعة، والقساوسة الدنيويين والرهبان السمان، هم الفريسيون Pharisees (الزنادقة) الأقدمون عادوا إلى الحياة من جديد، ولم يكونوا يشكّون في أن الكنيسة الرومانية هي (زانية بابل) وأن رجال الدين هم زمرة الشيطان، وأن البابا هو المسيح الدجال، وكانوا ينددون

(٣٠٩) المرجع السابق (ص ٨١).

بالداعين إلى الحروب الصليبية ضد المسلمين ويصفونهم بأنهم قتلة، وكان الكثيرون منهم يستهزئون بصكوك الغفران والمخلفات المقدسة. ويقال إن جماعة منهم صوروا العذراء في صورة قبيحة، عوراء، مشوهة الجسم، وادعوا أنهم يفعلون بهذه الصورة المعجزات، وإن كثيرين من الناس آمنوا بقوة هذه الصورة الزائفة، ثم كشفوا هم أنفسهم آخر الأمر عن سخريتهم. ونشرت كثير من آراء الكاثاري عن طريق الأغاني التي يذيعها شعراء الفروسية الغزليون، ولم يكن هؤلاء ممن تعجبهم تعاليم المسيح الأخلاقية وإن لم يعتنقوا آراء شيعة الكاثاري غير أن جميع زعماء هذه الطائفة من الشعراء كانوا يُعدّون من أنصار الالبيجنسيين. فقد كانوا يسخرون من الحج والاعتراف والماء المقدس والصليب وكانوا يسمون الكنائس /معششات اللصوص/ كما كان القاسوسة الكاثوليك في رأيهم "خونة، كاذبين، منافقين[٢١٠].

وظلّ رجال الدين والسلطة الزمنية في فرنسا الجنوبية حيناً من الدهر يبدون الكثير من التسامح مع طائفة الكاثاري، وعقدت مجالس عامة تناقش فيها فقهاء الكاثاري والكاثوليك، منها واحد عقد في كاركسون Carcassonne ، حضره مندوب من قبل البابا وآخر من قبل بدرو الثاني ملك أرغونة /١٢٠٤/ كذلك عقدت عدة فروع مختلفة من الكاثاري مجلساً من رجال دينها في عام /١١٧٦/ وحضره ممثلون لهذه الفروع من بلاد مختلفة، وتباحث المجتمعون في عقائد هذه الشيعة ونظمها وشؤونها الإدارية، ووضعت قواعد تسير بمقتضاها وانفضّ المجتمعون دون أن يتعرض لهم أحد، وفوق هذا فإن الأشراف رأوا أن من الخير لهم أن يضعفوا سلطان الكنيسة في لانجويدك ذلك أن الكنيسة كانت واسعة الثراء تمتلك الكثير من الأراضي على حين أن الأشراف كانوا إذا قيسوا إليها فقراء[٢١١]. ولهذا شرعوا ينتزعون بعض أراضيها وحدث في عام ١١٧١ أن هاجم فيكونت بيزيير Beziers

(٢١٠) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ١٥-١٦ (ص ٨٢).

(٢١١) المرجع السابق (ص ٨٣).

ديراً من الأديرة وزجّ أسقف ألبي في السجن، وعيّن أحد الخارجين على الدين لحراسته. ولما أن اختار رهبان آليه ـ Allet رئيساً عليهم ممن لا يرضى عنه الفيكونت أحرق الدير وزجّ بالرئيس في السجن.

فلما مات السجين نصب الفيكونت المرح جثته في المنبر وأرغم الرهبان على أن يختاروا في مكانه رئيساً يرتضيه، كذلك طرد ريموند روجر Raymond Roger كونت فوا - FOIX رئيس دير باميير ورهبانه من ديرهم، وأطعم خيله الشوفان من فوق المذبح، واستخدم جنوده أذرع الصلبان التي عليها صورة المسيح مصلوباً وأرجلها مدقات لطحن الحبوب، واتخذوا صورة المسيح هدفاً للتدريب على الرماية، وقام ريموند كونت طولوز (طلوشة) بهدم عدد من الكنائس، واضطهد رهبان مواساك وطُرد من حظيرة الدين /١١٩٦/ ولكن الحرمان الديني كان وقتئذ أمراً لا قيمة له في نظر الأشراف المقيمين في فرنسا الجنوبية، واعتنق الكثيرون منهم آراء الكاثاري أو بسطوا على معتنقيها حمايتهم، ولما جلس أنوسانت الثالث على كرسي البابوية في عام /١١٩٨/ رأى في هذه التطورات خطراً محدقاً بالكنيسة والدولة جميعاً. وقد بدت عقائد الكاثاري لأنوسانت كأنها خليط من السخف نفثت فيها سذاجة الجماهير سماً زعافاً، لذلك فقد قال، ما فائدة حرب صليبية توجه إلى المسلمين في فلسطين إذا ظل هؤلاء الألبيجنسيون يتضاعفون في قلب العالم المسيحي نفسه؟[٢١٢].

وكتب إنوسانت بعد شهرين من توليته إلى رئيس أساقفة أوتش Auch في غسقونية يقول إن قارب بطرس الصغير تتلقفه العواصف وتتقاذفه الأمواج، ولكن أشد ما يحزنني ويقضّ مضجعي أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلاً في تحررها من جميع القيود وفي شدة أذاها، قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشيطان. وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبائلها، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس، وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية،

(٢١٢) المرجع السابق (ص ٨٤).

وإذ كان هذا الوباء قد أخذ ينتشر في غسقونية والأقاليم المجاورة لها، فإنا ندعوكم أنتم والأساقفة زملاءكم إلى مقاومته، بكل ما أوتيتم من قوة، وقد أصدرنا إليكم هذا الأمر القوي النافذ أن تقضوا على هذه الفئات الملحدة بكل ما تستطيعون من الوسائل، وأن تخرجوا من أسقفيتكم كل من أصابهم دنسها، وفي وسعكم إذا اضطررتم أن تجعلوا الأمراء والشعب يقضون عليهم بحدّ السيف. ويبدو أن رئيس أساقفة أوتش - وهو رجل متسامح مع غيره كما هو متسامح مع نفسه - لم يقم بالعمل الذي تدعوه هذه الرسالة إلى القيام به، أما رئيس أساقفة نربونة وأسقف بيزيير فقد قاوما المندوبين اللذين عينهما إنوسانت لينفذوا أوامره وحدث حوالي ذلك الوقت أن اعتنقت ست سيدات تتزعمهن أخت كونت (فوا) مبادئ الكاثاريين، وكان ذلك في احتفال عام شهده كثير من النبلاء، فما كان من إنوسانت إلا أن استبدل بمندوبيه المحققين مندوباً آخر أشد منهم بطشاً وأمضى عزيمة، وكان هذا المندوب هو أرنود Arnuad رئيس الرهبان السسترسيين /١٢٠٤/ ومنحه قوات غير عادية تجيز له أن يفحص ويحقق في جميع أنحاء فرنسا، وأمره أن يعرض على ملك فرنسا وأشرافها عفواً شاملاً لكي يساعده في القضاء على شيعة الكاثاري الملحدة. ثم عرض البابا على فيليب أغسطس فضلاً عن هذا أن يمنحه نظير هذه المساعدة جميع الأراضي التي يمتلكها من يأبون الانضمام إلى حملة صليبية ضد الألبيجنسيين[٢١٣]. لكن فيليب تردد في قبول هذا العرض لأنه كان قد أتمّ قبيل ذلك فتح نورمندية، و كان في حاجة إلى متسع من الوقت يهضم فيه هذا الكسب الجديد.

ووافق ريموند السادس صاحب طولوز /طلوشة/ أن يستخدم طريقة الإقناع مع الملحدين، ولكنه أبى أن يشترك في حرب تُشنّ عليهم، فما كان من إنوسانت إلا أن أصدر عليه قرار الحرمان، فلما وعد ريموند بأن يجيب البابا إلى طلبه، وعفا عنه البابا عاد إلى التباطؤ والإهمال، وقال أحد الفرسان الذين أمرهم مندوب

---

(٢١٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٨٥).

البابا بطرد الكاثاري من أرضه "كيف نفعل هذا وقد نشأنا مع هؤلاء القوم ومنهم بعض أهلينا، ونراهم يعيشون بيننا معيشة الصالحين"، وأقبل على القوم القديس دومينيك من إسبانيا، وأخذ يخطب داعياً إلى مسالمة الزنادقة وعاد بعضهم إلى الدين القويم متأثرين بتقواه وصلاحه. ولعل المشكلة كانت لتحل بهذه الطريقة لو لم يقتل بيير دي كاستلنو أحد مندوبي البابا بيد فارس بسط عليه ريموند بعدئذ حمايته. وكان إنوسانت قد رأى جهوده التي بذلها طوال عشر سنين ضد هذه الطائفة الملحدة تبوء بالخيبة، فلجأ إلى أساليب العنف الشديد وحرم ريموند ومحرضيه من الكنيسة، وأصدر قرار التحريم ضد الأراضي الخاضعة لهم، وعرض هذه الأراضي على كل مسيحي يستطيع القبض عليهم. ودعا المسيحيين في جميع أقطار العالم إلى حرب صليبية ضد الألبيجنسيين ومن يحمونهم، وأجاز فيليب أغسطس لكثيرين من بارونات مملكته أن يتطوعوا في هذه الحرب، وجاءت فصائل من ألمانيا وإيطاليا ووعد جميع من يشتركون في هذه الحرب بالغفران الشامل الذي وعد به من يحملون الصليب للقتال في فلسطين.

وطلب ريموند المغفرة وكفّر عن ذنبه علناً - (ضرب بالسوط وهو نصف عار في كنيسة القديس جيل St.Gilles) - ونال المغفرة للمرة الثانية واشترك بالحرب المقدسة /١٢٠٩/ وقاوم معظم سكان لانجويدك خاصتهم وعامتهم على السواء أولئك الصليبيين لأنهم رأوا في هجوم أشراف الشمال وجنوده المغامرين محاولة تبغي الاستيلاء على أرضهم تحت ستار الغيرة الدينية، بل إن المسيحيين الصادقين من أهل الجنوب قاوموا غارات أهل الشمال. ولما اقترب الصليبيون من بيزيير عرضوا عليها أن يجنبوها ويلات الحرب إذا ما سلّمت إليهم جميع الملحدين الذين دوّن أسقفها أسماءهم، ولكن زعماء المدينة رفضوا هذا العرض وقالوا إنهم يفضلون أن يضرب عليهم الحصار حتى يضطروا إلى أكل أطفالهم، فما كان من الصليبيين إلا أن تسلقوا أسوار المدينة واستولوا عليها، وقتلوا من أهلها عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال بلا تمييز بينهم، وحتى الذين احتموا منهم بالكنيسة

لم ينجوا من القتل.

وقد سئل أرنود مندوب البابا، هل يؤمّن الكاثوليك على حياتهم فلا يقتلون، فأجاب: "اقتلوهم جميعاً فالله يعلم من هم أنصاره". ولما حرقت بيزيير عن آخرها تقدّم الصليبيون بقيادة ريموند ليهاجموا حصن كاركسون حيث وقف روجر كونت بيزيير وابن أخي ريموند وقفته الأخيرة يدافع عن الحصن، لكن الحصن سقط في أيدي المهاجمين ومات روجر. وكان أكثر القواد شجاعة في هذا الحصار هو سيمون دي مونت فورت Simon de Mont fort. وقد ولد سيمون هذا في فرنسا حوالي عام ١١٧٠ وكان أكبر أبناء سيد مونت فورت القريبة من باريس، وأصبح بعدئذ إيرل ليستر Earl of Leicester ، وهو لقب ورثه عن أمه الإنكليزية. وقد استطاع سيمون أن يجمع بين التقى العظيم والحروب العوان. كما استطاع ذلك كثيرون من رجال وقته المتغطرسين، فكان يستمع إلى الصلوات في كل يوم واشتهر بطهره وعفافه ونال شهرة عظيمة في حروب فلسطين، وأخذ في هذه الحرب الألبيجنسية يهاجم بجيشه الصغير المؤلف من أربعة آلاف وخمسمائة رجل بلدة في إثر بلدة يستحثه مندوب البابا، ويسحق كل ما يعترضه من مقاومة، ويعرض على الأهلين أن يختاروا بين يمين الولاء للكنيسة الرومانية أو القتل لأنهم مارقون. واختار الآلاف منهم أن يقسموا يمين الولاء، وفضّل المئات أن يقتلوا.

وواصل سيمون حملاته أربعة أعوام خرب فيها أملاك كونت ريموند كلها تقريباً ما عدا طولوز /طلوشة/ حتى استسلمت له طولوز نفسها في عام ١٢١٥ واجتمع مجلس من مندوبي البابا في منبلييه وقرر خلع كونت ريموند وورث سيمون لقبه والجزء الأكبر من أملاكه[٣١٤]. وقد بدأت الحرب الصليبية ضد الكاثاري عام ١٢٠٩ واستمرت حتى القضاء عليهم عام ١٢٤٤ وكانت النتيجة مذبحة هائلة لمن

(٣١٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٨٨).

تبقى من الهراطقة في برج مونتسينور في لانغويدك بفرنسا[٢١٥]. وخرج الدين القويم ظافراً من هذه الحروب، وانتهى بانتصاره عهد التسامح وحرم مجلس نربونه/ ١٢٢٩/ أن يمتلك أحد من غير رجال الدين أي جزء من الكتاب المقدس، وأخذ الإقطاع ينتشر، وأخذت حرية المدن وحكوماتها البلدية في الاضمحلال وآلت ولاية طولوز الواسعة إلى لويس التاسع والتاج الفرنسي وخطت فرنسا خطوة واسعة نحو وحدتها، وكانت هذه الوحدة هي ومحكمة التفتيش أعظم ما أسفرت عنه الحروب الصليبية الألبيجنسية[٢١٦].

ديوان التفتيش

لقد تشربت الكنيسة ثقافة الاضطهاد من كتاب العهد القديم، ذلك أن كتّاب التوراة وضعوا قانوناً لمعاقبة المارقين من الدين، يقضي بأن يفحص عنهم فحصاً دقيقاً، فإذا شهد ثلاثة شهود عدول بأنهم: "ذهبوا وراء آلهة أخرى" أخرج المارقون من المدينة و "رجموا بالحجارة حتى يموتوا"، وقد ورد في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال "إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف، فيجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق[٢١٧]. وقد انتصر القديس أوغسطين لمبدأ الاضطهاد، ذلك أنه استمدّ من عقيدة الخلاص بعض حججه التي دافع بها عن هذا المبدأ واستقى بعضها الآخر من العهد القديم، ومن رأيه أن من دلالات الرفق وشواهد الرحمة أن يعاقب الملحدون إذا كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي، الذي ينتظره المرتدون عن دينهم القويم، والهرطقة توصف في الكتاب المقدس، وكأنها نوع من الفسق والمروق وعبادة الأوثان، إنها أسوأ أنواع القتل لأنها قتل النفوس، ومن

---

(٢١٥) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٥٤).

(٢١٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٨٩).

(٢١٧) إنجيل يوحنا - إصحاح / ١٥/ آية ٦.

أجل هذا اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب[٣١٨].

وكانت قوانين اليونان ترى المروق من الدين جريمة كبرى يعاقب عليها بالإعدام، وهذا القانون هو الذي حكم على سقراط بالموت، وفي روما القديمة حيث كان الآلهة حلفاء الدولة وأصدقاءها الأوفياء، كان الخروج عليهم أو التجديف في حقهم من جرائم الخيانة العظمى التي يعاقب عليها بالإعدام، فإذا لم يوجد من يتقدم باتهام المذنب استدعى القاضي الروماني نفسه هذا المتهم وقام بالتحقيق معه في القضية.

ومن هذا الإجراء أخذت محكمة التفتيش في العصور الوسطى شكلها واسمها[٣١٩]، ولقد كان من المبادئ العامة لدى المسيحيين أن الكنيسة قد أقامها ابن الله، وتبعاً لهذا المبدأ كان كل هجوم على المذهب الكاثوليكي جريمة موجهة إلى الله نفسه، وقد أخذ المسيحيون يبشرون بنظرية تقول: إن الخلاص لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها، وروّجوا للإيمان بأن الذين لا يذعنون للكنيسة ويعتقدون بصدق نظرياتها تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة، وقد أفضى هذا الاعتقاد إلى التنكيل بكل من أبى الكثلكة، وقد اعتبرت الهرطقة أعظم خطيئة.

وكانت النظرة التي ينظر بها إلى الضال العاصي هي أنه أداة للشيطان أرسل للقضاء على عمل المسيح، وكل رجل من رجال الحكم يغضُّ النظر عن الضلال إنما يخدم الشيطان بعمله هذا[٣٢٠].

وكانت العامة تشجع معاقبة الملحدين بالموت مع الألم الشديد، ولكن الكنيسة -(حتى أيام محاكم التفتيش في منتصف القرن الثالث عشر) - كانت تتخذ موقفاً متسامحاً نسبياً وكانت تعاقب الهرطقة بالكفارات والحرمان من الحقوق الكنسية إلا

(٣١٨) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ٧١).

(٣١٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٩١).

(٣٢٠) المرجع السابق (ص ٩٢).

أن العامة كانت تطالب بالدم، وكانت تظهر بين حين وآخر أصوات معارضة في الكنيسة، ذلك أن القديسة (هيلديفارد) Heldyegard كانت تصرّ على أنه حتى الهراطقة هم أبناء الربّ ويجب أن لا يحرم أي منهم من حياته. غير أن دعوة تلك القديسة لم تحقق نفعاً كبيرا، فالقليل من الهراطقة من نجا بحياته[٢٢١]، ولا شك أن الكنيسة في ذلك الوقت كانت تشعر بأنها جزء لا يتجزأ من حكومة أوروبا الأخلاقية والسياسية. وكانت تنظر إلى الضلال كما تنظر الدولة إلى الخيانة.

وقد اعتبر إنوسنت الثالث الضال أكثر شراً من المسلم أو اليهودي ذلك أن هذين يعيشان إما في خارج العالم المسيحي أو يخضعان لقانون نظامي صارم إذا كانا داخله، يضاف إلى هذا أن العدو الأجنبي جندي في حرب صريحة، أما الضال فهو خائن في داخل البلاد يقوّض أسس المسيحية وهي مشتبكة في حرب طاحنة مع الإسلام. وقد اشتركت الدولة على المستوى الرسمي على كره منها في اضطهاد الضالين لأنها كانت تخشى ألاّ تستطيع الحكم بغير مساعدة الكنيسة التي تغرس في قلوب الناس عقيدة دينية موحّدة. كما كانت تخاف من أن يكون الضلال الديني ستاراً يخفي وراءه التطرف السياسي. وقد يكون للاعتبارات المادية أثر في هذا الشأن لأن الضلال الديني أو السياسي كان يعرض للخطر أملاك الكنيسة والدولة، ولهذا كان الرأي العام بين الطبقات العليا يطلب من الدولة أن تقضي على الضلال مهما كلفها ذلك القضاء.

ولهذا أمر هنري السادس إمبراطور ألمانيا /١١٩٤/ أن ينزل بالضالين أشدّ أنواع العذاب وأن تصادر أملاكهم، وأصدرت مدينتا فلورنس وميلان مراسيم شبيهة بمرسوم هنري، وكان أشدّ قوانين الاضطهاد هو القانون الذي سنّه فردريك الثاني فيما بين عامي ١٢٢٠ و . ١٢٣٩.

وقضى القانون بأن يسلم الضالون الذين تحكم عليهم الكنيسة إلى ولاة

(٢٢١) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٥٤).

الأمور ليحرقوا أحياء[٣٢٢]، فإذا رجعوا عن ضلالهم نجوا من الموت وحكم عليهم بالسجن مدى الحياة، ثم صودرت جميع أملاكهم، وحرم ورثتهم من ميراثهم وظل أبناؤهم محرومين من حق الاختيار إلى أي منصب ذي دخل أو كرامة، إلا إذا كفروا عن ذنب آبائهم بالتبليغ عن غيرهم من الضالين، وقضى القانون أن تحرق بيوت الضالين ولا يعاد بناؤها قط. وكان البحث عن الضالين قبل القرن الثالث عشر يترك في الأحوال العادية للأساقفة، وساء البابا /لوسيوس الثالث/ إهمال الأساقفة في محاربة الضلال، فأمرهم بأن يزوروا أسقفياتهم مرة في كل عام على الأقل، وأن يقبضوا على كل من تحوم حولهم الشبهات، وأن يسلكوا كل من لا يقسم يمين الولاء للكنيسة في زمرة الضالين، ثم عليهم بعد ذلك أن يسلموا هؤلاء العصاة إلى ولاة الأمور المحليين.

وخوّل مندوبو البابا حق خلع الأساقفة الذين يتوانون في القضاء على الضلال وطلب البابا /إنوسنت الثالث/ في عام ١٢١٥ إلى جميع ولاة الأمور المدنيين أن يقسموا علناً بأن "يبيدوا من الأراضي الخاضعة لطاعتهم جميع الضالين الذين عيّنتهم الكنيسة ليلقوا ما يستحقون من العقاب"، فإذا لم يفعلوا هذا كانوا هم أنفسهم ضالين وكل أمير يهمل في أداء هذا الواجب يخلع ويعفي البابا رعاياه من طاعته. ولما ارتقى جريجوري التاسع عرش البابوية /١٢٢٧/ وجد أن الضلال آخذ في الازدياد رغم المحاكمات الشعبية، والحكومية، والأسقفية، فقد كانت جميع بلاد البلقان، والجزء الأكبر من إيطاليا، وكذلك من فرنسا، كانت هذه البلاد مرتعاً للزيغ والضلال، حتى لقد أضحت الكنيسة يتهددها خطر الانقسام والتفكك، ولما كان عام /١٢٣١/ أدخل جريجوري في قانون الكنيسة الشرائع التي سنّها فردريك الثاني عام /١٢٢٤/ وبذلك اتفقت الكنيسة والدولة من ذلك الوقت على أن الضالين الذين لا يتوبون عن ضلالهم خونة يجب أن يعاقبوا بالإعدام، وبهذا أنشئت

(٣٢٢) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ١٥-١٦ (ص ٩٢).

محكمة التفتيش رسمياً تحت سلطان الباباوات[٢٢٣].

المفتشون وإجراءات التفتيش

تأسست محاكم التفتيش عقب القضاء على الألبيجنسيين وانتشرت فروعها القوية في كل أنحاء أوروبا مثل شجرة هائلة، وأرسل البابا المفتشون في كل الاتجاهات، وكان هؤلاء من الرهبان الدومينيك والفرانسيسكان، وقد كان هؤلاء يعيشون حياة التسول والبساطة، مع أنهم كانوا متزمتين في أخلاقهم وقلّ منهم من كان يتصف بالرحمة، ولم يكونوا يعتقدون في أنفسهم أنهم قضاة يزنون الأدلة بعدل ونزاهة، بل كانوا يظنون أنهم محاربون يطاردون أعداء المسيح. كان اختصاص محكمة التحقيق مقصوراً على المسيحيين دون سواهم، أما اليهود والمسلمون فلم يكونوا يدعون أمامها للتحقيق معهم إلا إن كانوا مسيحيين مرتدين، ولم تحكم محاكم التفتيش على الهراطقة بالحرق، فقد كان المحققون أكثر حساسية بكثير من أن يفعلوا ذلك، لقد كانوا رجال دين منضبطين غير معنيين إلا بشن الحرب ضد أعداء الله والكنيسة، وعند النطق بالحكم على مهرطق سادر في غيّه كان رئيس اللجنة القضائية يعلن: "بما أن الكنيسة لا تستطيع أن تفعل شيئاً بمهرطق من نمطك فإننا نحيلك إلى المحاكم الدنيوية، ومع ذلك فإننا نوصيها بالسلطة التي لنا عليها، وحسب مقتضيات القانون، أن تحافظ على حياتك وعلى أعضائك من خطر الموت إذا ما اعترفت اعترافاً كاملاً بتهمة الهرطقة المعزوة إليك[٢٢٤] ولم تكن السلطات الدنيوية تلقي بالاً لهذه التوصية، كما أن أحداً لم يكن يتوقع منها ذلك".

وكانت إجراءات التفتيش تبدأ بالقبض على جميع الضالين وعلى جميع المشتبه في ضلالهم، وقد كان المحققون (المفتشون) الزائرون يستدعون جميع السكان البالغين في مكان ما للبحث المبدئي. والذين يقرون بضلالهم في خلال

(٢٢٣) المرجع السابق (ص ٩٦).

(٢٢٤) بيرنهاردت ج. هroود - تاريخ التعذيب (ص ٥٥).

(المهلة القانونية) الأولى، ومدتها ثلاثون يوماً، ثم يتوبون فيطلق سراحهم بعد حبسهم زمناً وجيزاً، أو بعد أن يقوموا بعمل من أعمال التقى، أو يتصدقون بالمال. أما الضالون الذين لا يعترفون في أثناء هذه المهلة، ثم يكشف عن أمرهم في هذا التحقيق المبدئي، أو تدلّ عليهم عيون محكمة التفتيش أو يكشف عنهم بأية طريقة أخرى، فقد كان هؤلاء يدعون للمثول أمام محكمة التفتيش، وكانت هذه المحكمة تؤلف في الأحوال العادية من أثني عشر رجلاً يختارهم الحاكم الزمني في الإقليم من لائحة تحتوي أسماء المرشحين، يعرضها عليه الأسقف وهيئة المحققين، فإذا ما انتهز المتهمون هذه الفرصة الثانية، وأقروا بذنبهم، عوقبوا عقاباً يختلف باختلاف ذنبهم. وإذا أنكروا جرمهم زجّوا في السجن، وكان من المستطاع محاكمة المتهمين وهم غائبون أو بعد مماتهم، وكانت المحاكمة تحتاج إلى شاهدين من شهود الإثبات وتقبل من يعترفون بذنبهم من الضالين شهود إثبات على غيرهم. وكان يسمح للزوجات أن يشهدن على أزواجهن وللأبناء على آبائهم[٣٢٥] ولا يسمح لهؤلاء أو أولئك أن يشهدن أو يشهدوا لهم، ويسمح لجميع المتهمين في مكان ما بناء على طلبهم أن يطلعوا على بيان شامل يحوي جميع أسماء من يتهمونهم ولكن هذا البيان لا يدلُّ أي منهم على من اتهمه، فقد كان يخشى أنه إذا واجه أيٌّ متهم من اتهمه فقد يعمد أصدقاء المتهم إلى قتل من يتهمه، وكان يطلب إلى المتهم عادة أن يذكر أسماء أعدائه وكانت المحكمة ترفض أيّ دليل يقدمه أولئك الأعداء.

وكان المبلغون الكاذبون يعاقبون أشدّ العقاب[٣٢٦] ولم يكن يسمح للمتهمين قبل عام ١٣٠٠ بأن يستعينوا بأية معونة قانونية، أما بعد عام ١٣٥٤ فقد صدر مرسوم بابوي يحتم على المحققين ألا يعرضوا أدلة الإثبات على الأسقف وحده بل أن يعرضوها عليه وعلى رجال من ذوي السمعة الطيبة في الأقاليم، وأن يصدروا

(٣٢٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ٩٩).

(٣٢٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ١٠٠).

حكمهم بما يتفق مع آرائهم، وكانت هيئة من الخبراء تدعى في بعض الأحيان لتبدي رأيها في الأدلة، وكان المحققون يعلنون من وقت لآخر إدانة المذنبين وما يحكم به عليهم من عقاب، فأما التائبون فكانوا يوضعون على منصة في وسط الكنيسة، ثم يُقرأ اعترافهم، ويطلب إليهم أن يؤكدوا هذا الاعتراف وأن ينطقوا بصيغة خاصة يعلنون فيها إقلاعهم عن الضلال، ثم يقوم المحقق الذي يرأس الاحتفال فيعفي التائب من الحرمان، ويعلن سائر الأحكام المختلفة، أما الذين (سيطلقون) أي يتركون إلى السلطات الزمنية فكان يسمح لهم بيوم آخر يرجعون فيه عن ضلالهم، وأما الذين يعترفون ويتوبون، فكان يحكم عليهم بالسجن مدى الحياة، وأما الذين يبقون على عنادهم فكانوا يحرقون وهم أحياء في الميدان العام[٢٢٧].

أساليب التعذيب

صدرت في القرن الثالث عشر فتوى بابوية تسمح باستخدام التعذيب، وقد راح المفتشون يتفننون في تعذيب ضحاياهم، وقد خصصت لعمليات التعذيب من أجل انتزاع الاعتراف، غرف خاصة وكانت مجرد النظرة إليها كافية لدفع الإنسان إلى الاعتراف، وكانت هذه الغرف في العادة ضمن الأديرة وكانت عبارة عن قبو معتم دون نوافذ وتحت الأرض، فيه جوانب غائرة في الظلمة ولا يضاء إلا بشموع راعشة يتصاعد منها الدخان[٢٢٨]، وعند الدخول الأول إلى الزنزانة كان السجين يلقي نظرته الأولى أيضاً إلى معذبيه، كانوا ملفعين السواد وغارقين في صمت جليدي، يخفون ملامحهم بأقنعة سوداء مخيفة لا تظهر إلا عيونهم. وللمزيد من الإرهاب عند الوصول، كان السجين أو السجينة يعرّى دون اعتبار للإنسانية أو الشرف، وكان الأسلوب المفضل في التعذيب هو المخلعة والبكرة والحديد المحمى والجلد، ولم تكن هناك وسيلة واحدة يمكن اعتبارها الأكثر قسوة، فالنظام ككل كان يقوم على التعذيب وكان مجرد

---

(٢٢٧) المرجع السابق (ص ١٠٢).

(٢٢٨) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٥٥).

الوقوع في قبضة محاكم التفتيش يعني الحكم النهائي بالموت[٣٢٩].

وكان الباباوات ينصحون بأن يكون التعذيب آخر ما يلجأ إليه مع المتهمين وألاّ يلجأ إليه إلا مرة واحدة. وفسّر المحققون عبارة (مرة واحدة) بأنها تعني مرة واحدة في كل محاكمة، فكانوا لذلك يقطعون التعذيب في بعض الأحيان ليواصلوا المحاكمة. ويرون بعدئذ أن من حقهم أن يعودوا إلى تعذيب المتهم، وكان التعذيب يستخدم في كثير من الأحيان لإرغام الشهود على أداء الشهادة، وكان من أنواعه الجلد والكيّ بالنار، والسجن الانفرادي في جبّ مظلم ضيّق، وكانت قدما المتهم توضعان أحياناً على الفحم المتقد، أو كان يشدّ إلى إطار في شكل مثلث ثم تجذب يداه وساقاه بالحبال الملفوفة حول آلة لاوية، وكان طعام السجين يقلل أحياناً حتى يضعف بذلك جسمه وإرادته فيؤثر فيه ذلك التعذيب النفساني، كالوعد بالرأفة أو التهديد بالقتل[٣٣٠].

وكان من بين الوسائل الفعالة في مطاردة المارقين، (فرمان الإيمان) Articulo de Lafe الذي جنّد الناس في خدمة ديوان التحقيق وحتم على كل أمرىء أن يُنهي إلى مركز الديوان في غير تباطوء، ما يترامى إلى سمعه من شأن الملحدين، وللمقصرين عقابهم الدنيوي والديني معاً، ومن أجل هذا لم ينج أحد من اشتباه جيرانه، وإساءة الظن به حتى في نطاق أسرته، ولم يكن ثمة أبرع من هذه الحيلة الماكرة في قهر السكان جميعاً، وقمع نزعاتهم الحرة وشلّ تفكيرهم الطليق، وردّهم إلى الطاعة العمياء، لأنها رفعت التجسس إلى مرتبة الواجب الديني الخليق بالإكبار[٣٣١].

وقد جرت العادة في محاكم التفتيش أن يحرق الملحدون أحياء، وبأن تكون

---

(٣٢٩) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٥٦).

(٣٣٠) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ١٠١).

(٣٣١) توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام (ص ٨٢).

النار التي تلتهم أجسادهم بطيئة لا تأتي على ضحيتها دفعة واحدة ، وكانوا يبررون إطالة العذاب بأن ذلك يبيح للمتهم فسحة من الوقت، يستطيع أن يعلن فيها توبته، وهذا الإحراق تسبقه مراحل من التعذيب بالكي بالنار، تختبر فيها صلابة العزم وعمق الإيمان وقوة الإرادة، و هذا الأسلوب في اختبار المتهمين، قد حدّده أمر بابوي أصدره /إنوسنت الرابع/. وقد جرى العرف بين رجال التحقيق على أن يواصلوا تعذيب الملحد الذي يقرّ بذنبه ويعترف بخطيئته، عسى أن يؤدي هذا إلى اكتشاف شركائه في جريمته، وإذا مات السجين تحت التعذيب ودون الاعتراف بأية جريمة فقد كان يعتبر من الأفضل التخلص منه بهذه الطريقة، أما إذا اعترف وأعلن عن إيمانه فقد كان هذا هو الأفضل ليس فقط لأن المشهد العلني المتضمن إحراق الهراطقة التائبين كان يسرُّ العامة بل كانت وظيفته أن يكون إنذاراً صارماً لهم بأن يتصرفوا بطريقة مرسومة بدقة وحذر[٣٣٢].

محاكم التفتيش في إسبانيا

لقد نشطت محاكم التفتيش في أوروبا كلّها، إلا أن نشاطها في إسبانيا كان على درجة كبيرة من الأهمية، إذ استطاعت هذه المحاكم بما امتلكت من وسائل القهر والتعذيب أن تنهي الوجود العربي الإسلامي في الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر الحصون الإسلامية هناك عام ١٤٩٢ على يد الثنائي فرديناند و إيزابيلا Isabeale ، وترجع نشأة محاكم التفتيش في إسبانيا إلى عام /١٢٣٢/ حين استطاع ريموند ألبنيافورتي Raymond of Panafort الراهب الدومينيكي عند جيمس الأول ملك أرغونة، أن يقنع هذا الملك بإدخال محاكم التفتيش في بلده، ونفذ الملك رغبة هذا الراهب إلا أنه سنّ قانوناً في عام /١٢٣٣/ يجعل الدولة هي التي تؤول إليها أملاك الضالين المصادرة، وإن أصبح هذا العمل نفسه في القرون التالية حافزاً قوياً للملوك

---

(٣٣٢) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٥٨).

الذين وجدوا أن التحقيق والاستيلاء عملان شديدا الاتصال أحدهما بالآخر[٣٣٣].

وقد نشطت هذه المحاكم عام /١٥٠١م/ حين صدر أمر من الملكين /فرديناند Ferdinand وإيزابيلا/ بمنع وجود المسلمين في مملكة /غرناطة/ وقد اختارهما /أي الملكين/ الله لتطهيرها من /الكفرة/. كما أنه يحظر على المسلمين أن يتصلوا بغيرهم خشية أن يتأخر تنصيرهم ويحظر عليهم أيضاً الاتصال بمن تنصروا لئلا يفسد عليهم إيمانهم بمخالطتهم. وكل من خالف تلك الأوامر فجزاؤه الموت ومصادرة أملاكه. كما صدر مرسوم ملكي من الملكين / فرديناند و إيزابيلا/ بتأسيس ديوان التحقيق وأن يزاول أعماله في كل الجهات التابعة لهما[٣٣٤]، وصار هذا الديوان مختصاً بملاحقة المتنصرين ممن قبلوا بالكثلكة من أجل البقاء في ديارهم، فمن نطق بالعربية منهم أو استحمّ أو حجب النساء، أو لبس الأزياء الإسلامية، فهو كمن أقام الدليل على ردّته وكفره والويل له من العذاب[٣٣٥]. وكانت سياسة البابوات والقساوسة وملوك إسبانيا ترمي إلى الإبادة ومحو الأثر. وقد تولّى ديوان التحقيق في إسبانيا طائفة الرهبان الجزويت / اليسوعيين/ ممن كانوا يعرفون بولائهم الشديد للكنيسة الكاثوليكية فأخذوا الناس بالشدة والقهر، عن طريق مراقبة أولئك المتنصرة مراقبة الأبالسة والشياطين، واختلاق التهم وترتيب المؤامرات السرية والعلنية لمحاربة من اعتنق الكثلكة أو تظاهر باعتناقها، ولم يكن أمام المسلمين من سبيل سوى التسليم بالأمر الواقع، بعد أن قاموا ببعض الثورات كثورة جبال البشرات، إلا أنها قمعت بعنف وأجبر الثوار على اعتناق المسيحية الكاثوليكية. وبعث البابا عام /١٥٢٤/ إلى رجال محكمة التفتيش يحثّهم بأن يعجّلوا في إجبار المسلمين على اعتناق المسيحية الكاثوليكية، ومن أبى من المسلمين فعليه أن يخرج من إسبانيا، وأمر البابا في ختام

---

(٣٣٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ١٠٤).

(٣٣٤) محمد قطب - محاكم التفتيش في إسبانيا (ص ١٢١).

(٣٣٥) المرجع السابق (ص ٦٠)

المرسوم بجعل كل المساجد هناك كنائس[٢٣٦].

ويقدر بعض المؤرخين عدد من عُذّب من المسلمين بعد سقوط /غرناطة/ بثلاثة ملايين نسمة، قُتل من قُتل وحُرق من حُرق، وخربت غرناطة والأندلس ولم تفلح كل محاولات التدجين مع المسلمين الذين تنصروا حفظاً لحياتهم، فأصدر الملك فيليب الثاني قراراً عام /١٥٨٦/ ولكنه لم ينفّذ إلاّ عام/١٦٠٩/ ويقضي بنفي المتنصرة من إسبانيا، وقد جاء في القرار: "إن المتنصرة هم أعداء الملّة والدين والوطن، وأن لهم اتصالاً بأعداء إسبانيا، وأن لا سبيل إلى جعلهم يعتنقون الدين المسيحي (الكاثوليكي) ولهذا وجب طردهم إلى بلاد البربر في أفريقيا، وأنه يجب أن يغادر المتنصرون إسبانيا رجالاً ونساء وأطفالاً في ظرف ثلاثة أيام من تاريخ نشر القرار في المدن والقرى، وأن يذهبوا إلى الثغور التي يعينها لهم المكلفون بترحيلهم من قبل الحكومة، وجزاء من يتخلّف الموت".

وبُدئ بتنفيذ القرار في مقاطعات /الأراغون/ و /بلنسية/ لأن القرار نشر فيهما أولا، ويُقدّر عدد من نفي من إسبانيا أثناء تلك العصور بخمسمائة ألف من اليهود وثلاثة ملايين من المسلمين[٢٣٧]، عدا من استرقّ منهم أو قضى نحبه تعذيباً وحرقا، وامتدّ نشاط ديوان التحقيق حتى على المسيحيين أنفسهم باتهامهم بأنهم حادوا عن الكثلكة، وكان الهدف من اتهام هؤلاء هو الاستيلاء على أملاكهم. وتعتبر مأساة العرب المسلمين في الأندلس من أعظم المآسي في التاريخ لأنها مأساة شعب اقتلع من أرضه التي عاش فيها لأجيال طويلة وله بها ذكريات وأحلام مختلفة.

اضطهاد السحرة

لم تكتف محاكم التفتيش باضطهاد الهراطقة الملحدين، بل شرعت باضطهاد السحرة لا باعتبارهم سحرة، بل لأنهم هراطقة، وكان الذين يتهمون

(٢٣٦) المرجع السابق (ص ٥١)

(٢٣٧) محمد قطب - انظر محاكم التفتيش في إسبانيا .

بممارسة السحر غالباً ما يعذبون حتى الموت. وفي عام /١٤٨٤/ حين أصدر إنوسنت الثامن بيانه التاريخي ضد السحر، تغيرت الصورة تغيراً جذريا، كان قداسته يعتقد فعلاً أن مؤسسة السحر قد أصبحت تشكل خطراً حقيقياً على الكنيسة، وأوكل صلاحية تنفيذ البيان لراهبين ألمانيين، جاكوب شبرنغر وهايزيش كرامر[٣٢٨]، وكان هذان ساديين ومتصلبين وذكيين، وكانا من أشد الناس عداء للمرأة وكراهية لها إن لم يكن في كل زمان، ففي عصرهما على الأقل، وقد كتب هذان المحققان مذكرة تُدعى /مطرقة الساحرات/ التي منهجت السحر وأصبحت عملياً مجموعة من القوانين يرجع إليها القضاة الموكولة إليهم مسؤولية محاكمات السحرة، وبما أن بيان البابا ضد السحرة قد صدر أصلاً من خلال التقارير الواردة من ألمانيا، فقد عرفت هذه البلاد سلسلة مروّعة من عمليات القمع.

ولقد هيمن الخوف الدائم من الاعتقال والتعذيب والموت الغامض على البلاد كلها وألقى بظلّه الرهيب، وكان الرجال والنساء والأطفال يشوّهون وتقطع رؤوسهم ويحرقون أحياء بالمئات. ووصل الجنون إلى درجة مروعة بحيث أنه ذات مرة قام أسقف /تريفيس/ بإحراق معظم النساء في أبرشيته، ويقدر أحد المؤرخين الألمان أنه خلال الحملة المسعورة على السحرة قتل ما لا يقل عن مئة ألف شخص[٣٢٩].

وكان من ألدّ أعداء السحر الملك الإسكتلندي جيمس السادس، الذي تسلم عرش إنكلترا فيما بعد باسم جيمس الأول، وعلى الرغم من أنه كان أقل وحشية من عمته ماري التي اشتهرت باسم /ماري الدموية/ إلا أنه أعلن حرباً شاملة على الساحرات والشياطين والتبغ، فقتل في هذه الحملة الآلاف وفي أوج ملاحقة الساحرات كان الساديون الجوالون الصغار قد راحوا يظهرون في الأرياف كالفطور السامة، وكان هدفهم مزدوجا، إشباع رغبتهم الشاذة وملء جيوبهم في الوقت ذاته،

---

(٣٢٨) بيرنهاردت ج. هroوود – تاريخ التعذيب (ص ٦١).

(٣٢٩) بيرنهاردت ج. هروود – تاريخ التعذيب (ص ٦٢).

وسمّوا أنفسهم بالباحثين عن الساحرات أو الواخزين، وقد جاءتهم التسمية الثانية من عملية غرز الإبر النحاسية الطويلة في الأجساد العارية للمشبوهات بالسحر من الرأس حتى القدم، وكان من المعتقد أن لكل ساحرة نقطة محددة في جسمها تسمّى /سمات العرّافات/ ولم تكن نقطة ظاهرة بالطبع إلا أنها كانت نقطة عديمة الحساسية لأي نوع من الألم لأن الشيطان قد لمسها، وبغية العثور عليها، و قبل أن يبدأ الوخز العملي، كان الباحث عن الساحرات يحلق كل شعرة في جسد المتهمة[٣٤٠]، وفي كثير من الأحيان كانت الضحايا المذعورات يصلن إلى درجة كبيرة من الذعر تجعلهن لا يشعرن بإحدى وخزات إبرة الواخز، وكان بعض الواخزين يعززون نجاحهم باستخدام إبر مسكوبة ومصممة خصيصاً لهذا الغرض.

وكان أشهر باحث إنكليزي عن الساحرات اسمه /ماثيو هوبكنز/ وكان يتمتع بعقل متميز في العمل فيفرض على كل بلدة جزية من عشرين شلناً إضافة إلى نفقات معيشته وعشرين شلناً غيرها لقاء كل ساحرة كان يكتشفها. وصار هوبكنز مزعجاً جداً فاتّهم هو الآخر بالسحر والشعوذة وأعدمه الجمهور دون محاكمة. ولقد سبق الاضطهاد المنظم للساحرات الإصلاح البروتستانتي بما يقرب من مئة عام. ولذا كان من المنطقي للكثيرين افتراض أنه مع التغيرات المتسارعة في التفكير الديني، فإن الجنون العام من أمثال السعار ضد الساحرات سوف يتلاشى، إلا أنه زاد حدّة وفاق المصلحون البروتستانت أسلافهم الكاثوليك في وحشيتهم وقسوتهم ضد الساحرات[٣٤١].

محكمة التفتيش، الضحايا والنتائج

استطاعت محاكم التفتيش أن تحقق أهدافها العاجلة وهي القضاء على الهراطقة، إلا أنها أغرقت أوروبا بالدماء البريئة، فقد قضت على طائفة الكاثاري

(٣٤٠) المرجع السابق (ص ٦٨).

(٣٤١) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٦٤).

في فرنسا، وأبادت جميع الفرق الخارجة على الكنيسة في أوروبا، ذلك أنه قبل أن ينتصف القرن الثاني عشر كانت بلدان أوروبا الغربية معششاً للشيع الملحدة، حتى قال أحد الأساقفة في عام /١١٩٠/ إن "المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين" وكان في ميلان وحدها سبعة عشر ديناً جديداً[٢٤٢]. وقد تمكنت الكنيسة من شل الفكر الأوروبي قروناً طويلة، إلا أنها في الوقت نفسه بذرت بذور الثورة عليها بما أحدثته من خراب ودمار بسبب دواوين التفتيش التي كانت منتشرة في كل مدينة أو دسكرة من أرض أوروبا الغربية. ولئن كانت الكنيسة قلب العالم المسيحي ومحور اهتماماته، إلا أنها باتت في القرون التي تلت تشكيل ديوان التفتيش موضع ريبة من قبل أتباعها أولاً ومن ثم المواطنين الأوروبيين ثانيا. ولقد كانت محاكمات محاكم التفتيش في غالبيتها محاكمات وهمية، فالأشخاص الذين كان يتهمهم ديوان التحقيق كانوا في الغالب أبرياء، وكان الهدف من اتهامهم السطو على أملاكهم واقتسامها بين الملوك الزمنيين والسلطة الروحية وهذا ما أجج الغضب في نفوس الأوروبيين ومهّد السبيل للإصلاح الديني الذي بدأه /وكلف Wycliffe وهوس Huss/ ومن ثم تابعه لوثر ولا يغرب عن البال أن الكنيسة إنما قامت بهذه الحرب المقدسة بحجة الدفاع عن وحدتها ولكنها لم تفعل شيئاً سوى تأخير انقسامها، صحيح أن الكنيسة قد بسطت نفوذها لقرون طويلة من الزمن على كامل أوروبا الغربية واصبح البابا هو الحاكم المطلق، ولكنها ما كانت لتستطيع ذلك لولا وضع أوروبا آنذاك.

فقد كانت شعوبها شعوباً زراعية والشعوب الزراعية تميل إلى الإيمان بالقوى الخارقة بسبب اعتمادها اليائس على أهواء عناصر الطبيعة، وعجزها عن السيطرة على الطبيعة التي تؤدي دائماً إلى الخوف الذي يؤدي إلى العبادة، إلا أنه وبتطور الصناعة والتجارة، ظهر نوع جديد من العقول والرجال، أكثر واقعية ودنيوية، وبدأت سلطة الكنيسة بالانهيار بمجرد أن بدأ الصراع بينها وبين هذه الحقيقة

(٢٤٢) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ١٥-١٦ (ص ٧٨).

الاقتصادية الجديدة[٢٤٣]. فانتصرت الروح القومية على الروح الدينية وظهرت الأمم الأوروبية على أنقاض الكنيسة الكاثوليكية، ومهما قيل عن التصرفات الوحشية لمحاكم التفتيش إلا أننا يجب أن نأخذها في إطار عصر اعتاد الوحشية. إن التعصب يلازم الإيمان القوي على الدوام، والتسامح لا ينشأ إلا حين يفقد الإيمان يقينه، لذلك ما كان من المنتظر أن تتسامح الكنيسة مع من يخالفها الرأي ولو أدى ذلك إلى خروجها عن حدّ المسيحية، وهي تتقد تعصبا.

لقد طالت جرائم دواوين التفتيش كل أوروبا ولا توجد بيانات حقيقية لعدد الذين ماتوا بأحكامها، إلا أن نظرة واحدة لجرائم ديوان التفتيش في إسبانيا تكفي للبرهنة على عمق الوحشية الكامنة في نفوس أولئك البشر. فلقد تسبّب هذا الديوان في اندثار أيّ اثر للعرب هناك وهذا ظلم لا يستطيع التاريخ أن يتحمله. وبقيت دواوين التفتيش تعمل في أوروبا حتى القرن الثامن عشر حيث ألغتها الثورة الفرنسية من فرنسا عام /١٧٨٩/ وبقي ديوان التفتيش يعمل في إسبانيا حتى عام /١٨٣٤/ حيث وافق مجلس النواب على إلغائه نهائياً في إسبانيا كلها. وكان الإصلاح الديني قد ألغاه في كل من ألمانيا وإنكلترا قبل ذلك بوقت، ونستطيع أن نحكم على محاكم التفتيش بأنها أشنع الوصمات في سجل البشرية كلّه، لأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيراً عند أيّ وحش من الوحوش[٢٤٤].

---

(٢٤٣) ول ديورانت - قصة الفلسفة (ص ٦٢).

(٢٤٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١٥-١٦ (ص ١٠٦).

الفصــل الثاني

الكنيسة والإصلاح

بـذور الإصــلاح: ظهــرت بــوادر الإصـــلاح في الكنيســة عــلى يــد المصــلح الإنكليزي/جـون وكلف/ ١٣٢٨ - ١٣٨٣ عندما ندد هذا المصلح بتصرفات الكنيسة، فهو يرى أن الـرب وحده هـو الـذي لـه ملـك السموات والأرض، وأن جميع الصالحين مـن عـباده لهـم حـق في ملكية الأرض، وأن هـذه الملكية حـق مشـاع عـام بيـنهم لأن الملكـية الفـردية إنمـا جـاءت نتـيجة لخطيـئة آدم، وعـلى ذلـك لا يصـحّ أن تـتردى الكنيسـة في الخطيـئة نفسـها، بل يجـب أن تسمو عـن الملكـية الفـردية، كمـا يجـب أن تتخـلى عـن جمـيع ممـتلكاتها، ويفسّـر /وكلـف/ الـثروة الواسـعة الـتي تمتعـت بهـا الكنيسـة ورجالهـا بأنهـا مظهـر مـن مظاهـر انصـراف رجـال الديـن عـن مهمـتهم الأساسية، لأنهم لو قاموا بواجبهم الأصلي ما صارت لهم حاجة إلى هذه الثروة.

ويـرى /وكلف/ أن ثـروة الكنيسـة عـامل مـن عوامـل إفقار الدولة، ويعيب هذا المصلح على رجـال الديـن عدم تفـرغهم لواجباتهم واشتغالهم بالسياسـة والإدارة. واعتبر الديـريين - أي الرهـبان في الأديـرة - فـئة من المتعطلين الذين يعيشون عيالاً عـلى المجـتمع[٣٤٥]. وصـادفت آراء /وكلـف/ هـذه هـوى في نفـوس عـدد مـن الأمـراء الإنكليـز الطـامعين في الاستيلاء على أمـلاك الكنيسـة، فاستدعوه إلى لنـدن عـام / ١٣٧٦/ لشـرح آرائه عـلى المـلأ، مما أثار رجال الدين وعندما بلغت تعاليم /وكلف/ البـاب جـريجوري الحـادي عشـر أنكرهـا وأرسـل إلى الملك إدوارد الثالـث يطلـب منـه مكافحـة هـذه التعـاليم وحبس /وكلف/، إلا أن الموقف انتهى بطرد /وكلف/ وشيعته مـن اكسفورد Oxford فاعتزل بقـية حياته في إحدى القرى حتى مات في هدوء سنة

---

(٣٤٥) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى ج١ (ص ٥٢٢).

/١٣٨٣/، و/لوكلف/ آراء كثيرة في اللاهوت تقوم على أساس تعاليم القديس أوغسطين، من ذلك أنه اعتقد في مبدأ القدر ورأى أن البعض قدّر له الخلاص والرحمة، والبعض الآخر قدر له الهلاك واللعنة الأبدية، (وقد يكون البابا من الفريق الأخير)، كذلك رأى وكلف أن أسلوب المسيحية في الحياة يجب أن يُستقى من الإنجيل نفسه لا من تعاليم الكنيسة، وأن الصلة بين الإنسان وخالقه يجب أن تكون مباشرة دون وساطة أحد من رجال الدين أيّاً كان مركزه في الكنيسة. ولهذا أدرك وكلف أن الإنجيل يجب أن يكون في متناول كل مسيحي. فقام جماعة من أعوانه بترجمة الإنجيل إلى الإنجليزية تحت إشرافه مما كان له أثر كبير في حركة الإصلاح الديني فيما بعد[٣٤٦]. وقد انتشرت آراء وكلف في إنكلترا وصادفت قبولاً كبيراً في نفوس ثلاث فئات أولاها رجال العلم من المفكرين الأحرار، ثم الفقراء من أهل الريف، وأخيراً الأمراء الطامعين في الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة، وقد أطلق على أتباع وكلف اسم اللولارديين الذين أخذوا يزدادون حتى اضطر البرلمان الإنجليزي إلى إصدار قانون في عهد هنري الرابع سنة /١٤١٠/ يقضي بتسليم كل من يتهم باللولاردية إلى الكنيسة لمحاكمته، فإذا أدين أحرق حياً بوساطة السلطة الزمنية، وبعد ذلك جاء هنري الخامس فتطرف في مطاردتهم والقضاء عليهم، فاختفت اللولاردية في الظاهر.

وقد انتشرت آراء وكلف خارج إنكلترا حتى تمخضت عن انفجار عنيف في بوهيميا، فقد وجدت هذه الآراء من يدافع عنها بقوة، وكان أعظم المدافعين عنها هو جون هوس - ١٣٧٠ - ١٤١٥ وقد كان هوس داعياً ومصلحاً دينياً، فراح يشنّ هجماته العنيفة ضد الأوضاع السائدة في الكنيسة. وقد استفحل أمره عام /١٤١٢/ عندما اختلف البابا حنا الثالث والعشرين مع لادسلاس ملك نابولي، فأعلن البابا حملة صليبية ضد الملك، وهنا لجأت البابوية - كعادتها طوال الحركة الصليبية -

(٣٤٦) المرجع السابق (ص ٥٢٣).

إلى توزيع صكوك الغفران على كل من يسهم في تلك الحملة أو يتبرع لها بالمال، وقد اعتبر هوس أن صكوك الغفران ليست من الدين في شيء، وذهب إلى حدّ القول بأن الأوامر البابوية تعتبر ملغاة لا قيمة لها إذا كانت تتعارض مع تعاليم المسيح.

وأصدر البابا قرار حرمان بحق هوس، ثم كان أن اجتمع مجمع كونستانس لينظر في عدة مسائل، أهمها مسألة وضع حد للهرطقة الهوسية، لذلك وجهت الدعوة لهوس لحضور المجمع، فحذره أصدقاؤه من الذهاب، ولكنه وجد في هذا المجمع فرصة طيبة لشرح آرائه أمام جمهور كبير من المسيحيين فرحل إلى كونستانس بعد أن حصل على موثق من الملك سغسموند بعدم الاعتداء على حياته. وعندما وصل هوس إلى كونستانس في نوفمبر سنة /١٤١٤/ ألقي القبض عليه في الحال وزجّ به في السجن على الرغم من محاولات سغسموند للإفراج عنه. ثم طلب من هوس أن يحدد موقفه من خمس وأربعين مسألة مستقاة من آراء /وكلف/، واثنتين وأربعين مسألة من آرائه هو، وعندئذ أعلن هوس أنه يتفق مع وكلف في بعض آرائه ويختلف معه في البعض الآخر، أما آراؤه هو فقد أصرّ عليها ولم يشأ أن يتنكر لها، وأخيراً صدر القرار بإدانة هوس، فأعدم حرقاً سنة /١٤١٥/ [٣٤٧].

على أن كثيراً من أهالي بوهيميا - على اختلاف طبقاتهم - لم ينظروا إلى هوس على أنه مصلح ديني فحسب، بل على أنه من أئمة القومية التشيكية، لذلك حدث في مايو سنة /١٤١٥/ عندما كان هوس سجيناً ينتظر محاكمته، أن اجتمع جمهور كبير من نبلاء بوهيميا وكتبوا إلى مجمع كونستانس طالبين العفو عنه، ولكن المجمع لم ينظر إلى هذا الطلب وأمر بإحراق هوس، الأمر الذي أثار الشعور العام في بوهيميا فاجتمع خمسمائة من نبلائها وأقسموا على عدم تنفيذ أي قرار من قرارات مجمع كونستانس Constans، وفي سنة /١٤١٩/ استولت جموع الهوسيين على براغ، وذبحوا أعضاء مجلس المدينة فاتجه إليهم الملك سغسموند

---

(٣٤٧) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى ج١ (ص ٥٢٦ - ٥٢٧).

الذي خلف أخاه ونسلاس في حكم بوهيميا، ولكنه هزم هزيمة ساحقة، وقد قاد سغسموند عدة حملات صليبية ضد الهوسيين ولكنه هزم في كل مرة على أيدي فلاحي بوهيميا، وقد ظلت الأوضاع السياسية معقدة في بوهيميا طوال القرن الخامس عشر، وظلت هذه المنطقة معقلاً للهرطقة إلى ما بعد الحركة المضادة للإصلاح الديني في القرن السادس عشر(٣٤٨).

حدوث الانقسام في الكنيسة

ظهرت إرهاصات الإصلاح في الكنيسة الغربية على يد المصلحين /ويكلف وهوس/، إلا أنها تبلورت بظهور مارتن لوثر /١٤٨٣ - ١٥٤٦/ إلى ثورة أدت إلى انقسام الكنيسة. ولقد كانت أوروبا مهيأة لمثل ذلك، فنشوء المدن ونشاط حركة التجارة وظهور بوادر البورجوازية نتيجة لتزايد الثراء، وكذلك نشاط الحركة العلمية وظهور الجامعات التي أضحت تنشر العلم والمعرفة، كل ذلك أدى إلى خلق البيئة التي ساعدت في تلاشي حكم الكنيسة الذي دام قروناً طويلة في أوروبا رسف فيها العقل وساد الجهل والتخلف.

وقد كان لآراء مارتن لوثر Martin Luther الأثر الكبير في تغيير مجرى التاريخ الأوروبي، فقد ولد مارتن في قرية ثورينجيا بمقاطعة سكسونيا بألمانيا، درس القانون في جامعة إرفورت، إلا أنه انخرط في سلك الرهبنة في عام /١٥٠٥/ وعكف في دير القديس أوغسطين على دراسة الكتاب المقدس، ودرس خلال إقامته في الدير علم اللاهوت فنال درجة الدكتوراه فيه، واستدعى للتدريس في جامعة /وتنبرج/ Wittenberg بمقاطعة سكسونيا عام /١٥٠٨/ حيث لمع اسمه والتف حوله الرواد من تلاميذه المعجبين بآرائه. وزار روما في عام /١٥١٠/ واطلع بنفسه على مفاسد البابوية، وأجج هذا في نفسه الرغبة في الثورة، فظل يفحص ويتأمل حتى اهتدى إلى العقيدة التي رأى فيها المنطق، فقد اعتبر أن الإيمان المطلق برحمة الله يكفل

---

(٣٤٨) سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى (ص ٥٢٨).

النجاة من عقابه، وأن الصلاة والعبادة بجميع طقوسها وأشكالها ليست كافية للخلاص من الخطايا، وإنما يتخلص الإنسان من خطاياه بإسداء الحمد والشكر من قلب طاهر سليم إلى العليّ القدير، وسميت عقيدته هذه عقيدة التبرير بالإيمان[(٣٤٩)] Justification by Faith. ولا يخفى ما في هذه العقيدة من نقض لأفعال الكنيسة ولاسيما أنه أزال الوساطة بين الله والإنسان ألا وهي الكنيسة، وأطلق العنان للعقل كي يفكر في الخالق والوجود.

وقد ظل لوثر ينشر آراءه بهدوء ودون تدخل من السلطة والكنيسة، إلى أن جاء دوره ليعلنها على الملأ. ذلك أن البابا بونيفاس السابع - ابتكر في عام/١٣٠٠/ مرسوماً بابوياً مقدساً يُعرف بالغفران، ويقضي بأنه إذا اعترف شخص اعترافاً كاملاً بذنوبه وتبرّأ منها وندم ندماً حقيقياً على خطاياه، فإنه يتخلص من عقاب الآخرة، ولكي يحصل على هذه المغفرة عليه أن يدفع لقاء ذلك هبة مالية، وظل ذلك تقليداً على مدى الأجيال يقبل عليه الجهلاء ويعارضه المفكرون إلى أن أرسل البابا أحد الرهبان واسمه /تتزل/ في عام /١٥١٧ لتوزيع صكوك الغفران على الناس في ألمانيا، وكان البابا قد خوّله جمع الأموال لبناء كنيسة القديس بطرس في روما، وكان المؤمنون برسالة البابا يدفعون مقابل هذه الصكوك مبلغاً معيناً من المال، مما أثار المصلح مارتن لوثر وجعله يتزعم ثورة دينية لإصلاح الكنيسة ترتب عليها ظهور المذهب البروتستانتي، وحدوث الانشقاق في الكنيسة، وقد أصدر البابا قرار الحرمان بحق مارتن لوثر إلا أن مارتن أحرق مرسوم الحرمان في ملأ من الناس[(٣٥٠)]، وأعلن مجمع ورمس Worms أنه طريد القانون وأباح إهدار دمه، وحذر المؤمنين من قراءة كتاباته. وتوارى لوثر مختبئاً وخلال فترة اختبائه نقل الإنجيل إلى اللغة الألمانية وفشت دعوته وأفضت إلى حدوث ثورات نجم عنها عنف

(٣٤٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٩٥).

(٣٥٠) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٩٧).

وإراقة دماء، مما أزعج مارتن وجعله يخرج من مخبئه ليعلن أن حركة الإصلاح الديني تتبرأ من اتخاذ العنف وإراقة الدماء وسيلة لتحقيق أهدافها.

وقد لبث الجدل قائماً بين الكنيسة والبروتستانت حتى انتهى بحروب طاحنة توّجها صلح أوجزبرج Augsburg عام ١٥٥٥م، الذي نصّ على إعطاء الحرية لكل أمير أن يختار المذهب الذي يروق له في إمارته، وعلى الرعايا الذين يريدون البقاء حيث هم أن يدينوا بالمذهب المختار، وإلا فلهم الحق في مغادرة الولاية التي يعيشون فيها إلى الولاية التي تدين بالمذهب الذي اختاروه لأنفسهم[٣٥١]، و يعتبر هذا الصلح نصراً للبروتستانتية التي كانت قد انتشرت وزاد من قوتها ظهور مصلحين آخرين وهما أولريخ زونجلي 1484/ Ulirich Zuingli - ١٥٣١/ وجون كالفن John Calvin 1509/ - ١٥٦٤/ اللذان دفعا بالمذهب الجديد بقوة كبيرة فانتشرت البروتستانتية في معظم البلدان الأوروبية مما ساعد على تجدد الحروب بين الكاثوليك والبروتستانت.

محاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة

لقد كان من نتائج الانقسام الديني في أوروبا وظهور مصلحين معادين للكنيسة الكاثوليكية ويعتنقون مبدأ الكفاح والمقاومة في سبيل العقيدة، أن وجدت قوتان تتصارعان من أجل العقيدة، إحداهما بروتستنتية كلفينية ومقرها في جنيف وأخرى كاثوليكية ومقرها في روما، وقد أدى هذا الصراع إلى الزج بكثير من الدول الأوروبية في أتون حروب دينية عنيفة من منتصف القرن السادس عشر وحتى الثلث الأخير من القرن السابع عشر.

وكانت الأراضي المنخفضة هولندا وبلجيكا خاضعة للتاج الإسباني، إلا أنها وإن كانت جزءاً من الإمبراطورية إلا أنها لم تخضع لسلطانها المطلق، لما فطر عليه أهلها من حب الحرية والميل إلى الاستقلال، لذلك كانوا يتعرضون للاضطهاد في

(٣٥١) المرجع السابق (ص ١٠٩).

عهد شارل الخامس، وقد أدخل هذا الملك محاكم التفتيش إلى تلك البلاد، وعندما ورث فيليب الثاني هذه الأراضي عن أبيه شارل الخامس أراد أن يقضي على المذهب البروتستانتي الذي صار ينتشر فيها لأنه كان يعتقد أن توحيد الملك لا يتأتى إلا بتوحيد الدين[٣٥٢]، وقد اتسعت سلطة محاكم التفتيش في عهده وقد ترتب على اتساع نطاق تلك المحاكم حركة سخط على الحكومة من الكاثوليك والبروتستانت على السواء، وكانت الأحكام التي تصدرها محاكم التفتيش تنفذ بكل قسوة وغلظة، فقامت فئة من شباب المدن، وانضم إليهم عدد من النبلاء الأحرار الذين كان هدفهم مقاومة إسبانيا، وألّفوا جمعية أسموها /الحلف/ وأعلنوا أن أهم أهدافهم هو مقاومة محكمة التفتيش والمطالبة بإلغائها، وكان هذا الحلف يضمّ الثوار من الكاثوليك ومن البروتستانت على السواء، وانفجرت الثورة واندفعت الجماهير البروتستانتية تخرب الكنائس والأديرة وتنهب ما فيها، وفي خلال أسبوع واحد تحطمت أربعمائة كنيسة ونزعت الصور من أماكنها وسلبت كؤوس القربان المقدس الذهبية، وقد كان عماد هذه الثورة الطبقات الكادحة من فلاحين وعمال واختلطت دوافع العقيدة الدينية بالدوافع الاقتصادية والظلم الاجتماعي بسبب سوء أحوالهم في كل المجالات، وقد هال الملك فيليب الثاني ما حدث وقرر الانتقام، فأقام فيليب في الحال محكمة التفتيش في الأراضي المنخفضة وسيّر إليها أحد قواده، وهو (دوق ألفا) Duke Alva وقد عرف ألفا بالقسوة والبطش ولقّب بجلّاد الأراضي الواطئة، وقد عهد فيليب إلى دوق ألفا بسلطات واسعة، وكان أول إجراء اتخذه ألفا هو تكوين هيئة للاضطرابات كانت تكنّى (بمجلس الدم) وسلطتها أعلى سلطة قضائية في البلاد، حيث لا مردّ لأحكامها، و كان جميع أعضائها من الأسبان، وقدم آلاف من سكان البلاد إلى المحاكمة فقضت بإعدامهم، حتى كان يفخر الدوق ألفا بأنه خلال مدة حكمه أعدم ١٨,٦٠٠ مواطن في البلاد الواطئة وفرّ من البلاد ثلاثة أمثال هذا

---

(٣٥٢) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٢١).

العدد[٣٥٣]، غير أنه ورغم قسوة الإجراءات التي اتخذها الأسبان لإيقاف الثورة فإن ذلك لم يزد الشعب إلا ثباتاً وحقداً على الأسبان، وقد استطاع الثوار الكالفينيون بصبرهم وثباتهم وصمودهم أن ينجحوا في انتزاع جزء كبير من الأراضي المنخفضة ويؤسسوا فيه حكومة مستقلة.

وقد كان لنجاح ثورة الأراضي المنخفضة في /هولندا / وانتصارها على دولة من أعظم الدول الأوروبية قوة أثره الكبير في نفوس الشعوب المناضلة من أجل استقلالها وقوميتها ومعتقداتها. وكان له فضل كبير في حفظ وتقوية كيان المذهب البروتستنتي[٣٥٤].

اضطهاد البروتستانتية في فرنسا

انتشار البروتستانتية: انتشرت البروتستانتية الكالفينية في فرنسا فبدأت في جنوب فرنسا باعتبارها حركة عامة ثم تسربت إلى مدن أخرى كثيرة في جميع أرجاء البلاد وانضمّ إليها الفلاحون والعمال والطبقة البورجوازية في المدن، وأطلق على البروتستانت في فرنسا اسم الهيجونوت، وهي كلمة تعني المتحالفين ، واستعر الصراع بين البروتستانت والكاثوليك في عهد الملك فرانسوا الأول /١٥١٥ - ١٥٤٧/ وكان هذا الملك يخشى أن تؤدي الخلافات الدينية إلى الانقسام السياسي في فرنسا، عندئذ رأى حسم الموقف بكل شدة وبطش وبدأت حركة الاضطهاد الديني الشديد في فرنسا منذ عام /١٥٣٥/ مما دفع كلفن إلى الفرار من فرنسا إلى سويسرا. وقد واصل الملك هنري الثاني /١٥٤٧ - ١٥٥٩/ ما بدأه أبوه من اضطهاد البروتستانت بقصد القضاء عليهم واستئصال شأفتهم، فكان يأمر جنوده بمهاجمتهم وهدم منازلهم، وحدثت مذابح راح ضحيتها آلاف من البروتستانت وبلغت حركة الاضطهاد حداً لا يطاق حتى أن عدداً كبيراً من زعماء الحركة حكم

(٣٥٣) المرجع السابق (ص ١٢٤).

(٣٥٤) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٣٠).

عليه بالموت حرقا.

وقد أدت حركة البطش والاضطهاد إلى ازدياد عطف الجماهير على البروتستانت، وقد وجدت الكلفينية في فرنسا زعيما قديراً هو الأدميرال جسبار دي كوليني، الذي قاد الهوجونوت في معظم حروبهم، وكانت أسرة /جيز/ تستأثر بنفوذ كبير في عهد الملك فرانسوا الثاني إذ كانت الملكة الأم /كاترين دي مديتشي/ تشجع تلك الأسرة باعتبارها حامية للكاثوليكية، وقد تعرض الهوجونوت Huguenots لمذبحة كبيرة دبّرها أعوان أسرة /جيز/ بقصد القضاء عليهم، فقد حدث أن/فرانسوا دي جيز/ كان يمرّ في طريقه إلى باريس بمدينة /فاسي/ وهي مدينة مسوّرة حصينة، فشاهد جماعة من الهوجونوت يقيمون صلاتهم في مكان فسيح، فأقحم عليهم جنوده الذين اشتبكوا معهم وعندئذ أمر الدوق جيز بإطلاق النار عليهم وتذبيحهم، ونتج عن ذلك مصرع عدد كبير من الهوجونوت. وكان لتلك المذبحة آثار خطيرة عندما ذاع خبرها بين الكاثوليك في الأقاليم إذ قام هؤلاء من جانبهم بمثل ما قام به دوق جيز وهاجموا الهوجونوت أينما وجدوهم ولقي حتفه منهم الكثيرون(٣٥٥).

مذبحة سان برتلميو

خشيت الملكة الأم كاترين دي مديتشي ازدياد نفوذ الهجونوت في فرنسا ذلك أن الملك شارل التاسع كان قد بلغ الحادية والعشرين من عمره، وكان مستاءاً من طول حرمانه من سلطته كملك لأن والدته كاترين كانت تستأثر بالسلطان كله. كما كان يحقد على الملك فيليب الثاني الذي يدعي لإسبانيا زعامة الكاثوليكية في أوروبا، فصحّت عزيمته على كسب الهجونوت إلى صفه بإظهار عطفه عليهم وعلى قائدهم كوليني Coligny ، وأراد أن يتوّج هذه الحركة بالرغبة في تزويج أخته من زعيم لهم هو هنري نافار، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك وقد أدركت الملكة أن الوقت قد

(٣٥٥) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٤٧-١٤٨-١٤٩-١٥١).

حان للتخلص من الموقف الذي يهدد نفوذها، وقررت أن تقضي على الهجونوت وعلى زعيمهم في عملية واحدة، وبدأت في قائدهم كوليني. ففي شهر أغسطس ١٥٧٢ كانت باريس مكتظة بالهجونوت الذين أتوا من كل مكان للاحتفال بعقد زواج هنري نافار على الأميرة مرجريت شقيقة الملك، وكان كوليني على رأس المحتفلين بتلك المناسبة، وبينما كان يغادر القصر هاجمه كاثوليكي متعصب بتدبير من الملكة وحاول اغتياله، إلا أن كوليني نجا من الموت ولم يصب إلا بجرح غير مميت، ولما افتضحت المؤامرة أصبح مركز الملكة دقيقاً وحرجا، ولاسيما أن باريس كانت مزدحمة بجماهير الهجونوت بمناسبة الزواج الملكي، وقد أعطت الملكة الإشارة للقيام بالمذبحة في فجر ٢٤ أغسطس [٣٥٦]، وهو عيد القديس سان برثلميو St.Bartholomew، وبدأت عملية القتل الجماعي ضد الهجونوت عندما أعطى هنري دوق جيز كلمة إلى ضباط الميليشيا التابعين له بأن على رجالهم حالما يسمعون ناقوس الخطر يقرع أن يذبحوا كل هجونوتي يعثرون عليه، أما أبواب المدينة فتقفل لتمنع الهاربين من الهروب [٣٥٧]، وبينما كان الظلام لا يزال مخيماً قاد جيز نفسه ثلاثمئة جنديٍ إلى المبنى الذي ينام فيه كوليني، واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كوليني راكعاً يصلي، وطعنه جندي بسيفه وشقّ صدره، وطعنه آخرون ثم قذف من النافذة وهو حيٌّ بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمي جيز، وبعد أن تأكد جيز من موت كوليني أمر رجاله أن ينتشروا في باريس ويذيعوا هذه العبارة "اقتلوا! اقتلوا! هذا أمر الملك". وفصل رأس كوليني عن جسده وأرسل إلى روما. وأما الجسد فسلّم للجماهير التي مثّلت به تمثيلا وحشيا، فقطعت الأيدي والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع، وعلقت بقيّته من عرقوبيه، واغتبطت الجماهير بإطلاقٍ دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل، فاقتنصت وجرحت من الهجونوت عددا يتفاوت بين الألفين وخمسة آلاف، واقتحم كل بيت اشتبه في إيوائه الهجونوت وفتّش، وجرّ الهجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت الأجنّة من

---

(٣٥٦) المرجع السابق (ص ١٥٥).

(٣٥٧) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ٢٩-٣٠ (ص ١٩٧).

بطون أمهاتهم القتيلات وهشموا، وما لبث الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع، وأخذ الصبية يلعبون ألعابهم فوقها، ودعي النبلاء الضباط الهجونوت الذين أنزلوا قصر اللوفر باعتبارهم حاشية ملك نافار إلى الفناء وضربوا بالنار واحداً بعد الآخر عند وصولهم[٣٥٨]. ولم تقتصر المذبحة على باريس بل هوجم الهجونوت في الأقاليم أيضاً[٣٥٩]. وأغضى الكاثوليك عموماً عن المذبحة باعتبارها انفجاراً للغيظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهجونوت للكاثوليك، وبعث الممثل البابوي في باريس رسالة الى روما كتب فيها يقول: "أهنئ قداسة البابا من أعماق قلبي على أن الله جلّ جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شؤون هذه المملكة توجيهاً غاية في التوفيق والنبل، وأن يبسط حمايته على الملك والملكة الأم حتى يستأصلا شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص"[٣٦٠]. وحين وصل النبأ إلى روما أضيئت كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو وقرعت الأجراس في ابتهاج وحضر جريجوري الثالث عشر وكرادلته قدّاساً مهيباً لشكر الله على هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم. وأمر البابا بضرب ميدالية خاصة تذكاراً لهزيمة الهجونوت أو ذبحهم[٣٦١]. وأما كاترين فقد خرجت من المقتلة مبتهجة منتعشة، لقد خضع لها الملك الآن من جديد[٣٦٢].

فرنسا بعد المذبحة

كانت المذبحة صدمة لآمال البروتستانت لا في فرنسا وحدها، بل في أوروبا كلها، على أن المذبحة لم تزد من بقي من الهجونوت إلا تحمّساً وإصراراً وقرروا ألاّ

---

(٣٥٨) المرجع السابق - مجلد ٢٩-٣٠ (ص ١٩٧).

(٣٥٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٥٦).

(٣٦٠) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٩-٣٠ (ص ٢٠١).

(٣٦١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٩-٣٠ (ص ٢٠١).

(٣٦٢) المرجع السابق - (ص ٢٠٢).

يستسلموا لليأس مصممين على مواصلة الكفاح في سبيل عقيدتهم ودينهم حتى آخر رجل منهم. وفي عام ١٥٧٤ مات الملك شارل التاسع وخلفه أخوه هنري الثالث، وقد تغيّر الموقف في عهد هذا الملك، إذ تمكن هنري نافار من الفرار من القصر وعاد إلى عقيدته البروتستانتية ليواصل الكفاح مع الهجونوت ضد الإرهاب الكاثوليكي والقوات الملكية. وقد تشكلت في تلك الأثناء العصبة الكاثوليكية المقدسة، التي كان هدفها القضاء على البروتستانت في فرنسا، وراحت هذه العصبة تنعي على الملك والملكة الوالدة تساهلهم مع الهجونوت. وكان أهم ما يشغل بال هذه العصبة الكاثوليكية هي مسألة وراثة العرش الفرنسي في المستقبل[٣٦٣]، ذلك أن هنري الثالث لم يكن له ابن يرث العرش، والوريث التالي للعرش هو هنري نافار من أسرة بوربون وزوج أخت الملك، وقد اغتال أحد الكاثوليك الملك هنري الثالث في عام/ ١٥٨٩/ وأضحى وريث العرش الوحيد هو هنري نافار. إلا أن هذا لم يستطع أن يتربع على عرش فرنسا حتى تخلى عن مذهبه البروتستانتي وعاد إلى الكاثوليكية. وقد أثبت الملك الجديد الذي أضحى اسمه هنري الرابع، أنه جندي شجاع وسياسي ماهر[٣٦٤]، وكان اهتمامه منصباً على إنهاء الخلاف المسلح بين الكاثوليك وبين أنصاره القدماء من البروتستانت، لذلك دعا إلى سياسة التسامح وشرع في مفاوضة زعماء الهجونوت ومساومتهم على قبول تسوية تضمن لهم حرية العبادة، وأخيراً أصدر في عام /١٥٩٨/ مرسوم /نانت/ وقد منح هذا المرسوم حرية العبادة في قلاع النبلاء أو الأشراف، وسمح للمدن التي يتضح أن أغلبية سكانها العظمى من البروتستانت أن تزاول العبادة طبقاً لمذهبهم، ومنح المرسوم البروتستانت التمتع بالحقوق المدنية والحماية القانونية التي يتمتع بها الكاثوليك وأن يكونوا معهم على قدم المساواة في التعيين بالوظائف العامة والالتحاق بالجامعات الكاثوليكية، وحرصاً على سلامتهم وأمنهم مُنحوا حق وضع حاميات بروتستانتية وقيادة بروتستانتية في

(٣٦٣) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٥٦).

(٣٦٤) المرجع السابق (ص ١٥٨).

نحو مئة مدينة حصينة وكان أكبر هذه القواعد في لاروشيل ومونبلييه وسومير. هكذا انتزع الهجونوت بموجب مرسوم نانت امتيازات جعلت لهم دولة هجونوية صغيرة داخل الدولة الفرنسية وصار لهم الحق في عقد مجلس يمثلهم وينعقد مرة كل ثلاث سنوات للبحث في شؤونهم ورعاية مصالحهم[٣٦٥].

اضطهاد البروتستانت في عهد لويس الرابع عشر

لم يتوقف الاضطهاد ضد الهجونوت بعد اغتيال هنري الرابع من قبل كاثوليكي متعصب عام /١٦١٠/ إذ خلفه ابنه لويس الثالث عشر وكان هذا قاصرا، فعُيّنت له أمه ماري دي مديتشي وصية عليه، ودخل في خدمة القصر الملكي آنذاك الكاردينال ريشليو الذي تولى الوزارة عام ١٦٢٤، ومنذ ذلك الحين بقي ثمانية عشر عاماً كان أثناءها الحاكم الحقيقي في فرنسا والمحرك الأكبر للسياسة الأوروبية[٣٦٦]. وقد وجد الملك فيه بالضبط تلك الصفات التي افتقدها في نفسه: الذكاء الموضوعي، والهدف الواضح وصلابة الغايات ومرونة الوسائط[٣٦٧]. وقد جعل ريشليو أكبر همه هو إعادة الوحدة السياسية إلى فرنسا وكان هذا يعني القضاء على استقلال الهجونوت في مدنهم الممنوحة لهم بموجب مرسوم نانت. فاستولى بالقوة على لاروشيل وعلى غيرها من المدن الهجونوتية، وأعاد سلطة الملك عليك وعوضاً من أن يلغي مرسوم نانت إلا أنه ثبّته بمرسوم يسمّى (مرسوم العفو) عام ١٦٢٩ حيث فتحت بموجبه وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة، واستطاع ريشليو من خلال ذلك أن يحوّل الهجونوت عن الثورة إلى الانصراف في هدوء إلى التجارة والصناعة حيث أصابوا من التوفيق والفلاح ما لم

---

(٣٦٥) المرجع السابق (ص ١٦٠).

(٣٦٦) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٤٠).

(٣٦٧) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٩-٣٠ (ص ٢٤٢).

يصيبوه في أي وقت مضى[٢٦٨].

وظلت الأمور سائرة في فرنسا على هذا النحو إلى أن تربع لويس الرابع عشر على العرش عام ١٦٤٣، وقد كان هذا الملك محاطاً بعصبة من الكاثوليك المتعصبين الذين أوغروا صدره ضد الهجونوت، وقد اقتنع الملك بالشعار الذي يقول: "ملك واحد، وقانون واحد، و ديانة واحدة"، لذلك فقد عقد العزم على القضاء على الهجونوت الذين يهدّدون - في نظره - الدولة الفرنسية. وبدأت مآسي الهجونوت عندما أصدر الملك مرسوماً يقضي بحرمانهم من مناصب الحكومة ومصادرة صحفهم ومدارسهم وتحويل التعليم فيها إلى مبادئ الكاثوليكية، وكذلك تخويل المدارس حق جمع أطفالهم وتسليمهم لرجال الدين والمدرسين الكاثوليك لغرس مذهب الدولة في نفوسهم منذ الصغر[٢٦٩]. وفي عام ١٦٦٩ تقرر اعتبار هجرة الهجونوت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع في قبضة السلطات ومصادرة بضائعه، وكان كل من ساعد هجونوتياً على الهجرة عرضة للحكم بتشغيله في سفن الأسرى مدى الحياة[٢٧٠]. وفي سنة ١٦٧٧ سمح لويس بوقف (صندوق للمهتدين) تصرف منه مبالغ لكل هجونوتي يقبل اعتناق الكاثوليكية، وضماناً لثبات المهتدين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً عام ١٦٧٩ يقضي بنفي جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم. وفي عام ١٦٨٢ أصدر خطاباً - وأمر جميع الرعاة البروتستانت بأن يقرؤوه على شعبهم - يعدّ فيه الهجونوت "بويلات لا تقاس بما سبقها هولاً وفتكاً". وخلال السنوات الثلاث التالية أغلقت ٥٧٠ كنيسة من كنائس الهجونوت البالغ عددها ٨١٥ وهدّم الكثير منها وحين حاول الهجونوت العبادة على أنقاض كنائسهم المهدمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمردين على الدولة[٢٧١]. وأنكرت مدن

(٢٦٨) المرجع السابق (ص ٢٤٥).

(٢٦٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٧٠).

(٢٧٠) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١ - ٣٢ (ص ١١٣).

(٢٧١) المرجع السابق (ص ١١٤).

وأقاليم - كمونبيلييه ونيم وبيارن - مذهبها البروتستانتي وتظاهر أغلب الهجونوت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر. ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدّين القوانين وأبلغ لويس أنه لم يبق في فرنسا غير قلّة قليلة من الهجونوت، وأن مرسومٍ نانت أصبح بلا معنى. وفي عام ١٦٨٥ ألغى الملك مرسوم نانت باعتباره مرسوما لا لزوم له لأن فرنسا صارت تدين كلها بالكثلكة، فحظر منذ ذلك التاريخ على الهجونوت إقامة شعائرهم أو فتح مدارسهم، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية، وأمر رجال الدين الهجونوت بالرحيل عن فرنسا في غضون أربعة عشر يوما[٣٧٢]، وقضى بأن يعمّد جميع الأطفال المولودين في فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربّوا على المذهب الكاثوليكي وتعرض الهجونوت المعاندون للنهب والتعذيب، ومن بين الهجونوت الذي سكنوا فرنسا في ١٦٦٠ والبالغ عددهم ١,٥٠٠,٠٠٠ فرّ نحو ٤٠٠,٠٠٠ في العقد الذي تخلله إلغاء مرسوم نانت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم[٣٧٣]، وقد هلل معظم الفرنسيين للقضاء على الهجونوت باعتباره قمة إنجازات الملك، وقالوا إن فرنسا أصبحت الآن في النهاية بلداً كاثوليكياً موحداً[٣٧٤]. ولكن فرنسا خسرت كثيراً من ا لهجرات الكثيفة للهجونوت إذ كان معظم من هاجر من مهرة الصناع والحرفيين فحرمت البلاد من أهم طائفة كانت مصدر ثروتها الصناعية والاقتصادية[٣٧٥].

---

(٣٧٢) المرجع السابق (ص ١١٥).

(٣٧٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢١ - ٢٢ (ص ١١٦).

(٣٧٤)المرجع السابق (ص ١١٧).

(٣٧٥) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٧٠).

الإصــلاح الديني فى إنكلترا

ظهور الإصلاح الديني: كان الإصلاح الديني في إنكلترا هادئا، بعكس ما كان عليه الحال في غيرها من بلدان أوروبا، ذلك أن الملك هنري الثامن /١٥٠٩-١٥٤٧/ استطاع أن يفصل الكنيسة الإنكليزية عن كنيسة روما بعد أن أشار عليه أحد الأساقفة وهو /توماس كرمويل/ بذلك. وقد اقتنع هنري بهذا الحلّ واعتبر نفسه زعيماً من زعماء الإصلاح الديني، وكان يهدف من عمله هذا إلى توحيد السيادة على البلاد، إذ كانت تقتسم السيادة قبل ذلك سلطتان، سلطة الكنيسة ممثلة في شخص البابا رئيسها الأعلى، وسلطة الملك، وبالتخلص من سيادة الكنيسة البابوية يستطيع تحقيق مآربه المختلفة.

وهكذا ظهر الإصلاح الديني في إنكلترا بشكل ديني وسياسي معا، وقد ترك الشعب أمر اختيار المذهب الديني لملكه وخضع لما يصدره من قوانين دينية. وقد عيّن الملك /توماس كرمويل/ نائباً عنه في الأمور الدينية، فأخذ الأخير يعمل على محو الأديرة من البلد ومصادرة أراضي الكنيسة، وهكذا استطاع الملك أن يحقق استقلال الكنيسة الإنجليزية ويكون هو رئيسها الأعلى، وأن يملأ خزائنه بالأموال التي كانت تتدفق من إنجلترا على كنيسة روما، وأن يصبح صاحب السلطان الأوحد على رعاياه من دينيين وعلمانيين [٢٧٦]، وقد خلف الملك هنري الثامن بعد وفاته ابنه الملك إدوارد السادس/١٥٤٧- ١٥٥٣/ وكان هذا الملك لا يزال قاصراً في العاشرة من عمره، فأقيم له خاله /إرل هرتفورد/ وصياً. وقد منحه الملك لقب /دوق سُمَرْسِت/ Duc de Sommerset واعتبر دوق سمرست صاحب الحماية على المملكة،

---

(٢٧٦) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٨٩).

وقد كان سمرست على المذهب البروتستانتي ولذلك ألغى كل القوانين التي اضطهدت البروتستانت، ثم تحول لمناهضة الكاثوليك وأغلق كثيراً من كنائسهم، وحوّل دخلها إلى خزينة الملك، وكانت نشأة الملك بروتستانتية وفي عهده سارت حركة الإصلاح الديني شوطاً بعيداً ومن ذلك إصدار كتاب الصلوات العامة باللغة الإنكليزية[٢٧٧]، وهو الكتاب الذي طبع الكنيسة البروتستانتية بطابع قومي وجعل الفردية وحرية الاعتقاد أساساً للبروتستانتية الإنكليزية.

ماري الدموية

تولّت الملك بعد وفاة إدوارد السادس أخته الملكة /ماري/ ١٥٥٢- ١٥٥٨ وكانت هذه الملكة شديدة التديّن والتمسّك بالكاثوليكية، ولذلك كان أول قرار اتخذته هو إعادة العلاقات مع الكنيسة في روما. ثم ألغت جميع القوانين الدينية التي سنّت في عهد إدوارد السادس، وكذلك فقد تزوجت من فيليب الثاني ملك إسبانيا الذي كان من أشد الملوك تعصباً للكاثوليكية[٢٧٨]. وقد وقعت الملكة ماري تحت تأثير مستشاريها الذين أشاروا عليها بضرورة معاقبة الهراطقة. فقد كان من رأي الأسقف جاردنر أن الرحمة بالأمة تتطلب إعدام الخونة[٢٧٩]. لذلك مالت الملكة إلى سياسة الاضطهاد ضد البروتستانت وارتكبت الفظائع بحقهم من سجن وتقتيل وإحراق، وكان حكمها حقبة خطيرة من الاضطهاد الديني لم يسبق لها مثيل في التاريخ الإنجليزي. وقد كان زواجها من فيليب شؤماً على البلاد، فلم يكن هناك من يرضى أن تصبح إنجلترا تابعة لإسبانيا وعندما جاء فيليب إلى إنجلترا لفظته البلاد، فغادرها إلى الأراضي المنخفضة، إلا أنه عاد إليها ليحرّض الملكة ماري للاشتراك معه في الحرب ضد فرنسا. ولبّت ماري الدعوة وكانت العاقبة وخيمة على

(٢٧٧) المرجع السابق (ص ١٩٢).

(٢٧٨) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٤).

(٢٧٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٥- ٢٦ (ص ١٧٨).

البلاد[٣٨٠]، ذلك أن الإنجليز كانوا قد فقدوا في هذه الحرب ميناء /كاليه/Calais وعزت الملكة الفشل في هذه الحرب إلى غضب الله عليها لترفقها بالهرطقة فتشددت بعد ذلك في الاضطهاد. وافتتح مستشارها الأسقف جاردنر عهد الإرهاب بأن استدعى إلى محكمته الأسقفية ستّة من رجال الإكليروس سنة /١٥٥٥/ كانوا قد رفضوا قبول العقيدة الكاثوليكية، وارتدّ واحد منهم وأحرق أربعة منهم جون هوبر وأسقف جلوسستر وورسستر الذي أقيل ٤ - ٨ فبراير سنة ١٥٥٥ وقد أصيب جاردنر بانتكاس في الشعور بعد تنفيذ هذه الأحكام بالإعدام فلم يشترك بعد ذلك بالاضطهاد، وانهارت صحته ومات في العام نفسه، ونصح فيليب وكان لا يزال في إنجلترا بالاعتدال، وعندما أدان الأسقف بونر ستة وحكم عليهم بالحرق اعترض السفير الإسباني على "هذا التهور البربري"[٣٨١]. فأوقف بونر الأحكام لمدة خمسة أسابيع، ثم أمر بتنفيذها وقد أنّبه مجلس الملكة لأنه لا يظهر حماسة كافية في مطاردة الهرطقة وعرض على كل هرطيق منحه عفواً كاملاً إذا ارتدّ عما يقول، وكثيراً ما أضاف وعداً بتقديم مساعدة مالية أو عمل صريح، ولكن عندما كانت هذه الاغراءات تفشل كان يجيز الحكم بشراسة، وكانت توضع عادة حقيبة ممتلئة بالبارود بين ساقي المحكوم عليه حتى تؤدي ألسنة اللهب إلى موت سريع، وكان معظم القتلى عمالاً بسطاء تعلموا تلاوة الكتاب المقدس وشجعوا على العمل بالتفسير البروتستانتي له إبان الحكم السابق[٣٨٢].

وفي عام /١٥٥٦/ أعدم ٣٠٠ شخص، وكلما مضت المحرقة قدماً اصبح من الواضح أنها كانت خطأ، واستمدت البروتستانتية القوة من قتلاها كما فعلت المسيحية في بواكير عهدها وانزعج كثير من الكثالكة في عقيدتهم وشعروا بالخزي من ملكتهم بسبب ما كابده الضحايا من آلام وما أظهروه من جلد. وقد أطلق على

(٣٨٠) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٤).

(٣٨١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٥- ٢٦(ص ١٨٤).

(٣٨٢) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٥-٢٦ (ص ١٨٥).

الأسقف بونر اسم /بونر الدموي/ لأن أسقفيته شهدت معظم ما نفذ من أحكام الإعدام، ووجد المئات من البروتستانت الإنجليز ملجأ في فرنسا الكاثوليكية وسعوا هناك إلى وضع نهاية للعهد الحزين. وسارت ماري إلى نهايتها المحتومة، وكانت تعتقد حتى آخر لحظة في حياتها أنها بالقتل إنما تؤدي فرائضها نحو العقيدة التي أحبتها كمجال حيوي لبقائها[٣٨٣].

الملكة اليزابيث وانتعاش البروتستانتية في إنكلترا

في السابع عشر من نوفمبر ١٥٥٨ ركض أحد الرسل إلى فناء القصر الملكي في هاتفيلد وأعلن إلى اليزابيث تيودور أنها أصبحت ملكة على إنجلترا، إن أختها غير الشقيقة الملكة ماري ذات السمعة التي يرثى لها قد وافاها الأجل المحتوم. وفي يوم السبت التاسع عشر من نوفمبر، احتشد كبار اللوردات والسيدات وأعضاء مجلس العموم من جميع أنحاء المملكة في قصر هاتفيلد، ليقسموا يمين الولاء للملكة، ويلتمسوا في هذه المناسبة غنما[٣٨٤]، وقد اشتهرت اليزابيث بقوة الإرادة والمشاركة الفعلية في حكم البلاد واستطاعت أن تطبع إنجلترا بالطابع البروتستنتي على الرغم من أنها لم تتعمّق في دراسة أيّ من المذهبين[٣٨٥]، سواء الكاثوليكي أم البروتستانتي، وكان ثلاثة أرباع إنجلترا آنذاك من الكاثوليك، وكان معظم القضاة والحكام وكل رجال الدين من الكاثوليك، وكان البروتستانت يتركزون في الثغور الجنوبية والمدن الصناعية، وكانت لهم الغلبة في لندن حيث تضخّم عددهم بسبب اللاجئين إليها من وجه الظلم في القارة، وكانت روح البروتستانت أشد حماساً وغيرة من الكاثوليك[٣٨٦]، وحامت الشبهات في حرية الفكر حول اليزابيث نفسها.

(٣٨٣) المرجع السابق (ص ١٩١).

(٣٨٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨(ص ٢).

(٣٨٥) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٥).

(٣٨٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٢٠).

وقد اعتبرت اليزابيث أن شيئاً من الدين وشيئاً من القوة، وشيئاً من الوازع الأخلاقي، كل أولئك أمور لا يمكن الاستغناء عنها من أجل النظام الاجتماعي والاستقرار في الدولة. وقد تلاعبت بآمال زعماء الكاثوليك في احتمال أن يسكبوها في مذهبهم العام، وخشيت أن تعقد أواصر السلام مع الكنيسة لأن هذا كان يحمل في طياته الخضوع للبابا. وارتابت في الكاثوليكية على أنها قوة أجنبية يمكن أن تؤدي بالإنجليز إلى وضع الإخلاص للكنيسة فوق ولائهم للملكة، وحرّضتها قوى كثيرة على استكمال الإصلاح الديني الذي بدأه والدها، وأغراها مستشارها وليم سيسل Cecil بأن تجعل من نفسها زعيمة لأوروبا البروتستانتية، وكان أول برلمان في عهدها ٢٣ يناير - ٨ مايو سنة ١٥٥٩ بروتستانتياً بأغلبية ساحقة، وتمت الموافقة على الاعتمادات التي طلبتها دون تحفظ أو إبطاء، وصدر قانون التنسيق الجديد/١٥٥٩ / وبمقتضاه أصبح كتاب كرامر للصلوات العامة - الذي صدر سنة/١٥٥٢/ - وبعد مراجعته هو قانون الطقوس الإنجليزية[(٣٨٧)]، وقد عبّر ذلك القانون عن بعض التقاليد والطقوس بما لا يتنافى كثيراً مع الكاثوليكية وحدّد الرأي في مسألة القربان بالجمع بين الوجود الحقيقي للقربان وبين اعتباره حفلة تذكارية ولإسداء الحمد والشكر، واعتبر زواج القسيس شرعياً مع عدم تشجيعه، كما طلب من القساوسة أن يعتدلوا في اختيار ملابسهم بحيث تكون متواضعة[(٣٨٨)]. كما ألغى القداس وطلب إلى الإنجليز كلهم حضور صلوات يوم الأحد في الكنيسة الانجليكانية، أو دفع غرامة قدرها شلن لمعونة الفقراء[(٣٨٩)].

وفي ٢٩ أبريل ،١٥٥٩ صدر قانون السيادة الجديد الذي نصّ على أن تكون اليزابيث الحاكم الأعلى لإنجلترا في المسائل الروحية والزمنية على السواء، وبذلك فقد أصبح نظام الكنيسة الانجليكاني كاثوليكي المظهر، بروتستانتي العقيدة، ولم

---

(٣٨٧) المرجع السابق (ص ٢٤).

(٣٨٨) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٦).

(٣٨٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧- ٢٨ (ص ٢٤).

تأت سنة ١٥٩٠ حتى كانت كل الكنائس الإنجليزية بروتستانتية. وزعمت أليزابيث أنها لم تضطهد حرية الرأي، فقالت إن لكل إنسان أن يتمتع بحرية الفكر وحرية العقيدة كما يشاء، وأكد لها سيسل "أن هذه الدولة لن تستشعر الأمان والاطمئنان ما دام فيها تسامح نحو عقيدتين"[٣٩٠]، لذلك فقد اضطهدت الكاثوليك، فقد كان محرماً عليهم - ولو أنهم كانوا لا يزالون يشكلون الأغلبية - أن يقيموا الصلوات الكاثوليكية أو يكون لهم أدب كاثوليكي، وحُطمت الصور المقدسة في الكنائس بأمر الحكومة، كما أُزيلت المذابح وخضع معظم الكاثوليك للتعليمات الجديدة في حزن وأسى، ولكن عدداً كبيراً منهم آثر دفع الغرامة على حضور الطقوس الانجليكانية.

وجمع المجلس الملكي نحواً من خمسين ألفاً من هؤلاء (العصاة المتمردين) في إنجلترا /١٥٨٠/ وشكا الأساقفة الانجليكانيون إلى الحكومة من أن القداس كان يقام في بيوت خاصة، وأن الكاثوليكية بدأت تكون عبادة عامة، وأنه كان من الخطر في بعض الجهات المتحمسة أن يكون المرء بروتستانتيا، ووبّخت اليزابيث رئيس الأساقفة باركر على تراخيه /١٥٦٥/ ومن ثم طبقت القوانين بشكل أشد صرامة، وأودع السجن الكاثوليك الذين حضروا القداس في كنيسة سفير إسبانيا، وفتشت البيوت في لندن، وطلب إلى الحكام أن يعاقبوا كل من يوجد في حوزته كتب المذهب الروماني الكاثوليكي[٣٩١].

وقد أصدر البابا /بيوس الخامس/ عام /١٥٧٠/ مرسوماً لم يحرم اليزابيث من الكنيسة فحسب، بل أحلّ رعاياها من الولاء لها وحرّم عليهم الامتثال لتنبيهاتها وأوامرها وقوانينها. وقد وضعت نسخة منه بطريقة سرية على باب مقر الأسقف البروتستانتي في لندن وسرعان ما كشف المجرم وأُعدم[٣٩٢]. وقد واجه وزراء الملكة

(٣٩٠) المرجع السابق (ص ٢٥).

(٣٩١) المرجع السابق (ص ٢٦).

(٣٩٢) المرجع السابق (ص ٢٧).

هذا المرسوم بأن طلبوا إلى البرلمان سن قوانين أشدّ صرامة ضد الكاثوليك، وأصدر البرلمان /١٥٨١/قانوناً ينصّ على أن الارتداد إلى الكاثوليكية سوف يعاقب بتهمة الخيانة العظمى، وأن أي قسيس يقيم قداساً يعاقب بغرامة قدرها مائتا مارك مع السجن لمدة عام، وأن من يمتنع عن حضور الصلوات الانجليكانية يعاقب بدفع عشرين جنيهاً في الشهر، وهذا يكفي لإفلاس الناس(٣٩٣) وكان العجز عن دفع الغرامة يستتبع الاعتقال ومصادرة الأملاك، وسرعان ما امتلأت السجون بالكاثوليك إلى حد أن القلاع القديمة استخدمت كسجون، وساد التوتر كل الجوانب(٣٩٤)، ولم يكن هناك مفرّ من الاحتكاك بين البروتستانت والكاثوليك على الصعيد الدولي، فانحازت اليزابيث إلى البروتستانت تؤيدهم في الأراضي المنخفضة والى الهجونوت تؤيدهم في فرنسا. وفي مقابل ذلك عمد الملك الإسباني فيليب إلى التدخل في شؤون ايرلندا والعمل على إثارتها ضد الحكم الإنجليزي، وكانت اليزابيث حريصة على استقلال البلاد والميل إلى السلام، ولكن المنافسة التي استمرت بين إنجلترا وإسبانيا في أواخر عهد الملكة اليزابيث لم تترك منفذاً للسلام بين البلدين، فبينهما خلاف ديني شديد وصراع على التجارة وامتلاك المستعمرات في أمريكا، وبدأ الاحتكاك بتأييد فيليب الثاني لحقوق الملكة ماري ستيوارت في عرش إنجلترا ومساهمته في تدبير مؤامرة لاغتيال اليزابيث لتحلّ ماري ستيوارت محلها.

وأخيراً قرر فيليب غزو إنجلترا، ونفّذ عزمه فجهز أسطولاً ضخماً مؤلفاً من ١٥٠ سفينة نقل وسفينة حربية أطلق عليه اسم /الأرمادا/ وكان على الإنجليز أن يواجهوا الخطر المقبل بما يستطيعونه من قوة دفاع. وكان الأسطول الإنجليزي يتكون من عدّة سفن صغيرة الحجم ولكن قيادته كانت بين قواد بحريين أكفاء، وأخذت السفن الحربية الإنجليزية تقوم بهجمات موفقة على الأسطول الإسباني

---

(٣٩٣) المرجع السابق (ص ٣٠).

(٣٩٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣٠).

فتشتت الأرمادا وانهزم الأسبان بعد معركة كبرى، ومن نجا من سفن الأسطول حطّمته العواصف الشديدة التي هبّت على بحر الشمال والمحيط الأطلنطي، ولم يعد من الأسطول الإسباني الضخم إلى شواطئ إسبانيا سوى /٥٤/ سفينة غير صالحة للقتال[٢٩٥]، وكان لهزيمة الأرمادا أثرها على كل شيء تقريباً في مدنية أوروبا الحديثة. فكانت بداية تغيير حاسم في تكتيك البحرية، وبقيت البروتستانتية وقويت وتضاءل شأن الكثلكة[٢٩٦]، وضاعت من ملك إسبانيا فرصة محاربة البروتستانتية في إنجلترا، بل لقد أكملت هزيمة الأرمادا عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد بروتستنتية[٢٩٧].

شارل الأول وبذور ثورة البيوريتانيين

تولى الملك شارل الأول العرش بعد موت أبيه جيمس الأول عام ١٦٢٥ وفي عهد هذا الملك ازداد التعصب والاجتهاد الديني وظهر التعصب بجلاء عندما اختار الملك وليم لود Wiliam Laud ليكون مستشاره في الشؤون الدينية، فقد كان معجباً بآرائه ولذلك عيّنه رئيساً لأساقفة كانتربري عام ١٦٣٣ ومنحه سلطاناً مطلقاً في ملاحقة كل من تسوّل له نفسه الخروج على كنيسة الدولة وهي الكنيسة الانجليكانية. وقد توهم لود أن باستطاعته صدّ الزحف البيوريتاني الكاسح على كنيسة الدولة عن طريق استخدام القسر في فرض الوحدة الدينية على الشعب الإنجليزي[٢٩٨].

وبدأ لود يطبق نظرياته وآرائه، فحاول إجبار رجال الدين على استعمال كتاب الصلوات ودفع الشعب الإنجليزي إلى قبول طقوس دينية كان الناس عندئذ يعتقدون أنها تميل نحو طقوس الكنيسة الكاثوليكية، وفرض عقوبات على المعارضين

(٢٩٥) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٨).

(٢٩٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧ - ٢٨.

(٢٩٧) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٨).

(٢٩٨) رمسيس عوض - الإلحاد في الغرب (ص ٧٣).

الذين رفضوا قبول تعليماته، فكل من كان يمتنع من القساوسة عن العمل بتقاليد الكنيسة الرسمية كان يحاكم أمام المحكمة العليا. وكان بعضهم يحرم من أرزاقه أو يحكم عليه بالجلد في بعض الأحيان وكان كل ذلك سبباً لفرار أعداد كبيرة من البيوريتانيين الذين هاجر بعضهم إلى هولندا والآخرون إلى أمريكا(٣٩٩). وأما من بقي من هؤلاء فقد صمّم على الثورة على الملك، وقد ارتقى الملك شارل الأول على العرش في وقت بدأت إنجلترا تشهد فيه تطورات اقتصادية وقد تمثلت هذه التطورات في نمو ثروة البورجوازية - أصحاب المصانع والمحامون والأطباء - ومطالبتها بتمثيل سياسي يتناسب مع قوّتها الاقتصادية، كما أن النظام الاقتصادي كان يغيّر من عام لعام قاعدته ونقطة ارتكازه من الأرض الثابتة إلى المال المتحرّك(٤٠٠)، وذلك عندما بدأت الصناعة تستخدم رؤوس الأموال الضخمة وتستقطب اليد العاملة.

وقد ازدادت الفروق الطبقية نتيجة لصعود البورجوازية فكان الشمال زراعياً بأغلبية ساحقة، وكاثوليكياً ولو في الخفاء، أما لندن والجنوب فكانت تنمو فيها الصناعة والبروتستانتية بشكل متزايد. وقد أحسّ الملك باليأس والضياع في لندن بتجارها وبوجود البيوريتانيين فيها، ولقي أيضاً من النصب والتعب فوق ما يحتمل من جراء تعدد المعتقدات الدينية(٤٠١) فعملية الاجتهاد أو تكوين الرأي الفردي الذي دعا إليها كل رأي جديد حتى سادت وسيطرت، تضافرت مع انتشار الكتاب المقدس على تشجيع اختلاف الشيع والطوائف، حتى لقد أحصى أحد المؤلفين (٢٩) طائفة في عام ١٦٤١ وأحصى آخر (١٨٠) طائفة في ١٦٤٩ وفضلاً عن الانقسام بين البروتستانت والكاثوليك، كان هناك الانقسام الحادّ بين البروتستانت إلى انجليكانيين ومشيخيين وبيوريتانيين، وانقسام البيوريتانيين إلى المستقلين الذين

---

(٣٩٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٢٨).

(٤٠٠) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٢٧٧).

(٤٠١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٢٧٩).

يحلمون بالجمهورية، والكويكرز الذين كانوا يعارضون الحرب والعنف وحلف الإيمان، والمؤمنين بالعصر الألفي السعيد أو طائفة الملكية الخامسة - الذين كانوا يعتقدون أن السيد المسيح سوف يعود سريعاً ليقيم حكمه على الأرض والأنتينوميين وهم "طائفة تقول بأن الإيمان وحده - لا الامتثال للقانون الأخلاقي - ضروري للخلاص". وقد أدى تعدد الطوائف والشيع ومساجلاتها الحادة الجريئة إلى جعل بعض الناس يشكّون في جميع الصيغ المسيحية وأشكالها[٤٠٢].

وتمتعت الكنيسة الرسمية بحماية الدولة لها حماية كاملة، وكانت العقيدة والعبادة الانجليكانية إجباريتين قانونا، وشرع كبير أساقفة إنجلترا وليم لود من قصره في (لامبث) Lambeth في إعادة تشكيل الطقوس والأخلاقيات الإنجليزية[٤٠٣]، وحرم الكهنة الذين رفضوا الطقوس الجديدة من رواتبهم، أما الكتّاب والخطباء الذين نقدوها أو ارتابوا في العقيدة المسيحية أو الذين عارضوا نظام الأساقفة فكانوا يحرمون من الكنيسة ويوضعون على آلة تعذيب وحشية ذات ثقوب تقيّد فيها رجلا المذنب ويداه أو تقطع أذناه، وبلغت العقوبات الوحشية حداً فظيعا، إذ أن الكاهن البيوريتاني اسكندر ليتون Leighton الذي ألّف كتاباً يقول فيه، إن نظام الأساقفة نظام شيطاني معادٍ للمسيحية؛ حوكم أمام محكمة قاعة النجم [*] Star Chamber فقيّد بالأغلال وسجن في مكان موحش لمدة خمسة أسابيع في زنزانة شديدة البرد، مليئة بالجرذان والفئران معرّضة للثلوج والأمطار، فتساقط شعر رأسه وتقشّر جلده، وربط على الخازوق، وتلقى ستّاً وثلاثين جلدة بحبل سميك على ظهره العاري، ووضع على المخلّعة لمدة ساعتين في صقيع نوفمبر وجليده، ودمغ بسمة العار في وجهه، وشقّ أنفه وقطعت أذنه وحكم عليه بالسجن مدى

---

(٤٠٢) المرجع السابق (ص ٢٨٠).

(٤٠٣) المرجع السابق.

(*) محكمة قاعة النجم - أسسها هنري السابع عام (١٤٨٧) وهي بمثابة محكمة ذات سلطات واسعة لمراقبة تصرف النبلاء ومحاكمتهم واستخدمها شارل الأول كأداة لمعاقبة أصحاب الآراء الحرة من البيوريتانيين.

الحياة. وكذلك فقد فرضت على لودويك بوير Ludowyc Bowyer الذي كان قد اتهم لود بأنه كاثوليكي في دخيلة نفسه، غرامة ودمغ بسمة العار في وجهه، وبترت أطرافه وشوّه جسمه، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، وأيضاً عندما اتهم وليم برين وهو من غلاة الدعاة البيوريتانيين، أساقفة لود بأنهم خدم للبابا وللشيطان، وأوصى بشنق الأساقفة، فقد دمغ بسمة العار على خدّيه كليهما وقطعت أذناه وأودع السجن حتى أفرج عنه البرلمان الطويل عام ١٦٤٠[٤٠٤]. وقد أدت هذه العقوبات وغيرها إلى فرض جو من الإرهاب في إنجلترا وأجّجت الثورة في نفوس البيوريتانيين الذين كانوا يسيطرون آنذاك على مجلس العموم الإنجليزي، فحدث النزاع بين المجلس والملك.

النزاع بين شارل الأول والبرلمان

ورث الملك شارل الأول عن أبيه فكرته عن الحق المطلق للملك وسلطته في سن القوانين وتنفيذها والحكم بلا برلمان، وإلغاء القوانين التي يسنّها البرلمان، وكان البرلمان يتألف في عهد شارل من مائة من اللوردات - نبلاء وأساقفة - تمتعوا بعضوية مجلس اللوردات، وخمسمائة رجل ثلاثة أرباعهم من البيوريتانيين، انتخبوا المجلس العموم بمختلف طرق الاحتيال المالي والسياسي. وزادت جملة ثروات أعضاء مجلس العموم على ثلاثة أمثال ثروات اللوردات وتكشفت نزعة مجلس العموم في مطالبته بتطبيق القوانين المعادية للكثلكة[٤٠٥] واضطر شارل إلى جمعٍ المال لتمويل النفقات الحكومية ولتمويل الحرب مع إسبانيا، وكان كلما أراد مالاً بطريق غير شرعيٍ (أي موافقة النواب) يلجأ إلى وسائل نفّرت منه الشعب إذ كان يفرض قروضاً إجبارية على فئات التجار وأصحابٍ السفن والصنّاع وغيرهم من أفراد الطبقة الوسطى، فكانت هذه المظالم سبيلاً إلى ازدياد الثورة وخصوصاً أنه كان

---

(٤٠٤) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٢٨٥).

(٤٠٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣٠٢).

يأمر بسجن كل من يمتنع عن إقراض الملك المال المفروض عليه، وانفجر الشعب مطالباً بتحديد نفوذ الملكية بحيث لا يُسجن أحد دون محاكمة عادلة، وكان لذلك صدى قوي في البرلمان[٤٠٦] فاجتمع أعضاؤه في عام ١٦٢٨ وقرروا إعداد وثيقة سميت (ملتمس الحقوق) The petition of Rights الذي أصبح أحد المعالم التاريخية في الطريق إلى "سيادة البرلمان". وطالب النواب في هذه الوثيقة بأن لا تفرض جباية القروض والضرائب والهبات إلا بموافقة البرلمان، وأن لا يسجن أحد من الرعية سجناً تعسفيا، وكذلك المحاكمة أمام المحلفين. ووافق الملك على هذا الملتمس بشكل رسمي، وأحست لندن بأهمية هذا الاستسلام ومغزاه، وقرعت النواقيس بشكل لم يُسمع له مثيل لعدة سنوات من قبل[٤٠٧]. وخطا البرلمان خطوة أخرى، فطالب الملك بعزل دوق بكنجهام الذي كان موضع سخط الشعب منذ أيام جيمس الأول، فغضب شارل واعتبر هذا الطلب تدخلاً في "حقه الإلهي" في الحكم، وتأزمت الحالة في عام ١٦٢٩ بين الملك والبرلمان، حيث قرر الملك أن يحكم بغير برلمان، ولم يكن للبرلمان حق قانوني في الاجتماع إلا بدعوة الملك[٤٠٨]، فأمر الملك بفضّ البرلمان وغادر رئيسه مقعد الرئاسة امتثالاً لهذا الأمر، ولكن المجلس أبى أن يفضّ الاجتماع، وأرغم رئيسه على العودة إلى كرسيه[٤٠٩]. وأعلن المجلس القرار التالي في نفس الجلسة: "إن كل من يدخل في الدين بدعاً كاثوليكية، وكل من يُشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرلمان، وكل من يؤدي هذه الضريبة يعتبر عدواً للمملكة وللمصلحة العامة"[٤١٠]. إلا أن أعضاء المجلس قرروا فضّ الاجتماع عندما علموا أن جنود الملك على وشك الدخول إلى قاعة المجلس لصرفهم.

(٤٠٦) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ١٩٩).

(٤٠٧) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣٠٥).

(٤٠٨) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٠٠).

(٤٠٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣٠٦).

(٤١٠) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٢٦).

البرلمان القصير

مضت إحدى عشرة سنة لم يجتمع فيها البرلمان، وبات شارل آنذاك حراً في أن يكون حاكماً مطلقاً[٤١١]، ولكن الغضب الشعبي عليه كان قد استفحل وجاوز إنجلترا إلى اسكتلندا، ذلك أنه أزعج المشيخيين الاسكتلنديين بزواجه من كاثوليكية هي هنريتا ماريا أخت ملك فرنسا لويس الثالث عشر، كما أنه قام بمدّ سلطان الأساقفة على كنائسهم، ثم إنه لما قدم إلى اسكتلندا ليتوج عليها عام ١٦٣٣ سمح للأساقفة بإجراء الطقوس التي تكاد تكون في معظمها مراسم كاثوليكية في الكنيسة الانجليكانية - الملابس والشموع والمذبح والصليب - ولما كان الأساقفة الاسكتلنديون قد وطدوا العزم على فرض سلطانهم على المشيخيات، فإنهم وضعوا مجموعة من القواعد الطقسية التي صارت تعرف باسم (قوانين لود)، وقد أولت هذه القوانين الملك سلطة كاملة في الفصل في قضايا الكنيسة وحرمت اجتماع رجال الدين إلا بدعوة من الملك، وقصرت حق القيام بالتدريس على من يجيزهم الأسقف، ونصت على ألا يرسم قسيساً إلا من يرتضي هذه القوانين، وأقرّ شارل هذه القوانين وأمر بإعلانها في كل كنائس اسكتلندا، واحتج القساوسة المشيخيون على أن نصف الإصلاح الديني قد نسف بهذه الطريقة، وحذروا من أن شارل يمهد لإخضاع بريطانيا لروما. وثارت ثائرة الجمهور في كنسية سانت جيل في أدنبرة عند محاولة إقامة الشعائر على الشكل الجديد، وقذف بالحجارة والعصي الكاهن الذي تولى إقامة الشعائر، وبدأت الثورة في اسكتلندا[٤١٢]. وفي ٢٨ فبراير ١٦٣٣ وقع ممثلو الكنيسة الاسكتلندية وسواد الناس في أدنبرة (الميثاق الوطني) The National Covenant يؤكدون فيه من جديد مذهب المشيخية وطقوسها، ويرفضون القوانين الجديدة، وبتحريض من القساوسة أيدت اسكتلندا كلها تقريباً هذا الميثاق[٤١٣]. وحاول شارل في بادئ الأمر أن يفتح باب

---

(٤١١) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٢٦).

(٤١٢) المرجع السابق (ص ٣٠٩).

(٤١٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣١٠).

المفاوضات معهم للتوفيق أو الإقناع إلا أنه اكتشف أنه أمام أمرين، إما أن ينحني للعاصفة، ويتخلى عن فرض سياسته وإما القتال. واختار القتال[٤١٤] وحشد جيشاً قوامه ٢١ ألف جندي تعوزهم الحماسة، ساريه إلى اسكتلندا على حين جمع (الميثاقيون) قوة من ٢٦ ألف رجل ألهبهم الحماس الديني والغيرة الوطنية، وعندما تلاقى الجمعان وافق شارل على عرض القضية على برلمان اسكتلندي حر وجمعية غير مقيدة من الكنيسة. ووقعت الهدنة في ١٨ يونيه ١٦٣٩ وبذلك انتهت (حرب الأساقفة الأولى) دون إراقة دماء. واستعدّ الطرفان (لحرب الأساقفة الثانية). وفي عام ١٦٣٩ عُيّن إرل سترافورد Straford رئيساً لمستشاري الملك، ونصح الملك بحشد جيش كبير لقمع (الميثاقيين) ومواجهة البرلمان المتمرد بقوة لا قبل له بمقاومتها، ولكن الجيش الكبير يتطلب اعتمادات من العسير تدبيرها بدون البرلمان، فدعا على كره منه برلمانه الرابع، فاجتمع البرلمان في ١٣ إبريل ١٦٤٠ ولكن شارل ما لبث أن حلّه بتهمة الخيانة في ٥ مايو ١٦٤٠ ودعي هذا البرلمان (بالبرلمان القصير). وعاد شارل من جديد إلى محاولة قمع (الميثاقيين) فسار بجيشه إلى الشمال وتقدم الاسكتلنديون نحو الحدود وهزموا الإنجليز في ٢٠ أغسطس ١٦٤٠ واستولوا على شمال إنجلترا وسلّم شارل بهزيمته وعاد يائسا، فدعا مجلساً من النبلاء للاجتماع به في يورك، فنصحوه بأن سلطانه بات على شفا الانهيار، وأنه لا بد له من تسوية مع أعدائه، وللمرة الأخيرة دعا الملك البرلمان وهو أطول البرلمانات وأشدها حسما وأكثرها شؤماً في تاريخ إنجلترا[٤١٥].

البرلمان الطويل

اجتمع البرلمان في وستمنستر في ٣ نوفمبر ١٦٤٠ وكان مجلس العموم يضمّ نحو ٥٠٠ عضو هم "زهرة الطبقة العليا والعامة المتعلمين" وكان هؤلاء يمثلون ثروة

(٤١٤) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٠٢).

(٤١٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣١١).

إنكلترا أكثر مما يمثلون شعبها، ولكنهم يناضلون من أجل المستقبل ضد الماضي[٤١٦]. وما بدأ المجلس عمله حتى أثبت استقلاله بالعمل وأصبح منافساً على قدم المساواة لسلطة الملك، بل لقد شعر الملك أنه أضحى تحت رحمة البرلمان، وأعيدت أغلبية أعضاء البرلمان القصير متحفزين للانتقام. وكانت أول أعمال هذا المجلس المطالبة بمحاكمة رئيس وزراء الملك إرل سترافورد الذي وجّه له المجلس تهمة الخيانة في ١١ نوفمبر ١٦٤٠ وأمر بإيداعه السجن. وفي ١٦ ديسمبر وبعد أن أعلن المجلس أن القوانين الانجليكانية الجديدة باطلة قانونا، اتهم رئيس الأساقفة وليم لود "بالكثلكة" والخيانة، وأمر بإيداعه السجن كذلك[٤١٧]. وقد أعدم سترافورد عام ١٦٤١ ووقّع الملك بنفسه قرار الإعدام وبدأ أعضاء مجلس العموم يعملون على إزالة مساوئ العهد، وبدأوا بإصدار قرار بأن يجتمع المجلس كل ثلاثة أعوام على الأقل، حتى وإن لم يستدعه الملك، وأعلن أن البرلمان الحالي لا يحلّ إلا برغبة أعضائه ثم ألغى المجلس المحاكم الخاصة مثل محكمة غرفة النجم، كذلك ألغى المحكمة العليا التي كانت تحكم ظلماً على المعارضين للملك ولكبير الأساقفة/ لود/ ثم أصدر قرارات بإلغاء ضريبة السفن وأعلن أنها غير قانونية[٤١٨]، وقضى على الاحتكارات ومنع الملك من حق جمع رسوم الصادرات والواردات، إلا لفترات يحددها البرلمان وحده، ووافق شارل على هذه الإجراءات، و لكن البرلمان جاوز الإصلاح إلى الثورة[٤١٩]، ووسّع إعدام سترافورد هوة الخلاف في المجلس وانقسامه إلى ما عرف فيما بعد بحزبي الأحرار والمحافظين - أولئك الذين أيدوا والذين عارضوا انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان إلى حد أبعد، وقد وجد الملك في ذلك الخلاف أملاً في عودة سلطانه وممارسة سياسته القديمة، ناسياً أن الظروف

(٤١٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣١١).

(٤١٧) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣١٢).

(٤١٨) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣٠).

(٤١٩) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣١٥).

الموضوعية في البلاد قد تغيرت بحكم تزايد الثروة في أيدي طبقات جديدة انتعشت من التجارة والمهن الحرة، ولما أحسّت الأغلبية البرلمانية بما يخططه الملك ضدها صممت على فضح ما يحاك ضد البرلمان ليعرفه الشعب جميعا.

وحرّر الأعضاء احتجاجاً أطلقوا عليه اسم /الاحتجاج الأعظم/ Thegrand Remonstrance في ديسمبر١٦٤١[٤٢٠] قدّم إلى الملك. وبدأ (الاحتجاج الأعظم) بتوكيد ولاء البرلمان للتاج، ومضى يعدد بالتفصيل إساءات الملك إلى البرلمان، والأضرار التي ألحقها بالبلاد، واستعرض العيوب التي عالجتها الإصلاحات البرلمانية، واتهم الكاثوليك والأساقفة والقسم الفاسد من رجال الدين والمستشارين ورجال الحاشية الأنانيين، بالتآمر على تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية. وأشار إلى تكرار خرق (ملتمس الحقوق) وتكرار حلّ البرلمانات المنتخبة حلاً تعسفياً استبداديا، وطالب الملك بالعودة إلى عقد جمعية من علماء اللاهوت لإعادة المذهب الانجليكاني إلى ما كان عليه قبل قوانين لود، واقترح على الملك أن يعزل من مجلس الشورى كل المناوئين لسياسة البرلمان، وأن يستخدم فقط، مستشارين وسفراء ووزراء ممن يرى البرلمان مبرراً للوثوق بهم، وبدون هذا لن يستطيع الأعضاء أن يقدموا لجلالته الإمدادات اللازمة له، أو المساعدات للبروتستانت فيما وراء البحار، كما أراد جلالته. وتمهّل شارل في الرد على هذا الإنذار النهائي، فتخطاه البرلمان إلى الشعب وأمر بنشر (الاحتجاج الأعظم) ثم ردّ شارل فوافق على دعوة مجمع كنسي ليقمع كل (غزوات الكاثوليك) ورفض حرمان الأساقفة من حق التصويت في البرلمان، وأصر على حقه في أن يختار لمجلس شورى الملك أو للوظائف العامة كل من يرى أنه صالح. ثم طلب مرة أخرى اعتمادات مالية، ولكن البرلمان بدلاً من هذا اقترح (قانون الميليشيا) الذي يخوّله حق السيطرة على الجيش[٤٢١]. وقد أثار ذلك

(٤٢٠) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣١).

(٤٢١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ١١-١٢ (ص ٣٧٢).

حنق شارل وقرر أن يقضي على المجلس باستعمال القوة.

في ٤ يناير ١٦٤٢ ذهب على رأس حرسه إلى مجلس ا لعموم بقصد إرهاب المعارضين والقبض على الزعماء الخمسة الذين قادوا حركة المعارضة وتقديمهم للمحكمة بتهمة الخيانة. ودخل المجلس بنفسه للقبض عليهم فلم يجدهم، وعلمت لندن بما حدث فثارت الجماهير وتحرّج موقف الملك ورأى أن من الحكمة أن يفرّ هو وأسرته إلى الشم - ال خوف - اً من جموع الجماهير المعادية في لندن ومعظمهم من البيوريتانيين[٤٢٢].

الحرب الأهلية وظهور كرومويل ١٦٤٢ - ١٦٤٦

أصبح لا مفرّ من المواجهة بين الملك والبرلمان، ذلك أن الملك ظنّ أن بمقدوره أن يتجاوز إرادة مجلس العموم، فلا يلتفت إلى طلباته باعتبار أنها لا قيمة لها، وغاب عن علمه أن مجلس العموم يمثل الإرادة الشعبية في إنجلترا. لقد أخطأ عندما نظر إلى نفسه كحاكم مطلق لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ولم يدرِ أن قوته مصدرها الشعب لا غير، وأن هذا الشعب قد صحا ولم يعد بمقدور الملك أن يحكمه بسلطانه الإلهي. لقد أصبح الشعب واعياً لقضيته، لذلك صار من حقه أن يتساءل عن الأموال التي تجبى منه إلى أين تذهب، وصار من حقه كذلك أن يعلن عن رأيه دون خوف من جلّاد يقوده إلى المشنقة. لقد كانت إنجلترا في القرن السابع عشر كمرجل ضخم تختمر فيه كل الأفكار والمبادئ، بل لقد أفصحت الحرب الأهلية عن واقع ذاك الشعب الذي كره طغيان الملوك وتطلع إلى الحرية التي هي أثمن شيء في الوجود، فكانت الثورة تعبيراً عن تلك النقمة الشعبية العارمة التي نجحت بعد حروب مضنية في القضاء على الملكية وإعلان جمهورية إنجليزية في وقت كان سلطان الملوك يخيّم على أوروبا لا بل على العالم أجمع.

---

(٤٢٢) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣١).

كانت الحرب الأهلية نتيجة حتمية لازدياد الوعي عند الناس، وكان البيوريتانيون يتطلعون إلى إقامة حكومة دينية ديمقراطية لا يكون فيها بين الناس إلا فروق أخلاقية ودينية، ولا يكون فيها حاكم غير المسيح، ولا قانون سوى كلمة الله، وكرهوا الضرائب الباهظة التي تعول الكنيسة الانجليكانية، وشعر رجال الأعمال منهم أن هذه الكنيسة الرسمية العليا الباهظة النفقات تحلبهم وتستنزف أموالهم، وقال أحد المؤلفين إن هذه الهاوية الأسقفية تلتهم تجارة الأمة [٤٢٣].

لذلك فقد كان أنصار البرلمان في معظمهم من البيوريتانيين، وانشقت إنجلترا بشكل لم يسبق له مثيل من قبل، وكان مع الملك الشمال والكاثوليك، بينما كان الجنوب والثغور ولندن والمدن الصناعية ومعظم الطبقة الوسطى وجزء من الطبقة العليا، وعملياً كل البيوريتانيين إلى جانب البرلمان. وقد عرف أنصار البرلمان بذوي الرؤوس المستديرة Round Heads لأنهم قصوا شعورهم إظهاراً لبغضهم ونفورهم من أعدائهم النبلاء الذين اعتادوا إرسال شعورهم حتى أكتافهم[٤٢٤].

وكان مجلس العموم منقسماً على نفسه، حيث ناصر الثوار نحو ٣٠٠ عضو على حين بلغ عدد الملكيين نحو ١٧٥ عضوا، و بلغ عدد مجلس اللوردات ١١٠ انحاز إلى جانب البرلمان نحو ٣٠ منهم في بداية الأمر، ورجّحت كفّة الثورة ضد الملك، واستمرت الحرب بين الجانبين سبع سنوات وقد وفّق ذوو الرؤوس المستديرة إلى قائد عظيم استطاع أن يقصر من أمد الحرب الأهلية، ألا وهو أوليفر كرمويل Olivar Cromwell الذي كان عضواً في مجلس العموم، ولم يكن لدى كرمويل سابق خبرة عسكرية قبل الحرب، ولكن قوة شخصيته وخلقه وثبات إرادته وصموده لتحقيق الهدف، وبراعته في التلاعب بالأحاسيس الدينية والسياسية لدى الناس،

(٤٢٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٢٨٨).

(٤٢٤) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٢١).

كل أولئك هيأ له القدرة على تشكيل قواته على نظام فذّ وولاء فريد[٤٢٥]، وقد كان كرمويل بيوريتانياً ورعاً، ألّف جيشاً يمتاز أفراده بالحمية الدينية والإخلاص الشديد للمبدأ والعقيدة البروتستانتية، وكانت تلك القوة العسكرية التي ألفها ودرّبها شديدة البأس حتى استحقت اللقب الذي أطلق عليها إذ سمّيت بالقوة الحديدية Ironside ، وقد انهزم الملك في النهاية وسلّم نفسه للجيش الاسكتلندي فسلّمه هذا الجيش لخصومه، وبقي شارل في الأسر بجزيرة وَيتْ مدة سنتين، ولم يبق من الأعضاء الخمسمائة الذين كان يتألف منهم مجلس العموم عام ١٦٤٠ إلا ستة وخمسين.

وأقرّ هذا البرلمان بأغلبية ستة أصوات، قانوناً ينصّ على أن شن الملك الحرب على البرلمان خيانة عظمى، ورفض اللوردات القانون على أنه ليس من سلطة مجلس العموم، وعندئذ (٤ يناير ١٦٤٩) قرر النواب أن الشعب "بعد الله مصدر كل سلطة عادلة، وأن النواب وهم يمثلون الشعب أصحاب السلطة العليا في هذه الأمة، وأنه بناء على ذلك تكون لتشريعاتهم قوة القانون، دون موافقة اللوردات أو الملك ".

وفي يناير عيّن النواب ١٣٥ عضواً لمحاكمة الملك وأبلغ أحد الأعضاء وهو ألجرنون سدني - كرمويل بأنهم ليس لديهم سلطة قانونية ليحاكموا ملكاً، ففقد كرمويل صوابه وصاح في وجهه قائلا: "أؤكد لك أننا سنقطع رأسه وفوقه التاج[٤٢٦]. وبدأت المحاكمة في ١٩ يناير ،١٦٤٩ وجلس القضاة المرتجلون الستون أو السبعون على منصة مرتفعة في طرف من قاعة وستمنستر واصطف الجند في الطرف الآخر، واكتظت الدهاليز والشرفات بجمهور المتفرجين، وأجلس شارل وحده وسط القاعة، وتلا جون برادشو رئيس الجلسة قرار الاتهام، وطلب إلى الملك أن يجيب، فنكر شارل سلطة المحكمة في محاكمته أو صحة تمثيلها لشعب إنجلترا، وقال بأن حكومة يديرها

---

(٤٢٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣٢٣).

(٤٢٦) المرجع نفسه (ص ٣٢٩).

برلمان يسيطر عليه الجيش، هي أسوأ طغياناً من أي طغيان أظهره هو قط. وعرض أربعة من النبلاء أن يقدموا حياتهم فداء للملك، فرفض عرضهم ووقع تسعة وخمسون من القضاة، من بينهم كرمويل الحكم بالإعدام، وفي ٣٠ يناير سار الملك في هدوء إلى الموت أمام جمهور غفير تملكه الرعب، وبضربة واحدة من بلطة الجلّاد قطع رأسه[٤٢٧]، وتعالت أنّات آلاف الحاضرين وقتئذ وآهاتهم حزناً على الملك.

إعلان الجمهورية

بعد أن أطاح البيوريتانيون بالملك شارل الأول في ٣٠ يناير ١٦٤٩ أقام مجلس العموم في ١٩ مايو بصفة رسمية، الجمهورية الإنجليزية وحاول كرمويل أن يقيم حكماً صالحاً في البلاد، وقد حمل لقب حامي الدولة، وعادت النظم البرلمانية القديمة بعد أن أدخلت عليها بعض التعديلات ولم يكن للبرلمان الجديد سلطة دستورية كاملة، ولم تكن العلاقات بين كرمويل ومجلس العموم وديّة دائما، لأن أعضاءه كانوا يرتشون ويسندون الوظائف إلى صنائعهم وأقاربهم، فضاق كرمويل بهم وأمر بحلّ المجلس عام /١٦٥٣/ وإجراء انتخابات جديدة، وفوّض كرمويل للمجلس الجديد كامل الصلاحيات، إلا أنه فشل في العمل فأمر بحلّه أيضا.

وأصبح زمام الأمور كلها بيد كرمويل[٤٢٨] وقد استساغ السيطرة والسلطان، ولكن تلك نزعة عامة، وهي أمر طبيعي إلى أبعد حدّ في الموهبة الواعية، لقد فكر من قبل في تنصيب نفسه ملكا، أو تأسيس أسرة ملكية جديدة، ويبدو أنه كان مخلصاً حين عرض أن ينزل عن سلطته للبرلمان، ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هي آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو، فقد يبدو أنه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام[٤٢٩].

---

(٤٢٧) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ٢٧-٢٨ (ص ٣٣٠).

(٤٢٨) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار – التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣٣).

(٤٢٩) ول ديورانت – قصة الحضارة – مجلد ٣١-٣٢ (ص ١٩).

وقد واجهته صعوبات جمة في سياسته الداخلية بسبب تعدد المذاهب والآراء بين من يؤيد البيوريتانية ومن يعاديها ومن يؤيد الجمهورية ومن يناصر الملكية. إلا أن كرمويل استطاع أن يحكم برغم وجود الكثيرين ممن كانوا يتمنون موته، لأن قسماً كبيراً من الإنجليز كانوا يعتبرونه طاغية مستبدا، حتى أن الملك تحول بعد إعدامه في نظر الإنجليز من جابي ضرائب إلى شهيد.

الاضطهاد في عهد البيوريتانيين

كان من المنتظر أن يسود التسامح الديني بعد أن استولى الثوار البيوريتانيون على السلطة، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث، ذلك أنهم وبرغم بغضهم للملكية ورغبتهم في إقامة حكومة جمهورية، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا عن عقلية العصر آنذاك، تلك العقلية التي كانت ترى كل شيء من خلال العقيدة الدينية، وقد بلغ الحقد ذروته بين البروتستانت والكاثوليك وكذلك بين الشيع البروتستانتية نفسها، لذلك عندما قامت الثورة حطم الثوار الكنيسة الانجليكانية سنة ١٦٤٣ كما ألغوا الحكومة الأسقفية في الكنيسة، ورغم أنهم كانوا ينظرون إلى الكنيسة الانجليكانية على أنها هاوية تلتهم مال الناس، إلا أن زعيم الثورة كرمويل وجد أن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لا غنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق.

وفي سنة ١٦٥٤ شكّل لجنة من الفاحصين، لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين في رتب الكنيسة والحصول على رواتب، ولم يكن أهلاً لذلك سوى المستقلين البيوريتانيين وأنصار التعميد والبرسبتريانز، وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخي أو نظام الكنيسة المستقلة، واختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة. أما رجال الدين الانجليكانيون الذين بلغوا يوماً حداً كبيراً من القوة فقد حرموا من رواتبهم وباتوا يخدمون أتباعهم، أي يقومون لهم بالمراسم في أماكن خفية، مثل الكاثوليك[٤٣٠] وفي ١٦٥٧ أصدر برلمان البيوريتانيين بموافقة كرمويل

(٤٣٠) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ٢٣).

قانوناً يقضي بمصادرة ثلثي ممتلكات أي فرد جاوز السادسة عشرة، لم يتنصّل من الكاثوليكية ويبرأ منها.

وانعكس التعصب الديني رأساً على عقب، أكثر مما تناقص أو خفت حدّته، ذلك أنه بدلاً من اضطهاد الانجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين تعالت صيحاتهم من قبل طلباً للتسامح، بات البيوريتانيون الآن يضطهدون الكاثوليك والانجليكانيين، وحرموا استعمال كتاب (الصلوات العامة) ولو سراً في المنازل، و قصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك الإنجليز الذين ارتضوا التثليث والإصلاح الديني والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله، كما ارتضوا نبذ الأساقفة أما أتباع سوسينوس الذين ينكرون ألوهية المسيح فلم يشملهم التسامح بناء على ذلك، وفرضت عقوبات صارمة على أي نقد يوجّه إلى العقيدة أو الطقوس الكلفينية، وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقاً للسلم الاجتماعي، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون، وثلاثة أمثال ما يكلف المالك الذي لا يحمل لقباً وعشرة أمثال ما يدفع الرجل العادي بصفة غرامة، ودفع رجل واحد الغرامة لأنه قال: "الله شهيد علي"، وكان يوم الأربعاء يوم صوم إجباري عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد، وكان من حق الجنود اقتحام البيوت للتأكد من صوم الأهالي، ولم يكن مسموحاً بفتح الحوانيت يوم الأحد، كذلك كانت الألعاب والرياضة والأعمال الدنيوية محظورة فيه، كما كان محظوراً التسكع أو المشي الدنس بلا هدف(٤٢١) وأسوأ اضطهاد وأشده هو ما تعرض له جيمس نايلر الذي بلغ به الإيمان بنظرية النور الباطن حدّ الاعتقاد أو الادعاء بأنه هو المسيح مجسّداً من جديد، وأنّبه رئيس طائفة الكويكرز جورج فوكس على هذا، ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدوه، وأكدت إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أ ن ظلت يومين في عداد الموتى، وعندما ركب نايلر إلى بريستول ألقت النسوة بأوشحتهن أمام جواده

(٤٢١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ٢٦).

وأنشدن: "مقدس، مقدس، مقدس رب القربان المقدس"، وقبض عليه بتهمة التجديف ولما سألوه عن دعاواه أو الدعاوى التي نسبوها إليه، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح (أنت قلت)، وعرض البرلمان إذ ذاك، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه، لقضية نايلر ١٦٥٦ و ظل أحد عشر يوماً يناقش موضوع إعدامه[٤٣٢] وسقط القرار بأغلبية ٩٦ صوتاً ضد ٨٢ صوتا، ولكن سادت روح تنادي بحلّ وسط إنساني فحكم عليه بأن يقف ساعتين كاملتين وعنقه في آلة التعذيب (المشهرة) ويجلد ١٣٠ جلدة، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظ مجدف (B في الإنجليزية) وأن يثقب لسانه بقضيب من الحديد المحمى، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة وحيّاه أتباعه على انه شهيد، وقبلوا جراحه وامتصوها، واحتجزوه وحيداً في معتقل لا قلم ولا ورقة ولا تدفئة ولا ضوء فيه، وانهارت روحه المعنوية يوماً بعد يوم، فاعترف بأنه غُرّر به، فأفرج عنه في ١٦٥٩ وقضى نحبه فقيرا معدماً في ١٦٦٠.

ولا شك أن كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين ١٦٤٢ - ١٦٤٩ قد طرحت جانباً بعد الانتصار، فلم يقلّ عن ذي قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان والاعتقال غير القانوني، والمحاكمة دون محلفين، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشدّ ظلماً وإزعاجاً من ذي قبل، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين، وأضحى حكم كرمويل بغيضاً بغضاً ليس له مثيل، لا من قبل ولا من بعد[٤٣٣]. وكانت إنجلترا ترقب موت حامي الحمى /كرمويل/ بصبر نافذ، وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله وكان عليه دوماً أن يأخذ حذره، وزاد عدد حرسه إلى ١٦٠ رجلا.

واعتنقت ابنة كرمويل الكبرى المبادئ الجمهورية، ونعت على والدها دكتاتوريته وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدي، وكان يستشعر الأسف أحياناً لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء في أيامه الأولى يوم

---

(٤٣٢) المرجع نفسه (ص ٣٢).

(٤٣٣) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ٣٥).

كان من مالكي الأرض في الريف، وأحسّ باقتراب منيته، ودعا الله أن يغفر له خطاياه ويحفظ البيوريتانيين وكان قد عيّن ابنه ريتشارد خلفاً له، ولما وصلت أنباء موت كرمويل إلى امستردام "أضيئت المدينة أيما إضاءة وكأنما انطلقت من عقالها، ومضى الأطفال في القنوات هاتفين متهللين فرحاً لموت الشيطان[٤٢٤].

انتقام الملك شارل الثاني لأبيه

تولى حكم إنجلترا ريتشارد بن كرمويل، إلاّ أن هذا لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به إنجلترا في الأغلال التي صنعتها القوة والتقوى، وكان ريتشارد يشارك أخته رقة العقل مما جعلهما ينظران في فزع خفي إلى سياسة الدم والحديد التي انتهجها والدهما[٤٣٥]. واتضح لريتشارد أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فتنازل عن العرش، وبقي على الجيش أن يتصرف، وكان أقوى القواد هو الجنرال مونك، وكان هذا القائد من المحافظين الذين يرغبون في إرجاع الملكية، فكاتب شارل الثاني وهو ابن شارل الأول، الذي كان يعيش في منفاه بهولندا، وطلب منه العودة إلى إنجلترا لاعتلاء العرش، وقبل شارل وبذلك انتهت الجمهورية وعادت الملكية[٤٣٦]. ودخل الملك شارل الثاني لندن في ٢٩ مايو ١٦٦٠ وسط مظاهر فرح وابتهاج، وكان البرلمان بدوره سعيداً وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه، فيما عدا من يستثنيهم البرلمان من العفو العام.

وقضى البرلمان عدة أسابيع في جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد، ومن يبقي على حياتهم، وفي ٢٧ يونيو ١٦٦٠ شخص الملك إلى مجلس اللوردات مناشداً إياهم أن يصدروا قراراً سريعاً حكيماً، ورغب البرلمان في التوسع في عملية الانتقام، ولكن شارل أصرّ على ألا يُستثنى من العفو من وقعوا على إعدام والده. وكان ثلث

(٤٢٤) المرجع نفسه (ص ٣٧).

(٤٣٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٢١-٢٢ (ص ٣٧).

(٤٣٦) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣٤).

هؤلاء قد فارقوا الحياة، كما لاذ الثلث الثاني بالهرب، وقبض على ٢٨ وحوكموا، وحكم على ١٥ بالسجن مدى الحياة، وشنق ١٣ ثم مزقوا أرباً (١٣ - ١٧ أكتوبر ١٦٦٠). وفي ٨ ديسمبر أصدر البرلمان أمراً بإخراج جثث كرمويل وأيرتون وجون بلادشو من كنيسة وستمنستر، وتعليقها على أعواد المشانق، وتم ذلك بالفعل في ٣٠ يناير ١٦٦١ وعرضت رؤوسهم طيلة يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر، ودفنت الأشلاء في حفرة تحت مشنقة تبيرن، وثمة ضحية أخرى هو هاري فين، الذي كان يوماً محافظاً لمستعمرة خليج ماساشوست، فقد شنق في ١٦٦٢ لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد.

وفي ٢٣ أبريل، في يوم عيد القديس جورج راعي إنجلترا وحاميها، توّج الملك السعيد في كنيسة وستمنستر في كل مظاهر العظمة والجلال، وحرص رجال الكنيسة الانجليكانية التي استعادت مكانتها، وهم يمسحون الملك بالزيت المقدس، على التوكيد على تعهّد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة، وفي مايو اجتمع (برلمان الفرسان) الذي يُسمّى كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك متلهفين على الانتقام من البيوريتانيين[٤٣٧] واسترد البرلمان من الوجهة النظرية كثيراً من الامتيازات التي كان قد فقدها في عهد شارل الأول، من ذلك أنه لا يصبح أي تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما والملك. وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة في البر والبحر، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التي صادرها كرمويل من قبل مع تعويض ضئيل لمن اشتروها، واسترجعت الأرستقراطية القديمة ثراءها ونفوذها[٤٣٨]، وكان البرلمان الجديد انجليكانياً بأغلبية ساحقة، فأعاد النظام الأسقفي في اسكتلندا وأيرلندا، وأعاد

(٤٣٧) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ١٠٥).

(٤٣٨) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ١٠٥).

المحاكم الكنسية للمعاقبة على (التجديف) والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الانجليكانية، وجعل كتاب الصلوات العامة الانجليكانية إلزامياً على جميع الإنجليز، وبمقتضى (قانون التوحيد) ٢٠ نوفمبر ١٦٦١ حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص الذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الانجليكانية قبل الانتخابات، وبمقتضى (مرسوم التنسيق) ١٩ مايو ١٦٦٢ طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة. وكان على رجال الدين الذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم في موعد غايته ٢٤ أغسطس ورفضها نحو ١٢٠٠ منهم فطردوا.

وإذ أدركت الكنيسة الانجليكانية اعتمادها على الملكية فإنها أكدت من جديد وبشكل أكثر إيجابية من ذي قبل (حق الملك الإلهي) والإثم العظيم الذي يؤدي إلى الهلاك، في مناهضة حكومة ملكية قائمة، ولم يعانِ البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسي وحده، بل إنهم كذلك كانوا موضع سخرية وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والانزعاج أيام الحكم البيوريتاني بسبب أخلاقياتهم الهينة اللينة الخالية من التزمت، ولكن البيوريتانيين احتملوا في شجاعة وجلد دوران عجلة الزمن، وهاجر بعضهم إلى أمريكا وأدى كثير منهم القسم المطلوب[٤٣٩]، وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأدية القسم أو لتخلفهم عن الصلوات الانجليكانية، أو عقد الاجتماعات غير المشروعة. وفي سنة ١٦٦٢ كان في السجون الإنجليزية أكثر من ٤٢٠٠ منهم، وحشر بعضهم في السجون حشراً لا يدع مجالاً للجلوس وحرموا من فرش القش ليرقدوا عليها وكثيراً ما منع عنهم الطعام، ولكن جلدهم ومثابرتهم وتشبثهم أكسبهم المعركة آخر الأمر.

وخفّت حدّة الاضطهاد عملياً، وفي ١٦٧٢ أطلق شارل سراح ١٢٠٠ رجل منهم، وقد كان طريق المقاومة السلبية الذي انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد أكبر

---

(٤٣٩) المرجع نفسه (ص ١١٨).

قوة فعّالة ساعدت على التسامح في عصر التعصب، وقدّر أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حالة اعتقال بسبب الخلاف الديني بين عامي ١٦٦٠ و ١٦٨٨ وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضوا نحبهم في السجن[٤٤٠].

الثورة المجيدة وإعلان الحقوق

تولى الملك بعد شارل الثاني أخوه جيمس الثاني، وكان هذا متحمساً للكاثوليكية تحمساً شديدا، ووطّن عزمه على جعل إنجلترا بلداً كاثوليكياً وقد طلب إليه لويس الرابع عشر ملك فرنسا بأن يتروى في عملية التغيير، كما نصحه البابا بأن يقنع بالحصول على التسامح الديني للكاثوليك الإنجليز، كما حذر هؤلاء أن يكفوا عن الأطماع السياسية، وأوفد البابا مبعوثاً بابوياً ليوضح لجيمس أن أي تصدع في العلاقة بين البرلمان والملك لا بدّ أن يضر بالكنيسة الكاثوليكية، و لم يستفد جيمس من هذا النصح، ولم يكتف الملك بالذهاب إلى القداس، تحفه الجلالة والمهابة الملكية، بل طلب كذلك إلى مستشاريه أن يلحقوا به لحضور القداس، وتكاثر الأساقفة حول الحاشية، وعين الكاثوليك في المناصب العسكرية وحرض القضاة على توكيد حقه في إعفاء هؤلاء المعينين من العقوبات التي فرضها عليهم (قانون الاختيار) وجنّد تحت أمره ضباط أغلبهم من الكاثوليك، جيشاً قوامه ثلاثة عشر ألف رجل لا يخضعون إلا لأوامره هو، وواضح أن مثل هذا الجيش كان يهدد استقلال البرلمان، وعطّل العمل بالقانون الذي يفرض عقوبات على حضور العبادة الكاثوليكية علانية، وأصدر في ١٦٨٦ مرسوماً يحرم على رجال الدين إلقاء عظات في الخلافات المذهبية[٤٤١].

وفي ٤ أغسطس ١٦٨٧ أصدر جيمس أول (إعلان للتسامح) في عهده وهذه الوثيقة تحتل مكاناً في تاريخ التسامح الديني، فقد ألغى كل قوانين العقوبات فيما

---

(٤٤٠) المرجع نفسه (ص ١٢٢).

(٤٤١) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ١٨٠).

يتعلق بالديانة، وأبطل كل الاختبارات الدينية، ومنح الحرية الدينية للجميع، وحظر التدخل في شؤون الاجتماعات الدينية المسالمة، وقد قدّر لهذا الإعلان أن يكون حرباً على البرلمان، واشتدت وطأة الاستياء عندما ارتمى الملك أكثر فأكثر في أحضان مستشاريه الكاثوليك. وفي ١٦٨٨ عيّن جيمس أربعة من الأساقفة الكاثوليك لإدارة شؤون الكنيسة الكاثوليكية في إنجلترا[٤٤٢]. وقد صبر الإنجليز على هذه التصرفات متعللين أن الملك جيمس كان مسناً، وله ابنة بروتستانتية من زوجته الأولى سوف تخلفه على العرش، ولكن جيمس لم يلبث أن رُزق ابناً من زوجته الثانية الكاثوليكية، وتبعاً لقانون وراثة العرش يصبح الولد أحق بولاية العهد.

ولم يعد أمام الشعب إلا حلّ واحد هو أن يقرر البرلمان خلع الملك وولي عهده ويدعو ابنته (ماري) إلى تولي العرش. ووافق البرلمان على ذلك، ولما كانت ماري متزوجة من وليم أورنج حاكم هولندا، فقد ذهب وفد من البروتستانت لدعوة وليم إلى القدوم إلى إنجلترا[٤٤٣]. ولبّى وليم وماري الدعوة على اعتبار أنها رغبة الشعب الإنجليزي، وفي عام ١٦٨٨ نزل وليم أرض إنجلترا وزحف بجيشه إلى لندن، وناصره الشعب البروتستانتي وتخلى جيش جيمس عن الدفاع عن عرشه ففرّ إلى فرنسا. واستطاع وليم أن يقضي على المقاومة الكاثوليكية في اسكتلندا وأيرلندا. وقد اعتبر الشعب الإنجليزي هذه الثورة نجاحاً سياسياً دستورياً جعلت الشعب مصدر السلطات، ومهدت هذه الثورة السبيل لإعلاء كلمة الشعب وأخذ الملوك الإنجليز يفقدون سلطانهم الفعّال على الحكومة شيئاً فشيئاً، ولم يجرؤ أحد من ملوك إنجلترا فيما بعد على رفض أي قرار يصدر عن البرلمان.

وتوّج البرلمان انتصاره بإصدار قانون أطلق عليه (إعلان الحقوق) [٤٤٤] في

(٤٤٢) المرجع نفسه (ص ١٨٣).

(٤٤٣) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣٧).

(٤٤٤) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣٨).

١٦ ديسمبر ١٦٨٩ وأصبح هذا الإعلان (بالرغم من عدم موافقة وليم عليه صراحة) جزءاً حيوياً أساسياً في قوانين المملكة، "حيث أن الملك السابق جيمس الثاني سعى بجهده أن يدمر ويستأصل العقيدة البروتستانتية وقوانين وحريات هذه المملكة من جذورها. . . ولما كان أعضاء البرلمان على ثقة تامة من أن أمير أورنج سوف يحميهم من إهدار حقوقهم التي أثبتوها هنا، ومن أية محاولات أخرى للاعتداء على حقوقهم الدينية وحرياتهم، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المجتمعين في وستمنستر قرروا أن يعينوا وليم وماري أمير وأميرة أورنج، ملكاً وملكة على إنجلترا وفرنسا وأيرلندا، وأن يقسم اليمين المذكورة بعد كل الأشخاص الذين يتطلب القانون منهم أن يقسموا يمين الولاء.

أقسم أنا /س من الناس/ أن أمقت وأنبذ من كل قلبي على أنها كفر وهرطقة، تلك النظرية الدنسة اللعينة التي تقول بأنه يجب أن يخلع أو يقتل، بيد رعاياه أو غيرهم أيّاً كانوا، كل أمير يصدر ضده البابا أو أية هيئة في المقر البابوي في روما، قراراً بالحرمان من الكنيسة أو من العرش. . كما أعلن أنه ليس ولا ينبغي أن يكون لأي حاكم أو فرد أو مطران أو دولة أو عاهل أجنبي أية سلطة أو سيادة أو سلطان، في هذه المملكة أسألك العون على هذا يا رب[٤٤٥].

وحيث ثبت بالتجربة أنه لا يتفق مع سلامة هذه المملكة ولا مع مصلحتها أن يحكمها أمير مناصر للبابا أو ملك أو ملكة متزوجة من أحد أشياع البابا، فإن اللوردات والآباء الروحيين والنواب المذكورين يرجون فوق ذلك أن يُسن تشريع يقضي بأن كل شخص أو أشخاص يذعنون أو سيذعنون للبابا أو للكنيسة في روما، أو تكون أو ستكون لهم علاقة بهما، أو سيدينون بالمذهب البابوي، أو يتزوجون من نصيرات البابا والمشايعات له، يجب استبعادهم وحرمانهم إلى الأبد من وراثة أو امتلاك أو التمتع بتاج وحكومة هذه المملكة.

(٤٤٥) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١- ٣٢ (ص ١٩١).

وقد عبر هذا الإعلان التاريخي عن النتائج الجوهرية لما أسمته إنجلترا البروتستانتية (الثورة المجيدة) وهي الاعتراف الصريح بالسيادة التشريعية للبرلمان وحماية المواطن ضد السلطة التعسفية للحكومة، واستبعاد الكاثوليك من تولي عرش إنجلترا أو المشاركة فيه[٤٤٦]، وأصبح التاج بعد وليم الثالث من حق (آن) شقيقة زوجته وابنة جيمس الثاني، لأن وليم وماري لم ينجبا وريثاً للعرش، وصدر قانون الوحدة وبموجبه أصبحت اسكتلندا وإنجلترا مملكة متحدة، وقد أصبح الإنجليز بعد الثورة المجيدة في نظر العالم أكثر الشعوب تقدماً وأعرقهم في الحكم الدستوري، فأخذت كثير من الأمم تحاول اقتفاء أثرهم والاقتباس من دساتيرهم التي صدرت منذ القرن السابع عشر، وانتشرت كذلك فكرة إنشاء المجالس النيابية لإصدار القوانين وفرض الضرائب وتقرير سياسة الدولة بعد أن كان ذلك من حق الملك أو مجلس الوزراء، وتركزت الحياة النيابية في مجلسين هما مجلس اللوردات ويمثل الأرستقراطية الإنجليزية، ومجلس العموم الذي يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها، وقد أخذت دول العالم فيما بعد عن الإنجليز هذا النظام كفرنسا وبروسيا واليابان وإيطاليا وإسبانيا وغيرها، وزاد وعي الفرد لحقوقه السياسية، وكل هذه النتائج مع نتائج أخرى هيأت للانتقال الحقيقي من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة من عصر الإيمان إلى عصر العقل والتكنولوجيا.

---

(٤٤٦) ول ديورانت - قصة الحضارة - مجلد ٣١-٣٢ (ص ١٩٢).

الفصل الرابع

الثورة الفرنسية والطغيان

ظروف الثورة: جدير بنا أن نقول، إن الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩ هي أم الثورات، بل هي النور الذي أضيء في سماء العالم، فتغيرت الحياة وبزغ فجر جديد هو فجر الحرية. وقد كانت هذه الثورة شعبية وإن كانت قيادتها من البورجوازية الفرنسية، فالشعب هو الذي ثار على جلاّديه، ثار منتقماً منهم لأنهم أذلوه بالسخرة والضرائب الكثيرة التي أثقلت كاهله وحرمته حتى لقمة العيش، وقد وضعت هذه الثورة في حيز التنفيذ مبادئ عامة كانت قبلها مجرد نظريات، فخلالها بدأ النظام الإقطاعي القديم في فرنسا يتحطم، ويظهر على أنقاضه نظام جديد. ولا شك أن الثورة المجيدة في إنجلترا التي قوّضت سلطات الملك وأنشأت ملكية دستورية، وأشاعت مساحة واسعة من الحرية أمام الناس في التعبير عن آرائهم دون أن يتعرضوا للتوقيف أو الإعدام، جعلت الشعوب الأوروبية تتطلع إلى وضع مماثل، وكان على ملك فرنسا لويس السادس عشر أن يكفّر عن أخطاء أسلافه، فمآسي الهيجونوت ظلت ماثلة في أذهان الفرنسيين كرمز لطغيان ملوكهم، وكانت الثورة تعتمل في وجدان الناس منذ أمد طويل، فقد كتب الماركيز دو ساد عام /١٧٨٨/ "إن ثورة كبيرة تختمر في هذه البلاد، جرائم ملوككم وفظائعهم الشنيعة، وأعمال فسقهم وعدم كفاءتهم قد أنهكت فرنسا. لقد نالت ما يكفيها من الاستبداد وإنها على وشك أن تحطم قيودها"[٤٤٧].

وقد أضحى النظام القديم لا يتناسب مع التطور الاجتماعي الحاصل آنذاك، فنمو طبقة البورجوازية نتيجة ازدياد حركة التجارة والصناعة، جعل هذه الطبقة

---

(٤٤٧) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ١٠٢).

تفكر في هدم النظام القديم، وكانت فرنسا قبيل اندلاع الثورة تعاني أزمة مالية خانقة كاد الشعب أن يعاني أثناءها من المجاعة، وكان الملك يخصص له وللملكة والحاشية والبلاط مبالغ ضخمة، وكانت هذه المبالغ في نظره ونظر حاشيته هي أقل ما يمكن القبول به، وكانت ظروف العصر تفرض على الملكية والأرستقراطية تقاليد معقدة، وحفلات صاخبة باهظة التكاليف، وكان البلاط الملكي منغمساً في الفضائح المدوية، وكانت صالونات باريس العديدة - التي تجمع بين الأرستقراطية والبورجوازية - مكاناً يتندر فيه علية القوم بما يدور في القصور الملكية من مهازل(٤٤٨)، و هناك شبه إجماع - لدى مؤرخي فرنسا والثورة الفرنسية - على أن لويس السادس عشر ملك فرنسا /١٧٧٤ - ١٧٩١/ كان شخصية لا بأس بها.

ولكنه وجد في ظروف غير ملائمة لطبيعته وأفكاره وقدراته، ولعبت زوجته ماري انطوانيت دورا كبيراً في إضعاف شخصية زوجها. لقد كانت ابنة ماريا تريزا، إمبراطورة النمسا المشهورة، ومع أنها كانت محبوبة من الشعب الفرنسي في أول الأمر، إلا أنها كانت شديدة الاعتداد بنفسها، وأقحمت نفسها في مؤامرات تعيين وعزل الوزراء، وفي توجيه سياسة البلاد، ولم تكن هناك مؤسسات برلمانية قوية تستطيع أن تحدّ من سلطات الملك، أو تراقب أعماله، وكان مجلس طبقات الأمة قد أصبح تقريباً نسياً منسياً في أواخر القرن الثامن عشر، وكانت الإدارة الحكومية في حدّ ذاتها نقطة ضعف شديد في جنب الملكية الفرنسية. وكان القضاء بدوره يشكل شكلاً متدهوراً من أشكال النظام القديم، فكان القضاة يشترون مناصبهم من الملكية، الأمر الذي أصبح من المتعذر على الملك أن يعزل قاضياً اشترى منصبه وترتب على ذلك أيضاً أن حرص القضاة - الذين اشتروا مناصبهم - على أن يرثهم أبناؤهم في المنصب، وبالتالي أصبحت معظم المناصب القضائية وراثية(٤٤٩).

---

(٤٤٨) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٣٩).

(٤٤٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٤٢).

وفي هذا الجو الفاسد كان لا بد من حدوث الانفجار وقد حدث.

تمرّد باريس وسقوط الباستيل

اكتملت الثورة حقوقياً في أوائل تموز ١٧٨٩ وحلت السيادة القومية في المجال الحقوقي محل الملكية المطلقة بفضل تحالف نواب الطبقة الثالثة من البورجوازية، وممثلي الأكليروس والفئة الليبرالية من النبلاء، ولكن الشعب لم يدخل بعد إلى الحلبة السياسية، وأمام التهديد بالردّة ساعد تدخله الثورة البورجوازية على الانتصار نهائياً[٤٥٠]. وقد ساهمت الأزمة الاقتصادية في استنفار الجماهير، وفي ١٤ تموز طالبت الجماهير بالتسليح العام، فذهبت إلى الأنفاليد Invalides بغية الحصول على الأسلحة، واستولت هناك على ٣٢,٠٠٠ بندقية.

ثم تابعت إلى الباستيل، وكان الباستيل يتحدى الهجوم الشعبي بجدرانه التي يبلغ ارتفاعها ثلاثين متراً وخنادقه الملأى بالماء بعرض خمسة وعشرين متراً مع أن دفاعه كان يعتمد فقط على ثمانين من مشوهي الحرب يحيط بهم ثلاثون سويسريا، وكانت أمور الحصن مسندة إلى ضابط على قدر بسيط من الكفاءة وهو دي ليناي De Launay وكان تحت يده عدد من المدافع المنصوبة فوق أسوار الحصن المرتفعة، وكان يعتقد أنه من العسير على الجماهير بدون قيادة أن تقتحم هذا السجن، ولكن كان الجمهور المسلح الذي هاجم الحصن في ١٤ تموز ١٧٨٩ مزوداً بقوتين لم يحسب لهما ليناي حساباً هما الحماس القوي الذي كان يدفع الجمهور إلى التضحية، وكذلك انضم عدد ليس بالقليل من بوليس باريس إلى الجمهور فقادوه في عملية اقتحام الحصن، وتحت دوي مدافع حصن الباستيل، ووسط حماس المتسلقين للأسوار العالية، استطاع الجمهور أن يسيطر على معظم أجزائه الأمر الذي جعل المدافعين عنه يطلبون الأمان لأنفسهم في مقابل فتح أبواب الحصن. فأنزل الجسر المتحرك واندفع الشعب إلى داخل الحصن معملاً السيف في رقاب

(٤٥٠) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ١٢٠).

أولئك الذين حصلوا على الأمان، وأخذ الجمهور يبحث عن المساجين من ضحايا الاستبداد، فلم يعثر إلا على سبعة ولكنهم كانوا في حالة من البؤس وأشبه بالأموات منهم بالأحياء. فأخذهم الجمهور ودار بهم في الشوارع في نشوة انتصار عاطفية كبيرة وهي تعبير عن كبت طويل جداً عاشه الشعب تحت الحكم الملكي المطلق[٤٥١].

واستفادت البورجوازية الباريسية من الانتصار الشعبي واستولت على إدارة العاصمة، وأصبحت لجنة قصر البلدية الدائمة مجلساً بلدياً لباريس وانتخب نائبها العالم الفلكي بايي مختاراً بينما سُمي لافاييت La Fayette قائداً للمليشيات البورجوازية التي اتخذت لها بسرعة اسم الحرس القومي. وقد حضر الملك في ١٧ تموز إلى قصر البلدية فاستقبله بيللي Bailly وقدّم له الشارة المثلثة الألوان[٤٥٢] رمز (التحالف العظيم الأزلي بين الملك والشعب) فتأثر لويس السادس عشر كثيراً وما كان يتلفظ بهذه الكلمات إلا بصعوبة (يستطيع شعبي أن يعتمد دائماً عليّ)، وشعرت الفئة الأرستقراطية بعمق بانحطاط الملك، وقرر الزعماء الهجرة مفضلينها على التضامن مع ملكية مستعدة لمثل هذه التنازلات، فذهب الكونت دارتوا Dartois مع فجر ١٧ تموز إلى البلاد المنخفضة مع أولاده وحاشيته المعتادة، وتبعه أمير كونده Conde وأسرته، وذهب دوق ودوقة بولينياك[٤٥٣] Polugnac إلى سويسرا، والمارشال دي بروي إلى لوكسمبورغ، وبذلك بدأت الهجرة[٤٥٤].

وقد تغير الموقف العام بعد سقوط الباستيل تغيراً كبيرا، فقد تحولت العامة إلى ثورة عامة ذات أهداف سامية، و تلاشى الولاء للملك وللنظام القديم، وإذ

---

(٤٥١) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٣٦٦).

(٤٥٢) الشارة المثلثة الألوان أصبحت فيما بعد رمزاً للثورة الفرنسية.

(٤٥٣) أسرة بولينياك Polignac عرفت برجعيتها الشديدة، ويظهر هذا واضحاً عندما تولى أحد أفراد هذه الأسرة رئاسة الوزارة في عهد شارل العاشر وما ترتب على سياسته الرجعية من الإساءة إلى مركز الملك والمساهمة في وقوع ثورة يوليو عام ١٨٣٠.

(٤٥٤) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ١٢٥).

خرجت الملكية منهارة بشكل فريد في أيام تموز ١٧٨٩ فإن البورجوازية الباريسية بدت منتصرة واتضح الانتصار الحقيقي للبورجوازية بشدة أعظم في ١٤ تموز الذي أصبح رمز الحرية وكرّس هذا اليوم وصول طبقة جديدة إلى الحكم، وفتح باب أمل عريض لجميع الشعوب المستعبدة أن تطالب بالحرية[(٤٥٥)].

مذابح أيلول

بعد اندلاع الثورة الفرنسية هبّت الملكيات الأوروبية لنجدة آل البوربون Bourbon وبدا لها أن الموقف حرج وعليها أن تبادر بعمل ما قبل امتداد الثورة إلى أراضيها، لذلك فقد قدّم إمبراطور النمسا ليوبولد الثاني مقترحات إلى البلاطات الأوروبية تحثّ على القيام بعمل مشترك إزاء هذا الموقف الداخلي في فرنسا، وقد أصدر كل من إمبراطور النمسا وملك بروسيا إعلاناً عرف باسم (إعلان بلنتز - Pillnitz) في ٢٧ أغسطس /آب ١٧٩١، وفي هذا الإعلان أبدى الطرفان - النمساوي والبروسي - رغبتهما في إعادة النظام إلى فرنسا، على اعتبار أن ذلك من المسائل التي تهمّ الدول الأوروبية كلّها، وكانت كلمات (إعلان بلنتز) واضحة في الدعوة إلى تدخل الملوك تدخلاً عسكرياً في أمور فرنسا.

وجاء هذا الإعلان في وقت كانت فيه المشاعر الفرنسية القومية متأججة، وفي وقت كان فيه عدد من الزعماء الفرنسيين يبحثون عن وسائل لإعلان حرب على هؤلاء الملوك الطغاة، وبذلك يكون إعلان بلنتز قد وضع السلاح الحاسم في يد زعماء الثورة من (الجيروند) Gironde لإعلان الحرب على الملوك الطغاة[(٤٥٦)].

وكانت وجهة نظر الجيروند في إعلان الحرب تستند إلى أسس محددة وواضحة، وهي أن القوى الأوروبية هي التي فرضت الحرب على فرنسا لا تأييداً للنبلاء المهاجرين المحتشدين على الحدود الفرنسية الألمانية فقط، وإنما لخوف

---

(٤٥٥) المرجع نفسه (١٢٥).

(٤٥٦) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٢٩٦).

ملوكها من تيار الحرية الذي انطلق من ثورة فرنسا ليحطّم عبودية الشعب في كل مكان[٤٥٧]. وكان حزب اليعاقبة اليساري شديد المعارضة للحرب، وبرز في هذه المعارضة للحرب كل من روبسبير Robespierre و دانتون، وكان (بريسو Brissot الزعيم الجيروندي[٤٥٨] المتحمس بقوة لإعلان الحرب - في جانب، وروبسبير زعيم حزب اليعاقبة Jacobines في جانب آخر، ودار حوار ملتهب بين الزعيمين، وكان التيار العام يسير نحو إعلان الحرب لتحرير شعوب أوروبا من طغيان ملوكهم[٤٥٩].

وأعلنت الحرب في ٢٠ أبريل /نيسان ١٧٩٢ وفي أول لقاء بسيط بين الجيش الفرنسي والجيش النمساوي بدأ أول انكسار مخزٍ للجيش الفرنسي، وفي ٢٦ آب انتشر في باريس خبر الاستيلاء على لونغوي Longway، وفكّر زعماء الجيروند بمغادرة باريس مع الحكومة بعد أن حكموا أن الموقف العسكري ميؤوس منه، ولكن دانتون Danton[❖] حذرهم من هذا التصرف الانهزامي، و تابع سياسة حشد القوات من مختلف المحافظات، ثم جاءت إلى باريس أنباء فرض الجيوش المعادية الحصار على فردان Verdun وكانت هذه مفتاح باريس الشمالي، فتصايح الشعب إلى السلاح إنقاذاً للوطن وبرزت في هذه الأثناء مشكلة كبيرة وخطيرة، وهي مشكلة أعداء الثورة في الداخل، فهل يترك الداخل لتعبث به أيدي أعداء الشعب.

---

(٤٥٧) المرجع السابق (ص ٣٩٧).

(٤٥٨) الجبروند واليعاقبة هما حزبان بورجوازيان يمثلان اليسار في المؤتمر الوطني الفرنسي، أحدهما الجيروند يمثل اليسار المعتدل واليعاقبة ويمثل اليسار المتطرف.

(٤٥٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٣٩٨).

(❖) دانتون: كان دانتون سياسياً فحلاً، ووطنياً كبيراً، نافذ البصيرة، قادراً على العمل الحاسم، مارس المحاماة، وأظهر فيها براعة عظيمة، كان يؤمن بالتسامح الديني كما كان صدره مفعماً ونفسه هادئة، ومما لا يختلف فيه المؤرخون أن الرجل كان ذا قلب كبير، وقريحة نيرة، وإخلاص صادق للثورة والوطن، ولا أدلّ على ذلك من ذعره وحزنه عندما تعرضت فرنسا للخطر، فاندفع متطوعاً ليشارك في ردّ الخطر عنها، ومن آرائه الممتازة أنه كان يرى أن وحدة فرنسا لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل حكم جمهوري، فبذل كل ما كان يملك من جهد ونفوذ وحيلة في سبيل تحقيقه.

لقد كان لا بد من حركة تطهير كبيرة ضد الملكيين والمناوئين للقائمين على الأمور حينذاك، وكان شبح الخيانة يتعاظم كلما وقعت هزيمة، فتتعاظم الرغبة في الانتقام من الخونة، وتصفية المنحرفين عن الخط القومي، وكانت عمليات التصفية تتطلب سلطات جديدة للهيئة التنفيذية، وهذا ما حصل عليه دانتون بصفته وزيراً للعدل، فأصبح له الحق في تفتيش المنازل بحثاً عن أعداء الثورة والقبض على المشبوهين[٤٦٠]. وبدأت الزيارات المنزلية في ٣٠ آب واستمرت يومين دون توقف، فأوقف ٣٠٠٠ مشبوه واقتيدوا إلى السجون. وفي ٢ أيلول كان في تسع من بيوت الحجز حوالي ٢٨٠٠ سجين.

ومن ثم تشكلت محكمة جنايات لمحاكمة المسجونين وكانت عمليات الاستجواب سريعة وغير دقيقة، وصدرت ضد أعداد كبيرة منهم أحكام بالإعدام. وفي بعد ظهر الثاني من أيلول ذبح الحراس كهنة رافضين كانوا يقودونهم إلى سجن (الأباي) وكان الحراس من جنود اللجنة المركزية. وهجمت عصابة من التجار والحرفيين والجنود والحرس القومي على سجن (الكارم) حيث كان بعض الرافضين سجناء، فتمّ ذبحهم. وفي ٢ و ٣ أيلول أعلن مفوض اللجنة المركزية (أن الشعب بأخذه بثأره يطبق العدل أيضاً). وتتابعت المذابح في السجون الأخرى في الأيام التالية: في الفورس، في الكونسيرجيري، في الشاتليه، في السالبيتريير. و أخيراً في ٦ أيلول في البيسيتر، أعدم أكثر من ١١٠٠ سجين، ثلاثة أرباعهم كانوا محتجزين من قبل الحق العام. وتغاضت السلطات عن هذا العمل[٤٦١]، وقد ورد في مذكرات امرأة من الشعب عن مذابح أيلول: (كنا ننظر إليها كعمل عالٍ ونحن نرتجف من الهول)[٤٦٢].

---

(٤٦٠) المرجع نفسه (ص ٤٠٨).

(٤٦١) ألبير سوبول – تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٢٣٨).

(٤٦٢) المرجع نفسه (ص ٢٤٠).

إعـدام الملك

لم يكن أحد في فرنسا يفكر بعد قيام الثورة بإعدام الملك، فلقد كانت نظرية الحق الإلهي للملوك تسيطر على عقول الناس آنذاك، وقد توجه جهد رجال الثورة الفرنسية إلى تقييد سلطات الملك وذلك على النمط السائد في إنجلترا. وشرعت الجمعية التأسيسية التي تشكلت بعد قيام الثورة بصياغة دستور للبلاد، استمرت المناقشات حوله مدة عامين وانتهت صياغته عام ١٧٩١ وقد نصّ الدستور على أن فرنسا ملكية دستورية، فالملك فيها (يملك ولا يحكم) وقد وافق الملك لويس السادس عشر على هذا الأمر، إلا أن تطور الأحداث بعد نشوب الحرب بين فرنسا الثورة والدول الأوروبية المتحالفة ضدها وما أشيع في باريس من أن الملكية متورطة في مؤامرة ضد الشعب الفرنسي وخاصة بعد محاولة الفرار الفاشلة التي قام بها الملك مع عائلته إلى خارج فرنسا جعلت رجال الثورة يفكرون بجدية بإعدام الملك الذي أصبح بعد محاولة فراره أسيراً في قصر التويلري Tuileries بباريس. واجتمع المؤتمر الوطني بصفته الجمعية التأسيسية الجديدة في ٢١ أيلول ١٧٩٢ من أجل إلغاء الملكية، وقد قدم كوللوديربوا اقتراحاً بذلك وسانده الأسقف الدستوري غريغوار: "الملوك في النظام المناقبي هم الوحوش في النظام الطبيعي. فالبلاطات هي مصنع الجريمة ومدبغة الفساد، وتاريخ الملوك هو تاريخ شهداء الأمم".

وفي مساء نفس اليوم أعلنت الجمهورية الفرنسية، واجتمع المؤتمر الوطني أيضاً في ٢٥ أيلول على تبني الصيغة الشهيرة بناء على اقتراح كوتون نائب بوي دي دوم بعد نقاش طويل: "الجمهورية الفرنسية واحدة غير قابلة للانقسام" وبذلك رفض الإعلان مشاريع الفيدرالية التي كانت تقدم للجيرونديين، وفي ١٦ كانون الأول ١٧٩٢ وإتماماً لهذا القرار أقرّ المؤتمر حكم الموت ضد كل من يحاول "أن يمسّ وحدة الجمهورية الفرنسية أو أن يقتطع من صلبها أجزاء ليلحقها بأرض أجنبية"[٤٦٣]. وقد ناقش المؤتمر موضوع إعدام الملك واحتدم الخلاف بين الجيروند

---

(٤٦٣) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٢٤٨).

واليعاقبة، وكان في الحكم آنذاك الجيروند وكانت محاكمة الملك لويس السادس عشر اختبارا لحنكتهم، وكانوا في قرارة أنفسهم يميلون إلى النظام الملكي ويرونه أفضل من الجمهورية. وفضلاً عن ذلك كانوا يؤثرون الحفاظ على نقاء الثورة فلا تتلوث بدماء الملك [٤٦٤] ولم تتأخر إحالة الملك على الاتهام، ولم يبدُ على الجيروند أي شرّع، لقد كانوا يرغبون في تأجيل المحاكمة وكان دانتون يقول: "ذا أحيل على المحاكمة يموت" [٤٦٥]. وكان المؤتمر مجبراً على إعلانه مجرما تحت طائلة الحكم عليه بالإعدام.

فبعد أن ألقي القبض عليه في ١٦ تشرين الأول ١٧٩٢ درست لجنة التشريع الطريقة التي يجب اتباعها لمحاكمته مدة طويلة. وفي ٧ تشرين الثاني قدم فالازيه Valaze عن الجيروند تقريراً متيناً يخلص إلى تقرير إمكانية محاكمة لويس السادس عشر أمام المؤتمر. وبدأ النقاش حول هذا التقرير، وبينما كان زعماء الجيروند يتحاشون اتخاذ موقف وضع سان جوست Saint-Just أحد زعماء اليعاقبة النقاش على المستوى السياسي بخطابه في ١٣ تشرين الثاني: "إن الرجال الذين سيحاكمون لويس عليهم هم أنفسهم أن يؤلفوا جمهورية، ومن يعلقون على عقاب عادل للملك لن يؤسسوا أبداً جمهورية. أما أنا فلا أرى حلاً وسطا، فهذا الرجل يجب أن يملك أو أن يموت، فكل ملك هو مغتصب ومستبد، ولويس السادس عشر ليس مواطناً عاديا، بل هو عدو وأجنبي، فمن واجب المؤتمر أن يحاربه أكثر مما يحاكمه، إنه جلّاد الباستيل ونانسي، وشان دي مارس وتورتي، والتويلري، فأيّ عدو وأيّ أجنبي أضرّ بكم مثله؟. . [٤٦٦].

وقد أثبت اكتشاف خزانة الحديد، وهي مخبأ سري محفور في جدار القصر بناء على أوامر الملك لويس السادس عشر، والأوراق التي تحويها في ٢٠ تشرين الثاني

(٤٦٤) جمال بدوي - الطغاة والبغاة (ص ١١٦).

(٤٦٥) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٢٥٦).

(٤٦٦) المرجع نفسه (ص ٢٥٦).

١٧٩٢ اتصالات الملك السرية مع العدو، فجعل تأجيل المحاكمة أمراً مستحيلا، ورغم مناورة الجيروند عيّن المؤتمر في ٦ كانون الأول ١٧٩٢ لجنة مكلفة بإعداد قرار الاتهام في جرائم الملك لويس، وبدأت محاكمة الملك في ١١ كانون الأول ١٧٩٢ بقراءة قرار الاتهام الذي أعدّه لنده Linda وهو تاريخ سُلّطت فيه الأضواء على جرائم لويس السادس عشر في سائر عهود الثورة العصيبة. وفي ٢٦ كانون الأول قرأ (دوسيز) محامي الملك دفاعاً لبقاً ووجدانياً عن نظرية الحصانة الملكية التي أعلنها دستور ، ١٧٩١ وحاول الجيروند تخريجاً جديداً لإنقاذ الملك بعد أن عجزوا عن منع المحاكمة فطالبوا باللجوء إلى الشعب، وأوضح فيرنيو أن دستور ١٧٩١ قد منح الحصانة للملك، والشعب وحده يستطيع أن يسحب هذه الحصانة من الملك، إلا أن روبسبير ردّ عليه بأن البلاد ستتعرض لخطر كبير من جراء اللجوء إلى الشعب ودعوة المؤتمرات الأولية، فحسب قوله إن ذلك يعني (بلبلة الجمهورية دون جدوى) وعرضت محاكمة الملك على النقاش في ١٤ كانون الثاني ١٧٩٣ وفي ذلك اليوم حدد المؤتمر الأسئلة الثلاثة التي ينبغي أن يجيب عنها النواب: "هل لويس كابيت مجرم بالتآمر ضد الحرية العامة وبالخيانة ضد السلامة القومية؟. . هل يُصار إلى استفتاء الشعب حول الحكم الذي سيصدر؟. . ما يكون الحكم الذي سيصدر بحق لويس؟. . ".[٤٦٧]

وقد جرى التصويت على الإدانة بإجماع كبير باستثناء بعض الممتنعين، وتم رفض استفتاء الشعب بـ ٤٢٦ صوتاً مقابل ٢٧٨ وصدر حكم بالإعدام بـ ٣٨٧ نائباً مقابل ٣٣٤ خلال عملية تصويت طويلة بالمناداة على الأسماء، وبدأت العملية في مساء ١٦ كانون الثاني ولم تنته إلا بعد ٢٤ ساعة. وقد صوّت ٢٦ نائباً على الموت مع وقف التنفيذ.

وفي ١٨ كانون الثاني جرى التصويت على موضوع وقف التنفيذ، فرفض بـ ٣٨٠ صوتاً ضد ٣١٠ وردّ باريير على الجيروند فأوضح أن وقف التنفيذ يُطيل أمد

(٤٦٧) المرجع نفسه (ص ٢٥٨).

الانقسامات الداخلية ويجعل الثورة في حالة ضعف أمام العدو الخارجي. وفي ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ نفذ حكم الإعدام بالملك بالمقصلة في ميدان الجمهورية وسط حشد كبير من القوات ومساعدة ضخمة من الشعب. وأثار تنفيذ حكم الإعدام بالملك إحساساً عميقاً في البلاد كما أثار الهول في أوروبا. وأصاب موت الملك الملكية في صميم وجودها التقليدي والديني، فقد نفّذ حكم الإعدام بلويس السادس عشر كرجل عادي، وبذلك تمّ القضاء على حكم الحق الإلهي[٤٦٨]. وأعلنت أوروبا على قتلة الملك حرباً لا هوادة فيها، وبلغ الصراع ذروته بين فرنسا الثورة وبين أوروبا النظام القديم ودام قرابة عقد من الزمان.

الثورة في عهد الإرهاب

دخلت الثورة في نفق الإرهاب عام ١٧٩٣ وكان ثمة أسباب دفعت الثورة في هذا الإطار وتتلخص أسباب الإرهاب في اشتداد حدّة الصراع بين الجيروند واليعاقبة على القيادة. فلقد كانت القيادة بيد الجيروند منذ اندلاع الثورة. وقد استغل اليعاقبة أخطاء الجيروند لإقصائهم عن الحكم، ويأتي في مقدمة هذه الأخطاء إخفاقا تهم العسكرية، وذلك بعد هزيمة جيش الثورة في بلجيكا أمام الجيش النمساوي في معركة (نروندن) Neerwinden وخيانة قائد جيش الثورة (ديمورييه)[٤٦٩] وذلك في ١٨ مارس/ آذار ١٧٩٣ وكذلك فإن دفاع الجيروند عن الملك جعل اليعاقبة يتهمونهم بالخيانة وبالسعي لإعادة الملكية إلى فرنسا. وجاءت كذلك الثورات الداخلية المضادة لتزيد من حدّة الأزمة، فقد اشتعلت ثورة في إقليم لا فنديه La Vendee هدفها إعادة الملكية إلى فرنسا، ويضاف إلى ذلك الأزمة

---

(٤٦٨) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٢٥٩).

(٤٦٩) أراد القائد ديمورييه بعد هزيمته أن يغطي فشله عن طريق تفاهم مع قائد الجيش النمساوي (كوبورج) ضد الثورة في فرنسا، وعزم على أن ينقلب بجيشه إلى باريس ليفضّ ((المؤتمر الوطني)) وليعيد الملكية في شخص دوق شارتر بن فيليب ولما فشل في أن يقنع جنده بالزحف إلى باريس فرّ هارباً وذلك في (٥ إبريل/ نيسان ١٧٩٣).

الاقتصادية الخانقة، فقد وقعت البلاد في ضائقة كبيرة جعلت الناس يتحسّرون على العهد الملكي البائد. وكان لا بدّ إزاء هذه الأوضاع المتردية من أن تحدث تغيرات في أوضاع الحكم والإدارة والتوجيه السياسي في باريس. وقد تركزت هذه التغيرات في النواحي التالية: تركيز الحكم في قبضة هيئات تنفيذية ذات صلاحيات واسعة، وإسقاط الجيروند وتصفية الثورات المحلية المضادة[٤٧٠]. ولا شك أن الثورة كانت آنذاك عرضة لأخطار خارجية وداخلية وكانت مهددة بالزوال تحت وطأة هذه الأخطار. وقد أنشأ المؤتمر الوطني محكمة استثنائية كانت أحكامها غير قابلة للاستئناف أو التمييز، وذلك في ١٠ آذار ١٧٩٣ وكانت مهمتها النظر في كل مشروع معاد للثورة، وفي كل جريمة ضد الحرية والمساواة والوحدة وعدم تجزئة الجمهورية وسلامة الدولة الداخلية والخارجية وسائر المؤامرات التي تبغي إعادة الملكية[٤٧١].

وإمعاناً من المؤتمر الوطني في تشديد الرقابة أنشأ لجنة السلامة العامة Comite de Sault Public في ٥ و ٦ إبريل / نيسان ١٧٩٣ وكانت تتألف هذه اللجنة من تسعة أعضاء يُختارون من المؤتمر. وقرارات هذه اللجنة سرية ومهمتها مراقبة عمل الإدارة ودفعه إلى الأمام ومراقبة قرارات الوزراء أنفسهم، ووضعت أموال كبيرة تحت تصرفها ودخل اللجنة دانتون ومن ثم روبسبير، وبدأت المؤامرات تحاك بعد إنشاء هذه اللجنة، بين الجيروند واليعاقبة، من أجل الاستيلاء عليها، ذلك أن الذي كان يسيطر عليها يتحكم في شؤون البلاد. وكان كل من الطرفين يسعى إلى كسب أعضاء الوسط إلى جانبه، وكان اليعاقبة يمتازون بأنهم أقلية شديدة التنظيم ذات اتصال أقوى بالشعب وبجمهور باريس.

لقد كان اليعاقبة يدافعون عن قضية الشعب ضد البورجوازية الجيروندية التي فشلت في إنقاذ الشعب من الجوع، وقد أراد الجيرونديون أن يتحالفوا مع

---

(٤٧٠) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٤١٤).

(٤٧١) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٢٧٨).

الأرستقراطية في الأقاليم ضد اليعاقبة الذين كانوا يسيطرون على جمهور باريس، وتطور النزاع بين الجانبين إلى صدام مسلح، وأراد الجيروند أن يدمروا بلدية باريس معقل اليعاقبة، وهدد (إيسنار) Isnard أحد الزعماء من أعداء اليعاقبة بحرق باريس إن هي انساقت وراء اليعاقبة، وكان هذا التهديد الطائش، ومواقف الجيروند السابقة من دفاع عن الملك، ومن إعلان حرب خاسرة وتعاون مع الأرستقراطية، كان كل هذا أسلحة في يد أعدائهم اليعاقبة(٤٧٢)، وعندما حاول الجيروند اتخاذ إجراء ضد اليعاقبة، قاد روبسبير حركة ثورية فطوّق جمهور باريس (المؤتمر الوطني) وتقدم بعض اليعاقبة بمطالب سياسية تتعلق بإبعاد الجيروند، واستمر حصار الباريسيين للمؤتمر الوطني من ٣١ مايو/ أيار حتى الثاني من يونيو/حزيران ١٧٩٣ فأصدر المؤتمر تحت الضغط قراره بإبعاد الجيروند ومحاكمتهم، وعند ذلك أصبح الأمر بيد اليعاقبة وبدأ عهد الإرهاب الذي سيستمر لأكثر من سنتين وستحصد خلاله الشفرة القومية (المقصلة) آلاف الرؤوس. وسمّي (فوكيه تونفيل) Fouguet Thionville مدعياً عاما.

وأصبح باستطاعته أن يأمر بالقبض على أي شخص بمجرد تلقيه إشارة من السلطات الثورية، بل بمجرد تلقيه بلاغاً من أحد المواطنين ضد أي مواطن آخر. فيجد المسكين نفسه فجأة أمام محكمة صورية ولا يسمح له بالدفاع عن نفسه أو بتوكيل محام للدفاع عنه أو باستدعاء شهود لنفي الاتهام الذي وقع عليه، وصدر قانون المشبوهين وبموجب هذا القانون تستطيع السلطات الثورية أن تأخذ الناس بالشبهة، وتحاكمهم على نياتهم لا على أعمالهم فيرسل المتهمون إلى المقصلة لا لذنب اقترفوه في حق الثورة، بل لمجرد أنهم كانوا - في رأي المرشدين والمخبرين الذين صاروا ينتشرون في أنحاء مختلفة من فرنسا - غير متشدقين بمبادئ الثورة، أو لا يحملون الشارة المثلثة رمز الثورة، وكانت تؤخذ هذه الأمور على أنها تصرفات

---

(٤٧٢) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٤١٦).

معادية للثورة، وبدأت المحاكمات السياسية الكبرى في تشرين الأول، وفي الثالث منه أحيل الجيروندبون أمام المحكمة الثورية ومثلت ماري أنطوانيت أمام محكمة بيوفارين، وقطع رأس الملكة بالمقصلة في ١٦ أكتوبر/تشرين الأول، وبدأت محاكمة ٢١ جيرونديا في الرابع والعشرين. وصدر قرار من المؤتمر الوطني يجيز للمحلفين إصدار الحكم بعد ثلاثة أيام، فأعدم الجيرونديون في ٣١ أكتوبر / تشرين الأول، ونفذ حكم الإعدام بدوق أورليان فيليب إيفاليتي وهو ابن عم الملك في السادس من نوفمبر / تشرين الثاني. ووجهت صحيفة (البير دوشين) نصائحها الرشيدة إلى المحكمة "لتضرب الحديد وهو حامٍ وكي تعجّل بمرور الخائن بيللي واللئيم بارناف تحت الشفرة القومية" ونفذ الإعدام بمدام رولان[٤٧٣] Roland في ٨ نوفمبر/ تشرين الثاني، وبيللي في ١٠ وبارناف في . ٢٨ ففي الأشهر الثلاثة الأخيرة من ١٧٩٣ حكم بالإعدام على ١٧٧ من أصل ٣٩٥ متهما، وارتفع عدد الموقوفين في السجون الباريسية من ١٥٠٠ حوالي آخر آب إلى ٢٣٩٨ في ٢ تشرين الأول و ٤٥٢٥ في ٢١ كانون الأول ١٧٩٣ [٤٧٤].

وفي المحافظات تكيف الإرهاب بخطورة التمرد ومزاج المبعوثين، فالمناطق التي لم تمسّها الحرب الأهلية جهلته أغلب الأحيان حتى نهاية ١٧٩٣ أما في محافظات الغرب التي اجتاحها التمرد الفاندي فقد عملت بعثات عسكرية من خمسة أعضاء في المدن الرئيسية، (رين، تور، أنجر، نانت) لتحكم بالموت على المتمردين الذين يُلقى القبض عليهم حاملين السلاح لمجرد التثبت من هويتهم. وفي نانت سمح الممثل كارير Carrier بتنفيذ الأحكام بالإعدام دون محاكمة إغراقاً في نهر اللوار، فمات على هذا النحو من كانون الأول إلى كانون الثاني من ٢٠٠٠ إلى

---

(٤٧٣) مدام رولان زوج وزير الداخلية سيدة مغرورة محبة للسلطة، بدأت تتصل بالمتطرفين من اليعاقبة أمثال دانتون وروبسبير وتعمل معهم. أقامت هذه السيدة أمانيها وأطماعها على سقوط الملكية ولم تكن مدفوعة في ذلك بمبادئ معينة، وانما كانت تعمل ذلك إرضاء لغرورها ولكراهيتها الشخصية لماري أنطوانيت.

(٤٧٤) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٣١٦).

٣٠٠٠ شخص، من كهنة رافضين ومشبوهين ولصوص ومحكومي الحق العام.

وفي بوردو قاد القمع تاليان Tallien ، وفي بروفنسيا باراس Barras وفريرون Friron اللذان باشرا في طولون تنفيذ الإعدام بشكل جماهيري، أما ليون فقد أمر المؤتمر الوطني بهدمها وحكم فيها على ١٦٦٧ شخص بالإعدام، واستعيض الإعدام برصاص البنادق والرشاشات عن المقصلة البطيئة[٤٧٥]. ويقدّر البعض عدد الذين أوقفوا في موجة الإرهاب تلك بـ ٣٠٠,٠٠٠ ألف شخص، وعدد المعدومين ما بين ٣٥ و٤٠ ألف شخص مع الأخذ في الحسبان المعدومين بدون محاكمة في نانت وطولون.

وقد كانت الرؤوس تتساقط كألواح القرميد، حسب تعبير فوكيه تونفيل مدعي عام المحكمة الثورية[٤٧٦]، وظهرت في عهد الإرهاب موجة من العداء للمسيحية، فأغلقت الكنائس وحوّلت إلى معابد لشهداء الحرية، وصودرت الأملاك الكنسية واقتلعت الأجراس من أجل صهرها وإعادة صناعتها كأسلحة، ولوحق الأساقفة وعذبوا وكان عداء المسيحية يرتدي طابعاً اقتصاديا، فالبحث عن الذهب كان – على الأغلب – أحد أسبابه وإحدى نتائجه في آن واحد[٤٧٧].

الثورة تأكل أبناءها

حققت الحكومة اليعقوبية أهدافها فقضت على التمرد الفاندي وأوقفت زحف العدو الخارجي، ووفرت معيشة أفضل للناس. إلا أنها أفرطت في سفك الدماء البريئة، مما حدا ببعض الزعماء أمثال دانتون والصحفي كميل ديمولان أن يهاجما سياسة القمع الرهيبة التي تنتهجها لجنة السلامة العامة اليعقوبية فقد طالب دانتون بالاقتصاد بدم الرجال[٤٧٨] وانقسم قادة الإرهاب على أنفسهم وتسرّبت

(٤٧٥) المرجع السابق (ص ٣١٧).

(٤٧٦) المرجع السابق (ص ٣٦١).

(٤٧٧) المرجع نفسه (ص ٣٢٠).

(٤٧٨) المرجع نفسه (ص ٣٢٨).

الشكوك إلى صفوفهم وكل منهم يضمر الانقضاض على زميله، وبدأت الثورة تأكل أبناءها بعد أن فرغت من التهام خصومها، وامتدت النار لتحرق مضرميها، وأمسك الطاغية روبسبيير بيده عصا المحرقة ليقلّب نيرانها على هواه، ويدفع بإخوانه إلى الجحيم واحداً إثر واحد، دون أن يملك أحدهم القدرة على الإفلات وكأن هؤلاء الوحوش قد تحولوا إلى فئران في مصيدة يحاصرهم الموت من كل جانب.

وكان من أكبر منظمي حركة الإرهاب حينذاك هيبير Hebert و شوميت Chaumette العضوين في (لجنة السلامة العامة) ولقد كان لهما اتجاهات إصلاحية طيبة في مجال الإدارة المحلية، ولكن كانت لهما كذلك شطحاتهم الفلسفية، ومن ذلك (عبادة العقل) التي وضعت كبديل للكاثوليكية، وتحولت بعض الكنائس لممارسة طقوس هذه العبادة. ورأى روبسبيير في هذه الشطحات فرصة للقضاء على منافسيه في الكومون (بلدية باريس) فاقترب جداً من صديقه دانتون لمواجهة نمو قوة هيبير وشوميت حتى استطاعا أن يُذهبا بهما إلى المقصلة. وبدا كأن الجو قد صفا للصديقين، ولكنه كان وقت تعمل فيه الشكوك عملها حتى بين أشدّ الأصدقاء وفاء، فالأمر كان ينتهي غالباً بالمقصلة، وعلى كل واحد أن يفرض رأيه على الآخر وأن يقضي على الآخر إذا أراد لنفسه النجاة من المصير المروع[٤٧٩]. وكان هناك خلاف في أسلوب العمل بين دانتون وروبسبيير وكان دانتون قد أصبح من دعاة الهدوء والسكينة ووقف إهراق الدماء دون مبرر، ولم يعد يطيق صبراً على استفحال الإرهاب، وشاركه صديقه ديمولان هذا الشعور، وكان هذا الميل إلى الاعتدال الذي أظهره دانتون يعني بالنسبة لروبسبيير أن ثمة مؤامرة يحيكها دانتون ضده من أجل وضع حدٍّ للإرهاب.

وأسرع روبسبيير فاعتقل دانتون وكميل ديمولان[٤٨٠] Desmoulins Camille

(٤٧٩) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٤٢٣).

(٤٨٠) ولد كميل ديمولان في بيكارديا عام ١٧٦٠ وبدأ ينشر آراءه في مقالات في عام ١٧٨٨، وفي عام ١٧٨٩ =

وديلاكروا وفيليبو في ٢٩ - ٣٠ آذار ١٧٩٤[٤٨١]، وساقهم إلى المقصلة. ووقف دانتون أمام المحكمة يفنّد الحجج الواهية التي لفقها عليه النائب العام فوكيه تونفيل، ولم تستمع المحكمة إلى كلامه، واتخذت من إصراره على الدفاع عن نفسه دليلاً على إدانته واعترض دانتون وقال: إنكم لم تسمعوا شاهداً من شهود النفي ولم تواجهونا بشاهد من شهود الإثبات ولم تطلعونا على محاضر التحقيق حتى نعرف منها ما شهدوا به علينا أو لنا، فأي نوعٍ من أنواع العدالة هذا الذي تطبقونه الآن ؟. . وكان ديمولان قد أعدّ دفاعاً مكتوباً في أوراق كثيرة، فمزق هذه الأوراق وكوّرها في يده وقذف بها رأس المدعي العام فوكيه تونفيل وصاح: "كفى مجوناً أيها المجرمون"، وكتب ديمولان رسالته الأخيرة إلى زوجته وقال فيها: "كنت أحسب أن أسمي سيظلُّ رمزاً من رموز الثورة وعنواناً من عناوينها، ولكن الطغاة يأبون إلا أن يجردوني من هذا الشرف ويمزقوا صحيفتي من كتاب الثورة ويجعلوا مني عدوّاً لها، كنت أحلم بجمهورية عادلة كريمة يحبها كل الناس ويتفيئون ظلالها الرطبة الوارفة، ولكني إذ كنت أدعو إلى هذه الجمهورية لم أكن اعرف أن الناس قساة وغلاظ إلى هذا الحدّ"[٤٨٢] وضمت المحاكمة إلى جانب القادة الدانتونيين النواب الذين أخلّوا بوظائفهم وعملاء الأجنبي (غوزمان والإخوان فريه) [٤٨٣] وأحد المضاربين، والأب ديسبانياك، والجنرال ويسترمان صديق دانتون، وهيرول دي سيشيل، وأحيل كل هؤلاء إلى المقصلة في ٥ نيسان ١٧٩٤ وقدم للمحاكمة ألبير دوشين الذي كان يملك صحيفة وأعدم بالمقصلة، وقد أثرت هذه المحاكمة في الرأي العام. فقد شكت

= شهد سقوط الباستيل، وقد ظهر مع الثوار في اليومين السابقين لهذا الحادث ، كان عضواً في المؤتمر الوطني وممن نادوا وصوتوا بإعدام الملك.

(٤٨١) المرجع نفسه (ص ٤٢٣).

(٤٨٢) جمال بدوي - الطغاة والبغاة (ص ١٢٩).

(٤٨٣) غوزمان - رجل أعمال إسباني وفد إلى فرنسا بعدالثورة واتهم بالتآمر على الجمهورية الفرنسية. الأخوان فريه - مواطنان نمساويان وفدا إلى فرنسا الثورة واتهما بالتآمر مثل غوزمان.

الحركة الشعبية بالحكومة الثورية وأدركت أن هذه الحكومة قد أفرطت في سفك الدماء، لذلك فقد بدأ الإحجام عن تأييدها، وهكذا فبينما كانت الدكتاتورية اليعقوبية تتمركز وتتقوى بين يدي الحكومة الثورية، كانت قاعدتها الاجتماعية تتقلّص باستمرار في باريس وقاعدتها السياسية في المؤتمر الوطني.

نهاية عهد الإرهاب

كان الرأي العام في باريس وسائر المحافظات الأخرى قد تعب من الإرهاب، وابتعدت الحركة الشعبية عن الحكومة الثورية، وكان التعب من الإرهاب أعظم بمقدار ما بدا أن النصر لم يعد يتطلب القمع، وعملت لجنة ا لسلامة العامة جهدها لجعل الإرهاب مشروعاً بإعفاء الإرهابيين الكبار من مهامهم وتوطيد المركزية القضائية والقمعية، ولكن تطبيق القانون أفلت من يدها، وعبّأ الاشمئزاز من المقصلة قسماً كبيراً من الرأي العام ضد الحكومة الثورية، وكانت لجنة السلامة العامة قد أصبحت تضمّ بعد إعدام دانتون ١١ عضواً (روبسبيير، سان جوست، كوتون، بيوفارين، كوللوديربوا، بارير، كارنو، بريوردي لا كوت دور، بريور دي لامارن، جانبون سانت أندريه، لنده)، وأصبح لروبسبيير السلطة المطلقة فيها، وكان روبسبيير شديد الكبرياء، شديد التعالي مفرطاً في تقديس ذاته، يودّ لو يرى الناس في عصمته عصمة الرسل، وفي كماله كمال الآلهة، وكان يؤمن بالفضيلة ويريدها أساساً للجمهورية الفرنسية الوليدة، وينصّب نفسه ممثلاً أعلى للفضائل الإنسانية، ويدعو الحاكمين والمحكومين إلى الأخذ عنه والاقتداء به[٤٨٤]. وقد انتهى به الأمر إلى أن حسب نفسه المختار من العناية الإلهية لتطهير المجتمع من أدران الرذيلة، والمرسل من السماء برسالة يؤديها في هذا العالم. وهي إقامة حكم الفضيلة فيه، وبات يعتقد أنه يمثل الفضائل السياسية والمدنية كلها، ولما كان يعلم أن الرذيلة متأصلة في المجتمع حتى ليتعذر استئصالها بالمثل التي تضرب أو بالقوانين العادية،

(٤٨٤) جمال بدوي – الطغاة والبغاة (ص ١٣٧).

لم يرَ غير الطغيان وسيلة لمكافحتها ودرء شرورها، ولكن هذا الطغيان هو نفسه فاضل، ليس له من غاية سوى الصالح العام. وقال في ذلك قولته الشهيرة: "نحن لا نريد الطغيان لذاته، وإنما نريده دعامة للجمهورية الصالحة"، وقد ألغى روبسبيير عبادة العقل ودعا إلى عبادة الكائن الأسمى، ودُشّن عيد الكائن الأسمى في ٨ حزيران ١٧٩٤ وترأس الاحتفال روبسبيير وفي يده باقة من الزهور والسنابل بعد أن انتخب رئيساً للمؤتمر الوطني قبل ذلك ببضعة أيام[٤٨٥]. وأراد روبسبيير أن يستبدّ بالسلطة فعزم على تطهير المؤتمر الوطني من جميع النواب الذين يشكّ في ولائهم له، لذلك فقد ارتقى في ٢٦ تموز ١٧٩٤ منبر المؤتمر الوطني وألقى خطاباً شكا فيه إلى النواب ما تعانيه الحرية من آثار السعايات الخفية التي يسعاها الدساسون والمنافقون، وحاول أن يبرئ نفسه من تهمة الطغيان ملقياً مسؤولية سياسة الإرهاب على المتطرفين من ممثلي الأمة، ولكنه لم يسمّ في خطابه المعنيين بكلامه، لذلك فجميع الذين لديهم ما يلامون عليه شعروا بأنفسهم مهددين بشفرة المقصلة، خاصة أن روبسبيير قال في خطابه، إن أوجب الواجبات وأولاها بالتقديم إنما هو تطهير المجلس الوطني نفسه، وتركيز السلطات في يده ليصبح هو المسيطر الأعلى على شؤون البلاد.

وفي المساء بينما كان روبسبيير يخطب في نادي اليعاقبة، كان أعداؤه ينشطون والتحمت حلقات المؤامرة بين النواب الذين كانوا يفكرون منذ أمد طويل بالقضاء على روبسبيير، وفي ٢٧ تموز ١٧٩٤ افتتحت جلسة المؤتمر الوطني في الساعة الحادية عشرة وتناول الكلام سان جوست، إلا أن النواب المتآمرين عطلوا الجلسة ومنعوا سان جوست ومن ثم روبسبيير من الكلام، وأقرّ توقيف هنريو قائد الحرس القومي الباريسي، ودوما رئيس المحكمة الثورية، ووسط جلبة مرعبة اقترح نائب مغمور وهو لوشيه ضد روبسبيير قرار اتهام صُدّق عليه بالإجماع فطلب أخوه أوغسطين

(٤٨٥) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٢٧٣).

Augustin أن يشاركه في مصيره، فضمّ إليهما سان جوست وكوتون، وطالب لوباه بشرف الانضمام إلى لائحة الاتهام، فصرخ روبسبيير: "لقد قضي على الجمهورية وانتصر اللصوص"[٤٨٦]. وأودع هؤلاء في السجن تمهيداً لتقديمهم للمحاكمة، إلا أن هيئة البلدية كانت منعقدة عندما تناهت إليها قرارات المجلس الوطني، فهاج هائجها وعظم عليها الأمر وقررت الثورة على هذا المجلس ودعوة الشعب إلى حمل السلاح لتخليص زعمائه، وأرسلت رسلها إلى السجون مزودين بأوامر تقضي بالإفراج عن المقبوض عليهم جميعاً، وبعد أن أطلق سراح النواب الذين صدرت بحقهم قرارات التوقيف حضروا إلى اللجنة المركزية، فتدارسوا الأمر، ودُقَّ النفير إيذاناً بالخطر العام، فهرع الأهالي من مساكنهم إلى الشوارع والطرقات يتساءلون عما يجري وهم بين متردد لا يريد أن يصدق وحائر لا يدري ما ينبغي أن يفعل، وتجمع الثوار الشعبيون أمام مقر البلدية، وخلال بضع ساعات تمتعت البلدية بتفوق ساحق في المدفعية، وكان هذا الأمر عنصراً حاسماً لو وجد قائد يقود هذه القوة ويحاصر بها المؤتمر الوطني[٤٨٧]، فيعتقل أعضاءه، إلا أن القائد هنريو كان مخموراً فبدلاً من أن يبادر بجيشه إلى تأديب المجلس الثائر، أخرج غدارته من جيبه وانطلق كالمجنون يجوب الأزقة والطرقات شاهراً هذا السلاح المخيف في يده يدعو الناس إلى النجدة والمعونة ويحضّهم على نصرة الزعماء المضطهدين، فكان الناس يظنون أن خبلاً قد أصابه ويولون منه فراراً[٤٨٨]. واستعاد المؤتمر الوطني أنفاسه، وأُعلن النواب المتمردون خارج القانون، وكلّف باراس بتجميع قوة مسلحة، وتُرك الحرس القومي ورجال المدفعية المتجمعون أمام مقر البلدية دون تعليمات ولا تجهيزات وسرعان ما سرت إشاعة الوضع خارج القانون فأقفرت الشوارع، وحوالي الساعة الثانية صباحاً زحف باراس على قصر البلدية واستولى عليه فجأة،

(٤٨٦) المرجع نفسه (ص ٣٨٥).

(٤٨٧) المرجع السابق (ص ٣٨٦).

(٤٨٨) جمال بدوي - الطغاة والبغاة (ص ١٤٩).

فانكسرت اللجنة المركزية دون أن تحارب. وفي ٢٨ تموز ١٧٩٤ مساء صدر حكم المحكمة الثورية بإعدام جميع المتهمين، فوضعوا فوق العربات وسيقوا إلى ساحة الإعدام وظل روبسبيير ينظر إلى رفاقه ورؤوسهم تتهاوى فوق النطع بعد أن تحزها شفرة المقصلة فلما جاء دوره حملوه إلى المقصلة وصاح من فرط الألم صيحة هائلة، وأدار الجلاد اللولب فانحدر رأسه عن جسده وزهقت روحه[٤٨٩].

وبإعدام هذا الطاغية أُسدل الستار على عهد الإرهاب الذي أنهك الجمهورية الفرنسية الوليدة وشوّه صورتها الجميلة، وقد بلغت أحكام الإعدام التي نفّذت في الأسابيع الأخيرة من حكمه المشؤوم ١٣٦٧ حكما، وفي الليلة الأخيرة من عمره كانت السجون الفرنسية تضمّ بين جدرانها ٩٥٠٠ رهينة تنتظر المصير الأسود على شفرة المقصلة، وسارت العودة عن الإرهاب جنباً إلى جنب مع القضاء على المركزية، وانقطعت المحكمة الثورية عن العمل بعد أن أرسل فوكيه تونفيل إلى الحبس، وألغيت اللجان الثورية، وفتحت السجون وأطلق سراح المشبوهين، وكانت نهاية الإرهاب. وهكذا قدّر على الذين أضرموا النار أن يكونوا حطباً لها، وعلى الذين قطعوا الجسر أن يجرفهم الطوفان. ولقد ظلّ الطوفان يعلو ويندفع ويأخذ في طريقه كل من يصادفه حتى ليبتلع الرجعيين والمعتدلين، ثم يعود فيبتلع المتطرفين واليعاقبة وعلى رأسهم روبسبيير وفوكيه تونفيل، ثم يعود فيبتلع قضاة المحكمة الثورية ومحكميها وجلاديها ومعهم الدكتور جيوتان مخترع المقصلة، التي سمّيت باسمه (الجيوتين)[٤٩٠].

الثـورة والبنـاء

لئن تخبطت الثورة الفرنسية في مستنقع الإرهاب، إلا أنها تعهدت نهضة شاملة ليس في فرنسا وحسب، بل على مستوى العالم أجمع. ولا بد لنا أن نعترف لها بعظيم الفضل من حيث أنها حطمت النظام القرن أوسطي مع كل ما يحمله هذا

---

(٤٨٩) المرجع السابق (ص ١٥١).

(٤٩٠) جمال بدوي - الطغاة والبغاة (ص ١٢١).

النظام من تخلف وقهر وأنشأت نظاماً جديداً كان البداية الحقيقية لعصر العقل. وقد كان لها أثر كبير على تطور الشعوب في مختلف أرجاء العالم، ولئن عاداها ملوك أوروبا، إلا أنهم ما لبثوا أن اقتنعوا بالتغيير الذي أحدثته، وكان أهم نتيجة لهذه الثورة هي إلغاء الرق وبذلك أصبح جميع سكان فرنسا مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، وبرزت النزعة القومية بعد الثورة، فقد أمر المؤتمر الوطني بإصدار بطاقات الهوية للمواطنين الفرنسيين عام ١٧٩٣ وكان هذا شيئاً جديداً، كما صوّت المؤتمر الوطني في ١٩ كانون الأول ١٧٩٣ على قرار تنشأ بموجبه مدارس الدولة الابتدائية، يمزج منهاجها ثقافة الروح وثقافة الجسد المناقبية والرياضة والتعليم والخبرة، على أن تكون هذه المدارس مجانية وعلمانية وإجبارية وفق منهاج تشرف عليه الدولة، غير مركزي يتفق تماماً مع العقلية الشعبية[٤٩١]، وصدر عن الثورة مبدأ هام وهو عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، وبذلك فقد ألغي نظام الغزوات، وقد أصبح هذا المبدأ الهام فيما بعد أساسياً في ميثاق الأمم المتحدة الحالية، على أن أهم ما تمخض عن الثورة الفرنسية هو إعلان حقوق الإنسان الذي أصدرته الجمعية التأسيسية في ١ آب ١٧٨٩ وهذا الإعلان ذو أهمية كبيرة، لا في تاريخ الثورة الفرنسية فقط، بل كذلك في تاريخ الحركة التحررية العالمية، وفي مقدمة الإعلان تأكيد على احترام حقوق الإنسان الطبيعية وأنها حقوق لا يمكن التخلي عنها أو المساس بها، وأن تجاهل هذه الحقوق هو السبب فيما يحلّ بالأمة من أزمات ونكبات، و في ظهور حكومات فاسدة تجلب الشرّ على الشعوب. وقد صيغت هذه الحقوق والمبادئ في سبع عشرة مادة، تولى صياغتها تلامذة الفلاسفة في الجمعية التأسيسية تنصّ على:

❖ يولد الناس أحراراً ويعيشون أحراراً ومتساوين في الحقوق. والامتيازات الاجتماعية لا تؤسس إلا على المنفعة العامة لا الخاصة.

(٤٩١) ألبير سوبول – تاريخ الثورة الفرنسية (ص ٣٧١).

❖ وهدف أية مؤسسة سياسية هو الحفاظ على حقوق الإنسان الطبيعية، والتي لا يمكن التنازل عنها وهي: الحرية، حق الملكية، والشعور بالأمن ومقاومة الظلم.

❖ الأمة هي صاحبة السيادة، وليس لشخص أو جماعة أن يمارسوا السلطة إلا إذا استمدّوها من الأمة.

❖ الحرية تعني أن للفرد الحق في أن يقوم بكل ما لا يضرّ بالآخرين وأن يكون للآخرين حق القيام بما يشاؤون طبقاً للقانون.

❖ القانون هو المصدر الوحيد الذي يحدد الممنوعات والمحظورات وأية قيود تفرض على الفرد غير مستمدة من القانون غير شرعية.

❖ القانون هو تعبير عن الإرادة العامة، ولكل فرد الحق في أن يشارك في وضع القانون بنفسه أو عن طريق مندوب عنه، وكل مواطن يقف على قدم المساواة مع الآخرين أمام القانون، وله الحق في شغل الوظائف والمراكز العامة كل حسب قدراته دون أية تفرقة بين شخص وآخر إلا على أساس إمكانية الشخص في شغل هذا المنصب أو ذاك.

❖ لا يقبض على أي شخص أو يحبس إلا طبقاً للحالات التي نصّ عليها القانون، ويعاقب كل شخص يعمد إلى استخدام أساليب عدوانية في هذا الصدد.

❖ إن إنزال العقوبة بأي شخص يجب أن يتم بمقتضى القانون.

❖ المتهم بريء حتى تثبت إدانته.

❖ لا جناح على أي شخص بسبب آرائه الخاصة، حتى لو كانت متعلقة بالأمور الدينية، على ألا تنطوي هذه الآراء على إخلال بالنظام الذي ينشده القانون.

❖ إن حرية تبادل الأفكار والمعلومات والآراء هي من أثمن حقوق الإنسان، ولكل شخص الحق في أن يتحدث وأن يكتب وأن ينشر آراءه بحرية، ولكنه سيكون مسؤولاً عما يصدر عنه طبقاً للقانون.

❖ إن حرية وسلامة المواطنين تتطلب جيشاً يوضع في خدمة المجموع وليس

لخدمة من توضع مقاليد الجيش في أيديهم.

❖ لتمويل الإدارة الحكومية والجيش، توزع الأعباء المالية على المواطنين، كلّ حسب مقدرته.

❖ كل مواطن له الحق في المساهمة في فرض الأعباء العامة، وفي بحث أساليب فرض الضرائب ومدى سريان مفعولها[٤٩٢].

❖ للمواطنين الحق في مراقبة الأموال العامة وإدارتها، إما بأنفسهم أو بواسطة ممثليهم[٤٩٣].

❖ اعتماد مبدأ فصل السلطات، إذ بدونه لا يقوم الدستور[٤٩٤].

❖ الملكية حق طبيعي سابق للقوانين المكتوبة بموجب المادة ٢ ومعصومة ومقدسة، بموجب المادة ١٧ فلا يمكن بالتالي حرمان أحد منها إن لم يكن للضرورة العامة المقررة شرعا، وشرط تعويض مسبق وعادل[٤٩٥].

ولا شك أن هذه الوثيقة قد صيغت لأهداف عالمية وليس لتحقيق أهداف فرنسية، وستظل هذه الوثيقة ركناً أساسياً من أركان الدساتير في معظم الدول الحديثة، الأمر الذي أضفى على الثورة الفرنسية مكانة سامية بين الثورات التحررية العالمية، ولئن انتهت الثورة إلى حكم دكتاتوري تمثل بشخص الإمبراطور نابوليون بونابرت ١٧٦٩ - ١٨٢١ إلا أن وهجها كان كافياً لتأسيس ديمقراطية حقيقية استطاعت مع مرور الزمن أن تتأصّل بالمجتمع الفرنسي وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من تكوينه.

---

(٤٩٢) عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث (ص ٣٧٩).

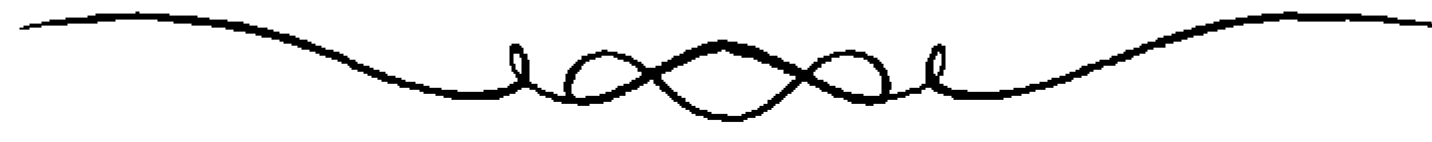
(٤٩٣) ألبير سوبول - تاريخ الثورة الفرنسية (ص ١٦٠).

(٤٩٤) المرجع السابق (ص ١٦٠).

(٤٩٥) المرجع السابق (ص ١٥٩).

الباب الخامس

الأنظمة الأيديولوجية والطغيان



❖ تمهيد
❖ الفصل الأول : الاشتراكية الشيوعية
❖ الفصل الثاني : الاشتراكية الوطنية
❖ الفصل الثالث : الفاشية الإيطالية

تمهيد

لم تقف عجلة الحياة عن التطور بعد قيام الثورة الفرنسية، بل لقد شهد القرن التاسع عشر ازدهاراً واسع النطاق شمل جميع نواحي الحياة في أوروبا. وتطورت العلوم وبلغت أوجها في هذا القرن، وظهرت نظريات تفسّر الكون من منطلق علمي وانتشرت الأفكار الإلحادية على نطاق واسع، وازداد الاهتمام بالصناعة وظهرت المصانع الآلية، وكانت المجتمعات الأوروبية تتحول تدريجياً من مجتمعات زراعية إلى مجتمعات صناعية وتجارية. وما لبث أن ظهرت الفروق الطبقية وزاد عدد الفقراء نتيجة ارتقاء الرأسمالية وظهرت النزعات القومية وبلغ الحقد بين الأمم الأوروبية مداه نتيجة التهافت على الاستعمار. وكان كل ذلك مدعاة لظهور أفكار ثورية تؤمن بالثورة وسيلة للتغيير نحو الأفضل، وبزغ فجر الأيديولوجيات الثورية نتيجة وعي الطبقات الكادحة لواقعها ومصيرها. ولم تجد أيٌّ من الأفكار الثورية طريقها إلى النور إلا مع استهلال القرن العشرين، فحدثت الثورة البلشفية في روسيا وظهرت أنظمة شمولية[٤٩٦] كالنظام النازي في ألمانيا والنظام الفاشي في إيطاليا، كما تحولت الثورة البلشفية في روسيا إلى نظام شمولي قائم على القهر والتعذيب. وكان لهذه الأنظمة أثر كبير على مجريات الأحداث في القرن العشرين وذلك بما أحدثته من مجازر ومن خراب ودمار. وجدير بنا أن نقف على جرائم هذه الأنظمة بحق شعوبها وبحق الإنسانية كلها، لأن استخلاص العبر لا يكون إلا من الكوارث وسنبحث في جرائم الشيوعية، كما نتناول جرائم النازية والفاشية وأعظم هذه الجرائم هي الحرب العالمية الثانية.

---

(٤٩٦) النظام الشمولي هو شكل من أشكال التنظيم السياسي يقوم على إذابة جميع الأفراد والمؤسسات والجماعات في الكلّ الاجتماعي (المجتمع أو الشعب أو الأمة أو الدولة) عن طريق العنف والإرهاب، ويمثل هذا الكل قائد واحد يجمع في يديه كل السلطات، وهو في الغالب شخصية كارزمية له قوة سحرية على جذب الجماهير، ولهذا يلقبونه ((بالزعيم))

الفصـل الأول

الاشتراكيـة الشيوعيـة

الشيوعية بين الفكر والواقع:

كانت الشيوعية إحدى تلك الأفكار التي راودت الكثير من المصلحين عبر التاريخ، إلا أنها كانت تبقى حلماً يعزّ تحققه في الواقع، وظهرت في أوروبا دعوات شيوعية نادت بها بعض الشيع الدينية كشيعة.. الهادمين Ronters التي ظهرت في منتصف القرن السابع عشر وبالذات في الفترة بين ١٦٤٩ و ١٦٥١ بإنجلترا وكانت هذه الشيعة تدعو إلى المشاعية "فالملكية الفردية هي التي تعلم الإنسان السرقة، فلو كانت الأشياء على المشاع لما فكر في السرقة" وظهرت شيع أخرى بإنجلترا لها نفس الاتجاهات الشيوعية، كشيعة الذين يجعلون (عاليها واطيها) Levellers وجماعة (الحفارين) Diggers الذين قاموا عام ١٦٤٩ باحتلال جبل القديس جورج في منطقة (سرى) في ضواحي لندن وبدأوا يحرثون الأرض ويزرعونها بالخضراوات لأن الله كما يقول جيرارد ونستالي في كتاب له بعنوان (الذين يجعلون عاليها واطيها) جعل الأرض مشاعاً للجميع[٤٩٧]. وشهدت فرنسا قطاعات مختلفة من الاشتراكيين الذين استمر نشاطهم منذ الثورة الفرنسية الكبرى. وشكل هؤلاء الاشتراكيون مجتمعاً صغيراً يحثّه الإيمان والرغبة في تفجير الأحداث الكامنة بانتظار من يحققها. وكان من أشهر الاشتراكيين الفرنسيين آنذاك (بابوف) الذي كان يدعو إلى إقامة مجتمع شيوعي إلا أن نشاطه الاشتراكي أودى به إلى المقصلة عام ١٧٩٧ وظهر كذلك اشتراكي آخر هو (برودون) Proudhon الذي ألّف كتابه الشهير في أوروبا (ما هي الملكية ؟..) وقد أجاب عن هذا السؤال في كتابه بأن

---

(٤٩٧) د. رمسيس عوض - الإلحاد في الغرب (ص ٩٣).

(الملكية هي سرقة) [٤٩٨]. إلا أن الاشتراكية وجدت نصيراً قوياً هو كارل ماركس Marx 8181 - ١٨٨٣ الذي استطاع أن يضع أيديولوجية ثورية للحركة الاشتراكية، وقد انطلق في بحثه من الديالكتيك (الجدل) الهيجلي، ورأى أن مجرى التطور التاريخي يتكيف حتماً بفعل القوى الاقتصادية عن طريق أهم مصدر من مصادر الثروة، وهي عوامل الإنتاج. والطبقة التي تستطيع امتلاك وسائل الإنتاج تتمكن من الاستيلاء على مقاليد الحكم، اعتماداً على سلطانها الاقتصادي، لأن وسائل الإنتاج وأساليب توزيع الثروة هما أساس الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وألّف ماركس مع صديقه الاشتراكي فريدريك أنجلز بالإضافة إلى كل من شابر و باور ومول، وهم من المهاجرين الألمان في لندن (العصبة الشيوعية) عام ١٨٤٧ وقد عمل ماركس وأنجلز Engels دون كلل لتسلّم مركز رئاسة العصبة، وبعد تأكدهما من تفوقهما في الفكر الاشتراكي وجدا مناسبة لوضع قانون شامل عن الشيوعية الثورية باسم جماعة صغيرة عرفت باسم (الحزب الشيوعي الأوروبي) فوضع أنجلز المخطوطة الأولى وحققها ماركس في صيغتها النهائية[٤٩٩].

وقد سمّي هذا القانون (البيان الشيوعي) Manifest of Communist وهو عبارة عن وثيقة ولادة الاشتراكية العلمية Scientific Socialism ، وهو بمثابة برنامج للحزب الشيوعي وهو يشكّل أعظم وأهم كتاب في الجدل السياسي للبشرية[٥٠٠]. وقد نشر هذا البيان عام /١٨٤٨/ في كتيب صغير في لندن، كما أن الاشتراكية التي يبشر بها البيان ليست مجرد برنامج سياسي أو تعبير عن مآسي الفقراء، إنه دعوة لعهد جديد للإنسانية يخاطب عالماً حيث لا يزال الدين والتقاليد الأخلاقية البالية جزءاً حيّاً منه لصالح بعض المتسلطين، بينما قضت العلوم والعلوم

(٤٩٨) سي. سبريغ ماركس (ص ٦٦).

(٤٩٩) سي. سبريغ ماركس (ص ٨٢).

(٥٠٠) هرمان دونكر - دراسة البيان الشيوعي (ص ١١).

التطبيقية - أي الصناعة الحديثة - على الدين القديم والأخلاق البالية[٥٠١]. ولكن ما زال الصناعيون أسياد العالم الجديد، يتمسكون بها، ومن ثم فإن مهمة الشيوعيين هي إزالة هذه التسويات ووضع مفاهيم أخلاقية جديدة أكثر إنسانية. وتشير العبارات الأولى في البيان إلى أن اضطهاد الشيوعية لا يقتصر على محاولات الحكومات الأوروبية وحسب، وإنما أصبحت هدفاً لانتقادات ومعارضة (الأحزاب التي تدعي التقدمية). ومن هذا الواقع يُستنتج أمران: إن قوى أوروبا كلها أصبحت تعترف بالشيوعية كقوة، وأنه قد حان الوقت للشيوعيين أن يعرضوا أمام العالم كله طرق تفكيرهم وأهدافهم واتجاهاتهم، وأن يواجهوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه[٥٠٢].

وبعد مراجعة شاملة لنظم العالم القديم والوسيط يتطرق البيان إلى توكيد نظرة جازمة عن العالم الحديث وهي: أن الذين حاربوا باسم الحرية والتقدم للحدّ من سلطات الملوك ورجال الكنيسة والنبلاء وتسلموا زمام السلطة فسيطروا على وسائل الإنتاج التي لا يمكن بدونها تحقيق الإنتاج، هؤلاء أنفسهم أخضعوا تلك الوسائل لسلطتهم أي أنهم أخضعوا جميع الذين غير متملكين، وبينما يشير التاريخ القديم إلى أن المتسلطين المتعاقبين قد حددوا من سلطة بعضهم البعض، فإن البورجوازية أو أصحاب الممتلكات في المجتمع الحديث قد نجحوا إلى حدّ ما حتى أنهم أصبحوا يشكلون أكثر فأكثر طبقة حاكمة في مواجهة الطبقة الأخرى الأكثر عددا وهي الطبقة المحرومة أو طبقة العمال (البروليتاريا) Proletariat، لكن الطبقة البورجوازية قد رسخت مركزها بأنها الطبقة الداعية إلى التغيير والتقدم ضد القوى المتزمتة القديمة. ومن ثم لا يمكن أن ترضى بما حققته إذ عليها أن تعمل إلى الأبد من أجل توسيع مدى سلطتها التي هي بمثابة أرباحها، وهذه الطبقة

---

(٥٠١) سي. سبريغ ماركس (ص ٨٣).

(٥٠٢) هرمان دونكر - دراسة البيان الشيوعي (ص ١١٠).

عليها أن تورد السلع إلى الأسواق الجديدة، وتتخلص من وسائل الإنتاج القديمة في المناطق النائية من العالم ولا يمكن لهذه الطبقة التراجع عن الأسواق الجديدة أو النواحي المهملة من الأسواق القديمة، بما أن القوى العاملة التي يسيطرون عليها تقدم متطلبات أسواق بالغة الاستيعاب، وبما أن هذه الطبقة لا تستطيع اكتشاف طبقات جديدة دوما، فإن طاقاتها الإنتاجية لا بدّ أن تتراكم بين الفينة والأخرى بشكل سلع هائلة لا أسواق لها. وهذا ما يشكل أزمة تجارية أو أزمة فائض الإنتاج التي لم يعرفها تاريخ العالم من قبل[٥٠٣].

وكل أزمة أكثر حدة من سابقتها مما يصعب التغلب عليها بما أن العالم محدود ولا توجد أسواق جديدة، ومن ثم لا بدّ للبورجوازية من تحديد أجور العمال، أما الذين يفشلون في هذا الإجراء فيتعرضون لضغط هائل، ولا يتبع الشيوعيون أفكاراً ابتكرها الإنسانيون، إذ أنهم يراقبون جيداً الصراع الطبقي ومن ثم ينظمون أنفسهم لتشكيل طبقة عمالية تطيح بالبورجوازية وتصبح السلطة السياسية بيد العمال. ويودّ الشيوعيون تحطيم سلطة البورجوازية في مجتمع تحتكر فيه البورجوازية الحرية والملكية والحياة العائلية والدولة، بينما تقبع الأكثرية الساحقة تحت نير الاستعباد والحرمان، ولن يحقق الشيوعيون هذه المبادئ إلا بعد تعديل حقوق الملكية، آخذين بالاعتبار تفاوت الأوضاع في البلدان المختلفة[٥٠٤].

ثم يراجع البيان المدارس المختلفة للفكر الاشتراكي، التي ساهمت في وضع برامج الإصلاح والتغيير بدون ثورة، ولكنه يتغاضى عنها، إذ أن الشيوعيين وحدهم قادرون على إثبات أنفسهم بوصفهم حماة هذه القضية بالرغم من أنهم في سعيهم نحو التقدم يعقدون تحالفات مع جماعات أخرى. وقد تحاول الطبقات المتملكة زعزعة نفوذ الثورة الشيوعية، لكن البروليتاريا ليس لديها ما تخسره سوى القيود

(٥٠٣) سي. سبريغ ماركس (ص ٨٤).

(٥٠٤) المرجع السابق (ص ٨٦).

التي تكبّلها لتكسب العالم بعد ذلك[٥٠٥]. وبينما توجه البيان إلى العالم بكامله في دعوة البروليتاريا (عمال العالم) إلى الإضراب من أجل الحرية، يعترف الكاتبان بأن أقطار العالم تتفاوت في مراحلها التطورية اجتماعياً واقتصاديا[٥٠٦]. والبيان قد كُتب في أجزائه الأساسية من أجل الحاضر وبالدرجة الأولى من أجل حاضر يستمر طالما هناك رأسمالية، وبما أن القسم الأكبر من العالم يسوده نمط الإنتاج الرأسمالي والطبقة الرأسمالية، فإن هذا المحتوى الفكري الخاص بالبيان، سيبقى معاصراً بالتأكيد[٥٠٧].

وقد كان للبيان أصداء واسعة في أوروبا، لأنه كان أول دراسة تبحث في النظام البورجوازي الحديث الولادة في أوروبا، والمدهش أن ماركس وأنجلز أدركا وقتئذ أي عام ١٨٤٧ بوضوح ودقة، جوهر المجتمع الرأسمالي. وقد تمكّنا في بعض النواحي من وصف الرأسمالية في عصرنا الحاضر أي مرحلة تطورها الإمبريالي - انطلاقاً من مرحلتها الجنينية[٥٠٨]. وانتشرت الحركة الشيوعية في أرجاء مختلفة من أوروبا إلا أنها لم تستطع الوصول إلى السلطة إلا في روسيا إثر قيام الثورة البلشفية عام ١٩١٧ التي تزعمها فلاديمير أوليانوف لينين Lenin - ١٨٧٠ - ١٩٢٤ وكان لينين يعتنق الفكر الماركسي لذلك استطاع خلق دولة اشتراكية في روسيا القيصرية.

الثـورة البلشفيـة وظهـور لـينين

لم تنطبق نظريات كارل ماركس على الثورة الشيوعية في روسيا، لأن ماركس اعتقد أن الثورة التي تنبأ بها سوف تبدأ في أكبر الدول الصناعية، نتيجة انهيار النظام الرأسمالي. فالنظام الرأسمالي - كما يقول ماركس - يحتوي في داخله على

(٥٠٥) سي. سبريغ ماركس (ص ٨٧).

(٥٠٦) المرجع السابق (ص ٨٨).

(٥٠٧) هرمان دونكر - دراسة البيان الشيوعي (ص ١٣).

(٥٠٨) المرجع السابق (ص ٢١).

عوامل هدّامة تؤدي إلى سقوطه، ولكن روسيا كانت من أقل الدول تقدماً في الصناعة، ونظامها الرأسمالي لم يكن قد تدهور إلى الحدّ الذي وصفه ماركس. والواقع أن الثورة الروسية قامت نتيجة عاملين لم يخطرا على بال ماركس، ولا يمتان إلى فلسفته بصلة وأول العوامل التي أدّت إلى قيامها هي ظروف الحرب وفشل الحكومة خلال الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى سقوط القيصر، ولولا هذا لظل الحكم القيصري ثابتاً لمدة طويلة في روسيا. والعامل الثاني هو أن لينين - بمقدرته العظيمة وكفايته الممتازة - قد أخذ على عاتقه أن يقوم بإحداث الانقلاب(٥٠٩).

وكان الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي كان ينتمي إليه لينين قد انقسم على نفسه في سنة ١٩٠٣ وكان الخلاف في أول الأمر بسبب التنظيم الداخلي للحزب، ثم اتسعت هوة الخلاف حتى أصبح الحزب فريقين، وقد اجتمع أعضاء هذا الحزب في لندن ١٩٠٣ وانقسمت الآراء فيما بينهم على تنظيم الحزب، وعلى مسألة التعاون مع الأحزاب الأخرى التي تميل إلى الاعتدال في طلب الإصلاح. ففريق منهم يتزعمه (لينين) كانوا يعارضون أي تعاون مع الأحزاب المعتدلة البورجوازية، ولا يوافقون على سياسة الاعتدال أو الإصلاح بالتدريج، بل يريدون أن تصل الطبقة الكادحة إلى أهدافها في الحال. أما الفريق الثاني فكانوا يرون تطبيق النظام الاشتراكي بالتدريج، وكان هذا الفريق لا يمانع في التعاون مع الأحزاب الأخرى.

ولما أخذت الأصوات على هذين الرأيين انضمت الأغلبية إلى ((لينين) ولذلك أصبحوا يعرفون باسم (البلشفيك)Bolsheviki أما الفريق الآخر فأصبحوا يعرفون باسم (المنشفيك) Mensheviki أي الأقلية(٥١٠). وعندما قامت الثورة الروسية في ربيع عام ١٩١٧ أجبر القيصر نيقولاي الثاني على التنازل عن العرش، وتشكلت حكومة مؤقتة، إلا أن الطبقات الشعبية من العمال والفلاحين لم تكن

---

(٥٠٩) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٦٦).

(٥١٠) المرجع السابق (ص ٢٣٩).

راضية عن هذه الحكومة، وقد استغل لينين الغضب الشعبي فدعا اللجنة المركزية للحزب البلشفي إلى اجتماع سرّي في شهر أكتوبر، تقرر فيه القيام بثورة مسلحة ضد الحكومة القائمة وأعد البلشفيك لكل شيء عدّته حتى ينجح الانقلاب وفي مساء ٦ نوفمبر أعلنوا أن أعداء الثورة بدأوا يرفعون رؤوسهم، وأن القواد القيصريين يريدون القضاء على المؤتمر العام للسوفييت والجمعية الدستورية، وكان هذا المجلس قد تشكل بعد قيام الثورة من العمال والفلاحين، وسرعان ما احتلت القوات البلشفية أبنية المرافق العامة في العاصمة بتروغراد أثناء الليل، وعندما أصبح الصباح صدر بلاغ بلشفي يعلن سقوط الحكومة المؤقتة.

وقبض على جميع أفرادها ما عدا الرئيس الذي استطاع الفرار، وانتخب لينين رئيساً للمجلس السوفيتي لوكلاء الشعب، وانتخب الثوري تروتسكي Trotsky وزيراً للخارجية. وبعد الاستيلاء على السلطة بقليل تحدث لينين قائلا: "سوف نبني الآن على أرض أزيلت منها أنقاض التاريخ، البناء المهيب والوضّاء للمجتمع الاشتراكي، ونخلق نموذجاً جديداً للدولة مجهولاً من قبل مدعوّاً بإرادة الثورة إلى تنظيف الأرض من كل استغلال ومن كل عنف ومن كل استعباد، الآن كل المعجزات التقنية وكل مكاسب الثقافة ستصبح تراث الشعب بأسره، ومن الآن فصاعداً لا الفكر ولا العبقرية البشريان سيتحولان إلى وسائل عنف ووسائل استغلال"[٥١١].

إلا أن هذا الطموح اللامحدود كانت تقابله إمكانات محددة للغاية، فلحلّ المشكلات التي لا تحصى والتي كانت تطرح على البلشفيين الروس، ما كان بوسعهم إطلاقاً أن يعتمدوا على نجدة العقيدة، ولقد رأى لينين أن أول المشاكل التي يجب الخلاص منها هي الخروج من الحرب العالمية، لذلك وبعد مضي أسبوعين على ثورة نوفمبر أرسل تروتسكي مذكرة إلى الممثلين الدبلوماسيين في العاصمة الروسية يقول فيها: "إن الحكومة السوفيتية تنوي أن تقترح على جميع الشعوب وحكوماتهم عقد

---

(٥١١) مارسيل ليبمان – اللينينية في ظل لينين (ص ٧).

هدنة سريعة في الميادين تمهيداً لعقد صلح ديمقراطي". وقد تجاهلت دول الوفاق مذكرة تروتسكي، أما دول الوسط الذين كانوا يريدون خروج روسيا من الحرب، فقد قابلوا اقتراح السوفييت بسرور وترحيب، وقد فتح باب المفاوضات في ٣ ديسمبر في مدينة (برست ليتوفسك) Brest Litovsk ثم أعلنت الهدنة بين روسيا ودول الوسط (ألمانيا، النمسا، تركيا، وبلغاريا)، وتم توقيع معاهدة برست ليتوفسك في ٣ مارس ١٩١٨[٥١٢]، و بمقتضاها وافقت روسيا على.

١. التنازل عن بولندا ولتوانيا وترك تقرير مصير تلك البلاد للبتّ فيه بين ألمانيا والنمسا أهالي تلك البلاد.

٢. الجلاء عن لتوانيا وأستونيا وفنلندا.

٣. الجلاء عن أوكرانيا والاعتراف بالمعاهدة التي أبرمتها جمهورية الشعب الأوكراني ودول الوسط.

٤. التنازل لتركيا عن أردهان وفارس وباطوم.

٥. الامتناع عن نشر الدعاية البلشفية في الأراضي التي تسيطر عليها دول الوسط.

وهكذا عقد البلشفيك صلحاً كلفهم أن يفقدوا حوالي خمسمائة ألف ميل مربع من الأرض يسكنها حوالي ٦٦ مليون نسمة، ولكن البلشفيك كانوا إذّاك يتطلعون إلى فترة سلام يستطيعون خلالها أن ينظموا أنفسهم لبناء دكتاتورية الطبقة العاملة (البروليتاريا).

الحرب الأهلية والإرهاب

بعد أن استقر البلاشفة في السلطة وجدوا أنفسهم أمام معضلات كبيرة، لا بدّ لهم من التغلب عليها كي يستقيم لهم الأمر، وكان الجوع والبطالة اللذان يفترسان المجتمع الروسي في قمة هذه المعضلات، كما أن العناصر المعادية للثورة لم

(٥١٢) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٥٣).

تسلّم بسهولة بالأمر الواقع، وكان البلاشفة يتوقعون حصول مواجهة مع العناصر المعادية لنظامهم وهذا ما أعلنه لينين في المؤتمر السابع للحزب البلشفي المنعقد في آذار ١٩١٨ لا يغرب عن بال الماركسيين أبداً أن العنف سيرافق حتماً انهيار الرأسمالية الكامل وولادة المجتمع الاشتراكي[(٥١٣)].

وكان العنف قد أفلت من قيوده في روسيا في بداية ربيع عام ١٩١٨ وقد تفاقم وأخذ أشكال الإرهاب المكثف والمنهجي، وأشبع جو البلد طيلة الحرب الأهلية وطبع لوقت طويل سمات المجتمع السوفيتي، إلا أنه يجب القول، إن الحرب الأهلية كانت في الواقع معركة حياة أو موت، نشبت بين البلاشفة وبين الأشراف ورجال الدين، والجمهوريين المعتدلين والضباط السابقين من أنصار القيصرية. ولم يكن مقدراً لتلك المعركة بين البلاشفة وأعدائهم في الداخل أن تستمر طويلاً لولا تدخل الحلفاء كطرف في الصراع. فلقد غاظهم ذلك التسليم للألمان في أحرج الأوقات وعزموا على تقوية الأحزاب البورجوازية التي تؤيد مواصلة الحرب والعودة إلى الجبهة الشرقية، ورأوا في الوقت نفسه الإسراع في إرسال الرجال، والمال، والذخيرة إلى روسيا لاستعمالها ضد الروس (الحمر) وكانت فرنسا أشد الدول سخطاً على الانقلاب الروسي، الذي قضى على التحالف الروسي الفرنسي، وأضاع عليها الديون الطائلة التي أقرضتها للحكومات الروسية السابقة، والتي جاء البلشفيك فأعلنوا عدم ارتباطهم بها[(٥١٤)].

وقد حاول البلاشفة بعد وصولهم إلى السلطة أن يشيعوا جواً من الأمن في البلاد، فالحراس (الحمر) عندما استولوا على قصر الشتاء في بتروغراد حيث كان مقر الحكومة المؤقتة، أطلقوا سراح تلامذة الضباط الذين كانوا قد قاتلوهم مكتفين بكلمة (شرف) أنهم لن يحملوا السلاح ضدهم. وبعد أيام نظمت فرقة (تلامذة

(٥١٣) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ١٤٠).

(٥١٤) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٥٥).

الضباط) ذاتها انتفاضة مسلحة في العاصمة، وقد تغلب عليها البلاشفة بسهولة وبعد ذلك أطلقوا مرة أخرى سراح أسراهم، وقد حصل كراسنوف قائد القوات المعادية للثورة المكلفة باستعادة بتروغراد، على حريته لقاء وعد بأنه لن يعود إلى قتال السوفييت، وانخرط في الحال في صفوف القوات المعادية للبلاشفة التي كانت تتشكل في جنوبي البلاد.

وفي موسكو حيث كانت الثورة أكثر دموية عومل مقاتلو القوات (البيضاء) بالطريقة نفسها، رغم المجازر التي ارتكبوها بحق الأسرى، وفي المقاطعات تم استيلاء البلاشفة على السلطة دون انفجار عنيف، وتم إطلاق سراح أعضاء الحكومة المؤقتة الذين كانوا قد أوقفوا من قبل. وخلال الأشهر الأولى من حكم البلاشفة كان الجو هادئاً نسبياً ولم يصدر حكم واحد بالإعدام، ولم يتم إعدام واحد لاسيما أن أحد المراسيم الأولى للسلطة السوفيتية كان يقضي بإلغاء عقوبة الموت[٥١٥]. إلا أن الظروف كانت تتضافر آنذاك باتجاه العنف والتدخل الأجنبي أزكى ناره. فعندما تحطم الجيش التركي وانسحبت تركيا من الحرب (نوفمبر ١٩١٨) اقتحم الفرنسيون البحر الأسود وضربوا (أوديسا) بالقنابل واستولوا عليها. بينما احتلت بعض الفرق البريطانية بعض أراضي القوقاز واستولت على (باكو) وذلك لتشجيع العناصر الروسية المعادية للبلشفيك على اتخاذ تلك الأقاليم مواطن للتآمر على قلب نظام الحكم السوفيتي. وقوي الأمل في نفوس العناصر الروسية المعارضة (الروس البيض) وأقدمت على تنظيم قواتها بمساعدة تلك الفرق الأجنبية لإقامة (حكومات بيضاء) وفعلاً تأسست حول مورمانسك Murmansk وأركانجل Archangel (حكومة روسيا الشمالية المؤقتة). وقام الأدميرال اسكندر كولجاك Kolchak القائد السابق للأسطول الروسي في البحر الأسود بتأسيس حكومة روسية أخرى في (أومسك) بسيبيريا، وذلك بمعاونة الحلفاء والجنود

(٥١٥) مارسيل ليبمان – اللينينية في ظل لينين – ج٢ (ص ١٤٢).

التشيك، وقام غيره من القواد الروس المعادين للنظام الجديد بتأسيس حكومات أخرى في جنوب روسيا وجنوب أوكرانيا والقرم(٥١٦).

وقد أعدّ البلاشفة عدّتهم للمواجهة فتأسس الجيش الأحمر وتولى تروتسكي تدريبه بشكل مباشر، كما أعدّ البلاشفة فرقة لحماية الأمن الداخلي تدعى (شيكا) Sheka وقد تكونت هذه الفرقة بعد ثورة نوفمبر مباشرة، كحماية لحفظ النظام في العاصمة، ولكنها سرعان ما تحولت إلى أداة إرهاب لمواجهة العناصر التي تعتبر معادية لنظام الحكم السوفيتي ومحاكمتهم وإعدامهم رمياً بالرصاص. ومع بدايات الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي اختارت السلطة البلشفية الإرهاب بدورها مستسلمة لروح المرحلة، وقد ساهمت الاعتداءات المتكررة على الزعماء البلاشفة في اشتداد وتيرة الإرهاب. فقد حدثت محاولة اغتيال فاشلة ضد لينين في أول كانون الثاني ١٩١٨ وكذلك محاولة اغتيال فاشلة ضد تروتسكي في بداية شهر آب وأخيراً في نهاية الشهر ذاته تم اغتيال أورتيسكي والاعتداء ضد لينين الذي كاد يكلفه حياته وجمّده لعدة أسابيع(٥١٧)، ومنذ شهر آب، كان زينوفييف قد أعلن في بتروغراد بدء الإرهاب، لقد أحدث الاعتداء على لينين واغتيال أورتيسكي رداً فورياً. أعلنت صحيفة الكراسناياغازيتا: "كل نقطة من دم لينين يجب أن تكلف البورجوازيين و(البيض) مئات القتلى، إن مصالح الثورة تتطلب الإبادة الجسدية للطبقة البورجوازية، إنهم عديمو الرحمة فلنكن بلا شفقة(٥١٨).

وفي شهر أيلول جرت عمليات إبادة من قبل السلطات في بتروغراد ووفقاً لمصادر رسمية جرى إعدام ثمانمائة (معاد للثورة من الحراس البيض والرهائن). وسقطت أيضاً ضحايا عديدة في المقاطعات وفي موسكو، وفي ٥ أيلول أعلنت

(٥١٦) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٥٥).

(٥١٧) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ١٤٣).

(٥١٨) المرجع السابق (ص ١٤٣).

كراسناياغازيا: "لقد تلقت البورجوازية درساً قاسياً فليدعنا أعداؤنا نبنِ الحياة الجديدة بسلام، وسوف نكفُّ عن مضايقتهم متجاهلين حقدهم الدفين، لقد انتهى الإرهاب الأحمر حتى الاستئناف القادم للإرهاب الأبيض". ولكن الإرهاب على عكس ذلك لم يتوقف بعد أيام أيلول إلا أنه أصبح أكثر تنظيماً ومنهجية وثمة ملمحان يميزان خلال الحرب الأهلية اللجوء إلى الإرهاب، يلاحظ في المقام الأول أن أشكال القمع واتساعه كانت تتوقف إلى حدّ بعيد على الوضع العسكري، فحين لاحظت السلطة السوفيتية في كانون الثاني ١٩٢٠ نهاية المعارك وعلمت أن الدول الغربية العظمى وضعت حداً لحصار روسيا، أعلنت حالاً إلغاء عقوبة الإعدام، وبعد أشهر خلال اعتداء بولندا العسكري، جرت إعادة العمل بهذه العقوبة. ومن جهة أخرى كان للإرهاب في كلا المعسكرين طابع طبقي واضح تماما، فمن جانب البلاشفة لم يترك القادة أي شك يبقى في هذا الصدد، فقد أعلن تروتسكي في خطاب ألقاه في أيلول ١٩١٨ "تهدف المعركة التي نخوضها إلى تسوية مسألة معرفة لمن ستكون البيوت والقصور والمدن وحتى الشمس والسماء، للعمال والفلاحين أو للبورجوازيين والملاكين العقاريين"، وذهب لاتسيس أحد قادة الشيكا أبعد أيضا، فقد أعلن في أول تشرين الثاني ١٩١٨: "لا تبحثوا عن براهين لإثبات أن أسيركم عارض السلطة السوفيتية قولاً أو بالأفعال، إن واجبكم الأول هو أن تسألوه إلى أية طبقة ينتمي، ما هي أصوله، ما هي درجة تعليمه ومهنته، هذه الأسئلة هي التي سوف تقرر مصيره، هذا هو معنى الإرهاب الأحمر وجوهره"[(٥١٩)].

وقد أكدت ممارسة أخذ الرهائن المختارة منهجياً من البورجوازية والأرستقراطية، وإعدامها في أوقات التوتر الأقصى أو كأعمال ثأر رداً على التدابير التي كان يتخذها البيض، الكلام الذي صرح به هذا القائد، ويبدو أن لينين دفع السلطات السوفيتية ومنذ الأشهر الأولى للنظام الجديد، لإبداء أقصى الحزم حيال

(٥١٩) المرجع ذاته (ص ١٤٤).

المعادين للثورة. وقد قال رداً على إلغاء عقوبة الموت بقرار مؤتمر السوفييت أثمة اعتقاد بإمكانية صنع ثورة من دون إعدامات ؟..[520] "وكان يطالب بإبداء انعدام الرحمة حيال العناصر المترددة والمضرة في وسطنا الخاص بنا التي ستتجرأ على إدخال الفوضى إلى مجهودنا الشاق لبناء الحياة الجديدة للشعب الشغيل" و"بإعدام الأفراد غير المنضبطين" في مصالح التموين التي كانت في أوج انعدام التنظيم وفي فترة مجاعة قصوى، وفي أيام الانتفاضة المعادية للشيوعية في نيجني - نوفغورود اعتبر من الضروري "إطلاق الرصاص على مئات العاهرات اللواتي يُسكرن الجنود ونفيهن"، وبعد أشهر قليلة طالب بعقوبة الإعدام في حالة الوشايات الكاذبة، وكذلك طالب بإعدام موظفي التموين المدانين بالبيروقراطية والعجز عن الهرع لمساعدة العمال الجائعين، وكذلك إعدام العسكريين الذين اقترفوا أعمال النهب والعنف غير القانونية، وكذلك العناصر المتذبذبة والمتناقضة ضمن الطبقة الكادحة بالذات التي لا غنى عن تطبيق العنف الثوري ضدها. وقد لخّص في نيسان ١٩٢٠ منطقه بالصورة التالية: كل من كان يقدم مصالحه الخاصة (مصالح قريته، جماعته) على المصالح المشتركة كان يعامل كمستفيد ويُعدم[521].

إلا أن من المؤكد أن البلاشفة لم يحتكروا الإرهاب لوحدهم، بل كان هناك الإرهاب البيض الذي بلغ أسوأ مراحله عندما قامت كتائب سايمون بتليورا وجيوش دنكين بتنفيذ موجة من المذابح في أوكرانيا في صيف وخريف ١٩١٩ حيث راح ضحيتها أكثر من ١٥٠ ألف شخص. وأشار معظم مؤرخي الإرهاب الأبيض والأحمر إلى أن أشكال وأنواع الإرهاب لدى الفريقين كانت مختلفة ومتنوعة، إلا أن سياسة الإرهاب البلشفية كانت أكثر تنظيماً وأفضل تنسيقاً واستهدفت كل الطبقات الاجتماعية. أما الإرهاب الأبيض فلم يكن منظماً مثل نظيره الأحمر وكانت تقوم به

---

(٥٢٠) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ١٤٤).

(٥٢١) المرجع ذاته (ص ١٤٥).

فصائل خارجة عن السيطرة حيث أنها كانت تقوم بأعمال من دون موافقة القيادة العسكرية ولم يكن النجاح حليفها في أغلب الأحيان، وكانت قوات الدفاع الداخلي للجمهورية المعروفة باسم (شيكا) من أقوى أدوات القمع البلشفي[٥٢٢]، ولما اشتد النضال بين الحمر والبيض، وجد البلشفيك أن وجود القيصر نيقولا الثاني وأسرته في معتقلهم بالقرب من بتروغراد، قد يشجع العناصر المعادية للثورة ويفتح لهم باب الأمل للرجوع إلى الحكم القيصري، فأرسلت القيصر وأسرته إلى إحدى بلدات منطقة الأورال.

وفي صيف عام ١٩١٨ استطاعت بعض قوات البيض أن تتخذ طريقها إلى تلك المنطقة، فأسرع بعض السوفييت إلى مقر القيصر وأعدموه مع أسرته رمياً بالرصاص[٥٢٣] ولئن كان شتاء ١٩١٧ - ١٩١٨ هو شتاء الاستيلاء على السلطة والانتصار البروليتاري، إلا أنه كان في الواقع شتاء البؤس أيضاً - الجوع والبرد - والتفكك الاقتصادي. فقد أدى التدهور الاقتصادي والخطر العسكري الألماني إلى تفكيك المصانع، ويروي المؤرخ السوفيتي سوبوليف أنه في نيسان ١٩١٨ كان قد جرى إغلاق ٢٦٥ من أصل ٧٩٩ منشأة صناعية في بتروغراد. وفي ربيع ١٩١٨ لم يكن مجموع سكان العاصمة يبلغ أكثر من ١,٥ مليون نسمة مقابل ٢,٥ مليون قبل عام. ويروي أحد عمال بطرسبورغ.

وفي موسكو في الفترة ذاتها كان عدد السكان قد هبط من ٢ مليون نسمة إلى مليون ونصف، تضاف إلى ذلك أضرار القحط. ففي شباط وآذار ١٩١٨ لم تتلق معظم المناطق إلا ١٢ إلى ١٣٪ من كمية الخبز التي توقعتها مفوضية التموين. وفي نيسان هبطت هذه الكمية إلى النصف، وفي المراكز الصناعية بقي العمال عدة أيام لا يتلقون حصتهم من الخبز. في بداية عام ١٩١٨ كانت هذه الحصة فضلاً عن ذلك ٥٠

(٥٢٢) الكتاب الأسود عن الشيوعية.

(٥٢٣) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٥٦).

غرام خبز في اليوم، كانت السوق السوداء قد غدت وسيلة البقاء الرئيسية رغم الأسعار الباهظة جداً المتداولة فيها، حوالي شهر نيسان، وصف جاك سادول وكان مراقباً إيجابياً تجاه النظام، وصف هكذا وضع موسكو التي رقّيت قبل شهر إلى مرتبة عاصمة: في الضواحي يستشري البؤس المخيف، وتعيث الأوبئة فسادا، التيفوس، الجدري، أمراض الأطفال، الأطفال يموتون بكثافة، والذين يلتقيهم المرء موهنون جلد على عظم، مثيرون للرثاء، في الأحياء العمالية غالباً ما تلتقي أمهات بائسات شاحبات هزيلات، يحملن بين أذرعهن في نعش خشبي صغير مفضض يشبه المهد، الجسم الصغير الهامد الذي كان سيبقى حياً لو توفر له قليل من الخبز والحليب[٥٢٤].

وقد ركّز اللينينيون كل سلطة الدولة في أيديهم ولم تشارك الأحزاب الاشتراكية الأخرى إطلاقا، بل اتجه النظام نحو حظرها وتصفيتها، ويكشف موقف البلاشفة حيال خصومهم الاشتراكيين - الثوريين والمناشفة - كما حيال الفوضويين عن اتجاه مشؤوم نحو النظام الشمولي، والحقيقة كانت حالة الاشتراكيين - الثوريين - هي الأكثر إثارة للبلبلة، للوهلة الأولى طالما أن لينين كان يبدي اهتماماً بالاستناد إلى غالبية السكان وكان عليه بالتالي أن يحظى بدعم الفلاحين الذين كان الحزب الاشتراكي - الثوري المعبر السياسي عنهم تقليديا. ففي مناسبة الاستيلاء على السلطة عام ١٩١٨ أعلن أن إرادة الأكثرية هي دائماً ملزمة بالنسبة إلينا، والوقوف في وجهها يعني خيانة الثورة[٥٢٥].

وكان الحزب الاشتراكي الثوري يتكون من الانتلجينسيا الريفية موظفي القرى ومستخدمي إدارة (الزمستفوات) والتعاونيات وأولاد الكهنة وبوجه خاص المدرسين. وبدا هذا الحزب معادياً للثورة منذ الأيام الأولى أو الساعات الأولى للنظام السوفييتي. ولم تفتر عزيمته في مقاومة البلاشفة، فشرع في ممارسة

---

(٥٢٤) المرجع ذاته (ص ٢٢).

(٥٢٥) المرجع ذاته (ص ٤٩).

الإرهاب الفردي، ففي الربيع حاك مؤامرة لاغتيال لينين، وفي حزيران ١٩١٨ اغتال أحد أعضائه القيادي البلشفي فولودارسكي، وبعد شهر قتل أحد اشتراكي ثوري أورتيسكي، وهو شخصية شيوعية مهمة[٥٢٦]، وعموماً في الحرب الأهلية التي اجتاحت البلد ابتداءً من تموز، لعب الاشتراكيون - الثوريون دوراً مرموقاً جداً - وفي أيار ١٩١٨ صوتوا خلال مؤتمرهم الثامن على قرار يحسن بموجبه قلب الدكتاتورية البلشفية لإرساء حكومة تقوم على الاقتراع العام وتكون مستعدة لقبول مساعدة الحلفاء في الحرب ضد ألمانيا.

ولم يكن عداء المناشفة للسلطة البلشفية أقل من عداء الاشتراكيين الثوريين، لكن معارضتهم كانت تتخذ أشكالاً أخرى بسبب ضعفهم وطبيعة حزبهم بالذات. واشتهر المناشفة بشكل رئيسي في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ بالدفاع عن المصالح العمالية وعن الاستقلال النقابي، وبنهاية شتاء ١٩٢٠ - ١٩٢١ عملت السلطات البلشفية على الإلغاء المنهجي للحزب المنشفي، كانت عدة أسابيع من التعسف المنهجي كافية لشطبهم نهائياً من الخارطة السياسية لروسيا السوفيتية[٥٢٧].

وقد شهدت العلاقات بين البلاشفة والعمال تدهوراً مريعاً في نهاية عام ١٩١٩ وبداية عام ١٩٢٠ إثر قيام السلطات بتحويل أكثر من ألفي من الأعمال إلى مؤسسات عسكرية، وكان تروتسكي - المهندس الرئيس لهذه العملية - قد طرح هذه النظرية في مؤتمر الحزب الشيوعي التاسع في آذار ١٩٢٠ وكان يعتقد تروتسكي أن الناس بطبعهم كسولون، إلا أنهم أجبروا على البحث عن العمل لكسب معيشتهم في ظل الرأسمالية، وأن السوق الرأسمالية تعمل بمثابة الحافز للإنسان لكن في ظل الاشتراكية، فإن استغلال مصادر العمل يحلّ محل السوق، وهكذا فإن وظيفة الدولة تتمثل في توجيه وتوظيف العمال الذين يجب عليهم إطاعة الدولة مثلما يطيع الجنود

(٥٢٦) المرجع ذاته (ص ٥٢).

(٥٢٧) المرجع السابق (ص ٥٩).

أوامر القادة في الجيش، وذلك لأن الدولة تعمل على رعاية مصالح البروليتاريا، ورغم أن هذا المفهوم شكّل أساس عسكرة مواقع العمل إلا أنه وجد انتقادات شديدة من قادة الاتحادات العمالية والنقابات والمدراء البلاشفة. ومن الناحية العملية فإن هذا يعني:

❖ حظر الإضرابات التي ينظر إليها كأنها انشقاق أو عصيان في أوقات الحرب.

❖ زيادة سلطة المديرين في معاقبة العمال.

❖ الخضوع التام لكل الاتحادات العمالية ولجان المصانع التي كان دورها في الماضي يدعم سياسات المنتخبين.

❖ عدم السماح للعمال بترك أعمالهم ومعاقبة كل من يتغيب أو يتأخر عن العمل(٥٢٨).

ولئن كانت السلطات البلشفية شديدة مع العمال الذين هم عماد الثورة، فهي لم تكن رحيمة مع غيرهم. ومنذ حدوث الثورة البلشفية كان الفوضويون الروس يشكلون أحد فصول الحرب الأهلية، وكان يوجد آنذاك تيارات للفوضويين، الفوضويون - النقابيون، والفوضويون الشيوعيون، والآخرون كانوا يؤيدون نسبياً التعاون مع البلاشفة، وكان ثمة مجموعات أخرى من الفوضويين، كالفوضويين العموميين وسلسلة من الفوضويين الفردويين الذين يصعب تصنيفهم، وكانت فوضويتهم تنحلّ في تجمعات سريعة الزوال، ولا شكلية، وقليلة التسييس، لكنها تماماً كالفوضويين المنظمين نسبيا، تنسب نفسها إن لم يكن إلى المذهب، فعلى الأقل إلى الفلسفة لا بل الذهنية الإباحية البسيطة. وكانت الفوضوية وبوجه خاص في تنويعها الفردوي تقدم فضلاً عن ذلك مكوناً قوياً معادياً للثقافة كان يأخذ من حين لآخر تعبيراً هزلياً بصورة غير إرادية. فقد كان ثمة حلقة فوضوية في خاركوف تسمّى (المستقبلية) كانت ترفع الشعار الطموح: (الموت للحضارة العالمية)، وكان

---

(٥٢٨) الكتاب الأسود - الحرب القذرة.

الفوضويون يسلمون هم ذاتهم بأن عناصر مشبوهة ومغامرين ومجرمي حق عام ومعادين للثورة، كانوا يتكاثرون في صفوفهم حيث أن المبادئ الفوضوية لا تسمح بإغلاق باب التنظيمات أمام أي كان، ولا بفرض أية رقابة حقيقية على أيّ كان، وكان الفوضويون الروس ينقسمون بين فوضويين موالين للسوفييت وفوضويين معادين، وقد ردّ الفوضويون في الاتجاه المعاكس لاستيلاء البلاشفة على السلطة، فأعلن البعض على الفور ضرورة إعداد (ثورة ثالثة) ونظر الآخرون ببعض المودة إلى سياسة البلاشفة بخصوص الرقابة العمالية التي كانوا هم أنصارها، وتسنى للفوضويين أن ينظموا صفوفهم، إلا أن الحكومة البلشفية قررت أن تخوض ضد مقرهم في موسكو عملية ضخمة في شهر نيسان ١٩١٨ بعد حادث تورط فيه ممثل الصليب الأحمر الأمريكي وكان من الصعب التمييز بين الفوضوية السياسية والفوضوية المغامرة[٥٢٩]. يضاف إلى ذلك أن بعض الضباط من منظمة معادية للثورة وجدوا ملجأ لدى الفوضويين الموسكوبيين.

وقد سال الدم وأوقف عدة مئات من الفوضويين الذين صورتهم السلطات ك - (عناصر مجرمة). وقد أدى هذا الحدث إلى رحيل الكثير من الفوضويين إلى أوكرانيا التي كانت تشكل بصورة ما الحصن المنيع للفوضوية في البلد. وقد حدثت فيها المجابهة الأهم بين الشيوعيين والفوضويين كان المعسكر الفوضوي متمثلاً بوجه خاص بالجيش الفلاحي بقيادة نسطور ماخنو. ولقد تعاون نسطور ماخنو مع القوات البلشفية ضد القوات البيضاء، وعندما اندحرت القوات البيضاء تفرغ البلاشفة للقضاء على قوات نسطور ماخنو لأن نسطور كان يسعى إلى الاستقلال في أوكرانيا ولم تكن الحكومة الشيوعية مستعدة لأن تسمح في أوكرانيا بوجود (سلطة مضادة) فوضوية.

ففي تشرين الثاني ١٩٢٠ تولى الجيش الأحمر التصفية الفظة لآخر قوات

---

(٥٢٩) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢(ص ٦١).

نسطور ماخنو واضعاً حداً دموياً لحلقة من الثورة الروسية(٥٣٠)، إلا أن الفوضوية الروسية لم تنته بالقضاء على نسطور ماخنو بل كانت مأساة (كرونشتاد) Cronchtad تمثل النهاية الأليمة للفوضوية الروسية، وبقيت (كرونشتاد) زمناً طويلاً مثار جدل كبير داخل الاتحاد السوفيتي، والحقيقة أن السلطات البلشفية أخفت الحقائق في هذه المأساة، فقد حدثت انتفاضة قاعدة كرونشتاد البحرية في بداية شهر آذار من عام ١٩٢١ وكان برنامج الحركة الانتفاضية يشمل مجموعة من المطالب السياسية المكمّلة ببعض الشروط الاقتصادية، كان الكرونشتاديون يطالبون قبل كل شيء بإعادة الحريات، وإلغاء احتكار السلطة التي يقبض عليها الشيوعيون، وإعادة كامل الحقوق إلى الفوضويين و(الأحزاب الاشتراكية اليسارية) والنقابات وبالإضافة إلى انتخابات جديدة على أساس الاقتراع السري كان البرنامج يطلب أخيراً عودة الحرية الاقتصادية بالنسبة للفلاحين والحرفيين(٥٣١).

وقد صورت أجهزة الإعلام الحكومية هؤلاء المنتفضين كمعادين للثورة مرتبطين بالمناشفة والاشتراكيين - الثوريين والمهاجرين ((البيض)) ويبدو أن الحكومة البلشفية أرسلت بعض الشخصيات الشيوعية إلى كرونشتاد لإعادة النظام، إلا أن هذه الشخصيات برهنت عن رعونة وتجبر، الأمر الذي أدى إلى الانفجار ذلك أن جمهور بحارة كرونشتاد الذي كان يشكل فيما مضى رأس حربة الثورة كان قد تغير، فتركيبه الاجتماعي كان قد صار أكثر فلاحية بكثير مما كان في عام، ١٩١٧ وهذا هو السبب في كل حال الذي من أجله كان بحارة القاعدة مذهولين بوجه خاص من بؤس الأرياف. أما بالنسبة لحالتهم الذهنية، فلقد كانت مطبوعة أكثر من أي وقت آخر بميول فوضوية كرفض الانصياع لأية سلطة والرغبة في الحرية والاستقلال، وهو ما كان البلشفي ديبنكو الذي كان يعرفهم جيداً حيث كان

---

(٥٣٠) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ٦٣).

(٥٣١) المرجع السابق (ص ٦٥).

واحداً منهم لوقت طويل، يسميه (الذهنية المتمردة الأبدية للبحارة).

ويؤكد فولين من جهته أن الكرونشتاديين كانوا قد فكروا منذ تشرين الأول ١٩١٧ بعزل البلاشفة من السلطة إذا فكر هؤلاء بخيانة مبادئهم[٥٣٢]. وكانوا قوة عامية لا يلعب فيها الضباط أي دور، وقد انضمّ إليها بلاشفة عديدون نسبياً، وكانت هذه القوة تتألف من أسطول مكوّن من ١٥ ألف بحار وسلسلة من السفن الحربية من بينها عدّة مدرعات، كان الصراع قاسياً والخسائر من الجهتين عالية جدا، وبعد سحق الانتفاضة أعدم الشيوعيون بعض سجنائهم وجرى إرسال العديد من الكرونشتاديين إلى معسكرات اعتقال سوفيتية حيث وجدوا أقارب متمردين جرى توقيفهم كرهائن[٥٣٣]. وتعطي مأساة كرونشتاد مثالاً واضحاً عن شدة القمع البلشفي الذي لم يكن يعرف حدودا معينة. وإزاء الوضع الذي خلقته الحرب الأهلية الموجهة ضد البورجوازية التي أزيحت ليس فقط من السلطة بل إلى حد بعيد من الحياة السياسية بالذات بسبب دكتاتورية البروليتاريا. وإزاء الموقف المعادي للثورة الذي تبنته بعض الأحزاب الاشتراكية ورفض هذه الأحزاب بالذات رفضاً شبه إجماعي في البداية القبول بشرعية النظام السوفيتي. فقد صار هذا النظام يتجه نحو الدولة الشمولية ذات الحزب الواحد، وعلى الرغم من أن لينين في كتاباته وكلماته السابقة للثورة. لم يقترح يوماً نظاماً يشبه من قريب أو من بعيد نظام الحزب الواحد. إلا أن هذا النظام أخذ يظهر بعد عمليات القمع الشديد الذي تعرضت له المعارضة. والحال أن السلطة السوفيتية سلّمت بحرية التعبير بالنسبة للحزبين الاشتراكيين - الثوري والمنشفي. خلال أشهر عديدة وقد اختفت هذه الحرية حين حُظّر هذان الحزبان في حزيران ١٩١٨[٥٣٤]. واختفت الصحافة المعارضة ومع بداية عام ١٩٢١ كانت الديمقراطية قد كفّت عن الوجود في روسيا.

(٥٣٢) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ٦٤).

(٥٣٣) المرجع السابق (ص ٦٤).

(٥٣٤) المرجع ذاته (ص ٧٠).

ورغم أن الجبهة العسكرية للحرب الأهلية كانت قد انتهت بهزيمة القوات البيضاء عام ١٩١٩ إلا أن الحرب للقضاء على العدو استمرت لأعوام أخرى.

موقف الثورة البلشفية من الدين:

كان الفكر الاشتراكي الذي ابتدعه ماركس يلغي الدين من خلال تركيزه على المادية التاريخية والديالكتيك (الجدل) وقد جاء في البيان الشيوعي، والحال أن الشيوعية تلغي الحقائق الثابتة تُلغي الأديان والأخلاق بدلاً من تجديد تشكيلهما[٥٣٥] ومهمة الشيوعيين تتمثل في وضع مفاهيم أخلاقية جديدة أكثر إنسانية[٥٣٦]. لذلك عندما حدثت الثورة البلشفية في روسيا كان من الطبيعي أن يدخل النظام الجديد في صراع مع الكنيسة والواقع أن الحكومة أعلنت في ٥ شباط ١٩١٨ عن انفصال الكنيسة عن الدولة، والكنيسة عن المدرسة، وحرية الضمير والعبادة، وأعلنت كذلك تأميم كل ممتلكات الكنيسة.

وقد وجدت هذه البيانات معارضة شديدة من الأسقف تيكهون رئيس الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا لأنها تهاجم الدور التقليدي للكنيسة، ووجّه أربع رسائل لأبناء الأبرشيات في هذا الخصوص، لكن سلوك البلاشفة أصبح أكثر استفزازاً لأنهم أمروا بتقييم الآثار المقدسة في الكنائس ونظموا برامج ترفيهية في نفس الوقت الذي تقام فيه الاحتفالات الدينية وطالبوا بتحويل دير القديس سيرجيوس إلى متحف للملحدين. وقال لينين في لقاء له مع ليونيد كراسين عام ١٩١٨ لمناقشة مشروع كهرباء روسيا إن الكهرباء ستحلّ محل الله وإن على الفلاحين أن يصلّوا لها لأنهم سيشعرون بتأثيراتها قبل أن يشعروا بأي أثر من السماء[٥٣٧] وقام البلاشفة بأمر من لينين باستغلال المجاعة كذريعة لشنّ حملة واسعة النطاق ضد الكنيسة،

(٥٣٥)دراسة البيان الشيوعي - هرمان دونكر (ص ١٤٣).

(٥٣٦)ماركس - سي. سبريغ (ص ٨٣).

(٥٣٧) الكتاب الأسود.

وأصدرت الحكومة في ٢٦ شباط ١٩٢٢ مرسوماً يقضي بالمصادرة الفورية لكل مقتنيات الكنيسة القيمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، وذكر المرسوم: "إن هذه المقتنيات سترسل إلى مفوضية الشعب المالية لتقوم بتحويلها إلى اللجنة المركزية لإغاثة الجائعين. وبدأت أعمال المصادرة في مطلع آذار وصاحبها مواجهات بين فصائل المصادرة وأنصار الكنيسة، وقع أهمها وأخطرها في ١٥ آذار ١٩٢٢ في شويا، حيث فتح الجنود النار على الجماهير مما أدى إلى مقتل العشرات منهم، واستخدم لينين هذه المذبحة كذريعة لتصعيد حملته ضد الكنيسة. وفي رسالة بتاريخ ١٩ آذار ١٩٢٢ أوضح لينين بسخرية واضحة كيف تم استغلال المجاعة لمصلحة البلاشفة وتوجيه ضربة موجعة للعدو، وتقول الرسالة "بالنسبة لأحداث شويا[٥٣٨] التي سيناقشها المكتب السياسي للحزب أعتقد أنه لا بدّ من اتخاذ قرار حاسم فوراً في إطار الحملة العامة في هذه الجبهة، ويبدو من الواضح أن الكهنة يدبرون خطة لتوجيه ضربة حاسمة ضدنا، هذا إذا وضعنا بعين الاعتبار ما تقوله الصحف عن موقف الكهنة تجاه مصادرة ممتلكات الكنيسة والموقف المعادي للأسقف تيكهون. وأعتقد أن أعداءنا يرتكبون خطأً استراتيجياً وأن الظروف الحالية جاءت في صالحنا أكثر من صالحهم، وأننا على يقين بأننا نستطيع أن نوجه ضربة مميتة لهم حتى نعزز موقفنا المركزي في العقود المقبلة. ويمكننا أن نصادر كل ممتلكات الكنيسة بكل ما أوتينا من قوة وبمساعدة الناس الذين يتضورون جوعاً وأخذوا يأكلون بعضهم بعضاً ويموتون بالملايين وجثثهم تتناثر على الطرقات على امتداد البلاد. هذه هي اللحظة الحاسمة التي ستدعمنا فيها الجماهير بقوة والنهوض ضد المخططات الرجعية للبورجوازية والكهنة المتآمرين، وعلينا أن نجمع المئات من الروبلات الذهبية من بعض الكنائس الغنية، ومن دون المال لا يمكن إنجاز أية مشاريع اقتصادية أو تعزيز موقفنا الحالي... إن الأوان قد حان للقيام بذلك وكل

---

(٥٣٨) شويات مدينة صناعية فقيرة في محافظة ايفانوف.

الإشارات تدل على أنه يجب أن نقوم بذلك الآن لأن أملنا هو اليأس الذي نشأ في نفوس الجماهير من جراء المجاعة... أستطيع الجزم بأن اللحظة قد حانت لسحق منظمة الكهنة..[٥٣٩]. وأشارت تقارير البوليس السري الأسبوعية إلى أن حملات مصادرة ممتلكات الكنائس بلغت ذروتها في آذار ونيسان وأيار من عام ١٩٢٢ حيث وقعت ١٤١٤ حادثة واعتقل آلاف القساوسة والرهبان والراهبات، ووفقاً لسجلات الكنيسة فإن ٢٦٩١ من القساوسة و ١٩٦٢ من الرهبان و ٣٤٤٧ من الراهبات قتلوا ذلك العام. وعقدت الحكومة محاكمات صورية لعدد من رجال الدين في موسكو وإيفانوف وشويا وسمولينسك وبتروغراد، وذكرت رسالة بعث بها دزرجينسكي[٥٤٠] Desear-Jinske للمكتب السياسي أن الأسقف تيكهون وأتباعه عارضوا علناً مصادرة ممتلكات الكنيسة، وبالتالي أصبح لدينا دليل كاف لاعتقاله وأعضاء المجلس الكنسي، وعدم منح أي تصريح لتأسيس مجلس كنسي جديد ويجب كذلك تصنيف القساوسة المعارضين لمصادرة ممتلكات الكنيسة على أنهم أعداء الشعب مع نفيهم إلى محافظة الفولجا المتأثرة بالمجاعة، وفي بتروغراد تم اعتقال ٧٧ قسيساً وإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال وتم إعدام أربعة بما فيهم مطران بتروغراد الأب بنجامين الذي انتخب عام ١٩١٧ وكان يتمتع بشعبية كبيرة. أما في موسكو فقد تم اعتقال ١٤٨ قسيساً وأنصارهم فيما تم إعدام ستة منهم حالاً. ووضع الأسقف تيكهون تحت رقابة مشددة في ديردوسكوي في موسكو[٥٤١] وأصبح التدين جريمة يعاقب عليها القانون الروسي، وشمل الاضطهاد كل الأديان في الاتحاد السوفيتي وأصبح الإلحاد شعاراً يرفعه الشيوعيون في كل مكان من العالم.

---

(٥٣٩) الكتاب الأسود.

(٥٤٠) كان دزرجينسكي يشغل منصب رئيس مجلس الدولة ((البوليس السري)).

(٥٤١) المرجع السابق.

الحــرب ضــد المفكــرين:

كما دخل الشيوعيون في حرب ضد الدين، كذلك فقد اضطهدوا المثقفين. ففي رسالة بعث بها لينين إلى دزرجينسكي بتاريخ ٢٠ أيار ١٩٢٢ شرح لينين خطته الكبرى لنفي كل الكتاب والمعلمين الذين دعموا الأعمال المناهضة للثورة وأكد على ضرورة التخطيط لهذه العملية بحرص شديد مع تشكيل لجنة خاصة لهذا الأمر. وعلى جميع أعضاء المكتب السياسي للحزب قضاء ساعتين أو ثلاث ساعات كل أسبوع لمراجعة الكتب والصحف بهدف جمع المعلومات عن الماضي السياسي والنشاطات والأعمال الأدبية للكتاب والمعلمين. وقال لينين: من الواضح أن جريدة "إكونوميست" تمثل مركز نشاط الحرس الأبيض، ويوجد على غلاف العدد الثالث قائمة بأسماء كل المتعاونين مع العدو، وأعتقد أنهم مرشحون شرعيون لإنزال عقوبة النفي عليهم لأنهم يعارضون الثورة ومتورطون في الحلف الدولي ضدها، وهم يشكلون شبكته التجسسية ويعملون على إفساد الشباب، ولذلك يجب التحرك لاعتقالهم بصورة منظمة ودقيقة وإبعادهم خارج البلاد[٥٤٢].

وبالفعل قام المكتب السياسي للحزب بتشكيل لجنة خاصة يوم ٢٢ أيار لجمع المعلومات عن المفكرين توطئة لاعتقالهم ونفيهم. وفي أيلول تم نفي أول مجموعة تم اعتقالها في ١٧ و ١٨ آب وشملت ١٦٠ شخصاً من المفكرين والفلاسفة والمؤرخين وأساتذة الجامعات وأجبر هؤلاء العلماء على توقيع بيان يقرّ كل منهم فيه بإعدامه فوراً إذا عاد إلى أراضي الاتحاد السوفيتي، سمح لكل فرد منهم بأخذ ملابس بسيطة وما يعادل ٢٠ دولاراً فقط. وقد استمر البوليس السياسي في جمع المعلومات عن المفكرين المشتبه فيهم والذين من المقرر إبعادهم إلى المناطق النائية داخل البلاد أو إرسالهم إلى معسكرات الاعتقال. وفي ٥ أيلول كتب دزرجينسكي إلى مساعده أوشليخت قائلا، إن نظام الملفات الخاصة بالنخبة الفكرية غير متطور بما

(٥٤٢) الكتاب الأسود.

فيه الكفاية ومنذ مغادرة ياكوف أجرونوف لم يعد لدينا من هو قادر على تنظيم هذه الملفات على نحو جيد، ومن الضروري وضع خطة واضحة وقابلة للتطوير والتحديث، ولذلك يجب تصنيف النخبة الفكرية إلى مجموعات ومجموعات ثانوية على النحو التالي:

١. الكتّاب

٢. الصحفيون والسياسيون

٣. الاقتصاديون وهنا تبرز أهمية المجموعات الثانوية مثل - الخبراء الماليين - العاملين في قطاع الطاقة - خبراء النقل - التجار - خبراء الجمعيات التعاونية.

٤. الخبراء الفنيون مثل - المهندسين - خبراء ا لاقتصاد الزراعي - الأطباء.

٥. أساتذة الجامعات ومساعدوهم[(٥٤٣)].

ويجب أن ترسل المعلومات عن هذه المجموعات إلى دوائر متخصصة على أن تقوم دائرة النخبة الفكرية بتنظيمها على أن يخصص ملف خاص لكل مثقف، ويجب أن نضع في أذهاننا أن هدف الدائرة لا ينحصر في إبعاد أو اعتقال الأفراد فقط، بل المساهمة أيضاً في دعم القضايا السياسية المتعلقة بالنخبة الفكرية التي يجب أن تكسر شوكتها، وتراقب مراقبة مشددة لشقّ صفوفها. وأما الذين يدعمون النظام السوفيتي بالقول والفعل فسوف ننظر في رفع شأنهم[(٥٤٤)]. وبعد أيام قليلة بعث لينين بمذكرة طويلة إلى ستالين عاد فيها إلى قضية التطهير الحتمي لكل الاشتراكيين والمفكرين والأحرار في روسيا، أود أن أثير بعض الأسئلة حول قضية إبعاد المناشفة والاشتراكيين، لأن هذه المسألة، لم يتم التعامل معها كما يجب، هل تم اتخاذ القرار لإبعاد الاشتراكيين من أمثال أندريه بيشكونوف والكساندر مايكوتيش وجورفيلد...

---

(٥٤٣) المرجع ذاته.

(٥٤٤) الكتاب الأسود.

أعتقد أن الوقت قد حان لنفيهم لأنهم أكثر خطورة من الثوريين الاشتراكيين لما يتمتعون به من ذكاء ودهاء، وقد ينطبق هذا على الكساندر بيتروسوف والكساندر أسجوف وبقية العاملين في جريدة "إيكونوميست" أمثال أوزيروف وغيره، وكذلك الحال بالنسبة للمناشفة... وعلى لجنة ماتتسيف ميسنج إعداد القوائم توطئة لنفي مئات من هؤلاء الناس فورا، ومن واجبنا تطهير روسيا نهائياً من كل الكتّاب في دار الأدباء والمفكرين في بتروغراد، و يجب كذلك شنّ حملات تفتيش واسعة النطاق في كارليف لأننا لا نعلم في الوقت الحالي ماذا يدور هناك، والمدينة تحتاجٍ إلى حملة تطهير عاجلة بعد محاكمة الاشتراكيين الثوريين، وعليك أن تفعل شيئا بخصوص الأدباء والكتاب في بتروغراد، وستجد أسماءهم وعناوينهم في مجلة الفكر الروسي الجديد (عدد ٤ صفحة ٣٧ لعام ١٩٢٢)، وكذلك أسماء وعناوين كل محرري دور النشر الصغيرة في صفحة (٢٩) وهذا الأمر في غاية الأهمية[٥٤٥].

ومن الجدير بالذكر أن نقابة المدرسين كانت قد شاركت منذ الأسابيع الأولى التي تلت ثورة أكتوبر في الإضراب التجريبي ضد النظام الجديد، وكان العداء للنظام الجديد أكثر حدة في التعليم العالي، كانت تلك هي الحال مثلاً في الجامعة الجديدة التي أنشئت في سمولنسك حيث كانت تسيطر (العناصر الرجعية) وكان الجسم الأكاديمي في موسكو يُبدي استعدادات معارضة بوضوح للماركسية، والمدرسون النادرون الذين كانوا يتبنونها كانوا يصطدمون بتدابير مضايقة من جانب زملائهم[٥٤٦]، وكانت (العناصر الرجعية) تقوم بأعمال استفزازية مناهضة للشيوعية ألجأت السلطات البلشفية إلى الإجراءات التعسفية كالإعدام والإبعاد خارج روسيا.

الحرب ضد البورجوازية:

في سبيل إقامة دكتاتورية البروليتاريا كان لابد من تصفية طبقة البورجوازيين،

---

(٥٤٥) المرجع السابق.

(٥٤٦) مارسيل ليبمان – اللينينية في ظل لينين – ج٢ (ص ١٦٦).

إلا أن الحرب ضد هذه الطبقة ليست سهلة، فهي وإن "أسقطت عن الحكم في بلد واحد تظلّ زمناً طويلاً لأسباب كثيرة أقوى من البروليتاريا التي أسقطتها"[٥٤٧]. ويعلل لينين قوة البورجوازية "في قوة الرأسمال الدولي وفي قوة ومتانة الصلات الدولية للبورجوازية"[٥٤٨] لذلك على البروليتاريا التي نجحت في إسقاط البورجوازية عن الحكم، أن تحصّن نفسها لأنها أمام عدو أقوى منها كما يقول لينين "إن دكتاتورية البروليتاريا هي أشد الحروب بسالة وضراوة تقوم بها الطبقة الجديدة ضد عدو أعظم قوة، ضد البورجوازية التي ازدادت مقاومتها عشرة أضعاف من جرّاء إسقاطها عن الحكم" وإن "دكتاتورية البروليتاريا هي نضال عنيد دامٍ وغير دام، عنيف وسلمي، عسكري واقتصادي، تربوي وإداري، ضد قوى المجتمع القديم وتقاليده"[٥٤٩] والواقع أن النضال ضد البورجوازية بدأ منذ استيلاء البلاشفة على السلطة، فكانت السلطات تأخذ مئات البورجوازيين في المدن التي يتم احتلالها أو استعادتها كرهائن وتضعهم في معسكرات الاعتقال حتى تضمن دفعهم للضرائب المفروضة عليهم. وكانت هذه المساهمة لا تعني عمليات نهب وسلب ومصادرة وإرهاب منظّم فقط، بل شكّلت الخطوة الأولى في تصفية البورجوازيين كإحدى الطبقات الاشتراكية. ووفقاً لقرارات اتحاد العمال، تمّ إعلان يوم ١٣ أيار ١٩١٩ كيوم لمصادرة ممتلكات البورجوازيين، وذكرت (أزفستيا) صحيفة مجلس مفوضي عمّال أوديسا أن على الطبقات المالكة ملء استمارة توضح فيها مقتنياتها من المواد الغذائية والأحذية والملابس والمجوهرات... الخ. وقالت الصحيفة: من واجب الجميع مساعدة لجان المصادرة في عملها المقدّس ومن لم يقدّم المساعدة سيعرض نفسه للاعتقال الفوري ومن يقاوم ذلك سيتم إعدامه في الحال، وتمثلت المرحلة الثانية من سياسة المصادرة في الاستيلاء على شقق البورجوازيين انطلاقاً من أهمية إذلال العدو خلال حرب

(٥٤٧) جوزيف ستالين – أسس اللينينية (ص ٥٠).

(٥٤٨) المرجع ذاته (ص ٥١)، نقلاً عن مؤلف لينين - مرض الشيوعية الطفولي.

(٥٤٩) المرجع ذاته (ص ٥٢) – نفس المرجع للينين.

الطبقات[550]. وذكر تقرير لصحيفة (أوديسا) يوم ٢٦ نيسان ١٩١٩ أنه يجب أن تعاملهم بما يستحقون لأن البورجوازيين يحترمون السلطة التي تعاقب وتقتل، وإذا قمنا بإعدام العشرات من مصاصي الدماء البلهاء وعاملناهم كمنظفي الطرقات وأجبرنا نساءهم على تنظيف ثكنات الجيش الأحمر (وهذا سيكون شرفاً لهم) عندئذ سيفهمون أن قوتنا هي الباقية وأن لا أحد (سواء الإنجليز أو غيرهم) لن يهبّ لنجدتهم [551]، وكانت معظم مقالات صحف البلاشفة في أوديسا وكييف وكاركييف وايكاترينوسلاف وبيرم وأورال وغيرها من المدن تدور حول إذلال نساء البورجوازيين، وكانت أغلب الحملات لإبادة البورجوازيين وإعدام السجناء والرهائن والمشتبه فيهم لانتمائهم إلى الطبقات المالكة موثقة في العديد من المدن التي سيطر عليها البلاشفة. وكانت المذابح التي ارتكبها البلاشفة في القرم من أبشع المذابح، إذ تم إعدام أو شنق أكثر من ٥٠ ألف شخص في الفترة من منتصف تشرين الثاني إلى نهاية كانون الأول ١٩٢٠ وكانت معظم حالات الإعدام قد نفذت فوراً بعد انسحاب قوات الجنرال رانجيل البيضاء. وفي مطلع كانون الأول بدأت السلطات في إعداد قائمة بأسماء سكان المدن الرئيسية للقرم لأنهم كانوا يعتقدون أن الكثير من البورجوازيين يختبئون فيها. وكان لينين قد أبلغ حشداً في موسكو يوم ٦ كانون الأول أن ٣٠٠ ألف بورجوازي يختبئون في القرم، وأكد أن هذه العناصر التي تتألف من الجواسيس والعملاء السريين الذين يدافعون عن الرأسمالية ستتم معاقبتهم في القريب العاجل[552].

وسارت عملية القضاء على البورجوازية داخل روسيا بخطى متسارعة حتى تم إلغاء هذه الطبقة، واتجهت سياسة الحكومة السوفيتية كذلك إلى السعي في تحطيم جميع الحكومات الرأسمالية في دول العالم،و تأسيس دكتاتورية البروليتارية وإنشاء اتحاد دولي بين جميع الجمهوريات السوفيتية التي يمكن تأسيسها بعد نجاح

(٥٥٠) الكتاب الأسود.

(٥٥١) المرجع ذاته.

(٥٥٢) الكتاب الأسود.

الثورات الشيوعية في تلك الدول. وبذلك يتم إنشاء مجتمع شيوعي عالمي. وقد رأى الزعماء الشيوعيون تكوين (الاتحاد الدولي الثالث) الذي سمي فيما بعد (الكومنترن) Comintern ودعا الشيوعيون الروس جميع الأحزاب الشيوعية في أنحاء العالم إلى اجتماع يعقد في موسكو في آذار ١٩١٩ لتكوين ذلك الاتحاد الدولي الثالث[٥٥٣] The Third International، وذلك بقصد جمع كلمة العمال من مختلف الشعوب ووضع برنامج مشترك يمهّد السبيل لإقامة حكومات البروليتاريا على أنقاض الحكومات الرأسمالية. واجتمع في موسكو مندوبون عن الأحزاب الشيوعية في العالم لمناقشة الوسائل التي تؤدي إلى أهداف (الكومنترن) وكانت أهم الوسائل لتحقيق الفكرة هي:

١. نشر الدعاية العالمية للمبادئ الشيوعية.

٢. توحيد وتقوية الأحزاب الشيوعية في مختلف الأقطار.

٣. تزعم الحركات العمالية والاشتراكية التي تقوم في بعض الدول وتوجيهها الوجهة المنشودة.

٤. تعجيل تطور الحوادث في بعض الدول وتوجيهها نحو الثورة العالمية على الرأسمالية تحت إشراف الكومنترن[٥٥٤].

إلا أن جهود السوفييت لتصدير الثورة ونشر الشيوعية العالمية باءت بالفشل، لذلك انحصرت هذه الجهود في القضاء على الرأسمالية داخل روسيا وبناء الصرح

---

(٥٥٣) كان كارل ماركس أول من دعا إلى تكوين ((الاتحاد الدولى الأول)) في سنة ١٨٦٤ واستمرت هذه المنظمة تعقد اجتماعاتها السنوية حتى عام ١٨٧٦، وقد توقف نشاطها كنتيجة لردّ الفعل الذي حدث في أوروبا ضد الاشتراكية، ثم بدأت الاشتراكية تنهض من جديد فتأسس الاتحاد الدولي الثاني في عام ١٨٨٩، وعندما لاحت الحرب العالمية الأولى، وقف النشاط الدولي الثاني عندما تغلبت الوطنية والقومية على الاشتراكية العالمية.

(٥٥٤) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٧١).

العتيد للبروليتاريا.

المعتقلات والسجون

شاعت المعتقلات والسجون إلى درجة واسعة النطاق مع بدايات القرن العشرين، والحقيقة أن ظهور الأحزاب السياسية المختلفة والتي أصبحت تعلن عن نيتها في تغيير الأوضاع القائمة في بلدانها، وضع الدول آنذاك أمام مشكلة حقيقية وهي كيفية التعامل مع هذه العناصر المعارضة، خاصة أنها أصبحت تمثل شرائح واسعة من الشعب، ووجدت السلطات في السجون وسيلة لكبح جماح المعارضة ولعل البلاشفة قد وجدوا أنفسهم مضطرين، بعد أن فُرضت عليهم الحرب الأهلية، أن يوجهوا اهتمامهم لبناء المعتقلات كوسيلة للمحافظة على الثورة من أعدائها، وهكذا ففي الخامس من أيلول ١٩١٨ صدر مرسوم عن مجلس سوفييت مندوبي الشعب، جاء فيه بعد الاستماع إلى التقرير الذي قدمه رئيس الشيكا عن النضال ضد أعداء الثورة والمخربين، ونظراً للحالة الراهنة، يعتبر مجلس سوفييت مندوبي الشعب أن ضمان الأمن في الداخل بواسطة الإرهاب هو ضرورة رئيسية، وحتى نحمي الجمهورية السوفيتية من أعدائها الطبقيين يجب أن نعزل هؤلاء في معسكرات الاعتقال[٥٥٥]. وبدأت عمليات الاعتقال المنظم الذي كانت تقوم به فرقة الشيكا ضد الأحزاب المعارضة والروس البيض وافتتحت المعتقلات والسجون، وما لبث أن امتلأت السجون بالمعتقلين، لذلك فقد اقترحت الحكومة على مجلس الدولة (البوليس السري) عام ١٩٢٢ إنشاء معتقل كبير على خمس جزر في ارخبيل (سولوفيتسكي) في البحر الأبيض قرب (أركانجيلسك) كانت الجزيرة الرئيسية مأوى لأحد أكبر الأديرة الأرثوذكسية الروسية، طرد المجلس الرهبان وأنشأ سلسلة معتقلات أطلق عليها مصطلح المعسكرات الخاصة (سولوفيتسكي) وصل أول المعتقلين في تموز/ يوليو ١٩٢٣ من معتقلات (كولموغوري) و (بيرتامينسك) بلغ

(٥٥٥) أدونيس العكرة - الإرهاب السياسي (ص ٥٧).

عدد السجناء إلى ٣٨٠٠٠ مع نهاية سنة ١٩٢٨ وكانت معتقلات (سولوفيتسكي) تتمتع بحكم ذاتي نسبي، وكانت كل المهمات يقوم بها السجناء أنفسهم، غالبيتهم من الذين تعاونوا مع البوليس السري وتمّ الحكم عليهم لسوء استغلال مواقعهم، وقد صنفت إدارة المجلس السجناء إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى كل الأشخاص المتورطين في السياسة كأعضاء الحزب المنشفي، والثوار الاشتراكيين وغيرهم. والمجموعة الثانية، التي كانت الأكبر من حيث العدد تضمنت كل الثوار المعادين كأعضاء أحزاب غير اشتراكية، رجال الدين، ضباط قدامى من جيوش النظام القيصري، موظفو الحكومة في النظام القديم، المشاركون في انتفاضة كرونشتاد، وغيرهم من المعتقلين. وشملت المجموعة الثالثة كل المجرمين الذين حكموا من قبل إدارة المجلس كقطاع الطرق. وكان الثوار المعادون الذين تمّ سجنهم مع السجناء العاديين يتعرضون للتعذيب ويعانون المجاعة، وبرودة طقس الشتاء والحشرات في الصيف.

لقد كانت قوانين المعتقل يحكمها السجناء العاديون، وسائل التعذيب الشائعة كان يتم ربط الشخص في الغابة عارياً ويترك تحت رحمة الناموس الذي كان يتواجد بكثرة في هذه الجزر الشمالية. وقد أنجزت معتقلات (سولوفيتسكي) بعد سنوات من الارتجال نظام العمل الإجباري الذي سيشهد توسعاً مذهلاً بعد سنة ، ١٩٢٩ فقد بقي السجناء مرتبطين بأعمال غير منتجة حتى سنة ١٩٢٥ ومع بداية سنة ١٩٢٦ قررت إدارة المعتقلات إحداث اتفاقيات الإنتاج مع عدد من منظمات الدولة كان الغرض من هذا الترتيب استغلال العمل الإجباري في الربح عوضاً من التركيز على إعادة تأهيل المساجين (الأيديولوجية الأصلية للعمل الإصلاحي في المعتقلات لسنتي ١٩١٩ و١٩٢٠)، وتم إعادة تنظيم المعتقلات تحت اسم إدارة شؤون المعتقلات الخاصة في المنطقة الشمالية، وسعت معتقلات (سولوفيتسكي) لتشمل المناطق المجاورة.

وتم إحداث معتقلات جديدة قرب نهر (بتشورا) في (كيم) في سنتي ١٩٢٦ و١٩٢٧، نفذ السجناء خطة محددة للإنتاج تشمل قطع الأشجار من الغابات، وأدى نمو برامج الإنتاج إلى الحاجة لعدد أكبر من السجناء مما أدى إلى إعادة هيكلة نظام الاعتقال، فتم اتخاذ قرار من قبل الحكومة في ٢٧ حزيران / يونيو ١٩٢٩ وبموجب هذا القرار تم نقل كل السجناء الذين حكم عليهم بأكثر من ثلاث سنوات سجن إلى معسكرات العمل بهدف تنمية الموارد الطبيعية للمنطقة الشرقية والشمالية من البلاد. وكان مجلس الدولة السياسي منهمكاً في إنتاج العشب وتصديره للأسواق الخارجية وكان يطالب باستمرار زيادة عدد العمال من المنظمات في وزارة الشؤون الداخلية التي كانت مسؤولة عن السجون، ولم يكن عدد السجناء لدى المجلس في معتقلات (سولوفيتسكي) البالغ عددهم ٢٨٠٠٠ كافياً ليلبي حاجيات الإنتاج المرغوب فيه.

وأبرزت الخطة الخمسية الأولى أسئلة حول تقسيم القوى العاملة واستغلال المناطق النائية التي كانت غنية بالموارد الطبيعية واعتبرت القوى العاملة الجزائية سهماً ثميناً وهدراً للدخل والنفوذ والسلطة، وكان قادة مجلس الدولة السياسي خاصة (مينزينسكي) Menzenski الذي خلف دزرجينسكي ومساعده (ياغودا) Yahguda وبمباركة من ستالين يدركون أهمية السجناء، فرسم هؤلاء القادة خطة طموحة في صيف ١٩٢٩ لاستعمار منطقة (ناريم) التي كانت تغطي ٢٢٥,٠٠٠ ميل مربع من غابة الصنوبر التابعة للمستنقع الغربي لسيبيريا. ونفذت الخطة بموجب قرار في ٢٧ حزيران ١٩٢٩ لقد كانت معتقلات (سولوفيتسكي) بمثابة تجربة ميدانية للعمل الإجباري التي ستفتح الطريق أمام فتح معتقلات مماثلة في أرخبيل (غولاك)[٥٥٦].

الحزب الشيوعي والدولة الشمولية

لم تتوضح معالم الدور الذي سيلعبه الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي

(٥٥٦) الكتاب الأسود.

إلا مع بداية عام ١٩١٩ فقد كانت إحدى المشكلات الأكثر تعقيداً - بعد حدوث الانقلاب البلشفي عام ١٩١٧ - هي تحديد المكانة التي قد يشغلها الحزب الشيوعي في الدولة الجديدة ولا شيء يشير إلى أن لينين فكّر يوماً في منح الحزب سيادة سياسية ما، وعندما خطا النظام الجديد خطواته الأولى، كان كل شيء يجب حلّه بدءاً بصعوبات هائلة لم يكن أقلها هذه المنظمة البلشفية التي اضطرت بصورة تجريبية وعبر الارتجال إلى البحث عن مكانتها في المؤسسات السوفيتية الجديدة. وقد أبدى المؤتمر الثامن للحزب في آذار ١٩١٩ رأياً جازماً بهذا الصدد، فقد رأى أن على المنظمة الشيوعية أن "تتأكد من السيطرة السياسية الكاملة داخل السوفييت والإشراف العملي على كل نشاطاتها".

وقد تبلورت في هذا المؤتمر أفكار لينين حول الحزب فأعلن أن "الحزب هو القائد" وبعد أشهر، في آب، خطا خطوة جديدة فأعلن أن دكتاتورية الطبقة العاملة يمارسها الحزب البلشفي(٥٥٧). وقد شرح ستالين في كتابه "أسس اللينينية" وظيفة الحزب الشيوعي فقال: "يجب الاعتراف أن التعبير الأسمى عن دور الحزب كقائد عندنا في الاتحاد السوفيتي مثلاً في بلاد دكتاتورية البروليتاريا، يكمن في أن أية مسألة هامة سياسية كانت أم تنظيمية لا تحلها مؤسساتنا السوفيتية وغيرها من المؤسسات الجماهيرية بدون توجيهات الحزب، وفي هذا المعنى يمكن أن نقول إن دكتاتورية البروليتاريا هي في الأساس (دكتاتورية طليعية)، (دكتاتورية) حزبها الذي هو القوة الأساسية للبروليتاريا"(٥٥٨) ومن هنا نفهم أن الدكتاتورية في الاتحاد السوفيتي ليست لتلك الجماهير الكادحة، ولكنها تتركز في الحزب الشيوعي، فهو القوة القائدة للمجتمع السوفيتي والطليعة المثقفة والمسلحة بالنظرية الماركسية اللينينية. وقد جاء في النظام الداخلي للحزب الشيوعي الذي اتخذ في مؤتمر الحزب

---

(٥٥٧) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ٩٩).

(٥٥٨) جوزيف ستالين - أسس اللينينية (ص ١٦٣).

التاسع عشر إن المهمات الأساسية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي هي اليوم أن يبني المجتمع الشيوعي بالانتقال تدريجياً من الاشتراكية إلى الشيوعية، وأن يرفع باستمرار مستوى المجتمع المادي والثقافي، وأن يربي أعضاء هذا المجتمع على روح الدولية الأممية والعلاقات الأخوية مع الكادحين في جميع بلاد العالم(٥٥٩).

والحزب الشيوعي هو الذي يوجه نشاط الاتحاد السوفيتي فقد اقتنع الشعب من خلال تجاربه بأن الحزب هو مرشده وزعيمه ومعلمه الأمين، وقد أضحى الحزب الشيوعي نقطة ارتكاز الحكومة الشيوعية التي باتت تتحكم في حرية العمل، و حرية الصناعة، وحرية البحث، فهي التي تفرض على المصانع أنواع المصنوعات المطلوبة، وعلى الفنانين ألواناً خاصة من الفنون، وعلى المربين نوع التربية التي يبثونها في النشء، وأنواع الكتب المدرسية التي تتداولها أيدي التلاميذ بحيث توجه التربية في الاتحاد السوفيتي وجهة شيوعية، لأن الماركسية هي الفلسفة الرسمية المعترف بها في جميع مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والحكومة هي التي تمتلك وتسيطر على الصحف والمؤلفات والمسارح والإذاعة والسينما والاتصالات السلكية واللاسلكية والمعامل والمناجم والأرض والسكك الحديدية والمصارف وغيرها.

فمن الناحية الاقتصادية، كانت الحكومة الشيوعية تمتلك وتدير جميع وسائل الإنتاج والتوزيع، فالتجارة الخارجية تحتكرها الدولة وتديرها وزارة التجارة الخارجية، وتقوم بعمليات التجارة الخارجية منظمات للاستيراد والتصدير وتهتمّ كل منظمة منها بفئة معينة من البضائع(٥٦٠). وقد حاول بعض مسؤولي الاقتصاد السوفيتي تخفيف احتكار الدولة للتجارة الخارجية، لكن لينين أبدى معارضته للقرارات التي اتخذتها بهذا الصدد اللجنة المركزية للحزب في تشرين الأول ١٩٢٢ فمن رأيه أن احتكار التجارة الخارجية ضروري لإقامة سور حول روسيا السوفيتية

(٥٥٩) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٦٧).

(٥٦٠) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٦٨).

يكون في وسعها أن تبني في حماه اقتصاداً مركزاً على الصناعة الكبرى وقوة البروليتاريا[٥٦١].

وقد اتبعت الحكومة في الشؤون الزراعية نظاماً جديدا، فمنذ قيام الثورة عام ١٩١٧ ظهرت الملكية الجماعية في الأرض للفلاحين، وظهرت المزارع الجماعية أو المشتركة والتي تستغلها جماعات تعاونية من الفلاحين وكان على هذه المزارع أن تبيع للدولة نصف محصولها بالسعر الذي تحدده الحكومة. أما ما تبقى من المحصول فيقسم بين الفلاحين بنسبة العمل الذي أدّاه كل منهم، والى جانب تلك المزارع المشتركة (الكولخوزات) ظهر نوع آخر يتبع الدولة مباشرة وهو مؤسسات زراعية اشتراكية اسمها (السوفخوزات)، وتغلّ هذه المؤسسات الحكومية دخلاً كبيراً لأنها تعتمد النظريات العالمية في عملها.

وكما نمت الزراعة في ظل توجه الدولة الشمولي نمت كذلك الصناعة نمواً سريعا، وجرى التصنيع مستنداً إلى الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج[٥٦٢].

وقد أعطى ستالين الإنتاج الصناعي دفعة قوية عندما أراد في عام ١٩٢٩ الانتقال بالاتحاد السوفيتي من بلد زراعي متخلف إلى بلد صناعي متطور، وقد حقق نجاحاً كبيراً على هذا الصعيد متوسلاً لإنجاح خططه الخمسية بالكثير من الشدة، وبعدما فرض نظاماً بوليسياً صارماً في كل أرجاء الاتحاد السوفيتي، وقبل الحرب العالمية الثانية كان الاتحاد السوفيتي يشغل المرتبة الأولى في أوروبا والثانية في العالم من حيث تطوره الصناعي، ولا شك أن تدخل الحكومة الشيوعية في كل شأن من شؤون الحياة، جعل من المجتمع الروسي مجرد خادم لها ويدور في فلكها، فهي إن شاءت وهبته الحياة وإن شاءت حرمته منها وجعلته يموت من الفقر والحرمان.

---

(٥٦١) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ٢٨٤).

(٥٦٢) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٦٨).

السكرتير العام.. ستالين Stalin

يظل اسم ستالين مقروناً بالإرهاب وتبقى فترة حكمه من أسوأ ما حاق بالاتحاد السوفيتي من كوارث، ذلك أنه أخذ الناس بالشدّة والقهر حتى صار المجتمع السوفيتي بأسره يعيش في رعب لا مثيل له، وقد ظهر هذا الطاغية كواحد من أولئك الرجال الذين حققوا الانتصار البلشفي عام ١٩١٧ وعين بعد الثورة في منصب مفوض الشعب للتفتيش العمالي والفلاحي، وأسند إليه مهمة مكافحة البيروقراطية، إلا أن المؤتمر الحادي عشر للحزب الذي انعقد في آذار - نيسان، ١٩٢٢ وكان آخر مؤتمر يحضره لينين كان حاسماً بالنسبة له، إذ تم تعيينه في منصب سكرتارية الحزب، وقد خُلقت سكرتارية الحزب عام ١٩١٩ وازدادت وظائفها مع مرور السنوات، وأصبحت جهازاً على درجة أولى من الأهمية. فقد كانت تعدّ جدول أعمال المكتب السياسي، وتقدم إليه الوثائق التي يستند إليها في نقاشاته وتبلغ قراراته للمنظمات المحلية وتهتم كذلك بقضايا التعيين. وإذ وضع ستالين يده عليها وأصبح أمينها العام فهو بذلك انتزع إحدى الهيئات الأكثر نفوذا في التنظيم على الأقل إذا لم تكن الأكثر مهابة(٥٦٣). وعندما توقف لينين عن ممارسة نشاطه السياسي بسبب النوبة التي أصابته في ١٤ كانون الأول ١٩٢٢ كلّف ستالين بمهمة السهر على المريض، فحظّر عليه أية زيارة كما حظّر على المحيطين بلينين أن ينقلوا إليه أية رسالة أو أن ينبئوه بالشؤون الجارية للدولة، كي لا يتم إعطاؤه مادة للتأمل(٥٦٤). وفي هذه الأثناء أطلق ستالين يده للعمل وأخذ يهيئ نفسه كي يكون خليفة الزعيم المشلول، وانطلاقاً من موقعه كأمين عام للحزب راح يصدر القرارات وقد أدرك لينين خطورة السياسة التي يتبعها ستالين، ورغم المرض انهمك في البحث عن كيفية تقويم المسار الذي تتبعه الدولة السوفيتية في بعض

---

(٥٦٣) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢(ص ١٠١).

(٥٦٤) المرجع ذاته (ص ٢٨٢).

الموضوعات الأساسية، الانحطاط البيروقراطي، تجاوز حدّ السلطة من جانب الدكتاتور اللاحق، الأشكال الأولى لقمع الأقليات القومية، وفي هذه المسألة كان ستالين مطبوعاً بالنزعة القومية الروسية الكبرى التي كانت سائدة أثناء الحكم القيصري والتي ألغاها الانتصار البلشفي عام ١٩١٧ عندما صدر في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ (إعلان لحقوق شعوب روسيا)، ينادي بـ (حق الشعوب في تقرير مصيرها) ويجعل من حق الانفصال ملازماً للأول. وقد تولى لينين الشرح والردّ على الانتقادات التي كانت تثيرها هذه السياسة: يقولون لنا إن روسيا سوف تتقطع وتتفكك إلى جمهوريات متمايزة، لكن ليس لدينا ما نخافه من هذه الناحية أياً يكن عدد الجمهوريات المستقلة فلن يرهبنا ذلك. فبالنسبة إلينا ما يهمّ ليس المكان الذي تمرّ فيه حدود الدولة، بل الحفاظ على وحدة شغيلة كل الأمم[٥٦٥]. والحقيقة أن لينين كان يريد تطبيق ما جاء في البيان الشيوعي من إلغاء لمفهوم الدولة القومية أو الوطنية على أساس أنه مفهوم بورجوازي يتهم الشيوعيون بأنهم يريدون إلغاء الوطن والقومية، فالعمال لا وطن لهم فلا يمكن أن يُسلب منهم ما لا يملكونه، وبما أنه ينبغي على البروليتاريا أن تستولي أولاً على السلطة السياسية وأن تنصّب نفسها طبقة قومية وأن تتقوّم كأمة، فإنها ما تزال وطنية، لكن ليس قطعاً بالمعنى البورجوازي للكلمة[٥٦٦].

إلا أن إرادة لينين ما لبثت أن اصطدمت بإرادة القيصر الجديد ستالين الذي لم يتعامل في مسألة القوميات من نفس المنطلقات التي كان ينطلق منها لينين، بل رأى أن الثورات التي تندلع هنا وهناك في روسيا تهدد وحدتها، ولهذا تصدى للثورة القومية في جورجيا وقمعها بشدة، الأمر الذي أغضب لينين وهو مريض. فكتب في ٤ كانون الثاني ١٩٢٣ ستالين بالغ الفظاظة وهذا العيب المتسامح به في وسطنا وفي

(٥٦٥) مارسيل ليبمان – اللينينية في ظل لينين – ج٢ (ص ٨٨).

(٥٦٦) هرمان دونكر – دراسة البيان الشيوعي (ص ١٤١).

العلاقات فيما بيننا نحن الشيوعيين لم يعد كذلك في وظائف الأمين العام، أقترح إذن على الرفاق أن يدرسوا وسيلة لإقالة ستالين من هذا المنصب وتعيين شخص آخر مكانه لا يميزه في كل شيء عن الرفيق ستالين غير كونه أكثر تسامحاً وأكثر استقامة، وأشدّ تهذيباً وأشد مراعاة حيال الرفاق، ويكون ذا مزاج أقلّ نزقاً [٥٦٧].

وكان لينين قد طلب عدم إطلاع الحزب على هذه الوصية إلا بعد وفاته، وفي مؤتمر الحزب في نيسان ١٩٢٤ جرى نقل هذه الوصية إلى المؤتمرين، لكن مع أنه على قبر لينين (اقسم الحزب والشعب السوفيتي بتحقيق توصياته حتى النهاية). وأنه وفقاً لكاتبي سيرة لينين السوفييت، اعتبر الحزب نصائح لينين كقانون) لم يتم فعل أي شيء لتنفيذ مضمون الوصية[٥٦٨]، وبعد موت لينين تشكلت حكومة جماعية من كل من ستالين وزينوفييف وكامنييف، ورأى ستالين أن الطريق إلى الانفراد بالسلطة لا بدّ أن يمر بالقضاء على كل زعماء الثورة وفي مقدمتهم تروتسكي، وتوصل إلى هدفه في كانون الثاني ١٩٢٨ حيث تم طرد كل القادة الرئيسيين لما كان يسمى بالمعارضة اليسارية أمثال تروتسكي، زينوفييف وكامنييف، رادك، راكورسكي من الحزب وتم نفيهم، وأعلنت (برافدا) في ١٩ كانون الثاني ١٩٢٨ مغادرة تروتسكي ومجموعة مكونة من ثلاثين قائداً معارضاً موسكو إلى المنفى في (ألما آتا) ومنع تروتسكي من دخول الاتحاد السوفيتي كلياً بعد سنة، وتحوّل من أحد أهم رموز الرعب البلشفي إلى عدو للثورة[٥٦٩]. غير أن تروتسكي أبى الاستسلام للهزيمة وجمع حوله كل المتذمرين الساخطين في محاولة لقلب نظام ستالين، فكان هذا نذيراً بحدوث حالة من الفوضى، واعتبرته الحكومة تهديداً خطيراً لنهوض البلاد الاقتصادي، ومن ثم اتخذت إجراءات لا هوادة فيها ولا شفقة لاستئصال كل معارضة، فأتبعت نفي تروتسكي بسلسلة من أعمال التطهير تخلّصت بها في حرص

(٥٦٧) مارسيل ليبمان - اللينينية في ظل لينين - ج٢ (ص ٢٩٠).

(٥٦٨) المرجع ذاته (ص ٢٩٠).

(٥٦٩) الكتاب الأسود عن الشيوعية.

شديد من كل من اشتبه في ميولهم نحو سياسة تروتسكي، ولم يحظ الكثيرون من هؤلاء بمحاكمة علنية.

وفي آب سنة ١٩٣٦ حوكم زينوفييف Zinofief وكامنييف Kamenief وأعدما بتهمة تنظيم جماعات إرهابية لاغتيال ستالين، وفي مستهل السنة التالية حدث تطهير هائل في الجيش الأحمر. ففي حزيران ١٩٣٧ جرت محاكمة سريعة للمارشال توخاشفسكي Thuhachevsky وسبعة جنرالات آخرين حكم عليهم فيها بالإعدام رمياً بالرصاص، وكذلك تمّ عزل آلاف من ضباط الجيش الأحمر[٥٧٠].

ولقيت سياسة المشاعية الزراعية التي أعلنها ستالين مقاومة عنيفة من قبل الشعب الذي عبّر عن مقاومته لها، ابتداء من فترة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ بالانتفاضات وأعمال التخريب التي كانت تعرقل أعمال الحصاد وجمع القمح، و تحول دون القيام بعمليات التموين ومصادرة المنتوجات والمحاصيل التي كان رجال السلطة يحاولون القيام بها، وتجاه هذا الواقع ضربت البلاد كلها موجة من القمع والإجراءات الانتقامية الهائلة تحت ستار النضال ضد المخربين وأعداء الثورة[٥٧١]، فأصبحت إجراءات التوقيف والاعتقال والتصفية وأحكام الإعدام تفتك بالمعارضين وخاصة بالفلاحين الملاكين منهم وغير الملاكين.

ففي عام ١٩٣٣ بلغ عدد المعتقلين ٨٠٠ ألف شخص عدا الذين عوقبوا بالأشغال الشاقة في مخيمات العمل والمناجم. وبلغ عدد الموقوفين من أعضاء الحزب نفسه مليون شخص، كما بلغ عدد الموقوفين بين ١٩٣٦ و ١٩٣٨ سبعة ملايين، وخلال هذه الفترة نفسها بلغ عدد التصفيات مليوني ضحية، وهذا عدا التصفيات الجماعية التي كانت تحصل سراً في معسكرات الاعتقال، والوفيات الكثيرة الناجمة عن الإرهاق في العمل القسري والبرد والجوع والظروف المعيشية والصحية السيئة في

---

(٥٧٠) عبد العزيز عمر ومحمد على القوزي – دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٢١).

(٥٧١) أدونيس العكرة – الإرهاب السياسي (ص ٦٧).

المناجم ومخيمات العمل[٥٧٢]. إلا أن أهم الأحداث التي وقعت في عهد هذا الطاغية هي المجاعة الكبرى التي ضربت أوكرانيا وشمال القوقاز في عامي ١٩٣٢ - ١٩٣٣ وتعود أسباب هذه المجاعة إلى أن المحصول الزراعي عام ١٩٣٢ كان ضعيفاً في تلك المناطق ومع ذلك فقد أصرت الحكومة على أخذ نصفه كعادتها. ولما كان الباقي من المحصول بيد الفلاح يذهب قسم منه كبذار للموسم المقبل وكمية أخرى كعلف للحيوانات. فقد وجد الفلاح نفسه في ضائقة شديدة وحاول الامتناع عن تسليم نصف المحصول إلا أن السلطات راحت تستخدم العنف المفرط ضده. وقد حاول الكثير من الفلاحين الهروب من الريف إلى المدينة هرباً من الجوع، إلا أن السلطات كانت تحاصرهم ومن كانت تقبض عليه فاراً إلى المدينة كانت تعاقبه عقوبات شديدة، لذلك كان على الفلاح أن يعاني الجوع دون أن يكون بوسعه فعل أي شيء.

وقد كان المرسوم الأكثر غرابة الذي أصدره ستالين في ١٩٣٢/٨/١٧ يعاقب بالإعدام أو بالأشغال الشاقة عشر سنوات على الأقل كل من يضبط في حالة السرقة أو التسبب في أي ضرر للممتلكات الاشتراكية. وعرف هذا القانون بين الناسٍ باسم (قانون السنبلة) لأن الذين تمت إدانتهم بموجب ذلك القانون لم يقترفوا شيئاً سوى أخذ بعض سنابل الذرة من حقول المزارع الجماعية، وحوكم بموجب هذا القانون أكثر من ١٢٥,٠٠٠ شخص بينٍ آب/ كانون الأول ١٩٣٢ وأعدم منهم ٥٤٠٠ شخص. وبينما كانت الملايين تموت جوعاً في عام ١٩٣٣ تابعت الحكومة السوفيتية تصديرها للحبوب، وأدت المجاعة إلى وفاة ستة ملايين شخص، فقد توفي في أوكرانيا وحدها أربعة ملايين شخص ولم تقتصر المجاعة على أوكرانيا، بل ضربت مناطق أخرى داخل الاتحاد السوفيتي كمنطقتي "دون و كوبان" في كازاخستان التي تكبدت مليوني نسمة، بالإضافة إلى نفوق ثمانين في المئة منٍ احتياطي الماشية، وهجرة ملايين الكازاخستانيين إلى آسيا الوسطى والصين هرباً من دولة المجاعة[٥٧٣].

(٥٧٢) المرجع السابق (ص ٦٨).

(٥٧٣) المرجع ذاته.

واعتقد ستالين لدى نشوب الحرب العالمية الثانية، أن هذه الحرب لا تعني الاتحاد السوفيتي مباشرة، بل هي حرب بين الدول الرأسمالية سوف تؤدي في النهاية إلى إضعاف تلك الدول جميعها واحتفاظ الاتحاد السوفيتي بكامل قوته. لذلك عقد معاهدة عدم اعتداء مع هتلر في آب ١٩٣٨ تبيّن فيما بعد أنها تضمنت بنوداً سرية لاقتسام أراضي بولندا[٥٧٤]. إلا أن هتلر ما لبث أن هاجم روسيا في حزيران ١٩٤١ وكان الهجوم مفاجأة كبرى لسيد الكرملين المطلق، واستطاع الألمان أن يتوغلوا مسافات كبيرة داخل الاتحاد السوفيتي حتى وصلوا على مشارف موسكو، إلا أن يقظة الشعب الروسي وتمسكه المعروف بأرضه ووجود بعض القادة العسكريين العباقرة أمثال المارشال زوكوف، بدّل الهجوم النازي إلى اندحار.

ووقعت أعظم معركة في تاريخ البشرية بين الألمان والروس في مدينة ستالين غراد. في تشرين الثاني ١٩٤٢ كانت معركة حياة أو موت بالنسبة للروس أو الألمان، ومع أن الجيش الألماني السادس المؤلف من ٣٠٠,٠٠٠ تحت قيادة الفيلد مارشال (فردريك باولس) استطاع تحطيم المدينة وتحويلها إلى أنقاض وحجارة، إلا أن الهجمات الروسية المضادة التي استمرت زهاء خمسة أشهر قضت على انتصارات الألمان. وفي ٣١ كانون الثاني ١٩٤٣ أسر القائد الألماني باولس وضباطه وأبيد جيشه تقريبا، واستسلم الباقون وعددهم ٩١,٠٠٠ و كان للنصر الكبير في معركة ستالين غراد أثره البالغ في إضفاء هالة من القدسية والمجد على ستالين الذي أنعم عليه مجلس السوفييت الأعلى برتبة مارشال الاتحاد السوفيتي[٥٧٥].

وبعد الانتصار تحول ستالين إلى الهجوم عام ١٩٤٤ وكانت حجة ستالين هي تحقيق تسليم ألماني دون قيد أو شرط، والحقيقة أن ستالين كان يهدف إلى احتلال أوروبا الشرقية ونشر الشيوعية فيها بالقوة، وتم تنفيذ الخطة في كل من بولندا

---

(٥٧٤) جواد صيداوي - الطغاة في التاريخ (ص ٩٨).

(٥٧٥) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٤٢٩).

والمجر ورومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية وتكفل الشيوعيون المحليون بإقامة حكومات شيوعية تدور في فلك الاتحاد السوفيتي، وبدأ ستالين بتنفيذ ما خطط له وهو القضاء على الدين من أجل ترسيخ الاشتراكية العلمية في تلك الدول. وفعلاً فقد وقعت حملة شعواء على الكنائس ورجال الدين مثل الكاردينال فيزنسكي في بولندا والأسقف بيزان في تشيكوسلوفاكيا والقساوسة الانجليكان في المجر، بل وحتى من كان شيوعياً بارزاً وقضى فترة طويلة منتمياً للشيوعية ثم تمرد على الاتحاد السوفيتي، تعرض لما لا تحمد عقابه. فقد أعدم راجك في المجر وكوستوف في بلغاريا وأكسوس في ألبانيا وطرد جومولكا وقبض عليه في بولندا وسلانسك في تشيكوسلوفاكيا واختفى ماركوس في اليونان وهكذا انتقل العنف والإرهاب من روسيا إلى أوروبا الشرقية.

وفي عام ١٩٤٨ حاصر ستالين برلين الغربية من الأربع جهات وكان يهدف إلى جعلها في قبضته، وكان العالم على وشك أن يقع في حرب عالمية ثالثة بعد ثلاثة أعوام من نهاية الثانية، وكانت الطائرات الأمريكية تلقي بالمعونات الغذائية للسكان من الجو، وبعد جهد كبير تم الوصول إلى تسوية ورفع الحصار في عام ١٩٤٩ [٥٧٦].

وعندما رفض الزعيم اليوغسلافي المارشال تيتو الانصياع الأعمى لأوامر الكرملين، هاجمه ستالين بشدة واتهمه بالمروق عن المبادئ الشيوعية الأصيلة، وقد ظنّ ستالين أن غضبته على الزعيم اليوغسلافي كافية للإطاحة به على يد الشيوعيين اليوغسلاف، إلا أن النتيجة كانت على غير ما توقع الطاغية. فقد تمسك الشعب اليوغسلافي برئيسه وأثبتت الأيام صحة موقفه[٥٧٧]. ولا شك أن كل طاغية مستبد يعتقد أن له ولاية على المجتمع ووصاية على الشعب "ولو فتشنا التاريخ بحثاً عن أكثر هؤلاء المستبدين أمانة وإخلاصاً وكفاءة في الولاية على (المصالح) لوجدناه

(٥٧٦) ياسر حسين – أربع وعشرون شخصية هزت البشرية (ص ٢٧).

(٥٧٧) جواد صيداوي – الطغاة في التاريخ (ص ٩٩).

في شخص جوزيف ستالين الوصي المستبد الطاغية على شعبه لا يشك أحد بحق في أن ستالين قد نقل المجتمع السوفيتي من أكثر الدول تخلفاً في أوروبا إلى أكثرها تقدماً في فترة ولايته من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٥٣[٥٧٨].

وبعد وفاة ستالين بثلاث سنوات قال خليفته نكيتا خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفيتي: إن الاستبداد الذي يمارسه شخص واحد يشجع الآخرين على ممارسة الاستبداد ضد غيرهم، ومن ثم فإن الاعتقالات واسعة النطاق ونفي آلاف من الناس والإعدام بغير محاكمة وبغير تحقيق خلقت أوضاعاً يشوبها الشعور بعدم الأمان والخوف واليأس أيضاً [٥٧٩]. لقد اتجه ستالين شيئاً فشيئاً إلى عبادة شخصيته وقد جرّه هذا إلى ارتكاب أخطاء جسيمة مثل مبالغته الشديدة في ردع المضادين للثورة، لقد كانت (البروليتاريا) هي عدو ستالين الوحيد على الرغم مما كان يدعي من أنه يحكم باسمها ولأجلها.

الشيوعية والمصير

لقد أخطأت الثورة البلشفية حين وجهت عداءها للطبقات البورجوازية من أجل إقامة دكتاتورية البروليتاريا، والحقيقة أن هذه الدكتاتورية لم ترَ النور مطلقاً بعد قيام الثورة عام ١٩١٧ بل بقيت مجرد شعار وتحولت فيما بعد إلى دكتاتورية (الصفوة الممتازة) من زعماء الحزب الشيوعي. لقد أعلن عضو في اللجنة البلشفية للعاصمة، وهو أف. دي. ميكوف قبل الثورة بقليل: "إننا نقول كل السلطة للسوفييت"، وفي الواقع لا يمكن أن نحدد سلفاً أي جهاز سيستلم السلطة[٥٨٠]. إلا أن لينين وبعد أن أصبح زعيم روسيا وجد أن النظرية غير التطبيق، فتغيير الجهاز الحكومي كان من الأولويات عنده، لأنه من غير المعقول أن تقوم دولة شيوعية بجهاز

(٥٧٨) عصمت سيف الدولة – الاستبداد الديمقراطي (ص ٩٩).

(٥٧٩) المرجع ذاته (ص ٩٩).

(٥٨٠) مارسيل ليبمان – اللينينية في ظل لينين – ج٢ (ص ٩٦).

حكومي قيصري بائد، لذلك أعلن حرباً لا هوادة فيها على البيروقراطية، وأسند مهمة مكافحة البيروقراطية إلى مفوضية الشعب لشؤون العمال والفلاحين التي كان يرأسها ستالين، إلا أن هذه المفوضية لم تفعل شيئاً بصدد مكافحة البيروقراطية حتى لقد صرح لينين في إحدى المرات قائلا: إن (البيروقراطية تخنقنا) وأن كل شيء غرق لدينا في مستنقع البيروقراطية الآسن[٥٨١].

لقد كانت البيروقراطية إحدى المسائل المعقدة التي لم يستطع لينين أن يتوصل إلى حلّ لها، وفي مقاله (حول التعاون) الذي أملاه في ٦ كانون الثاني ١٩٢٣ ولم يُنشر في البرافدا إلا بعد ثلاثة أشهر أكد (إن إعادة صياغة هذا الجهاز تشكل مهمة أساسية للحزب). لقد كان يهدف لينين من تقليل عدد الموظفين في أجهزة الحكومة إلى منع تركيز السلطة في أيدي فئة قليلة كي تبقى السوفييت أي (المجالس) هي صاحبة القرار في الاتحاد السوفيتي. ولكن مساعيه باءت بالفشل وبدا عجزه أكثر أمام تصاعد دكتاتورية ستالين الذي سعى إلى تركيز السلطة في شخصه، وأجهز بذلك على حلم لينين في القضاء على البيروقراطية، وكذلك قضى على دكتاتورية البروليتاريا. إن الاتحاد السوفيتي الذي أرسى دعائمه لينين سار منذ اللحظة الأولى في الاتجاه الخطأ، وإلا كيف نفسّر جرائم الشيوعية ضد المثقفين ورجال الدين والبورجوازيين والقوميات الطارئة. إن السلم الأهلي الذي افتقدته الشيوعية في روسيا كان عاملاً مهماً في زعزعة النظام ولو على المدى البعيد. ذلك أن جعل الناس على صعيد واحد يقودهم حزب واحد يحدد لهم طرق تفكيرهم وحياتهم، هو أمر خارج طبيعة الوجود الذي هو قائم على التناقض، وعلى الرغم من أن مبدأ الشيوعية الأساسي هو الديالكتيك أو الجدل، إلا أن الشيوعيين لم يفهموا أن عقول البشر تتفاوت وبالتالي تتفاوت حظوظهم في الحياة، فمن غير المعقول إلغاء الطبقات من المجتمع، والبيان الشيوعي يعترف بأن تاريخ أي مجتمع حتى الآن ليس سوى تاريخ

(٥٨١) المرجع ذاته (ص ٢٨٤).

صراعات طبقية[٥٨٢]. فإذا كان التاريخ منذ الأزل هو تاريخ صراعات طبقية، فكيف يمكن إلغاء الطبقات ؟.. إن الشيوعية فكرة برّاقة وإلا لما استهوت عقول الكثيرين من المصلحين عبر التاريخ، ومن منا لا يرغب في إن يكون المال شركة بين الناس يأخذ كل منهم حاجته منه ويترك الباقي للآخرين، فلو حدث ذلك لانعدم التنافس المادي البغيض والإلزامٍ القاسيٍ بـ (الدفع نقدا). لقد كان الأسلوب الذي اتبعه البلاشفة لجعل روسيا بلدا شيوعيا فيه الكثير من القسوة، فضحايا الإرهاب الستاليني فقط يقدرون بـ ١٢ مليون نسمة، ولا شك أن الطريق الخطأ يوصل إلى النتيجة الخطأ، وإذا كان الهدف من ثورة ١٩١٧ هو إقامة دكتاتورية البروليتاريا التي آن لها - كما كان يقال - أن تتسلم مقاليد السلطة بعد عهود طويلة من القهر والاضطهاد، إذا كان الهدف ذلك فلماذا أريقت كل تلك الدماء البروليتارية في الاتحادٍ السوفيتي السابق؟.. ولماذا بقيت الحريات محظورة، وبقي الحزب الشيوعي مستبداً على مدى سبعين عاما، فهل الماركسية نظرية استبدادية ؟..

لقد قسّم عصمت سيف الدولة الاستبداد إلى ثلاث أنواع، النوع الأول هو احتكار فرد أو قلّة إمكانات المجتمع وقرار استعمالها معا، وهو الاستبداد المتخلف. والثاني هو احتكار قلّة لأغلب إمكانات المجتمع مع ترك أغلبية الناس وما يشاؤون بدون إمكانية تنفيذ، وهو أحد نماذج الاستبداد المتحضر (البورجوازية)، والثالث هو توظيف إمكانات المجتمع لإشباع احتياجات الشعب طبقاً لقرار تحتكر وضعه الأقلية، وهو نموذج متحضر، مثاله (الماركسية). والماركسيون لا ينكرون هذا النظام ولكنهم ينكرون بشدة تسميته استبدادا، وعذرهم في هذا أن اتهام الماركسية بالاستبداد كان يأتي - تقليداً - من جانب البورجوازية ولخدمة استبدادها الخاص[٥٨٣]، ولكن بعيداً عن هذا الرأي أو ذاك، فإن الواقع يثبت استبداد

---

(٥٨٢) هرمان دونكر - دراسة البيان الشيوعي (ص ١١١).

(٥٨٣) عصمت سيف الدولة - الاستبداد الديمقراطي (ص ١٠٢).

الشيوعية في الاتحاد السوفيتي، فحتى لو قال الماركسيون إن الطبقة العاملة هي التي تحكم في المجتمع، فإن هذا القول غير صحيح لأن الذي يحكم ليس الطبقة العاملة، بل هو الحزب الذي يتألف من عناصر آتية من الطبقة العاملة.

لقد أصبح السكرتير العام للحزب هو صاحب القرار ولا يرجع في اتخاذ قراره إلى رأي الطبقة العاملة في مجالسها، ولا شك إن الاستبداد بالقرار دون الرجوع إلى الشعب ليس مجرد سلب لحق شعبي، بل هو "فشل" في حل المشكلات الاجتماعية، وهو فشل يسند إلى المستبدين أنفسهم الذين يتوهمون أن أفكارهم التي يعتقدون أنها صحيحة هي صحيحة موضوعيا، ومنه نعرف أنه فيما عدا النجاح مصادفة، فإن كل مستبد هو حاكم فاشل[٥٨٤]. لقد كان القمع السياسي الموجه ضد المعارضة، وضد حرية الرأي هو الطابع المميز للحكم الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، وقد كشف بوخارين Bujarean وتومسكي Tomesqui هذه الناحية عندما أعلنا: تحت حكم دكتاتورية البروليتاريا يمكن أن يتواجد حزبان أو ثلاثة أو أربعة، ولكن بشرط أن يكون الواحد في السلطة والآخرون في السجن[٥٨٥].

(٥٨٤) المرجع ذاته (ص ١٠٩).

(٥٨٥) أدونيس العكرة - الإرهاب السياسي (ص ٦٩).

الفصـل الثاني

الاشتراكيـة الوطنيـة

اشتراكية، ولكن على نقيض الاشتراكية الماركسية في روسيا، ولدت في ألمانيا عام ١٩٢١ تلك هي الاشتراكية الوطنية، وهذه الاشتراكية هي في عمقها ألمانية. فقد وجدت لخدمة الشعب الألماني فقط فهي ليست أممية كالاشتراكية الماركسية، كما أنها لا تؤمن بصراع الطبقات الذي هو مبدأ أساسي في الماركسية، بل تؤمن بتعاونها من أجل خدمة المصلحة العامة. ولكن كيف نشأت هذه الاشتراكية، وما هي حقيقة أهدافها وما هي الظروف التي دعت إلى وجودها. تلك أسئلة يمكن الإجابة عنها إذا استعرضنا حياة مؤسسها الزعيم أدولف هتلر Hitler الذي كانت نزعته العنصرية سبباً في إثارة الحرب العالمية الثانية.

هتلـر و((كفـاحـي))

في قرية نائية على الحدود النمساوية الألمانية - تُدعى "برونو" أبصر أدولف هتلر النور عام ١٨٩٠ كان أبوه موظفاً جمركياً ذا مسلك مثالي وبعد إحالته إلى التقاعد عاد بعائلته إلى مدينة (لانز) مسقط رأسه ثم انتقل إلى قرية (لامباخ) حيث انصرف إلى استغلال أرض كان يملكها. إلا أن الأمور لم تستقر بهذه العائلة، إذ توفي الأب وهتلر في الثالثة عشرة من عمره، فكان عليه أن يواجه مصيره بنفسه، وجه اهتمامه إلى الرسم، ولكن بعد عامين توفيت والدته التي كان يحبها "حب العبادة"، فانتقل للعيش في فيينا وهناك عمل كمعاون بنّاء ومن ثم كدهّان ليحصل على كفافه ويأمن غائلة الجوع.

وفي أثناء إقامته في العاصمة النمساوية انكبّ على قراءة الكتب التي تعالج الاشتراكية الماركسية والكتب التي تتعرض لليهود، وقد أدرك الصلة الوثيقة بين هذه

العقيدة الخطرة وبين المبادئ التي يروّج لها اليهود، كما أدرك أن المرامي البعيدة للحركة الاشتراكية الماركسية هي نفسها المرامي التي لليهود كشعب، ولليهود كدين وللصهيونية كحركة سياسية قومية[٥٨٦].

وخرج من دراساته بكراهية شديدة للماركسية وعداوة أشدّ لليهود، كما كان يقرأ بانتظام في فيينا مجلة (أوستارا) Ostara التي كان يديرها حوالي عام ١٩٠٥ جورج لانزفون ليبنغيلز الذي كان قد رفع على قصره في ورتنشتاين علم الصليب المعكوف (سواستيكا)، وكان ليبنغيلز يتابع خطة تأسيس جماعة الذكور الآريين المدعوة إلى أن تكوّن طليعة عرق الأسياد الأمراء الشقر ذوي العيون الزرقاء في المعركة الدامية مع الأعراق الهجينة الدونية[٥٨٧]. وقد أثرت أعمال ليبنغيلز في نفسية الشاب المندفع هتلر، وصارت تعتمل في وجدانه إلى أن يحين الوقت له لتحقيقها في ألمانيا.

وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، رحل هتلر إلى ميونخ ١٩١٢ حيث كان يعيش من تزيين البيوت وبيع الصور التي يرسمها. ولما أعلنت الحرب تطوع في جيش بافاريا الألماني طوال سنوات الحرب، على الرغم من كونه نمساويا، وقد تمخضت الحرب عن هزيمة لألمانيا أمام قوى الوفاق، ويبدو أن الأشياء التي تركت أعظم الأثر في نفسه وقت الهدنة هي انهيار السلطة وفرار الإمبراطور فرارا مشينا، وتمرد رجال الأسطول الألماني والمجالس المشتركة من الجنود والعمال في الجيش. وكان هتلر رجلاً ناقماً على الحياة، وكان قلبه يفيض حباً بالجنس الآري[٥٨٨]. لقد كان الآري ولا يزال المشعل الإلهي الذي يضيء السبل أمام البشر، فشرارة العبقرية الإلهية انبثقت دائماً من جبينه المشرق، وهو الذي قاد الإنسان على دروب المعرفة

(٥٨٦) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٢٨).

(٥٨٧) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١٠٥).

(٥٨٨) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٢٦٢).

ودلّه على السبل التي تجعل منه سيد الكائنات الحية على هذه الأرض[٥٨٩]، وكان يعرف كيف كانت ألمانيا عظيمة ممجدة قبل الحرب وأنه بالإمكان إعادة هذا المجد، ولكن افتقار البلاد إلى القيادة الصحيحة كان داعياً لليأس ومجلبة للعار. وكان مردّ هذا كله إلى الملوك الوراثيين والى المجالس التشريعية واتحادات العمال، ومن ثم كان من الضروري إخضاع كل هؤلاء إلى زعيم الدولة الألمانية الجديدة[٥٩٠].

فكتب في (كفاحي): "إن أفضل دستور شكّل للدولة هو ذلك الذي يكفل بأضمن طريقة طبيعية وضع أقدر عقول المجتمع الوطني في أبرز المراكز وأعظمها أهمية ونفوذاً". وقد عملت هزيمة ١٩١٨ المعزوة إلى خيانة الماركسيين واليهود، والإهانة القومية التي سببتها خسارة الأراضي على إثارة موجة من القومية، وقامت (فرقة من المتطوعين) والمتحمسين تحاول تأخير تطبيق المعاهدات في سيليزيا العليا خصوصا، كما تكونت الرغبة في الثأر من الخونة والمنتصرين، وزادت الأزمة الاقتصادية الناشئة عن الهزيمة من السخط العام. وولد الحزب العمالي القومي الاشتراكي سنة ١٩٢١ واحداً من بين العديد من المجموعات القومية التي لم تكن ترتضي لا الديمقراطية ولا الهزيمة. وفي سنة ١٩٢٢ عقد أول مؤتمر له ونشر جريدته (الفولكيشر بيوباختر) Volkisher Beobachter، وأصبح هتلر زعيم الحزب، بعد أن أبعد المؤسس دركسلر. وفي سنة ١٩٢٣ حاول الحزب القيام بانقلاب في ميونخ ففشل وفقد ستة عشر قتيلاً وأودع هتلر السجن بعدها[٥٩١].

وفي سجنه بقلعة لاندسبرغ آم ليش كتب هتلر (كفاحي) Mein Kampf وهذا الكتاب أصبح إنجيل الاشتراكية الوطنية، وهو يتضمن نوع الدولة الألمانية التي ينوي أن يؤسسها بعد توليه الحكم. وفي كتابه انطلق بأفكاره في كل موضوع يمكن تصوره،

(٥٨٩) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٢٠٥).

(٥٩٠) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي – دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٢٦٢).

(٥٩١) هنري ميشال – الفاشستيات (ص ٥٤).

فكتب عن الثقافة والتعليم والمسرح والسينما والفن والأدب والتاريخ وغير ذلك من الموضوعات، وأبرز اعتقاد النازية في التفوق العنصري للجنس الآري، وشرح فيه رأيه في الحكم البرلماني وفساد الانتخابات التي توصل إلى الحكم أغلبية متنافرة، وشرح فيه قضية اليهود وأنانيتهم واعتبرهم كارثة على كل بلد يحلون فيه[٥٩٢]. وبعد خروجه من السجن بعد تسعة أشهر كان أول عمل يقوم به هو إعادة تنظيم الحزب، وأنشأ داخله تنظيماً عسكرياً أطلق عليه اسم (فريق الصدام) وبالإضافة إلى هذا التنظيم وتحسباً لجميع المفاجآت، شكل كتائب خاصة سميت (كتائب العمل السري) أو أس. أس[٥٩٣]، وانتهز عام ١٩٢٩ الظروف التي نتجت عن الأزمة الاقتصادية العالمية والبطالة التي نجمت عنها، وقام بشنّ حملات قاسية على حكومة جمهورية (فيمار) Weimar [٥٩٤] التي بدت ضعيفة وعاجزة عن مواجهة التحديات حتى لقد تقربت الشركات من هتلر وحزبه وساندته مالياً وسياسياً على اعتبار أن البلاد في حاجة إلى شخصية قوية ذات قدرة على مواجهة الأزمات بحزم.

ومن جهة أخرى كانت هذه الشركات تجاري التيار الشعبي العام الذي أخذ يلتف حول هتلر وحزبه وبدا واضحاً أنه سيصبح أقوى زعماء الأحزاب بعد وقت ليس بالطويل[٥٩٥]. وقد استحوذت شخصية هتلر على الشعب الألماني ذلك أن الجرائم البشعة التي أمر بها أو تركها ترتكب طبعته بطابع الجنون الدموي، وكان يتباهى دوماً بالكمية الضخمة من مطالعاته، نيتشه، شوبنهور، مومسن. ولكن مكتبته لم تكن تضمّ إلا ١٥٠٠ مجلد لم يكن أي واحد فيها كلاسيكياً أو علمياً حقاً، ولكنه كان صاحب ذاكرة ممتازة، ولذا كان يدهش أحياناً رفاقه فجأة بسعة علمه بالخلائط المتكررة أثناء حديثه الوحيد الطرف والذي لا ينتهي، ولكنه أثبت عن ذكاء عقائدي مبسط.

---

(٥٩٢) عبد الحميد البطريق – التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣١١).

(٥٩٣) جواد صيداوي – الطغاة في التاريخ (ص ٨٢).

(٥٩٤) جمهورية ((فيمار)) هي الجمهورية الألمانية التي أعلنت في منطقة فيمار عام ١٩١٩.

(٥٩٥) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي – دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٦٤).

فقد كان مختالاً بارعا، ماهراً أشد المهارة في فنّ الكذب والتمويه وكان في بعض الأحيان بطيئاً في اتخاذ قراراته بعد مشاورات لا تنتهي مع المقربين إليه.

ولكنه كان أحياناً أهلاً لاتخاذ قرارات مفاجئة تعزى إلى نوع من العبقرية أو الإشراق. وكان أحياناً يبدو انتهازياً كاملاً يعرف كيف يغتنم الفرص المتاحة له، وأظهر عن عدم إحساس كامل تجاه الآلام التي يفرضها على أشباهه، في حين كان كثير العناية بأمنه الذاتي، هذه الصلافة الشرسة الفظّة قتلت فيه كل حرارة إنسانية[٥٩٦].

وكان هتلر قبل كل شيء قوميا، وطموحه كان يعني بالنسبة إليه الإخلاص لألمانيا، ومن يهاجمها فكأنما كان يهينه هو شخصياً وكان يعتبر نفسه أيديولوجيا ونبياً في آن واحد[٥٩٧].

هتلر والرايخ الثالث

كان الحزب الاشتراكي الوطني يسير بخطى متسارعة للوصول إلى السلطة في ألمانيا. فقد زاد عدد المنتسبين إليه بزيادة عدد العاطلين عن العمل عام ١٩٢٩ وقد وضع هتلر برنامجاً اقتصادياً جذابا، ووعد بالقضاء على البطالة وإتاحة فرص العمل للجميع فالدولة النازية هي دولة لكل مواطنيها و "لا تعترف بأية طبقة، ولكنها تعترف من الوجهة السياسية فقط، بوجود بورجوازيين متساوين في الحقوق والواجبات العامة[٥٩٨]. ففي سنة ١٩٢٤ حصل الحزب على ٦,٦٪ من الأصوات في الانتخابات، إلا أن هذا الرقم ارتفع في أيلول ١٩٣٠ ليصبح ١٨٪ من المقترعين أي ١٩٧ نائبا، وبدأ المحافظون والصناعيون والجيش يهتمون جدياً بهذه المجموعة، واستقبل الرئيس هندنبرغ هتلر وعرض عليه المستشار برونتغ الدخول في الحكومة، وأخذ كبار الصنّاع يقدمون له العون، وإذا كان هتلر قد هزم أمام هندنبرغ في

(٥٩٦) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٥٧).

(٥٩٧) المرجع السابق (ص ٥٨).

(٥٩٨) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٤٠٠).

الانتخابات الرئاسية التي جرت في ١٣ آذار سنة ١٩٣٢ فإن ٣٧٪ من الناخبين صوتوا لمرشحي الحزب.

بعد ذلك بعدة شهور، بدا استدعاء هتلر إلى تأليف الحكومة في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٩٣٣ عملاً ديمقراطيا، وبإعطاء الحزب أربع حقائب فقط، ظنّ المحافظون أنهم يضعونه في موقع ثانوي[٥٩٩]. وما أن تولى هتلر منصب المستشارية حتى بدأ في تنفيذ برنامجه، وكان معنياً في أول الأمر بتصفية خصومه والوصول إلى الحكم المطلق، وكان الحزب الشيوعي أكثر الأحزاب قوة في ألمانيا، وكان لا بدّ من القضاء عليه فدبّر هتلر حادثة احتراق الرايخستاغ في ليلة ٢٦ - ٢٧ شباط ١٩٣٣ ووجه الاتهام صوب الشيوعيين، فشنّ عليهم أعنف الحملات وشتت تجمعاتهم وزعاماتهم.

وفي نفس الوقت قضى على غير الشيوعيين من خصومه، ولم يلبث بعد ذلك أن ألغى الأحزاب وجعل الحزب الوحيد الذي يحق للألماني أن يلتحق به هو الحزب الاشتراكي الوطني (النازي)، واستطاع أن يحصل على سلطات دكتاتورية واسعة من مجلس الرايخستاغ ثم حلّه، ووصل إلى هدفه في الحكم الفردي المطلق بعد وفاة الرئيس هندنبرغ في الثاني من آب ١٩٣٤ ليصبح هو رجل الدولة الأول وبدأ بذلك الرايخ[٦٠٠] الثالث، و بذلك صار أقوى حاكم في العالم ولم يكن هتلر يميل إلى أن يلقب برئيس الجمهورية، بل كان يفضّل لقب (فوهرر) Fuhrer أي الزعيم[٦٠١]. وفي ٥ آذار ١٩٣٣ وقع هتلر اتفاقية مع الكنيسة الكاثوليكية وانسحب من (عصبة الأمم) وكان هذان العملان أول نجاحاته في الخارج، وأما على الصعيد الداخلي، فقد شرع هتلر في اتخاذ إجراءات صارمة لتحويل ألمانيا إلى دولة يحكمها حزب واحد هو

---

(٥٩٩) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٥٤).

(٦٠٠) الرايخ - كلمة ألمانية تعني الإمبراطورية أو الدولة الألمانية، والرايخ الأول هو الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والرايخ الثاني هو الإمبراطورية التي أسسها بسمارك عام ١٨٧١، والرايخ الثالث هو الدولة النازية.

(٦٠١) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٦٦).

حزبه الاشتراكي الوطني (النازي).

ورأت بعض الأحزاب أن تختفي من الوجود طواعية، وأصدرت حكومة هتلر في ١٤ حزيران ١٩٣٣ قراراً يقضي بأن الحزب الوطني الاشتراكي هو الحزب الشرعي الوحيد في ألمانيا، وأن قيام أي حزب آخر يعتبر في نظر القانون خيانة وطنية، وهكذا أصبح المواطن الألماني أحد شخصين، إما أن يكون نازياً أو خائناً[(٦٠٢)]. وحدد الحزب مطالبه في اتحاد جميع الألمان في دولة مركزية ألمانية وكذلك إلغاء معاهدات الصلح التي أذلّت الشعب الألماني وإلغاء حقوق اليهود الانتخابية، فقد اعتبرهم مسؤولين عن هزيمة ألمانيا في الحرب، وتأسيس جيش وطني وهيمنة الدولة على الأعمال التجارية الكبرى، وهاجم كذلك مبادئ المسالمة والنظام الرأسمالي[(٦٠٣)]، وكانت أول علامة دلّت على الطابع الجديد للسياسة النازية إعلان انسحاب ألمانيا من مؤتمر نزع السلاح في تشرين الأول ١٩٣٣ ومن (عصبة الأمم) بسبب عدم منح ألمانيا حق المساواة في التسلح[(٦٠٤)].

وفي عام ١٩٣٥ وبعد عامين من التسلح السري، أعلن هتلر عودة التجنيد الإجباري وإقامة جيش ألماني يتكوّن من ٣٦ فرقة ما دام التحديد العام للتسلح الذي توقعه لم يتحقق في أوروبا، واهتزت الأمة طرباً ونشوة وهللت الصحافة لهذا القرار الجريء الذي يعيد لألمانيا كرامتها التي ديست في الطين لسنوات طوال والذي يهدم الصرح الأول في معاهدة فرساي[(٦٠٥)]. ورأى هتلر أن يقوم بعمل سياسي يبين للعالم مدى تمسك الشعب الألماني به، فحلّ مجلس الرايخستاغ ودعا إلى انتخابات جديدة لاستفتاء الأمة، فكانت نتيجة الانتخابات نصراً مؤزراً لهتلر وللسياسة النازية

(٦٠٢) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣١٧).

(٦٠٣) شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق - تاريخ أوروبا (ص ٢٥٤).

(٦٠٤) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٧٤).

(٦٠٥) ياسر حسين - هتلر وتزوير التاريخ (ص ٦٩).

الجديدة، على أن هتلر لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان إلى تأييد جميع أنصاره.

فقد كان في داخل حزبه جماعة من اليساريين الذين اعتقدوا أن هتلر فشل في تنفيذ المبادئ التي نادى بها الحزب الاشتراكي الوطني عند نشأته، وعلى رأس هؤلاء صديق هتلر القديم (أرنست روهم) قائد فرق العاصفة، وغيره من زعماء الحزب الذين كانوا يريدون القيام بثورة تصحيحية تعمل على تنفيذ برنامج الحزب تنفيذاً كاملاً. وعلم هتلر أن ثمة مؤامرة يدبرها هؤلاء في ٢٩ حزيران ١٩٣٤ فسبقهم إلى العمل وشهدت ألمانيا مصرع حوالي ستين رجلا ممن اتهمهم هتلر بالاشتراك في المؤامرة حيث أعدموا جميعاً من دون محاكمة[٦٠٦]. واتخذ هتلر شعاراً لحزبه النازي (الصليب المعكوف، سواستيكا) وأراد بذلك أن يحيي تقليداً قديماً من تقاليد القبائل التوتونية التي تحدّر منها الألمان[٦٠٧]، والتي كان الصليب المعكوف رمزاً دينياً عندها، ولم يلغ هتلر دستور جمهورية (فيمار) ولم يضع دستوراً جديدا، ولم يبد أنه قد اهتم لذلك. فالنظام القومي الاشتراكي ظل نظاماً استثنائياً حريصاً على أن لا يحدّه أيّ حدّ قانوني، فيه كانت الإدارة والبوليس فوق القوانين، إنها (دولة الفوهرر)، كلمته قانون وإرادته لا يحدّها أي حد، وسلوكه لا يحتمل أي انتقاد[٦٠٨]، وكل شيء كان يعود في النهاية إليه، بحكم تعميم (مبدأ الفوهرر) وارتكز النظام النازي من الناحية السيكولوجية على الدعاية وعلى الإرهاب الجماعي الذي كان هتلر يسميه (إرهاب الفكر)، وعرّى القلق والخوف الفرد من كل رأي أو تفكير شخصي، ومورست ضغوطات على العائلات، وكان التعذيب والقتل أو الموت البطيء في معسكرات الاعتقال من نصيب المعارضين، وكانت اللامبالاة كاملة تجاه الكائن البشري، وتجاه إمكاناته الفكرية وأصبح تثقيف الناس كنوع من تربية الحيوانات وأصبح التعصب المحرك الرئيسي عند النازي في عمله.

(٦٠٦) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٧٤).

(٦٠٧) فراس سواح - لغز عشتار (ص ٤٥).

(٦٠٨) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٦٨).

ومـع أن القوانـين السـارية في ألمانـيا لم تـتغير في الـرايخ الثالـث، إلا أن دور المحاكم بات ثانوياً في تطبيق العدالـة، فأصبحت الدعاوى نادرة، والشيء الذي كان سائداً هـو عادة الاعتقال والتوقيف دون محاكمـة، فالقاضـي لم يعد حامياً للقانون، بـل هـو مسـاعد حكومـي فقـط[٦٠٩]. وكـان البولـيس السياسـي الدعامـة الأولى بـين الدعائم التي قامت عليها الدولة النازية.

ففـي عـام ١٩٣٣ وجّـه غوريـنغ[٦١٠] Goring بإيعـاز مـن الفوهـرر رسـالة إلى الشعب جاء فيها: "أيها المواطنون لن تعوق إجراءاتي اهتمامات قانونية. . أنا لست معنياً هنا بتطبيق العدالة، أنا لست معنياً إلا بأن أمحو وأن أبيد ولا شيء غير ذلك. . إنـي سأستعمل وبالتأكيد وبأقصـى مـا يمكـن وسـائل الدولـة والبولـيس". وفي نفـس السنة صدر قـرار يسـمى (قرار الدفاع عن الشعب والدولة) تكرس فيه قرار تطبيق الاعتقال المكثف في المعسكرات الخاصـة، وبعـد فـترة أصبـح غوريـنغ وزيـراً للداخلية فـألحق بوزارتـه دائـرة البولـيس السياسـي الـتي كانـت تابعـة حتى ذلك الوقت لمديرية البولـيس العامـة، ومنـذ ذلـك الحـين اصبـح هـذا الجهاز البوليسـي الغستابو Gestapo (أي بوليس الدولة السري) يتصرف باسم وزير الداخلية نفسه[٦١١]. ووضعت في يده سلطات واسـعة وسـريعة التنفيـذ ضـد معارضي النظام الجديد، وكان رجال الغستابو منبـثين في القـرى والمدن وفي كل هيئة وإدارة حكومية أو خاصة، وكان الغستابو يكاد أن يكون مستقلاً بعيداً عن الرقابة القضائية، يستطيع أن يصادر الحريات وأن يزجّ

---

(٦٠٩) المرجع السابق (ص ٧٠).

(٦١٠) غورينغ - ضابط طيار محارب لامع في حرب ١٩١٤ - ١٩١٨، وكان يجمع ألقاباً كثيرة وأوسمة ومغانم وهو مؤسس الغستابو ومعسكرات التعذيب، وهو منشئ سلاح الطيران والمتحكم بالاقتصاد. كما كان هاوي مجموعات وراعياً للأدب، وسلاباً وكان مغروراً، خليطاً من الطيبة ومن الفظاظة من اللطف والتوحش زعيماً وقاطع طرق، كما كان مدمن مخدرات أيضاً..

(٦١١) أدونيس العكرة - الإرهاب السياسي (ص ٦٨).

بأعداء النظام في معسكرات الاعتقال[٦١٢].

وكان برنامج الحزب الذي وضعه فيدر قبل تولي الحكم، يريد تجنيب ألمانيا (تحكم وتسلط الفائدة) واقترح تدويل التروستات واستملاك الممتلكات الكبرى بدون تعويض، ومشاركة العمال في الأرباح، إلا أن هتلر حدّ قليلاً من طروحات فيدر عندما قصر عام ١٩٢٨ التأميمات على "الشركات التي ليست لها شخصية". وعندها قصّر المصادرة على "الشركات اليهودية ذات الاستثمار العقاري" وقد اقترنت القومية الاشتراكية بتحولات اجتماعية، ولكنها لم تكن اشتراكية بالمعنى الحقيقي للكلمة، فقد ظلّت الملكيات لأصحابها كما في الماضي[٦١٣]، وتم توحيد السياسة الاقتصادية للدولة بحيث تسيطر الإدارة الحكومية على الإنتاج وتصريفه، وعلى العمال والفلاحين ومسؤولياتهم وحقوقهم، ومن ثم لم تعد هناك حاجة - من وجهة نظر النظام الهتلري - إلى نقابة تدافع عن مصالح ا لعمال وأصحاب الحرف، لهذا حُلّت النقابات العمالية[٦١٤]، وتجمع الشغيلة في (جبهة العمل) التي كانت تدير الضمانات الاجتماعية التعاضديات ومصارف التسليف العمالي[٦١٥]، وتعمل على توجيه العمال نحو تنفيذ خطط الحزب النازي، و حرم على العمال حق الإضراب والاعتصام، وأصبحوا يعتمدون كل الاعتماد على الحكومة النازية في تسوية الخلاف الذي يقوم عادة بينهم وبين أصحاب الأعمال بما تصدره الحكومة من قواعد للعمل والأجور[٦١٦]. وكان الأفراد ينتدبون لدى الإدارة (رجال ثقة) لا يشتركون في الإدارة، ولكنهم يراقبون التدابير الاجتماعية، وهكذا زال صراع الطبقات والعمال وأرباب العمل اشتركوا في عمل مشترك، وقد عملت إعادة التسلح

(٦١٢) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٦٧).

(٦١٣) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٧١).

(٦١٤) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٦٨).

(٦١٥) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٧٢).

(٦١٦) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣١٨).

وتجنيد العاطلين ضمن إدارة الحزب الضخمة على وضع حدّ للبطالة. فقد كان هناك نحو ستة ملايين عاطل عن العمل سنة ١٩٣٢ وقد أصبحوا سنة ١٩٣٩ - ٣٨٠٠٠ - فقط، وعملت النازية على وضع حد للنزوح الريفي إلى المدينة وأرادت تثبيت الفلاح في أرضه من أجل تموين البلد[٦١٧]. وأراد هتلر أن يضمن ولاء الجيش له فاستغل موت الرئيس هندنبرغ سنة ١٩٣٤ لكي يفرض على الجيش يمين ولاء لشخصه، وتبع الجيش الفوهرر في كل مبادراته ويمكن القول أن الهزائم العسكرية هي التي أحيت المعارضة من قبل جماعة من الضباط حاولت أن تغتال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ واستغل هتلر الفرصة ليتخلص من جماعة يكرهها، فتعددت التوقيفات والإقالات، وتلقى العديد من ضباط (فرق الأمن) مراكز قيادية مهمة، وكان أكثر ما يعجب هتلر هو المهندس المقاول الذي يبني القوة بمعرفته وإرادته. وكان يرغب في تأسيس إمبراطورية ألفيّة تكون نقية عرقيا، تمدّ (مجالها الحيوي) عن طريق الفتوحات على حساب الشعوب الدنيا المعدّة للاستعباد أو للإبادة، وهذا العمل يقتضي دوام استغلال الإنسان للإنسان، وهو يفترض خضوع كل فرد إرادياً أو إكراهاً لأهداف الجماعة ويقيم بصورة دائمة نموذجاً من المجتمع العسكري[٦١٨].

وكان هتلر يأخذ على جمهورية فيمار انشغالها الشديد بالخلافات الحدودية القليلة الأهمية، ذلك أن برنامج الحزب الذي حرره فيدر نصّ على إلغاء المعاهدات والعودة إلى الحدود القديمة لألمانيا وتشكيل رايخ يضم كل الألمان لأن "الرايخ كدولة يجب أن يضمّ الألمان كافة"[٦١٩] وأينما كانوا وكانت أهداف السياسة الهتلرية مدونة في كتاب (كفاحي) وفيه يطمح هتلر إلى إقامة اتفاق طويل الأمد مع إنجلترا دون أن يتخلى الرايخ تماماً عن مطامحه البحرية والاستعمارية، ثم استبعاد فرنسا عن موقعها كدولة عظمى، ثم الاستيلاء على الأراضي الزراعية في الشرق من الاتحاد

(٦١٧) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٧٣).

(٦١٨) المرجع السابق (ص ٧٠).

(٦١٩) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٢٧٥).

السوفيتي، ولا شك أن هتلر كان في وقت واحد أيديولوجياً متعصباً ومغامراً انتهازيا، همه الأول انتهاز الفرصة والانتصار السريع[٦٢٠].

هتلر والعنصرية

كانت الدولة العتيدة التي يرمي هتلر إلى إنشائها، دولة عنصرية لا يتسع مجالها إلا للعرق الآري ذي المواهب المبدعة في رأيه، وقد رفض هتلر فكرة أن الآريين كانوا برابرة فيما سبق من الزمن، فقد كتب في (كفاحي): "فالقول إن الجرمان كانوا برابرة يجافي الحقيقة والواقع، لأن الجرمان ما كانوا برابرة قط، لكن المناخ في البقاع الشمالية فرض عليهم طراز معيشة كان سبباً في تأخير نمو طاقتهم المبدعة، ولو أنهم اختاروا لإقامتهم مناطق جنوبية ووجدوا العتاد البشري الذي تقدمه الأعراق الوضيعة لأمكنهم بفضل طاقة الإبداع الكامنة فيهم أن يوجدوا حضارة تبزّ حضارة الإغريق"[٦٢١]. وقد كان هذا الفهم العنصري للتاريخ يدفع هتلر في التعصب إلى حد الجنون، وكان عليه أن يتلافى أخطاء أسلافه الجرمان، لذلك فالرايخ يجب أن لا يقتنع بما يملك، بل لا بدّ له من أن يمدّ أملاكه وأن يسيطر على الشعوب الأخرى التي لم تخلق إلا لخدمته.

فقد جاء في المادة الثالثة من برنامج الحزب الذي حرره فيدر Feder: إننا نقضي بأن يكون لنا مستعمرات تسمح لشعبنا أن يجد طعامه، ولفائض السكان أن يقطنها[٦٢٢] إلا أن هذا الأمر يجب أن يسبقه تطهير المجتمع الجرماني من الشوائب التي تعكّر صفوه، وقد جاء في المادة الرابعة من نفس البرنامج: ليس من مواطن إلا من كان من ملّتنا، وليس من ملّتنا إلا من كان دمه ألمانياً بغضّ النظر

(٦٢٠) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٨٥).

(٦٢١) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٢٧٠).

(٦٢٢) أدونيس العكرة - الإرهاب السياسي (ص ١٣٥).

عن طائفته، إذن ليس لأيّ يهودي أن يكون من ملّتنا [٦٢٣] وتجسّد الفكر العنصري منذ وصول هتلر إلى السلطة، فقد صدر في ١٤ تموز ١٩٣٣ قانوناً مخصصاً لمنع ذرية الأشخاص المصابين بالأمراض الوراثية[٦٢٤].

وقد كان المقصود من هذا القانون منع الأشخاص المصابين بأمراض وراثية من إنجاب الأطفال وذلك عن طريق تعقيمهم ولو أنه ضد إرادتهم، فكما أن مربّي الحيوانات لا يفسح في المجال لتوالد الحيوانات الأدنى من جنس واحد. على هذا النحو كان على الرايخ الثالث الألماني أن ينتزع حق التوالد من مواطنيه الضعفاء[٦٢٥] وتمّ تصنيف السكان في ألمانيا إلى ثلاث فئات: مواطنون ورعايا وأجانب، والفرق الوحيد بين الفئتين الثانية والثالثة هو أن الأجانب رعايا دولة أخرى، وتعتبر الدولة العنصرية رعايا لها جميع الذين يولدون على أرضها، ولكن الرعوية وحدها لا تخول صاحبها حق المساهمة في النشاط السياسي ولا تؤهله لشغل وظيفة عامة، فكل ألماني هو أحد رعايا الدولة العنصرية الألمانية، ولا يكتسب صفة المواطن الألماني إلا بعد أن تصهره المدرسة أولاً والجيش ثانياً في البوتقة القومية. فالجيش هو المدرسة التي تخرّج المواطنين ولكن لا تمنحهم هذه الصفة والحقوق اللاصقة بها ما لم يكونوا موفوري الصحة وما لم يكن مسلكهم خلواً من الشوائب، وشهادة المواطن هذه هي أعظم وثيقة يحصل عليها الفرد في الدولة العنصرية لأنها تتيح له ممارسة حقوق المواطن والاستمتاع بالامتيازات التي تعود إلى هذا اللقب، ويرافق منح الشهادة قسَم يؤديه المواطن الجديد معاهداً الأمة والدولة على خدمتهما بإخلاص وأمانة ونكران ذات. والمواطن يحتفظ بصفته هذه ما دام أهلاً لها. أما المجرم والخائن والمتخاذل. . فإنهم يفقدون هذه الصفة ليعودوا إلى صف الذين لم يكتمل نضجهم القومي أي رعايا الدولة العنصرية، ولا تمنح الفتاة صفة

(٦٢٣) المرجع السابق (ص ١٣٤).

(٦٢٤) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١١٨).

(٦٢٥) المرجع السابق (ص ١١٨).

المواطنة إلاّ بعد زواجها، وتستثنى الفتيات اللواتي تضطرهن ظروفهن للعمل، ويأكلن خبزهن بعرق الجبين[٦٢٦]. وتمّ تصنيف الفتيات ضمن فئات كذلك فبعضهن كان مهيأ للزواج وإنجاب الأولاد، والأخريات غير مؤهلات يحرمن منه.

ومنذ عام ١٩٣١ أصدر هملر[٦٢٧] Himmler مرسوماً يوجب على كل عضو في (فرق الأمن) يريد أن يتزوج أن يحصل على ترخيص يمنح أو يرفض وفقاً لمبادئ الصحة العرقية والإرثية وبالمقابل ليس للفتيات الحق برفض طالبيهن إذا كانوا من (فرق الأمن) لأنهم النماذج الحقة من أجل توليد سلالة مقدسة وارثة للفيكنج[٦٢٨] وللفرسان التوتون Teuton. وعمد هملر إلى تأسيس منظمة نبع الحياة[٦٢٩] Lebensborn وكان الهدف المنشود هو قيام وتقوية العرق الآري الصافي الحقيقي، وقد استعملت وسيلتان لهذه الغاية، إما استخدام منتجين منتقين بصرامة، وإما خطف أطفال صغار في البلاد المحتلة يحملون سمات العرق الجرماني المتعذر الاعتراض عليها[٦٣٠].

وكانت أكثر القوانين العرقية موجهة ضد اليهود، فقد صدر في ٧ نيسان ١٩٣٣ تشريع لإصلاح الوظيفة العامة، تمّ بموجبه استبعاد العناصر غير المرغوب فيها من سلك الوظيفة العامة، وكان اليهود في مقدمة المطرودين. وفي الشهر نفسه صدرت قوانين أخرى طردت اليهود من المحاماة، ومن الطب، ومن المصارف، ومن

---

(٦٢٦) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٣٠٢).

(٦٢٧) هملر - أحد الزعماء النازيين كان مهندساً زراعياً كرّس نفسه لتكوين ((فرق الأمن)) وقد تولى إدارتها مع إدارة البوليس ووزارة الداخلية عام ١٩٤٤، وكانت له اتصالات غير مباشرة مع مجموعة المتآمرين ضد هتلر، بأمل الحلول محل هتلر سنة ١٩٤٥، وقد انتهى متناولاً السمّ عندما أسره الأمريكيون وتعرفوا على هويته.

(٦٢٨) الفيكنج - يقصد بالفيكنج العناصر الشمالية التي سكنت شبة جزيرة سكندناوة وشبه جزيرة الدانمارك، وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها اسم الفيكنج Vikings بمعنى سكان الخلجان، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا.

(٦٢٩) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٨٣).

(٦٣٠) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١٢٦).

دور النشر، وحددت عدد التلامذة الثانويين والطلاب الجامعيين بالنسبة للسكان اليهود في ألمانيا، إلا أن التشريع العرقي الأهم الموجه ضد اليهود كان ذلك الذي صدر عن مجلس الرايخستاغ الذي اجتمع بصورة استثنائية في مدينة (نورمبرغ) في أيلول ١٩٣٥ فقد صوّت المجلس على قانون مواطنية الرايخ[٦٣١] أي أنه صادق على المادة الرابعة من برنامج الحزب النازي السابق ذكرها، وهكذا حرم اليهود من الحقوق المدنية وأصبحوا أغراباً في بلادهم، وحرموا من ارتياد الأماكن العامة ومن إقامة أية علاقة جنسية مع (الآريين) كما منعوا من استخدام نساء مياومة للخدمة دون سن الخامسة والأربعين، وذات دم ألماني. وقد وجد قانون في أرشيف وزارة العدل النازية مؤرخ في نيسان ١٩٤٣ يصرح بوجوب ملاحقة اليهودية التي بعد ولادة طفلها، باعت حليب أمومتها إلى طبيب أطفال وهي خافية حقيقة عرقها. ففي ذلك احتيال (لأن حليب اليهودية ليس بالوسع اعتباره كأنه غذاء للأطفال الألمان) [٦٣٢] وقد شجّع اليهود في البداية على الهجرة لقاء تخليهم عن قسم كبير من ثرواتهم، ثم فكّر هتلر بتهجيرهم جماعياً إلى جزيرة مدغشقر وأتاحت الحرب تنفيذ الحل النهائي للمسألة اليهودية أي القضاء على اليهود[٦٣٣]. إلا أن القوانين العرقية لم تكن موجهة ضد اليهود فقط، بل نالت الإجراءات العنصرية الملونين أيضا، وقد كان هتلر يحتقر الزنوج ويعتبرهم في مرتبة أدنى من مرتبة الشعب الآري، فقد كتب في (كفاحي): تنشر الصحف الفينة بعد الفينة صوراً لزنوج اشتهروا في فنّ الموسيقى أو برزوا في الطب أو السياسة، أو بزوا أقرانهم البيض في الملاكمة والسباحة،، ويقوم بين رجال الفكر من يعرب عن ابتهاجه بهذه النتيجة، أما اليهودي الماكر فإنه يجد في هذه الظاهرة سنداً للنظرية التي يحاول فرضها: المساواة بين الناس، ولو عقلت البورجوازية الآخذة بالانهيار لوجدت في بروز غير المؤهلين تجديفاً على العقل،

---

(٦٣١) المرجع السابق (ص ١٢٠).

(٦٣٢) المرجع ذاته (ص ١٢٢).

(٦٣٣) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٨٤).

أليس تحدّياً لمشيئة الخالق ترويض فرد، هو في الأصل نصف فرد، بحيث يصبح محامياً أو طبيبا، بينما لا يجد الملايين من ممثلي العرق المتفوق عملاً يؤمن لهم الكفاف ويتيح لهم وضع مواهبهم في خدمة الحضارة [٦٣٤]. وكانت نتيجة هذا الفكر العنصري هي ملاحقة الزنوج في ألمانيا، والواقع أن الجنود السود الذين شكّلوا جزءاً من أفواج الاحتلال الفرنسية في الضفة الشمالية لنهر الراين في عامي ١٩١٩ و١٩٢٠ خلّفوا وراءهم عدداً من الأطفال غير الشرعيين نتاج العلاقات مع النساء الألمانيات.

وبدءاً من عام ١٩٣٣ أحصت السلطات ١٤٥ طفلاً من هذا المثال وكان قد طرح موضوع تعقيمهم، في آذار ١٩٣٥ درست المسألة لجنة مكونة من عشرين عضواً واتخذت الوسائل الناجعة، ولما تأخر التنفيذ أمر الفوهرر في ١٨ نيسان ١٩٣٧ وزير الداخلية أن يقوم بتعقيم (أولاد الزنا السود) ومن ثم عاد في ٧ أيار فأعطى أمراً مبرماً إلى وزير الداخلية بالتنفيذ الفوري لتعليماته السابقة في ١٨ نيسان وإبلاغه المصادقة عليها[٦٣٥].

ولم تنج المسيحية من النزعة العنصرية، فقد أبرز ألفرد روزنبرغ[٦٣٦] Roseinberg في كتابه العنصري (خرافة القرن العشرين). الأصول الشرقية للمسيحية والتشابه في العبادات مع العادات الأفريقية وأوضح أنه يتعيّن على القومية الاشتراكية أن تحلّ محلّها[٦٣٧] فمكمن الشرّ في المسيحية أنها ذات نزعة عالمية، وهو يرى أن ثمة تواطؤاً بين الكنيسة الرومانية والماسونية واليهودية والماركسية، لأن كل واحدة منها هي نفس العدو ذي المكائد لتفوق العرق الجرماني، فالصيغة

---

(٦٣٤) أدولف هتلر - كفاحي (ص ٢٩٦).

(٦٣٥) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١١٩).

(٦٣٦) ألفرد رونبزنبرغ - بلطيقي من أستونيا ولد مواطناً روسياً في عام ١٨٩٣ وأصبح ألمانياً. ناضل إلى جانب هتلر في ميونخ وشارك في فتن ١٩٢٣، انتخب نائباً في الرايخستاغ عام ١٩٣٠ ونشر في السنة نفسها عمله الرئيسي ((خرافة القرن العشرين)). في عام ١٩٤١ عُيّن وزير الرايخ للأراضي المحتلة في الشرق، حُكم عليه بالإعدام في محاكمات نورمبرغ وشنق في هذه المدينة في ١٦ تشرين الأول ١٩٤٦.

(٦٣٧) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٧٥).

الكاثوليكية: (قطيع واحد وراع واحد)، هي وحدها إعلان حرب على العقل الألماني وقيم التواضع والتضحية والتخلي التي تروج لها المسيحية هي نفسها القيم التي تروج لها الماسونية، وذلك بالاتفاق المتين مع الكنيسة، رغماً عن مظاهر العداء، ويرى أن مبادئ الإنسانية والمساواة بين البشر قد أنزلا بالحضارة شراً كبيرا: بفضلها ما من يهودي، زنجي أو خلاسي إلا واستطاع أن يصبح مواطناً في دولة أوروبية. . . بفضل الإنسانية أصبح بمقدور اليهود والزنوج الاقتران بالنساء من العرق الشمالي [٦٣٨]. وكان روزنبرغ أكثر وأشد عداء للكاثوليكية والمسيحية من هتلر، وهاجم كل ما هو عالمي: الماسون - الأحرار - الجزويت - الاشتراكيين - الماركسيين، الذين اتهمهم بأنهم أرادوا السيطرة على العرق الألماني وروحه [٦٣٩]، وكان هذا الهذيان مرحباً به، لا بل أصبح قانوناً في دولة العنصرية.

وفي هذه الأثناء كان على النازيين أن يبرروا هذا التعصب العرقي، مع مقتضيات سياساتهم الخارجية، خصوصاً عند تحالفهم مع اليابانيين، لذلك فقد ذهب روزنبرغ إلى أنه باستطاعة اليابانيين وإن كانوا غير آريين، الزواج من الألمانيات (دون أن يلوثوا الدم النازي)، كما أن هتلر صرح: أن اليابان هي أيضاً مهددة باليهودي الذي لا يستطيع أن يتعايش معها [٦٤٠] والواقع أن العنصرية النازية كانت محددة بهدف واحد، وهو الوصول إلى تحقيق السيطرة الألمانية على العالم، وفي سبيل ذلك فإن أية وسيلة تبدو مشروعة.

جرائم النازية

اقترنت النازية بالإرهاب، ومنذ اللحظة الأولى لوجوده في الحكم أبدى هتلر تعطشه للدماء، وقام النظام العنصري يفرض على الناس أشكالا جديدة من الحياة

---

(٦٣٨) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١١٥).

(٦٣٩) المرجع السابق (ص ١١٢).

(٦٤٠) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٨٤).

لم يألفوها من قبل. وتحولت ألمانيا إلى مجتمع عسكري عماده تقديس الفوهرر، وأنشئت المعتقلات للعناصر المعارضة وكمّمت جميع الأفواه إلا تلك التي تنطلق بتمجيد الرايخ الثالث الذي بزغ فجره. وقام النازيون بعملية تحويل كبيرة في المجتمع الألماني وعزّزوا النزعة العنصرية وروح الجماعة وألغيت الفردية. وعملت الدعاية التي كان يقودها الدكتور غوبلز[٦٤١] Goebbels على إشاعة الفكر النازي وإظهاره بمظهر المنقذ للبشرية من مهاوي الضلال التي ترزح فيها. وتحولت الصحافة إلى أداة بيد السلطة.

وقد صرح غوبلز Goebbels أنه: ليس على الصحافة فقط أن تُعلِمَ بل أن تُعلّم. . إنها مدرج تستطيع الحكومة أن تلعب به. . والصحفيون لهم وظيفة، وليس لهم رأي. وكان غوبلز يعطي توجيهات واضحة خلال محاضرات يومية تستمر نصف ساعة، لكي تكون صحافياً يجب الحصول على إجازة ولا توجد أية رقابة مسبقة، بل رقابة ذاتية تلعب دورها، والحماقات يحاسب عليها صاحبها أمام محكمة نقابية تصدر عقوبات تأديبية. ومن أصل ٤٠٧٣ صحيفة يومية وأسبوعية في سنة ١٩٣٢ بقي ٢٢٠٩ في سنة ١٩٣٧ لتهبط إلى ٥٠٠ سنة ١٩٤٤.

وقد أوقف النازيون بصورة تدريجية صحف خصومهم وصحف حلفائهم مع دفع التعويضات لهم[٦٤٢]. ولم يهاجم النازيون الكنيسة الكاثوليكية، ولكنهم هاجموا حركات الشبيبة والأسلاك الرهبانية، وكان لهم عملاء في الكهنوت الأعلى مثل الأسقف هودال الذي حاول أن يثبت أن الكاثوليكية قد أثرت في القومية الاشتراكية، وآخرون احتجوا ضد الوثنية الجديدة - أمثال الكاردينال فولهابر أو الأسقف غالن،

---

(٦٤١) جوزيف غوبلز، كان خطيباً مؤهلاً للدفاع عن كل القضايا، كما كان ممثلاً عريقاً وهو الذي وضع أسس الدعاية للنظام النازي مستخدماً أحسن استخدام، ولأول مرة في التاريخ الراديو والسينما وهو الذي أشاع ((نسمة هتلر)) كما أنّه ألّه الفوهرر مقنعاً بصورة تدريجية الألمان بجوهر هتلر السامي، وقد انتهى منتحراً في أول أيار ١٩٤٥.

(٦٤٢) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٧٧).

ولكنهم خضعوا أمام شرعية النظام، وحرموا على أنفسهم الاشتغال بالسياسة، وكانوا ينهون موعظاتهم بالدعاء (للوطن والفوهرر) وكان المسيحيون الألمان يؤكدون أن يسوع جاء إلينا بشكل أدولف هتلر[٦٤٣]. أما اليهود فلم يجد النازيون بداً من التخلص منهم باعتبارهم عناصر ضارة تحول دون قيام مجتمع جرماني خالص، وكان هتلر قد قال: إن اليهودي لا يُهضم ووجوده يمنع من العودة إلى القيم الجرمانية المخلصة المنقذة. وأهميته هي انتحار بالنسبة إلى الشعوب التي يعيش بينها، إنه نقيض العرق[٦٤٤] واستغلّت (ليلة البلور) Kristall nacht في ٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ للتعبير عن الحقد الكامن عند الألمان على اليهود، وكانت هذه الحادثة من الناحية السياسية رداً شعبياً ساخطاً على اغتيال أرنست فوم راث السكرتير الثالث للسفارة الألمانية في باريس على يد لاجئ يهودي يدعى هرتزل غرنسيان[٦٤٥]، وتم إطلاق العنان في تلك الليلة لمذبحة على مستوى البلاد كلها ضد اليهود، وربما لم ينتج عنها سوى خمسة وثلاثين قتيلا، ولكنها شكلت إنذار الخطر الأخير الذي يسمح لليهود، إذا ما استطاعوا مغادرة ألمانيا لأنها ستصبح جحيماً بالنسبة إليهم[٦٤٦].

وكانت الدولة النازية قد بدأت بإنشاء المعتقلات منذ عام ١٩٣٣ وكان أول معسكر تمّ إنشاؤه هو معسكر داشو Dachau وكان فيه عام ١٩٣٣ ما يقرب من ألفي نزيل، وكان قد قتل منهم خمسون شخصاً[٦٤٧]، إلا أن إنشاء المعسكرات المخصصة للاعتقال تعاظم مع تعاظم حملات الاضطهاد ضد العناصر غير المرغوب فيها. وتولى الغستابو إدارة هذه المعتقلات وإضافة إلى المعتقل المذكور آنفا، تمّ إنشاء معسكر أوسشفيتز Auschwitz، و برجن - بلسن Bergen-Belsen، وبوشنفالد

(٦٤٣) المرجع ذاته (ص ٧٥).

(٦٤٤) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٨٣).

(٦٤٥) بيرنهاردت ج. هرروود - تاريخ التعذيب (ص ٢١٠).

(٦٤٦) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١٢٢).

(٦٤٧) بيرنهاردت ج. هرروود - تاريخ التعذيب (ص ٢١٠).

Buchenwald، ورافنسبروك Ravensbruck وغيرها من المعسكرات الصغيرة والكبيرة التي زرعت فوق الأراضي الألمانية وفوق الأراضي الأوروبية التي احتلتها ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية [٦٤٨].

ولم يكن اليهود بالطبع الهدف الوحيد لإرهاب النازية، البشر كلهم الذين صنفهم علماء هتلر المزيفون على أنهم (غير آريين) كانوا يعتبرون (بشراً من الدرجة الثانية) ليسوا مؤهلين إلا للعبودية أو للإبادة، وحتى الألمان (الأقحاح) لم يستثنوا من ذلك، فالذين كانت لديهم شجاعة مقاومة الجنون الذي يسود ألمانيا كثيراً ما كانوا يجدون أنفسهم وراء الأسلاك الشائكة لمجرد إبداء إشارة غير محترسة لطالبة مدرسة، وكان السجناء الألمان هم الذين يعاملون بقسوة تفوق ما يعامل به الآخرون لأنهم كانوا يعتبرون من قبل مراقبيهم (خونة) والمعدات التي كانت سائدة بين حراس المعسكر تضمّ سياط الخيل والهراوات وأنواعاً أخرى من السياط. وكان الروتين اليومي أن يجلد السجناء وأن يضربوا بأعقاب البنادق وأن يُداس عليهم بأحذية ذات مسامير بارزة [٦٤٩].

وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية، أخذ النظام الاعتقالي يعمل بأقصى سرعة كالماكينة الضخمة المصممة للإذلال والإهانة والتحقير، وكان الهدف هو القضاء على الأعراق الدونية بتحويلها إلى قليل من الدخان والرماد [٦٥٠]. وبدأ البحث المنظم عن اليهود بغرض إبعادهم، والواقع أن اليهود كان محكوماً عليهم بشكل حتمي لا رجوع عنه، إنهم أناس لم يستطيعوا التحرر من وضعهم كيهود، على اعتبار أنه في مستقبل العنصري فإن خصائص اليهودي يتعذر محوها مثل الزنوجية [٦٥١]. ولم يعد هناك سوى تطبيق (الحلّ النهائي) المشهور المتخذ في برلين

(٦٤٨) أدونيس العكرة - الإرهاب السياسي (ص ٦٨).

(٦٤٩) بيرنهاردت ج. هرورد - تاريخ التعذيب (ص ٢١٤).

(٦٥٠) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١٢٢).

(٦٥١) المرجع السابق (ص ١٢٩).

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٤٢ ولذلك بقيت مشهورة الحملة المسمّاة بـ فيل ديف Veldhiv في باريس في ١٦ تموز ١٩٤٢ حدثت الإبعادات بالقطارات ولم ينجُ حتى الأطفال من التعذيب: بدأت الإبادة المنظمة عند الوصول إلى ألمانيا، بانتخاب لا رحمة فيه، وعلى أثر النزول من القطار: الرجال المحسوبون أصحاء وقادرون على العمل سيعرفون حياة الجحيم في معسكرات الاعتقال، والنساء والأطفال تحت ١٥ عاماً والمرضى والمسنّون يساقون في الحال إلى غرف الغاز: في البدء كان يُرمى بالجثث في قبور مشتركة، فيما بعد صاروا يحرقون على المحطبات أخيرا، صار يُدفع بهم إلى محرقة الجثث [٦٥٢]، وقد بدا أن هذا العطش للإبادة لا شيء يمكن إيقافه ما لم يتوارَ آخر يهودي. وأما (الغجر) فقد كانوا هم الآخرين عرضة للإبادة المنظمة، فقد اتفق النازيون عام ١٩٣٨ على إيجاد (حل اشتراكي - وطني) لمسألة (الغجر) بشكل خاص لأن للغجر تركة ثقيلة مشهورة بأنهم مجرمون معتادون على الإجرام، والذين يشكلون الطفيليين في قلب شعبنا، والذين لا يسعهم فيه إلا التسبب في الأضرار الفادحة، مُعرضين للخطر الكبير صحة دم الفلاحين وطريقة حياتهم [٦٥٣]. وعلى الأثر أرسل الغجر إلى معسكرات الاعتقال وقد كان هملر يريد بأي ثمن الحفاظ على أهم قبيلتين غجريتين اللتين اعتبرهما نظير الأحفاد المباشرين للعرق الهندو - جرماني الأصلي: جعلهما تفيدان من قانون (الحفاظ على الآثار التاريخية) ووضعهما في قفص حيث يمكن رصدهما (عملياً).

في عام ١٩٤٢ أرسلتا إلى معسكر أوسشفيتز الذي حوى ١٦,٠٠٠ من أفرادهما، وفي ليلة واحدة من ٣١ تموز إلى ١ آب ١٩٤٤ كان ٤٠٠٠ غجري في غرف الغاز، آخرون كانوا قد أرسلوا من معسكر أوسشفيتز إلى ستروتوف Struthof لاستخدامهم في تجارب التيفوس أو في مقاومة الغاز [٦٥٤]، ولعل تلك التجارب التي

---

(٦٥٢) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١٢٣).

(٦٥٣) المرجع ذاته (ص ١٢٦).

(٦٥٤) المرجع ذاته (ص ١٢٧).

كانت تُجرى على المعتقلين الذين لم يكن أي منهم متطوعاً لها، كانت أشنع الفظائع التي اقترفها النازيون، ومعظم هذه العمليات تمت بتوجيهات رجال (فرق الأمن)، وقد كان في معظم المعتقلات مختبرات طبية لإجراء البحوث العلمية المطلوبة على المساجين. ففي معتقل ستروتوف في ستراسبورغ Strasgurg كان هناك مختبر للتشريح يقيم فيه الدكتور أوغست هيرت Hirt ، وكان هذا الطبيب يتذمر من النقص في جماجم اليهود، قال: الحرب في الشرق تقدم لنا الآن المناسبة لسدّ هذه الثغرة، فيما يختص بالمفوضين اليهود البولشفيك الذين تظهر عليهم العلامات المثيرة للاشمئزاز وهي السمة المميزة لبشرية منحطة، فبإمكاننا إذا ما حصلنا على جماجمهم الوصول إلى وثيقة علمية ملموسة[٦٥٥]. بعد عدد من عمليات قياس أنثروبولوجية على السجين المقبوض عليه حيا، يُقتل ثم ينزع رأسه ويرسل إلى ستراسبورغ، وكان الدكتور هيرت يُوصي بأنه: يجب ألاّ يفسد الرأس، بل يجب وضعه في صندوق من التنك المقفل بإحكام ويرسل إلى المختبر لدراسته، وهذه الصناديق يجب أن تحوي سائلاً يبقي على الرؤوس في حالة جيدة بمساعدة الصور والقياسات، و أخيراً الجمجمة بحدّ ذاتها يمكن القيام وبصورة مفيدة بالأبحاث التشريحية المقارنة والأبحاث العرقية، كما تلك العائدة إلى التغيرات المرضية لشكل الجمجمة وشكل وحجم الدماغ. ولكن سرعان ما غدت الجماجم غير كافية لهيرت الذي راح يطالب بهياكل بكاملها، وعندما حدث التحرير وجدت ١٧ جثة في مختبر ستراسبورغ للتشريح مع عدد من القطع المشرحة [٦٥٦] وقد اعترف جوزيف كرامر وهو أحد رجال فرق الأمن. أس. أس في إحدى محاكمات جرائم الحرب، كيف أنه ذات مرة سمّم بالغاز ثمانين امرأة أثناء خدمته في أوسشفيتز. ولقد صودرت جثثهن من قبل الدكتور أوغست هيرت التابع لمعهد تشريح ستراسبورغ[٦٥٧] من أجل

(٦٥٥) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١٢٤).

(٦٥٦) المرجع ذاته (ص ١٢٥).

(٦٥٧) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٢١٧).

تشريحها وإجراء التجارب عليها. وفي معتقل بوشنفالد كان هناك الدكتور هانس ايسيل Iseal ، وكان هذا الطبيب يجري عمليات البتر والجراحة الداخلية دون تخدير، و ليس من المعروف بالضبط كم من الأبرياء عذبهم ايسيل حتى الموت تحت ستار الدراسة العلمية، وأجريت تجارب أخرى على نزلاء معتقل داشو، وكانت لا تقل رهبة عن تجارب هيرت وإيسيل، بعضهم كانت تُطلق عليهم رصاصات مسمومة لاختبار فعاليتها في الحرب، وآخرون كانوا يعرضون لغازات سامة في ظروف اختبارية، وكان الناس يوضعون في غرف مفرغة لمعرفة المدة التي يستطيع الإنسان أن يظل فيها حياً وهو على ارتفاعات عالية أو دون أوكسجين [٦٥٨].

وكانت بالنسبة للضحايا كما وصفها سجين شاهد عيان رهيبة - فحين قلّ الأوكسجين وينخفض الضغط كان (أشخاص التجارب) - كما كان يسميهم معذبوهم النازيون - تزداد آلامهم شيئاً فشيئاً حتى تتحول إلى آلام مفرطة حين تنفجر رئاتهم، كما أن الضغط الداخلي على أغشية الطبل في الآذان كان يسبب لهم عذاباً يوصلهم إلى الجنون، وكان المسؤول عن هذه الاختبارات الفظيعة هو الدكتور سيغموند راشر Rasher الذي كان شمولياً في أبحاثه إلى درجة أنه في النهاية زوّد غرف الضغط بمبردات تجبر النماذج التعيسة على مواجهة شروط أقرب ما تكون إلى الارتفاعات العالية، وكان راشر أيضاً مسؤولاً عن الكثير من (تجارب التجميد) الشائنة والتي كان فيها الأشخاص يتعرضون إلى البرد الشديد المستمر حتى الموت، وكان الهدف معرفة مدة مقاومتهم وكم يستطيعون البقاء أحياء وما الذي يمكن صنعه لإطالة حياة الطيارين الذين يسقطون في مياه متجمدة وكان نزلاء داشو ضحايا راشر، إما أن يتم تغطيسهم في وعاء ضخم أو يتركوا عراة في الخارج طوال الليالي الثلجية. وكان أسلوب العمل هو تجميد السجناء تدريجياً مع متابعة النبض والتنفس ودرجة الحرارة وضغط الدم وغير ذلك. وقد أصبحت صرخات الضحايا

(٦٥٨) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٢١٥).

مزعجة للطبيب ومساعديه إلى درجة أنه أخيراً بدأ يستخدم المخدر[٦٥٩]. وقد كانت هناك تجارب أخرى بينها تدفئة (أشخاص مثلجين)، ونتيجة لتجارب التجميد أثار الدكتور راشر غضب رئيسه هملر، فأعدم مع زوجته قبل نهاية الحرب بقليل[٦٦٠]. ولقد أجريت بالطبع (تجارب) لا حصر لها على نزلاء أحياء في معسكرات الاعتقال وكان بينها الحقن بالسم أو بالهواء والبكتريا، وإثارة السموم في الجروح وتطعيم العظام، و تجارب التعقيم[٦٦١] وغيرها من الجرائم، ويمكننا أن نقول إن النظام الاعتقالي الذي أوجده الرايخ الثالث هو تجربة فريدة من نوعها من حيث عدد المعتقلين وتلك الجرائم المقترفة بحقهم، والتي كانت تنفذ بدم بارد، وتنفذها كإجراء روتيني مجموعة كبيرة من الأطباء النازيين، وربما لو عدنا إلى التاريخ لوجدنا أن تلك المذبحة التي ارتكبها الرايخ الثالث هي الأضخم والمنفذة بأدق ما يمكن، والمدبرة بأحسن ما يمكن إنها مذبحة إدارية علمية في منتهى الدقة، كما أنها المذبحة التي لا يمكن أن ينظمها إلاّ الألمان[٦٦٢].

سقوط الرايخ الثالث

ربما لم يكن هتلر هو الذي أعلن الحرب على كل من فرنسا وبريطانيا، وإنما هما اللتان أعلنتا الحرب عليه، إلا أنه كان مسؤولاً عن إثارتهما لتتخذا هذا القرار. فمنذ صعوده إلى السلطة عام ١٩٣٣ بدأت أوروبا تسير بانتظام نحو حرب شاملة، ذلك أن المشروع النازي الهادف إلى بناء رايخ يضمّ كل الألمان، كان يصطدم بإرادة الدول الأخرى التي لها مصلحة في بقاء الوضع على ما هو عليه، إلا أن هتلر ما كان ليراعي إلا مصالحه وكان يسعى إلى تحقيق أهدافه بالقوة إذا لزم الأمر. وتمثل

(٦٥٩) المرجع ذاته (ص ٢١٦).

(٦٦٠) بيرنهاردت ج. هروود - تاريخ التعذيب (ص ٢١٧).

(٦٦١) المرجع ذاته (ص ٢١٧).

(٦٦٢) فرانسوا دي فونتيت - العنصرية (ص ١١٨).

الهدف الأول لهتلر في السعي إلى ضم النمسا (أستريا) إلى الرايخ، ذلك أن الشعب النمساوي هو شعب ألماني ومن الضروري أن يعود إلى حضن الوطن الأب. ومنذ صلح عام ١٩١٩ أبدى بعض النمساويين الألمان رغبتهم في الانضمام إلى الرايخ الألماني، إلا أن فرنسا كانت تخشى أي اتساع في حجم ألمانيا، بل أن إيطاليا نفسها كانت تعارض ذلك المشروع وتفضّل أن تحتفظ النمسا باستقلالها، ولكن بعد أن توصل هتلر وموسوليني إلى اتفاق محور Axis روما - برلين في عام ١٩٣٦ تخلت إيطاليا عن معارضتها وكان عليها أن تؤيد هتلر في أي خطوة يخطوها في هذا السبيل [٦٦٣]، والذي أعطى الحجج القوية لهتلر للتدخل في شؤون النمسا نمو قوة الحزب النازي داخلها وتطلعه إلى التأييد الألماني الفعال له [٦٦٤].

وفي عام ١٩٣٤ تم اغتيال المستشار النمساوي (دلفوس) Delfos ثم قامت محاولة انقلابية نازية وفشلت بسبب الحماية الإيطالية آنذاك. وفي عام ١٩٣٦ وقعت النمسا وألمانيا اتفاقية تعترف النمسا بمقتضاها أنها دولة ألمانية على أن تعترف ألمانيا أن النمسا دولة مستقلة[٦٦٥]. وفي عام ١٩٣٨ وجّه هتلر إنذاراً إلى رئيس وزراء النمسا الجديد (شوشنج) Showsheng بضرورة إعطاء الحزب النازي عدداً هاماً من الحقائب الوزارية ثم أتبعه بإنذار آخر - بعد وقت قصير - بضرورة إسناد الحكم إلى (سايس أنكوارت) Incuart الزعيم النازي النمساوي، وتمكن إنكوارت من الوصول إلى كرسي رئاسة الوزراء وأسرع هتلر إلى إعلان ضم النمسا إلى ألمانيا[٦٦٦] بعد خمسة قرون من الانفصال عن الوطن الأب[٦٦٧]. وفي ١٢ آذار ١٩٣٨ أرسل هتلر قواته ودباباته لاختراق حدود النمسا التي سلمت دون قتال، وكانت

---

(٦٦٣) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣٧٢).

(٦٦٤) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٧٦).

(٦٦٥) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٨٦).

(٦٦٦) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٧٦).

(٦٦٧) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٨٧).

المزايا الاستراتيجية التي حصلت عليها ألمانيا من ضمّ النمسا ضخمة للغاية، فبضربة واحدة زاد تعدادها ٦,٥ مليون ألماني متحمس، وأصبحت ألمانيا متصلة اتصالاً مباشراً بأكبر دولتين في البلقان وهما يوغسلافيا والمجر. هذا فضلاً عن الاتصال المباشر الأكثر سهولة مع الحليفة إيطاليا[٦٦٨].

كانت تشيكوسلوفاكيا هي فريسة هتلر الثانية، ذلك أن إقليم السوديت كان تابعاً للنمسا قبل الحرب العالمية الأولى. ولما انهزمت النمسا لم يطبق عليها حق تقرير المصير الذي اخترعه الرئيس الأمريكي ويلسون، بل أن ويلسون نفسه أهدى الإقليم إلى تشيكوسلوفاكيا بدلاً من ضمّه للنمسا أو لألمانيا [٦٦٩].

وكان عدد الألمان الذين يسكنون أرض السوديت يزيدون على ثلاثة ملايين نسمة وكانوا يتمتعون بعدة امتيازات لا تنعم بها الأقليات في الدول الأخرى، فلهم جامعاتهم ومدارسهم ولهم وزراؤهم الذين يمثلونهم في الحكومة التشيكوسلوفاكية. وظهر في تشيكوسلوفاكيا حزب السوديت الألماني عام ١٩٣٥ وكان يتزعمه كونراد هنلين Henlean الذي كان على صلة قوية بالنازيين في ألمانيا[٦٧٠]. وشرعت ألمانيا في مدّ يد العون إلى ألمان السوديت، وجاهر هتلر بضرورة ضمّ السوديت على أن نمو التحرك الألماني النازي من داخل تشيكوسلوفاكيا هيّأ الفرصة التي كان هتلر ينتظرها حتى يبدو تدخله دفاعاً عن حقوق الألمان[٦٧١]، وحتى يحل رئيس الوزراء البريطاني تشمبرلين Chembarleain المشكلة أرسل مبعوثاً إلى السوديت لتقصي الحقائق، وقدم هذا المبعوث تقريره بعد فترة، وتضمن ضرورة تسليم السوديت لألمانيا، كما كان على التشيك أن يسلموا حصونهم الدفاعية حتى يثبتوا لجيرانهم

---

(٦٦٨) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٧٧).

(٦٦٩) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت التاريخ (ص ١٨٧).

(٦٧٠) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣٧٥).

(٦٧١) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٧٨).

أنهم ليسوا دولة عدوانية.

وفي ١٩٣٨/٩/٢١ وافقت تشيكوسلوفاكيا على تسليم السوديت لألمانيا بناء على ضغوط بريطانية فرنسية[٦٧٢]، وأخذ تشمبرلين هذه الموافقة فخوراً (بإنقاذ السلام) وذهب لملاقاة هتلر في ألمانيا. وهناك فوجئ بتغير في موقف هتلر حيث قدم له مذكرة طالب فيها بضم فوري وعاجل لأرض السوديت الألماني وإجراء استفتاء في بقية الأجزاء موضع الخلاف حول هويتها التشيكية أو الألمانية [٦٧٣]، فسأله تشمبرلين هل هذا إنذار نهائي، فقال له، لا ولكنَّ هتلر لح بالحرب حتى يتأكد من جدية الموافقة التشيكية، فأعلنت بريطانيا وفرنسا التعبئة[٦٧٤]، وعبأت تشيكوسلوفاكيا بعضاً من قواتها وزادت من استعدادها العسكري، وخيم شبح الحرب على أوروبا، ولكن عَقْد مؤتمر ميونيخ غيّر الوضع المتأزم. وفي هذا المؤتمر تم الاتفاق على تحطيم تشيكوسلوفاكيا وذلك بين بريطانيا وفرنسا من جهة وألمانيا وإيطاليا من جهة أخرى، فقد اجتمع تشمبرلين وهاليفاكس Halifax عن بريطانيا ودلادييه Daladie وبونيه Bonie عن فرنسا وهتلر وريبنتروب Ribbentrop عن ألمانيا وموسوليني وتشيانو Chiano عن إيطاليا في مؤتمر ميونج ٢٩ أيلول ١٩٣٨، وقرروا تحطيم تشيكوسلوفاكيا بالتدريج وفرض التسوية على هذه الدولة فرضاً. واستولى هتلر على تشيكوسلوفاكيا [٦٧٥].

وكانت المشكلة البولندية - مثل المشكلة التشيكية - تتحكم فيها العلاقات الدولية أكثر من كونها بين دولتين متجاورتين. وكان الخلاف بين ألمانيا وبولندا قد بدا منذ الحرب العالمية الأولى، فقد كانت (دانزج) Danzig ميناء ألمانية على

(٦٧٢) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٨٧).

(٦٧٣) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٨١).

(٦٧٤) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٨٨).

(٦٧٥) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٨٢).

ساحل بحر البلطيق، ولكن الحلفاء الذين أعادوا الوجود البولندي على الخريطة الأوروبية في عام ١٩١٩ قرروا إنشاء ممر بولندي عرضه حوالي خمسة وعشرون ميلاً يربط دانزج ببحر البلطيق عند ميناء دانزج الألمانية، وتقرر أن تكون دانزج (مدينة حرة) تحت وصاية مندوب سامٍ تعيّنه عصبة الأمم ويكون مسؤولاً أمامها فقط، وبإنشاء هذا الممر انعزلت بروسيا الشرقية عن الوطن الأب ألمانيا، وانفصل المواطنون الألمان الذين يسكنون دانزج عن حكومتهم وبلادهم، مما كان يؤدي إلى احتكاك دائم بين ألمانيا وبولندا، ولم يكن باستطاعة الألمان الوصول إلى بروسيا الشرقية إلا عن طريق خط حديدي يسيطر عليه البولنديون سيطرة تامة [(٦٧٦)].

وكان تحقيق مطالب هتلر القومية في دانزج الألمانية وفي إيجاد طريق مباشر عبر الممر البولندي يربط بين بروسيا الشرقية وألمانيا لا يتطلب موافقة بولندا فقط، بل كذلك موافقة الدول الكبرى[(٦٧٧)] التي لها مصلحة في بقاء الوضع على ما هو عليه. وفي ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٨ عرض وزير خارجية الرايخ ريبنتروب على السفير البولندي في برلين استرداد دانزج مع صيانة المصالح الاقتصادية البولندية، ووعد بالعمل المشترك للهجوم على أوكرانيا (الحرب سوياً ضد روسيا) ولكن بولندا رفضت العرض وجاء الرفض في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ كالآتي: تعبر بولندا عن استعدادها لتغيير ضمانة عصبة الأمم باتفاق ألماني - بولندي وكل حلّ لدمج دانزج في الرايخ سيؤدي للنزاع المسلح[(٦٧٨)]. وكانت الحركة النازية في دانزج قد شجعت ألمانيا على التدخل باسم الألمان وليس باسم التوسع وباسم إنقاذ الألمان من الاضطهاد العنصري البولندي[(٦٧٩)]، وأخذت إنجلترا تحذر هتلر من غزو بولندا لأن الإنجليز يعرفون أن بولندا تحتل أرضاً ألمانية وهي دانزج، كما أن إنجلترا أعلنت التجنيد الإجباري لأول

(٦٧٦) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣٨٢).

(٦٧٧) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٨٢).

(٦٧٨) ياسر حسين - هتلر وتزوير التاريخ (ص ١٥٩).

(٦٧٩) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٨٥).

مرة في تاريخها في عصر السلم[٦٨٠]. وطالب هتلر بضرورة إعادة النظر في مسألة دانزج والممر البولندي وكان ذلك نذيراً بأن النازيين يخططون لعدوان جديد[٦٨١]، وردت بريطانيا وفرنسا على ذلك بتقديم ضمانة قوية لبولندا وعقدت معها حلفاً في آذار ١٩٣٩ وحدد هتلر أول أيلول للقضاء على بولندا، وبدأ الغزو الألماني لها في ذلك التاريخ مفتتحاً الحرب العالمية الثانية التي أخذ يتسع نطاقها حتى شملت العالم بأسره[٦٨٢]، ولم تنته إلا في ١٩٤٤ بالنسبة لإيطاليا، وفي نيسان ١٩٤٥ بالنسبة لألمانيا وفي آب بالنسبة لليابان بالتسليم دون قيد أو شرط[٦٨٣].

والواقع أن دانزج لم تكن على درجة من الأهمية حتى يثير استرجاعها من قبل ألمانيا حرباً عالمية شملت كل قارات العالم. ولكن الدول الغربية ولاسيما إنجلترا وفرنسا صارت تخشى من تصاعد قوة ألمانيا، وأدركت أن هتلر يحضر الألمان لسياسة التوسع من أجل بناء رايخ يمتد لألف عام. ولم تجد هذه الدول بداً من إشهار الحرب عليه، لإيقاف مشاريعه التوسعية التي باتت تستهدف وجودهم ومصيرهم. لذلك رفضت هذه الدول الرضوخ مرة أخرى لمطالبه في دانزج، ولم تكد الجيوش الألمانية تدخل بولندا في ١ أيلول ١٩٣٩ حتى أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا في ٣ ايلول.

ولكن هل كانت هاتان الدولتان مصيبتين حين أعلنتا الحرب على ألمانيا ؟. . الواقع أن كلاً من بريطانيا وفرنسا وجدت نفسها بين نارين، فإما أن تقف موقفاً سلبياً أمام أطماع ألمانيا وتخسر بذلك هيبتها لا في أوروبا فقط بل والعالم، أو أنها تجازف بحرب لا يعلم إلا الله ما تؤول إليه، فآثرت الخيار الثاني على صعوبته

(٦٨٠) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٨٩).

(٦٨١) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣٨٣).

(٦٨٢) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٨٦).

(٦٨٣) المرجع ذاته (ص ٣٨٦).

وتحملت النتائج المرعبة. فقد فقدت هاتان الدولتان كل مستعمراتهما، وأفلت إمبراطوريتاهما وأصبحتا مجرد تابعتين للولايات المتحدة التي كانت هي الرابح الوحيد من هذه الحرب. وأما ألمانيا فقد أصابتها هزيمة ساحقة وظل هتلر يعد الشعب الألماني بالنصر حتى دخلت الدبابات الروسية إلى برلين في ١٦ نيسان ، ١٩٤٥ وعندئذ أدرك هتلر أن النهاية قد حانت ولم يبقَ حوله سوى جوزيف غوبلز وزير دعايته وايفا براون صديقته التي عقد عليها قرانه قبل نهاية حياته باثنتي عشرة ساعة،وقد انتحر مع زوجته في مخبأ مستشارية الرايخ وأحرقت جثته بعد ظهر ٣٠ نيسان عام ١٩٤٥ بعد عشرة أيام من الاحتفال بعيد مولده السادس والخمسين. وقد شهد حرق الجثتين غوبلز ومارتن بورمان صديق الفوهرر ومدير أملاكه، وكان هتلر قبيل انتحاره قد عيّن الأدميرال دونيتز Donitz خليفة من بعده، ولما تبينت الخاتمة لدونيتز لم يجد مفراً من العمل على الاتصال بالحلفاء لتنظيم قواعد الاستسلام، وتمّ إعلان استسلام الألمان في ٧ أيار دون قيد أو شرط[٦٨٤].

وهكذا سقط الرايخ الثالث بتلك الهزيمة الساحقة وانتهت تلك الحرب الهائلة، ودفع العالم الثمن باهظا، فقد لقي حتفه ٥٠ مليون نفس وأكثر من ٨٠ مليون جريح ومفقود، وخسر العالم ١٣٨٤ ألف مليون دولار، إلى جانب ٢٦٠ ألف مليون دولار قيمة ما دمرته الحرب التي شملت ٥٩ دولة، قاست معاركها وتضحياتها وخسائرها[٦٨٥]. ولم ينس هتلر قبل أن يموت أن يترك وصيةً لشعبه جاء فيها: ليس حقاً أن يقال إننا أردنا الحرب عام ١٩٣٩ إن الذين أرادوها وأثاروها هم اليهود[٦٨٦] ودعا الأمة قبل كل شيء أن يقاوموا بدون شفقة مسمّم البشرية، اليهودية الدولية[٦٨٧].

---

(٦٨٤) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٤٥٣).

(٦٨٥) المرجع ذاته (ص ٤٥٤).

(٦٨٦) ياسر حسين - هتلر وتزوير التاريخ (ص ١٩٩).

(٦٨٧) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٨٦).

الفاشستية الإيطالية

نشأت الفاشستية في إيطاليا في أواخر القرن التاسع عشر، وكانت كلمة (الفاشيو) التي تعني المجموعة من الإيرادات المتلاقية هي شعار الفلاحين الناقمين في إيطاليا الجنوبية. واستعادت الدعاية الحكومية الكلمة عندما دخلت إيطاليا الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ للدلالة على اتحاد كل طاقات الأمة الإيطالية. إلا أن الفاشستية تحولت إلى أيديولوجية ثورية عندما تهيأ لها رجل قوي عرف كيف يوظفها في خدمة أهدافه، وكان هذا الرجل هو موسوليني.

بنيتو موسوليني

مع أن موسوليني Mussolini لم يكن هو الذي أبدع (الفاشستية) Fascisme إلا أنها اقترنت به منذ ظهوره على المسرح السياسي الإيطالي عام ، ١٩٢٢ وقد ولد موسوليني عام ١٨٨٣ في مدينة فورلي Forli شمال إيطاليا من أب يعمل حدادا، بدأ حياته العملية مدرسا بعد أن تعلم في إحدى مدارس المعلمين، ولكنه ضاق بمهنته ودفعه طموحه إلى الاستزادة من التعليم، فسافر إلى سويسرا والتحق هناك بجامعتي لوزان وجنيف، وفي سويسرا اتصل موسوليني بالمنظمات الاشتراكية واشترك في نشاطها، وحرر في صحفها ورأت الحكومة السويسرية أنه تطرف في اشتراكيته، واتهمته بأنه يشترك في التحريض على حركات الإضراب، وأمرته بمغادرة سويسرا في الحال[٦٨٨]. ثم خرج من سويسرا هائما على وجهه حتى وصل إلى باريس وأقام فيها قليلا، ولكنه طرد منها ليتشرد من جديد فرجع إلى بلاده في الحادية والعشرين من العمر، خاوي الوفاض، ثائرا على النظم القائمة[٦٨٩] فوضعته الحكومة الإيطالية تحت المراقبة، ولكنه لم يتخل عن نشاطه

---

(٦٨٨) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٠).

(٦٨٩) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٢٣١).

في تدبير الاضطرابات حتى قبض عليه سنة ١٩٠٨ ولما خرج من السجن ذهب إلى التيرول موطنه الأصلي، ولكن الحكومة النمساوية طردته من هناك، فعاد إلى إيطاليا ليواصل نشاطه وقبض عليه مرة أخرى عام ١٩١١ لإثارته الرأي العام ضد الحملة التي قررت إيطاليا إرسالها إلى طرابلس. وفي السنة التالية، خطب موسوليني عدة خطابات حماسية في مؤتمر عقده الاشتراكيون أهّلته لرئاسة تحرير صحيفة (أفانتي) Avanti لسان حال الحزب الاشتراكي الإيطالي [٦٩٠].

وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كان موسوليني يدعو إلى حياد إيطاليا، إلا أنه في سنة ١٩١٥ اتخذ قراره التحولي الأول بدعوته إلى دخول الحرب ضد الدول المركزية، ولما كانت تلك الدعوة تناقض رأي الحزب الاشتراكي، فقد قرر الحزب فصله وأعفى بالتالي من رئاسة تحرير صحيفته، وما لبث هو أن التحق بالجيش عام ١٩١٥ واشترك في الحرب حتى جرح في عام ١٩١٧ وعندما عوفي من جراحه أعفي من الخدمة وعاد ليعمل صحفيا في جريدة كانت تصدر في ميلان تدعى (الـ بوبول ديتاليا) [٦٩١] Lapopolditalia ولكن كانت الأوضاع في إيطاليا بعد أن استتبَّ السلام في العالم في عام ١٩١٩ غير مستقرة فقد ارتفعت أثمان الأغذية وندر الوقود وتملكت نفوس المواطنين روح الاستياء وتساءلوا عما جنوه من ويلات الحروب.

وفي هذه الأجواء ألف موسوليني حزبه الذي دعاه الحزب الفاشستي، وبدأ الحزب نشاطه في ٢٣ آذار سنة ١٩١٩ في مقر الصحيفة التي كان يعمل بها في ميلان [٦٩٢]، وقد أصبحت هذه الصحيفة فيما بعد لسان حال الفاشست، كان موسوليني قليل الثقافة محباً للجدل، خطيباً قوياً ولم يكن مفكرا، وكان قليل التهذيب عصامياً معجباً بنجاحه، يرتاح إلى الأقوياء في هذا العالم، وكان يقنّع وجهه الشعبي بقناع الزعيم المجرب الثابت الذي لا يتزحزح عن قناعاته، واثقا من نفسه ومن مستقبله، كان يحتقر الإنسان (حثالة التاريخ) ويحتقر الشعب الإيطالي

(٦٩٠) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٠).

(٦٩١) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٠).

(٦٩٢) شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق - تاريخ أوروبا (ص ٢٥٣).

(شعب الغنم، وهـذا الجنس التافه) وفتش في ماضي روما عن العظمة التي يفتقر إليها عصره، قال: (أحب قيصر) وأضفى القسوة على وجهه تقليداً لتمثال نصفي قديم، وفكر بعد أن أصبح زعيماً لإيطاليا أن يأمر بإقامة تمثال عملاق لنفسه تشبها بعملاق رودس، تكون له تقاسيمه هو [٦٩٣].

وفي عام ١٩٢٢ اتخذ قراره النهائي بالتحول من الاشتراكية إلى الرأسمالية لأن العالم كما قال يهفو إلى النظام والى الانتظام والى العمل وكان يعتقد أن الحرب قضت على عصر الديمقراطية والمساواة الديمقراطية تحتضر، ونشأت على أثرها الأرستقراطيات، والثورة تكمن في ردّة الفعل هذه. . إن الاشتراكية تراكم الخراب على الخراب، إن الرأسمالية أنشط وأعرق في التاريخ. وقد عرف موسوليني كيف يجتذب محبة وإعجاب الشعب الإيطالي، ووصل نفوذه إلى حدّ أن الوزراء لم يجرؤوا أثناء غيابه على اتخاذ أي قرار حتى الشؤون الأبسط كانت تظل معلقة إلى أن يتخذ قراره بشأنها[٦٩٤]. وعندما بلغ الخمسين ترهل واستكرش وساءت صحته، وقلّ ذكاؤه وانحطت قواه، ولكن لا ينكر أحد أنه طبع الفاشستية بطابعه واقترن بانهياره عام ١٩٤٣ انهيار النظام ككل.

الطريق إلي الحكم

بعد تأسيس الحزب الفاشستي من قبل موسوليني انضم إليه عدد كبير من الناقمين على الأوضاع كعمال عاطلين عن العمل وجنود مسرحين ومثاليين ساخطين ومغامرين من نوعيات مختلفة[٦٩٥]، ولم تكن في البداية الأهداف واضحة، إلا أن برنامج الحزب ما لبث أن تمثل في العمل على القيام بمشروعات إصلاحية ثورية لإنقاذ إيطاليا من أزماتها المستحكمة، فراح يطالب بفرض ضرائب ثقيلة على رؤوس الأموال والتركات ومصادرة بعض أموال الكنيسة لمصلحة الشعب، وتحديد ساعات العمل بثمان في اليوم، وإلغاء مجلس الشيوخ ودعوة جمعية وطنية لوضع

---

(٦٩٣) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٣٦).

(٦٩٤) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٣٧).

(٦٩٥) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٣٢).

دستور جديد للحكم وتأسيس المجالس الاقتصادية بحيث يكون لها حق التشريع، ووضع تخطيط للمشروعات العمرانية، ومنح العمال حق إدارة بعض الصناعات[٦٩٦]، وكان يطالب ككل الإيطاليين بضمّ منطقتي (فيوم) Fiume و(دلماشيا) Dalmatia[٦٩٧] إلى إيطاليا. وكان موسولين يقدم نفسه للجمهور على أنه أرستقراطي وديمقراطي محافظ وتقدمي، رجعي وثوري بحسب مقتضيات الظروف زمانياً ومكانياً حسب الوسط. ثم قدم نفسه كمدافع عن النظام وعن القيم الوطنية العليا، وأثار بهذا اهتمام المزارعين والصناعيين الذين أخذوا يقدمون له التمويل[٦٩٨]. ولكن على الرغم من قوة شخصية موسوليني، إلا أن قوة الحزب الاشتراكي طغت على الفاشست في عام ١٩١٩ وقد تبين ذلك من نتائج الانتخابات التي أجريت في تلك السنة، إذ أحرز الاشتراكيون أكثر من ثلث المقاعد في مجلس النواب. وفي سنة ١٩٢٠ بلغت الحركة الاشتراكية أعلى قمتها وبلغ من اعتداد الزعماء الاشتراكيين بأنفسهم وعدم اهتمامهم بحكومتهم أن طالبوا بالانضمام إلى الشيوعية الدولية التي نادت بها روسيا عقب قيام الثورة الشيوعية، ونجاح الشيوعيين في تسلم زمام الحكم.

والواقع أن الحزب الاشتراكي الإيطالي كان باستطاعته الاستيلاء على السلطة لو أراد ذلك، إلا أن معظم قيادات الحزب كانت من الاشتراكيين المعتدلين الذين يعارضون اغتصاب الحكم بغير الطرق الدستورية، وقد خرج على الحزب الاشتراكي جماعة من المتطرفين الذين يريدون تطبيق الاشتراكية في أعلى مراحلها وكونوا لأنفسهم حزباً جديداً هو (الحزب الشيوعي الإيطالي) الذي كان يدعو إلى إقامة دكتاتورية البروليتاريا[٦٩٩]. وكان كبار الملاك وأصحاب المصانع والأغنياء يخافون من احتمال نجاح تلك الحركة الاشتراكية المتطرفة ومن وقوع إيطاليا في

---

(٦٩٦) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨١).

(٦٩٧) كانت يوغسلافيا تحتل منطقتي (فيوم و دلماشيا).

(٦٩٨) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٣٤).

(٦٩٩) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٢).

براثن الشيوعية، لذلك رأوا في ظهور موسوليني ودعوته الجديدة باباً للأمل في القضاء على الاشتراكيين والشيوعيين، وازداد الفاشست ثقة بأنفسهم فقاموا بحملات إرهاب مسلحة على اجتماعات الاشتراكيين والشيوعيين، فكانوا يهاجمون صحفهم ويشعلون مؤسساتهم[(٧٠٠)]، كما نظم الفاشست حملات تأديبية ضد تجمعات العمال، وضد مراكز النقابات وضد البلديات اليسارية وكانوا يجلدون خصومهم أو يكرهونهم على شرب زيت الخروع[(٧٠١)]، وأحياناً يهجمون بالطريقة الإيطالية القديمة على بيت أحد الأحرار ويعملون فيه يد النهب والتخريب[(٧٠٢)]. ولكن بداياتهم كانت شاقة صعبة، لقد هزموا في انتخابات سنة ١٩٢٠ وحصلوا فقط على ٣١ مقعدا سنة ١٩٢١ ومنذ هذا الوقت أخذ موسوليني يعمل في تنظيم حركته استعداداً لاقتناص الحكم عندما تسنح الفرصة. وفي تشرين الثاني ١٩٢١ خرج (الحزب الفاشستي الوطني) إلى الوجود، وعُني موسوليني بأن يُضفي عليه بعض المظاهر التي تجذب العين، فوضع لأعضائه لباساً خاصاً هو القميص الأسود المحلى بشارة خاصة، وتحية خاصة هي رفع اليد اليمنى على نمط التحية الرومانية القديمة[(٧٠٣)]. واستطاع هذا الحزب أن يجمع ٣٠٠,٠٠٠ عضو في نهاية ١٩٢٢ وفي ذات السنة تمكن من إفشال إضراباً بالقوة، وطرد بلديات اشتراكية في أنكون وجنوى وليفورن وميلان، وفي ٢٧ تشرين أول ١٩٢٢ قرر موسوليني التوجه نحو روما وتحت أمرته أربعون ألفاً من ذوي القمصان السوداء المجربين، الجائعين الذين كان بإمكان الجيش أن يفرقهم بسهولة[(٧٠٤)]. ويبدو أن الحكومة اتخذت موقفاً سلبياً تجاه هذا الهجوم لأن الملك فيكتور عمانوئيل خشي من وقوع حرب أهلية في حالة ما لو فكرت الحكومة بردّ موسوليني وأتباعه. وعندئذ استقالت الوزارة التي كانت قائمة وطلب الملك من موسوليني أن يؤلف وزارة. قَبِلَ موسوليني دعوة الملك لتأليف وزارة،

---

(٧٠٠) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٣).

(٧٠١) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٢٤).

(٧٠٢) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٢٣٣).

(٧٠٣) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٣).

(٧٠٤) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٢٤).

ومنذ هذا التاريخ بدأت الدكتاتورية الفاشستية في إيطاليا[٧٠٥]. والواقع أن ظروف إيطاليا في ذلك الوقت كانت تدعو معظم الطبقات إلى تأييد حكومة موسوليني، وقد تعاون الجيش معه وكان القادة الكبار ومن بينهم كادرونا الشهير من المؤيدين العلنيين والمحبذين للفاشية، ورضي الحزب الديمقراطي المسيحي أن يتعاون، وأرسل أربعة من قادته للاشتراك في الحكومة، وانتسب الكثير من الماسونيين إلى الحزب، ويبدو أن موسوليني كان ماسونيا، وقد تلقى من محفل باليرم شارات الرتبة ٣٣ التي تُعطى كتقدير طبيعي[٧٠٦]. أما الاشتراكيون فقد رفضوا التعاون مع الحكومة الجديدة ووقفوا منها موقف العداء، إلا أن ذلك لم يمنع موسوليني من استلام الحكم والسير بطموحاته حتى النهاية.

موسوليني في الحكم

قام موسوليني بعد أن أصبح رئيساً للوزراء بتشكيل وزارة من عسكريين معروفين ومن محافظين ومن ديمقراطيين مسيحيين، ومن أربعة من الفاشست فقط[٧٠٧]، واحتفظ في بادئ الأمر بمظاهر الحكم البرلماني فقد أعلن في نهاية شهر أيلول ١٩٢٢ في خطاب له أنه يؤيد النظام الملكي الدستوري، وبهذا نال موافقة أبناء الدولة المؤيدين للقانون وأطلق حرية الصحافة. ولكن لم يكد الأمر يستتب له في العام التالي حتى أخذ يكشف عن حقيقة مبادئه السياسية[٧٠٨]، ولم يكن موسوليني يعتمد في حكمه على البرلمان، إذ لم يكن لحزبه أكثر من ٦٪ من المقاعد، لذلك عقد العزم على تغيير قانون الانتخاب ونجح في إصدار تشريع ينصّ على أن الحزب الذي ينال أغلبية الأصوات في الانتخاب له الحق في ثلثي مقاعد مجلس النواب. وفي انتخابات ١٩٢٤ نال الفاشست أغلبية الأصوات ومع ذلك فقد ارتفع في المجلس صوت المعارضة قويا، وكان أعنف المعارضين في المجلس هم أعضاء الحزب

(٧٠٥) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٤).

(٧٠٦) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٣٥).

(٧٠٧) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٣٨).

(٧٠٨) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٢٣٢).

الاشتراكي الذي كان أشدّ الأحزاب مهاجمة للفاشست، وكان زعيم الحزب الاشتراكي ماتيوتي Mateotti يستنكر الوسائل الإرهابية الغامضة التي يلجأ إليها الفاشست، فأوعز موسوليني بقتله، فهاجمته العصابات الفاشستية واغتالت حياته. وازدادت موجة الإرهاب التي كان يحركها ذوو القمصان السوداء، واضطر المعارضون إلى الانسحاب من البرلمان[(٧٠٩)]. وساد مناخ من العنف العام وتعرض المعارضون للإذلال على يد مجموعات من المشاغبين وسجنوا بدون محاكمة أو أحيلوا أمام محكمة خاصة كان شعارها: إن القوانين يجب أن تفسّر وفقاً لروحية النظام، وكان من نتائج ذلك أن الحريات الأولية كحرية الصحافة والاجتماع والتعبير عن الأفكار والتجمع ألغيت وتولى البوليس السري (ovra) ملاحقة المعارضين ضمن إجراءات عامة من الوشاية، وقد تشخصنت السلطة وارتكزت على حزب وحيد، و أصبحت كلمة السر: كل شيء ضمن الدولة ولا شيء خارج الدولة، ولا شيء ضد الدولة. وهكذا نزع كل معنى أدبي للسياسة وأصبحت مصلحة الدولة القومية مبرر العمل[(٧١٠)].

ونما الحزب الفاشستي حتى احتوى الأمة الإيطالية بأسرها وصار لا يُحتمل في إيطاليا رأي غير رأي الدوتشي Ilduci (الزعيم) وألزمت الصحافة وأساتذة الجامعات والفئة المثقفة بأن تسير وفق مبادئ الحزب الجديدة[(٧١١)]، وانطوى الملك فكتور عمانوئيل على نفسه، فلم يحاول الوقوف في وجه الفاشستية، ولذلك لم يجد موسوليني ما يدعوه إلى إلغاء الملكية. أما البرلمان فقد ضاعت هيبته التشريعية، وانقلب إلى جمعية تعرض الحكومة عليها ما تشاء، وتستمع إلى خطب موسوليني فتصفق له. ولم يعد مجلس الوزراء يعبأ بمسؤوليته الوزارية أمام المجالس التشريعية، ولم يكتف موسوليني بالقضاء على الروح الدستورية البرلمانية، بل عمد إلى سلب سلطة مجلس الوزراء لنفسه بأنه تولى ثمانية مناصب وزارية من خمسة

(٧٠٩) عبد الحميد البطريق – التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٥).

(٧١٠) هنري ميشال – الفاشستيات (ص ٣٠).

(٧١١) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي – دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٢٣).

عشر، فأصبح الباقون لا حول لهم ولا قوة، ولا يستطيعون الاعتماد على أنفسهم وكان هو من جانبه يعاملهم كسكرتاريين إداريين أكثر منهم وزراء أصحاب سلطة تنفيذية، ولم تعد الدولة سوى الدوتشي، فباستطاعته أن يصدر المراسيم التي تكتسب صفة القانون، وباستطاعته أن يوجه السياسة الداخلية والخارجية معتمدا على أن الجيش أصبح في يده بصفته قائد القوات المسلحة، وعلى ثقة الجماهير فيه بعد أن تأثرت بالدعاية الفاشستية الجديدة(٧١٢). وصدرت قوانين استثنائية تسمح بحرمان أي عنصر مشبوه من وظيفته(٧١٣). وكان المجلس الأعلى للحزب الفاشستي هو مصدر السلطات، وقد احتل زعماء هذا المجلس المناصب الوزارية ولكنهم تركوا الأمر والنهي للدوتشي وكان على كل من ينضم إلى الحزب أن يقسم القسم التالي: أقسم أن أطيع بغير مناقشة أوامر الدوتشي، وأن أخدم أغراض الثورة الفاشستية بكل قوتي وأضحي في سبيلها دمي إن لزم الأمر، وأخذت الأحزاب الأخرى تتضاءل إلى أن تلاشت نهائيا في عام ١٩٢٦ وظل الحزب الفاشستي هو الحزب السياسي الشرعي الوحيد، وبذلك تحقق ما أنذر به موسوليني قبل ذلك بعدة سنوات عندما قال يجب أن تسقط كل الأحزاب وينتهي أمرها، أريد أن أرى حطام تلك الأحزاب السياسية حولي، وعندئذ تقف الفاشستية وحدها تمثل قوة إيطاليا وسيادتها الدائمة(٧١٤)، رفضت الفاشستية خرافة السعادة والتقدم اللا محدود وقدّمت للإيطاليين المعركة من أجل تحقيق أمانيهم الوطنية وسخرت من المؤسسات الدولية التي نشأت من وراء أهوال الحرب، وربيّ الشبيبة على روحية عسكرية(٧١٥).

فقد كان موسوليني يعتقد أن مستقبل البلاد في أيدي الشباب، ومن أجل هذا كوّن منهم جماعات منظمة يشرف عليها زعماء الحزب إشرافا كاملا، فالأولاد من سنّ السادسة إلى الثامنة ينظمون في جماعات يسمونها (أبناء الثعلب) Figli della

(٧١٢) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٦).

(٧١٣) هنري ميشال - الفاشستيات (ص).

(٧١٤) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٦).

(٧١٥) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٣٠).

lupa ومن سن الثامنة إلى الرابعة عشرة ينظمون في جماعات يسمونها (البالـيلا)[٧١٦] Balila ومن سن الرابعة عشرة إلى الثامنة عشرة في جماعات الحرس الأمامي Avanguaradia، ومن سن الثامنة عشرة إلى الواحد والعشرين ينضمون إلى جماعة شباب الفاشست Giovani Fasciti، و قد بلغ عدد أفراد هذه الجماعات في سنة ١٩٣٩ حوالي خمسة ملايين شاب، ثم انتظمت الفتيات أيضاً في جماعات خاصة بهن حتى بلغ عددهن في عام ١٩٣٩ حوالي ٢,٧٠٠,٩٠٠ فتاة. كانت الحكومة الإيطالية من الناحية النظرية، ملكية، ولها برلمان ولكن موسوليني عطّل سلطة الملك وسيطر على البرلمان حتى توقف عن عمله، وعلى الرغم من أن موسوليني كان مسؤولاً أمام الملك وحده، إلا أنه قد أنذر الملكية بطريق غير مباشر عندما صرح في إحدى المناسبات بأنه لو حاولت الملكية الوقوف ضد الحكومة الحاضرة فلا يسعنا إلا إلغاءها[٧١٧]. وكان الحزب الفاشستي ينزع إلى القومية والتفرد بالحكم، ويعارض في تعصب شديد المبادئ الحرة التي صارت الروح الهادية للحياة البرلمانية السياسية، وعارض منح النساء حقوقاً انتخابية، إلا أنه كان مناصراً للاكليريكية[٧١٨]، فأعيد التعليم الديني إلى المدارس، وتصالحت الدولة مع الكنيسة في ١١ شباط ١٩٢٩ عندما أنهى موسوليني المشكلة المزمنة منذ تحقيق الوحدة الإيطالية عام ١٨٧٠ وقام بمصالحة البابا وعقد معه معاهدة (اللاتيران) وبمقتضاها تنازلت الحكومة الإيطالية عن قطعة صغيرة من الأرض بجوار الفاتيكان ليكون للبابا دولة مستقلة خاضعة لسلطانه المباشر ويتمتع في نطاقها بجميع السلطات المخوّلة للعاهل المستقل صاحب السيادة. وقد قال موسوليني حينها: يستطيع المرء في النهاية أن يكون في الوقت نفسه، إيطاليا صالحاً أي فاشستياً أو كاثوليكياً صالحاً[٧١٩]. وهكذا اختفى كل لون من ألوان العداء في صفوف الأمة سواء أكان هذا العداء محلياً إقليمياً أم دينياً أم طائفياً في عبادة عامة مشتركة للدوتشي. فأعاد الإيطاليون بعبارات خضوعهم الجزلة الفيّاضة

(٧١٦) البالـيلا - اشتقاقاً من اسم عائلة الطفل الذي أطلق إشارة الثورة ضصد النمسا في جنوه سنة ١٧٤٦.

(٧١٧) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٧).

(٧١٨) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٣٣).

(٧١٩) المرجع السابق (ص ٣٣٥).

إلى الأذهان طرق التعبد قديماً للإسكندر والقيصر أغسطس[٧٢٠]. وعملت أخلاق الزعيم الإيطالي الفذّة، والطريقة التي أفلح بها في تقويم اعوجاج الأمة الإيطالية وفي استخدامه جميع المناقب الحربية التي تعلمها من دروس الحرب العظمى، وفي براعته في إذكاء الحماس في نفوس الجماهير وإثارة حميتها، وفي نجاحه في التغلب على اضطرابات العمال، عملت كل هذه الأمور على إثارة إعجاب الأقطار الأخرى بالفاشية وتقديرها، وأدّت إلى تأليف جماعات أو أحزاب فاشستية في تلك الأقطار[٧٢١].

الفاشستية والمجتمع الإيطالي

دخلت الفاشستية كل طبقات المجتمع الإيطالي، وأراد موسوليني أن يبني في إيطاليا أول دولة نقابية أي تعتمد على تعاون النقابات والهيئات المستنيرة في البلاد، لأنه كان يستنكر تقسيم الشعب إلى وحدات انتخابية تعتمد على تقسيم البلاد إلى دوائر إقليمية جغرافية ترسل إلى البرلمان نائباً نجح في الانتخابات بوسائل غير طبيعية، وكذلك فإن انتخاب نواب يمثلون الوحدات الإقليمية يضعف روح الوحدة السياسية والقومية للبلاد، والانتخابات المثالية هي تلك التي تمثل مصالح البلاد الاقتصادية، لأن اهتمام كل مواطن ينصبّ على حياته الاقتصادية[٧٢٢]. ولن تعدم إيطاليا الوسيلة لتنظيم المجتمع على أساس اقتصادي، لذلك فقد تأسس عام ١٩٣٠ المجلس الوطني الذي يتألف من ممثلي سبع هيئات نقابية. وفي عام ١٩٣٤ أعيد تنظيم الشعب في اثنتين وعشرين هيئة نقابية خاضعة تمام الخضوع للحكومة، ولا تستطيع أن تقوم بأي نشاط إلا بموافقة المجلس الفاشستي الأعلى الذي يرأسه موسوليني وبجانب الهيئات النقابية تألفت لجنة مركزية لتنسيق نشاط تلك الهيئات. ثم كان على رأس ذلك الهرم الاقتصادي وزارة تشرف على تنظيم نشاط تلك النقابات والجمعيات المهنية، ووزيرها موسوليني نفسه[٧٢٣]. وكان يفترض بهذه

---

(٧٢٠) المرجع السابق (ص ٣٣٥).

(٧٢١) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٣٦).

(٧٢٢) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٨٨).

(٧٢٣) المرجع السابق (ص ٢٨٩).

الدولة النقابية أن تعطي الأفضلية للمصلحة العامة على المصالح الخاصة، إلا أنها عملت في الواقع على تثبيت اللا مساواة لصالح أرباب العمل، وذلك رغم إقرارها المساواة النظرية فيما بين (الفرقاء الاجتماعيين). ووجدت الفاشستية أفضل التأييد في الطبقات الوسطى ولدى الفلاحين الذين شكلوا معظم جيوش المحاربين القدامى[٧٢٤]. وأتاح بعض النجاح الاقتصادي الذي برز بشكل زيادة في الإنتاج وانخفاض في البطالة لموسوليني أن يقوم بمشاريع كبرى، فقد مدّ جسورا لمسافة ١٤,٠٠٠ كم وطرقا لمسافة ١٢,٠٠٠ كم وأقام الأوتوسترادات الأولى في أوروبا وأدخل الكهرباء على السكك الحديدية. إلا أن الأهم من ذلك كان قيامه باستصلاح الأراضي، فمنذ عهد يوليوس قيصر والإيطاليون يوعدون باستصلاح الأراضي البور، ولكن هذا لم يحدث إلا في عهد موسوليني، ففي أربعة أعوام أنفق ٦٧ مليون ليرة واستصلح ٢ مليون فدان من الأرض[٧٢٥]، وحفر الترع والمصارف وبنى ٦٢١ محطة كهرباء، ثم وصلت الأراضي المستصلحة إلى ١٠ مليون فدان، فقد وزع الأراضي على الشباب وأمر كل من لديه أرض بجوار أرضه أن يحاول استصلاحها، وكان موسوليني بنفسه يشترك في هذه الإجراءات، فكان أحياناً يرتدي ملابس عامل وربما كان عاري الصدر ممسكاً بفأسه يحفر الأرض بنفسه، أو يشارك في الحصاد ودرس القمح[٧٢٦]. وكل هذه الأفعال قرّبته من الفلاحين لأنها كانت دليل اهتمام بهم لم يعهدوه من قبل، و كان موسوليني يقول: في إيطاليا مستصلحة، أي فاشستية هناك مكان وخبز لعشرة ملايين إيطالي آخر[٧٢٧]. وتدخلت الدولة الفاشستية رغبة منها في التوصل إلى اقتصاد ذي اكتفاء ذاتي في الاقتصاد، ووجهته بصورة متزايدة وشددت من رقابتها على أجهزة الإنتاج - شركات الملاحة، والمنشآت البحرية، والصناعات التعدينية، وأبقت على الملكية الخاصة واقتصاد السوق، و جعلت الأرباح من نصيب القطاع الخاص، أما الخسائر فجُعلت مشتركة. وألغيت مراقبة الأسعار

(٧٢٤) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٣).

(٧٢٥) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٣٣).

(٧٢٦) المرجع السابق (ص ١٣٣).

(٧٢٧) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٣).

والأجور السكنية ولم تؤمم شركات التأمين، وأعيد صنع أعواد الثقاب والشبكة التليفونية إلى القطاع الخاص، وأثناء الأزمة الاقتصادية العالمية أمدّت الدولة المصارف التي كانت تعاني من مصاعب بالعون وبإقدامها على شراء الأسهم الصناعية التي هي في حيازتها، ساعدت على التجمع والاندماج[٧٢٨]. وتمسك موسوليني بالأخلاق فأغلق ٢٥ ألف حانة كانت تقدم للناس المتع الرخيصة مثل الخمر والزنا، وأشاد بفضائل الرجولة والخشونة والقيم الريفية الأصيلة[٧٢٩]، ولم تعدم الفاشستية يوماً تأييد الكنيسة وفي اتفاقية (الكونكوردا) Concordat فرضت الكنيسة على الدولة أحكامها فيما يتعلق بالزواج وبالتعليم الديني وأصبح الملحد موسوليني (رجل العناية الإلهية) وبالنسبة إلى الأساقفة الإيطاليين، أصبحت حرب الحبشة حرباً صليبية وتمنى البابا بيوس الحادي عشر أن تتحقق أماني واحتياجات ومطالب شعب طيب وعظيم وأن تُضمن حقوقه.

وفي سنة ١٩٢٧ قارن الكاردينال شوستر موسوليني بأوغسطس قيصر وذلك أثناء افتتاح محاضرات (الفاشيست المتصوفين) باعتبارهم منقذي الدولة، ومؤسسي الإمبراطورية[٧٣٠]. وفي سنة ١٩٣٢ أدخل موسوليني في عقيدة الفاشستية مبدأ الحرب عمداً لأنه يشحذ همم البشر وطاقاتهم إلى أقصى حدّ ويطبع الشعوب التي تجرؤ على مواجهتها بطابع النبالة. وأعلن الدوتشي أن الفاشستية ليست مادة للتصدير وحاول أن يفرضها على الإيطاليين ثم على الأراضي المحتلة خلال الحرب العالمية الثانية. ووجهت الفاشستية اهتمامها إلى الشباب المدربين على يدها، من أجل رفع الحياة الوطنية إلى مستوى الإمبراطورية الإيطالية التي كان ينشدها موسوليني، وتمّ اعتماد الكتاب الواحد في المدرسة الابتدائية، وكان على المعلمين ابتداء من سنة ١٩٣١ أن يعطوا الدروس وهم مرتدون البزة العسكرية الفاشستية، وكانت الرياضة بأشكالها والإعداد العسكري يشكلان أساس التعليم الرسمي، وفي

---

(٧٢٨) المرجع السابق (ص ٤٤).

(٧٢٩) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٣٣).

(٧٣٠) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٤).

كل سنة ومن أجل إحياء ذكرى المسيرة نحو روما كانت تقام مسيرة طويلة تنتهي باستعراض عشرات الألوف من الشبان من أجل إظهار عنفوانهم الحربي[٧٣١]. وبدت الفاشستية كمعلمة وثقافتها تتمثل في الخلقية والأسلوب اللذين يمكنان الفرد من تحقيق ذاته بالالتحام دون تحفظ بالجماعة، ويبيّن المؤرخ فولبي Volpe أن الفاشستية تتجاوب مع عبقرية إيطاليا وتحيي ماضيها باستمرار، وعلى العموم وانطلاقاً من عام ١٩٢٥ أخذ المثقفون الإيطاليون يبدون استياءهم من الفاشستية، ومع ذلك عرفت الفاشستية تأييداً شبه شامل حتى الانكسارات العسكرية الأولى في اليونان في تشرين الأول ١٩٤٠ والشيء الذي أظهر قوتها وتماسكها هو ضعف المعارضة[٧٣٢]، والواقع أن الفساد كان يسري في جسم النظام الاجتماعي الإيطالي كله من جراء التأثير الفاشي الذي كان ينخر فيه كما ينخر السوس[٧٣٣]، ولم تأت سنة ١٩٤٠ إلا والبنيان كله كان قد انتابه الوهن والفساد. فجاءت الانكسارات العسكرية محصلة للضعف الذي كان يختفي تحت ستار العظمة الزائفة. لقد أخذت الفاشستية الإيطالية مدة خمس وعشرين سنة كي تولد وتنمو وتموت، ولهذا فقد طبع جيل كامل من الإيطاليين بها[٧٣٤].

سقوط موسوليني

أثارت الفاشستية النزعة القومية لدى الإيطاليين، وعمل الدوتشي على إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية الغارب، وكان يقول: روما كلمة سحرية ملأت التاريخ طيلة عشرين قرناً[٧٣٥]. إلا أنه كان يعلم أن إيطاليا بإمكاناتها المتواضعة لا يمكنها أن تحيي تلك الأمجاد. لذلك وضع نصب عينيه أن تكون لإيطاليا قوة برية وبحرية وجوية تتناسب مع آماله الكبيرة، ولهذا وضع جميع القوات المسلحة تحت سيطرته

(٧٣١) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٧).

(٧٣٢) المرجع ذاته (ص ٤٧).

(٧٣٣) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٣٦).

(٧٣٤) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٨).

(٧٣٥) المرجع ذاته (ص ٣٦).

منذ سنة ١٩٢٣[٧٢٦]. وأعلن عن مطامحه التوسعية وأطلق شعار الدول الشعبية التي تحرمها الدول الغنية لقمة العيش من الفم، وطالب بتوزيع أعدل لثروات العالم، وكان يهدف من وراء إنشاء إمبراطورية استعمارية تزويد إيطاليا بالمواد الأولية من الخارج، وتصريف الزيادة السكانية الكبيرة فيها، وسعت إلى التحالف معه على حد سواء الديمقراطيات الغربية وألمانيا النازية[٧٢٧]. ورأى موسوليني أن يتخذ عدته لتدعيم قوة إيطاليا في شرق أوروبا. ففي عام ١٩٢٣ ضمّ جزر الدوديكانيز، وفي سنة ١٩٢٤ استولت إيطاليا على فيوم Fiume ، ثم عقد عدة معاهدات للصداقة والحياد وبعض الاتفاقات التجارية مع عدد من حكومات وسط وشرق أوروبا. وبعد عام ١٩٢٨ بدأت إيطاليا في تدعيم صداقتها مع ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا وتركيا، بينما ساءت علاقاتها بفرنسا وبولندا. وفي الاحتفال بالذكرى التاسعة للزحف على روما (١٩٣١) أعلن موسوليني أن إيطاليا تؤيد ضرورة إعادة النظر في مسألة تعويضات الحرب وديونها وضرورة نزع التسلح وإعادة النظر في معاهدات الصلح لمصلحة الدول الوسطى وإيطاليا[٧٢٨].

والواقع أن إيطاليا حاربت مع دول الوفاق في الحرب العالمية الأولى ولكن دول الوفاق حرموها من غنيمة الحرب ولم يعطوها شيئا، بل تقاسمت إنجلترا وفرنسا المستعمرات في آسيا وإفريقيا بينهما مناصفة. وفي عام ١٩٣٢ طالب وزير الخارجية الإيطالية (جراندي) Grande بضرورة الإسراع في إعادة توزيع الاستعمار في شمال إفريقيا. وقد حاولت الدول الاستعمارية ـ إنجلترا وفرنسا ـ تهدئة إيطاليا فدعتها إلى الاشتراك في الحكومة الدولية التي تحكم مدينة طنجة وهي مدينة حرة على ساحل مراكش الغربي، إلا أن موسوليني لم يقتنع بهذا العرض، وفكر عام ١٩٣٤ في غزو الحبشة وذلك كإضافة للأمجاد الإيطالية وللثأر من غزوة قديمة فاشلة لإيطاليا عام ١٨٩٦ وظهر الامتعاض في إنجلترا وفرنسا حيث لمحت كلتاهما عن

(٧٢٦) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٩٠).

(٧٢٧) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٠).

(٧٢٨) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٩١).

إمكانية توقيع عقوبات على إيطاليا إن هي أقدمت على غزو الحبشة على اعتبار أن الحبشة عضو في عصبة الأمم. ومن سخرية الأقدار أن إيطاليا هي التي طالبت بضمّ الحبشة إلى عصبة الأمم وذلك كمحاولة لإعاقة السيطرة الإنجليزية المنتظرة هناك[٧٣٩]، ولكي تأمن إيطاليا شرّ فرنسا مؤقتاً عقدت معها ميثاقاً في روما في كانون الثاني ١٩٣٥ وبمقتضى هذا الميثاق الذي عقد بين موسوليني ولافال، تنازلت فرنسا لإيطاليا عما يقرب من ٤٥,٠٠٠ ميل مربع من الأراضي المتاخمة لليبيا، وعن جزء صغيرٍ من الصومال الفرنسي المتاخم لإريتريا، و بذلك اكتسب الإيطاليون نصيباً كبيراً من صحراء شمال إفريقيا، واكتسبوا ممراً يوصلهم إلى عدن، كما منحت إيطاليا نصيباً في السكك الحديدية الفرنسية التي تصل أديس أبابا عاصمة الحبشة بميناء جيبوتي قاعدة الصومال الفرنسي، واتفق لافال مع موسوليني في ملحق سري للميثاق على أن تطلق فرنسا يد إيطاليا في التوسع في الحبشة كما تشاء[٧٤٠]. ووجد موسوليني الفرصة سانحة، فهاجمت القوات الإيطالية الحبشة واستطاعت بعد سبعة أشهر من ابتداء الهجوم أن تدخل العاصمة الحبشية أديس أبابا وذلك في أيار ١٩٣٦ / وما أن فعلت إيطاليا ذلك حتى دمغتها خمسون أمة مجتمعة باسم عصبة الأم (بالأمة المعتدية) ونفذت ضدها عقوبات اقتصادية[٧٤١]. إلا أن العقوبات لم تكن مؤثرة من الناحية الاقتصادية، وبالتالي غير رادعة، بل أنها استفزت الشعب الإيطالي وجعلته يقف كالبنيان المرصوص خلف زعيمه[٧٤٢]. وفي هذا الوقت بلغت عبادة الزعيم ذروتها. وعملت الصورة الحربية للدوتشي المعتمر بالخوذة، الملصوقة على الجدران في إيطاليا على إبرازه وكأنه دائماً على حق[٧٤٣]. وأعلنت إيطاليا رسمياً ضمّ الحبشة، كما أعلنت خروجها من عصبة الأمم عام . ١٩٣٧ وقد صدر مرسوم بتوحيد الحبشة وإريتريا والصومال الإيطالي وسميت

---

(٧٣٩) ياسر حسين - هتلر وتزوير التاريخ (ص ٧٢).

(٧٤٠) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٩٢).

(٧٤١) عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (ص ٣٤١).

(٧٤٢) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٢٨).

(٧٤٣) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٠).

جميعها باسم (أفريقيا الإيطالية الشرقية). وبعد أن انتهت حرب الحبشة ازداد التقارب بين إيطاليا وألمانيا فعقد بينهما الميثاق ضد الشيوعية ثم الحلف الفولاذي الذي أطلق عليه موسوليني اسم (المحور) [٧٤٤]. واشترك هتلر وموسوليني في دعم الملكيين بإسبانيا ضد الجمهوريين والشيوعيين وأعلن موسوليني بأن كل جندي شيوعي ستطأ قدمه أرض إسبانيا سيقابله مئة إيطالي [٧٤٥].

وحاول رئيس وزراء إنجلترا تشمبرلين إبعاد إيطاليا عن طريق ألمانيا فعقد اتفاقاً مع إيطاليا في نيسان ١٩٣٨ يعترف به باحتلال إيطاليا للحبشة. وكذلك باحتلال إيطاليا لجزر البليار لمساعدة ثورة فرانكو Franco في إسبانيا. ولكن كل هذا جاء بعد فوات الأوان، بل أنه أتى بنتيجة عكسية، إذ أيقن الشعب الإيطالي أن موسوليني يستعيد حقوق إيطاليا كدولة استعمارية ظلمت ولم تأخذ حقها من غنيمة الحرب الأولى [٧٤٦]. وبدأ موسوليني يظهر عدم اهتمامه بحماية النمسا ضد الزحف الألماني، ثم وافق ألمانيا على ضرورة إعادة مستعمراتها لها. وفي سنة ١٩٣٨ أيد ألمانيا في حركتها الفجائية التي انتهت بضمّ النمسا، وفي سنة ١٩٣٩ اعترف بما قامت به ألمانيا من ابتلاع بوهيميا ومورافيا وضم منطقة (ميمل). وفي نفس العام أتمّ عقد التحالف العسكري الرسمي المنشود مع هتلر [٧٤٧].

ومن ذلك الوقت ازداد صياح الإيطاليين بضرورة ضمّ تونس مدعين أن عدد الرعايا الإيطاليين فيها يزيد حوالي ٢٠,٠٠٠ نفس عن عدد الفرنسيين هناك وأن السلطات الفرنسية تضطهد الإيطاليين هناك، وتفرض عليهم التجنس بالجنسية الفرنسية، ثم تعالت الصيحات الفاشستية بضرورة ضمّ كورسيكا التي ابتاعتها فرنسا من جنوه في عام ١٧٦٨ وضم سافوي ونيس اللتين استولت عليهما فرنسا في معاهدة ١٨٦٠، وظلت فرنسا ثابتة أمام العواصف الإيطالية [٧٤٨]، وردّت الحكومة

---

(٧٤٤) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٩٣).

(٧٤٥) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٢٩).

(٧٤٦) المرجع السابق (ص ١٢٩).

(٧٤٧) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٩٤).

(٧٤٨) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٢٩٤).

الفرنسية بأنها لن تتنازل عن شبر واحد من أراضيها.

وكانت إيطاليا تطمع - عندما عقد مؤتمر الصلح - في أن تكون ألبانيا من نصيبها عن طريق الانتداب، إلا أن الرئيس الأمريكي ولسن Wilson عارض في ذلك وطلب من الألبانيين أن يعملوا على تكوين حكومتهم المستقلة عن كل الدول.

في أوائل عام ١٩٢٥ أعلنت في ألبانيا جمهورية وأصبح أحمد زوغو رئيساً لها، ورأى أحمد زوغو أن يوثق علاقاته الاقتصادية بإيطاليا، و انتهزت إيطاليا الفرصة للتدخل في شؤون ألبانيا الداخلية فأسست البنك الأهلي الألباني وأقرضت حكومة زوغو ما طلبته من المال وأخذت بالتدريج تعمل على التدخل في شؤون ألبانيا. وشعرت ألبانيا بالخطر الذي حاق بها، وحاول زوغو أن يتملص من السيطرة الإيطالية. ولما شعرت إيطاليا أن ألبانيا تسعى إلى الإفلات من قبضتها، أقدم موسوليني على إرسال حملة كبيرة على ألبانيا، فاحتلت عاصمتها تيرانا في ٨ نيسان ١٩٣٩ وأعلنت إيطاليا ضمّ ألبانيا إليها[٧٤٩].

وعلى الرغم من الاتفاق الإيطالي الألماني على اشتراكهما سوياً في الحرب في حالة بدئها، إلا أن الدوتشي تخلى عن هتلر في اللحظة الأخيرة قبل غزو ألمانيا لبولندا (أيلول ١٩٣٩) لأنه كان يعتقد أن إيطاليا لن تكون مستعدة لحرب عالمية قبل عام ١٩٤٣ حيث أن إمكانيات إيطاليا ضعيفة إذ يتكون جيشها من ٦٧ فرقة ٣٣ منها غير مستعدة للاشتراك في عمليات عسكرية و ١٨ منها خارج إيطاليا وفرقتان مدرعتان فقط و ٨٠٠ طائرة كما أنها بحاجة لاستيراد الفحم والحديد والمنغانيز والأسمدة، ولو أغلق مضيق جبل طارق بسبب الحرب فستكون ثمة أزمة كبيرة في هذه المواد، وكان موسوليني يعتقد أنه بإمكان إيطاليا بحلول عام ١٩٤٣ أن تحقق الاكتفاء الذاتي من أغلب هذه المواد[٧٥٠]. إلا أن الانتصارات الكبرى التي حققها هتلر في بولندا والدنمارك والنرويج وفرنسا أغرت موسوليني فأعلن الحرب على كل

(٧٤٩) المرجع السابق (ص ٢٩٧).

(٧٥٠) ياسر حسين - ٢٤ شخصية هزت البشرية (ص ١٣١).

من فرنسا وإنجلترا رغم الشكوك التي كانت لا تزال تساور قواده ومستشاريه، ولكنه كان حريصاً على اقتسام الغنيمة مع هتلر[٧٥١]. وطمح موسوليني إلى أن يقوم (بحربه المتوازية) في المتوسط، ولكن سرعان ما جعلته الانكسارات العسكرية - في إفريقيا واليونان - تابعا لهتلر[٧٥٢].

وبسبب ضعف الأسطول الإيطالي تمكنت قوات الحلفاء من الإنزال في صقلية في ١٠ تموز ١٩٤٣ ودخلت عاصمتها باليرمو. واشتد السخط على الدوتشي الذي انتهى كقائد وزعيم وطلب نفر من كبار الملكيين المحافظين وبعض الفاشستيين المعارضين إلى الملك أن يضع حداً لموسوليني بعزله والقبض عليه، واستجاب الملك لهم في الحال وعيّن الملك عوضاً عنه المارشال بادوجليو Badoglio ، وحاول هذا الاتصال بالحلفاء لتوقيع هدنة معهم، إلا أن الحلفاء أصروا على التسليم دون قيد أو شرط قبل أن يوقعوا الهدنة مع الحكومة الإيطالية الجديدة. وقبل بادوجليو بشروط الحلفاء، وعند ذلك دفع هتلر بسيل من قواته عبر ممر برنر Berenner ليمنع حليفته من خيانة ألمانيا، وقام الحلفاء بإنزال قواتهم في إيطاليا وتمكن الألمان من تخليص موسوليني من الأسر في عملية طيران جريئة في ١٢ أيلول ١٩٤٣[٧٥٣]. والتجأ موسوليني إلى سالو، حيث أسس جمهورية عرفت بجمهورية (سالو) Salo وأخذ يؤكد أنه سوف يعود إلى اشتراكية شبابه ولم يعد إلا مجرد تابع للألمان، وأصبح أتباعه قلّة نادرة وتخلى عنه الجميع فأوقف من جديد عام ١٩٤٥ وقتل وعلق جسده من رجليه وترك للبصاق من قبل نفس الجماهير التي كانت تبخره[٧٥٤].

---

(٧٥١) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٣٩٧).

(٧٥٢) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٠).

(٧٥٣) عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة (ص ٤٣٩).

(٧٥٤) هنري ميشال - الفاشستيات (ص ٤٢).

المصادر والمراجع

١. القرآن.

٢. الكتاب المقدس.

٣. ابن هشام – السيرة النبوية – أربعة أجزاء – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

٤. ابن كثير – البداية والنهاية – أربعة عشر جزءاً – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٥. ابن عبد ربه – العقد الفريد – ثمانية أجزاء – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٦. ابن عبد البر – الاستيعاب – دار الفكر – بيروت

٧. ابن قتيبة الدينوري – الإمامة والسياسية – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

٨. أبو الفرج الأصفهاني – مقاتل الطالبيين – مؤسسة الأعلمي – بيروت.

٩. أحمد أمين – ضحى الإسلام – ثلاثة أجزاء – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان.

١٠. أحمد أمين – زعماء الإصلاح في العصر الحديث – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان.

١١. الدكتور أدونيس العكرة – ظاهرة الإرهاب السياسي – دار الطليعة – بيروت – لبنان.

١٢. أرسطو طاليس – الأخلاق – حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوي – وكالة المطبوعات – الكويت

١٣. السيوطي – تاريخ الخلفاء – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

١٤. المسعودي – مروج الذهب – أربعة أجزاء – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

١٥. الدكتور أسعد القاسم – أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة – دار المصطفى لإحياء التراث – قم – إيران.

١٦. الشربيني – مغني المحتاج – دار الكتب العلمية – بيروت.

١٧. أفلاطون – الجمهورية – ترجمة حنا خباز – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان.

١٨. الدكتور إمام عبد الفتاح إمام – الطاغية – منشورات سلسلة المعرفة – الكويت.

١٩. أوروسيوس - تاريخ العالم - تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - لبنان.

٢٠. باقر ياسين - تاريخ العنف الدموي في العراق - دار الكنوز الأدبية - بيروت - لبنان.

٢١. بيغوليفسكايا ((نينا)) - ثقافة السريان في القرون الوسطى - ترجمة خالد الجراد - دار الحصاد - دمشق - سوريا.

٢٢. الدكتور توفيق الطويل - قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام - الزهراء للإعلام العربي - القاهرة - مصر.

٢٣. جمال بدوي - الطغاة والبغاة - دار الشروق - القاهرة - مصر.

٢٤. الدكتور جمال حمدان - شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكن - خمسة أجزاء - عالم الكتب - القاهرة - مصر.

٢٥. جواد صيداوي - الطغاة في التاريخ - دار الجديد - بيروت - لبنان.

٢٦. جيبون ((إدوارد)) - اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها - ثلاثة أجزاء - ترجمة لويس اسكندر - دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

٢٧. حسين مروة - النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية - دار العودة - بيروت - لبنان.

٢٨. ديورانت ((ول)) - قصة الحضارة - ستة وثلاثون جزءاً - ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ومحمد بدران وآخرون - الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية.

٢٩. ديورانت ((ول)) - قصة الفلسفة - ترجمة فتح الله محمد المشعشع - مكتبة المعارف - بيروت - لبنان.

٣٠. دونكر ((هرمان)) - البيان الشيوعي - ترجمة عصام أمين - دار الفارابي - بيروت - لبنان.

٣١. دي فونتيت ((فرانسوا)) - العنصرية - ترجمة الدكتور عاطف علبي - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - لبنان.

٣٢. الدكتور رمسيس عوض - الإلحاد في الغرب - مؤسسة الانتشار العربي - بيروت - لبنان.

٣٣. الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا العصور الوسطى - مكتبة الأنجلو المصرية.

٣٤. سوبول ((البير)) تاريخ الثورة الفرنسية - ترجمة جورج كوسا - دار عويدات - بيروت - لبنان.

٣٥. ستالين ((جوزيف)) - أسس اللينينية - دار الينابيع للنشر والتوزيع - دمشق - سوريا.

٣٦. سبريغ ((سي)) - ماركس - ترجمة فاطمة الخليل - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - لبنان.

٣٧. الدكتور شوقي الجمل والدكتور عبد الله عبد الرزاق - تاريخ أوروبا - المكتب المصري لتوزيع المطبوعات - القاهرة - مصر.

٣٨. شوفاليه ((جان جاك)) - تاريخ الفكر السياسي - ترجمة محمد عرب صاصيلا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - لبنان.

٣٩. الدكتور عبد الأمير دكسن - الخلافة الأموية - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان.

٤٠. الدكتور عبد الرحمن بدوي - ربيع الفكر اليوناني - دار القلم - بيروت - لبنان.

٤١. الدكتور عبد الرحمن بدوي - فلسفة العصور الوسطى - دار القلم - بيروت - لبنان.

٤٢. الدكتور عبد الرزاق السنهوري - فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية - ترجمة الدكتورة نادية السنهوري - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٤٣. عبد الرحمن الكواكبي - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد - دار النفائس - بيروت - لبنان.

٤٤. الدكتور عبد الحميد البطريق - التيارات السياسية المعاصرة - دار الفكر العربي - القاهرة - مصر.

٤٥. الدكتور عبد الحميد البطريق والدكتور عبد العزيز نوار - التاريخ الأوروبي الحديث - دار الفكر العربي - القاهرة - مصر.

٤٦. الدكتور عبد المنعم ماجد - التاريخ السياسي للدولة العربية - مكتبة الأنجلو المصرية.

٤٧. الدكتور ع ع - تراث العبيد في حكم مصر المعاصرة - المكتب العربي للمعارف - القاهرة - مصر.

٤٨. الدكتور عصمت سيف الدولة - الاستبداد الديمقراطي - دار المستقبل العربي - بيروت - لبنان.

٤٩. علي عبد الرزاق - الإسلام وأصول الحكم - المؤسسة العربية للدراسات - بيروت.

٥٠. الدكتور عمر عبد العزيز عمر ومحمد علي القوزي - دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان.

٥١. ليبمان ((مارسيل)) اللينينية في ظل لينين - ترجمة كميل داغر - دار الحصاد - دمشق - سوريا.

٥٢. فراس السواح – لغز عشتار – دار علاء الدين – دمشق – سوريا.
٥٣. محمد علي قطب – محارق ومذابح محاكم التفتيش في الأندلس – مكتبة القرآن – القاهرة
٥٤. محمد بن جرير الطبري – تاريخ الأمم والملوك – اثنا عشر جزءاً – مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر – بيروت – لبنان.
٥٥. ميشال ((هنري)) – الفاشستيات – ترجمة الدكتور علي مقلد – المنشورات العربية – بيروت – لبنان.
٥٦. هتلر (٠أدولف)) – كفاحي – ترجمة لويس الحاج – دار طلاس – دمشق.
٥٧. هروود ((بيرنهاردت ج)) – تاريخ التعذيب – ترجمة ممدوح عدوان – دار الجندي للنشر والتوزيع – دمشق – سوريا.
٥٨. وولف ((فرانسيس)) – أرسطو والسياسة – ترجمة أسامة الحاج – المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع – بيروت – لبنان.
٥٩. ياسر حسين – هتلر وتزوير التاريخ – مركز الراية للنشر والإعلام – القاهرة – مصر.
٦٠. ياسر حسين – ٢٤ شخصية سياسية هزّت التاريخ – مركز الراية للنشر والإعلام – القاهرة – مصر.
٦١. الكتاب الأسود عن الشيوعية – مجموعة من الباحثين.
٦٢. الدكتور محمد عابد الجابري – نقد العقل العربي ٣ –العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته. مركز دراسات الوحدة العربية ط٤ – بيروت ٢٠٠٠
٦٣. الدكتور محمد عمارة – الإسلام وفلسفة الحكم . المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ط٢ ١٩٧٩
٦٤. الدكتور محمد عمارة – الإسلام والسلطة الدينية. المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ط٢ ١٩٨٠.

صدر للمؤلف

- ذاكرة من أحزان - دار الأهرام - القاهرة
- ناي الجسد - دار الفجر - أبو ظبي
- وهج الآنثى - دار أخبار اليوم - القاهرة
- مدائن من رماد - دار أخبار اليوم - القاهرة
- سفود الجماجم - دار أخبار اليوم - القاهرة
- تيه الثرى - دار الفجر - أبو ظبي
- رعشة الاطيار - دار الفجر - أبو ظبي



محمد خليفة

وشل الطغيان

■ وشل الطغيان رحلة مضنية، تستجلي مظاهر الاضطهاد وضروب العسف التي مارسها الإنسان - باسم السلطة وأنظمتها السياسية - ضد أخيه الإنسان في مختلف الأمم والحضارات منذ ما قبل التاريخ حتى منتصف القرن العشرين: بصورة أستطاعت فيها عبقرية الكاتب، وهي تعرّى أساليب الطغاة والمستبدين في كل مرحلة من مراحل التاريخ، وتعد كل أمة من الأمم، أن تبعث أمل الأنسان في قيام حضارة الحب والسلام والحرية والعدل.. ومحمد خليفة تتنوع أشكال الكتابة لديه من العمود الصحفي الممتع المقنع، إلى القصة الأدبية كما في «مدائن من رماد» و«رعشة الأطيار. إلى القصيدة الشعرية كما في «تيه الثري» و«وهج الأنثى»، إلى الكتابة السياسية الرمزية كما في «سفود الجماجم»، إلى البحث التاريخي الموثق في «وشل الطغيان»، لكن القاسم المشترك بين هذه الكتابات هو ذلك الخيط السمفوني المعقد الذي يصفه البعض «بالأسلوب» تبسيطاً، وينعته آخرون «بعبقرية الكتابة»، هو تلك القيم الإنسانية الرفيعة التي تسكن الكاتب، وترفض إلا أن تتسرَّب عبر الكلمات والجمل والصور، قيم الحب والحرية، وأمل الإنسان المريد في عالم يتحقق فيه السلام والحب، وتنتهي منه كل مظاهر الظلم والكراهية والاستعباد.

الناشر





القاهرة ت: ٢٤٠١٧٤٤ (٢٠٢)